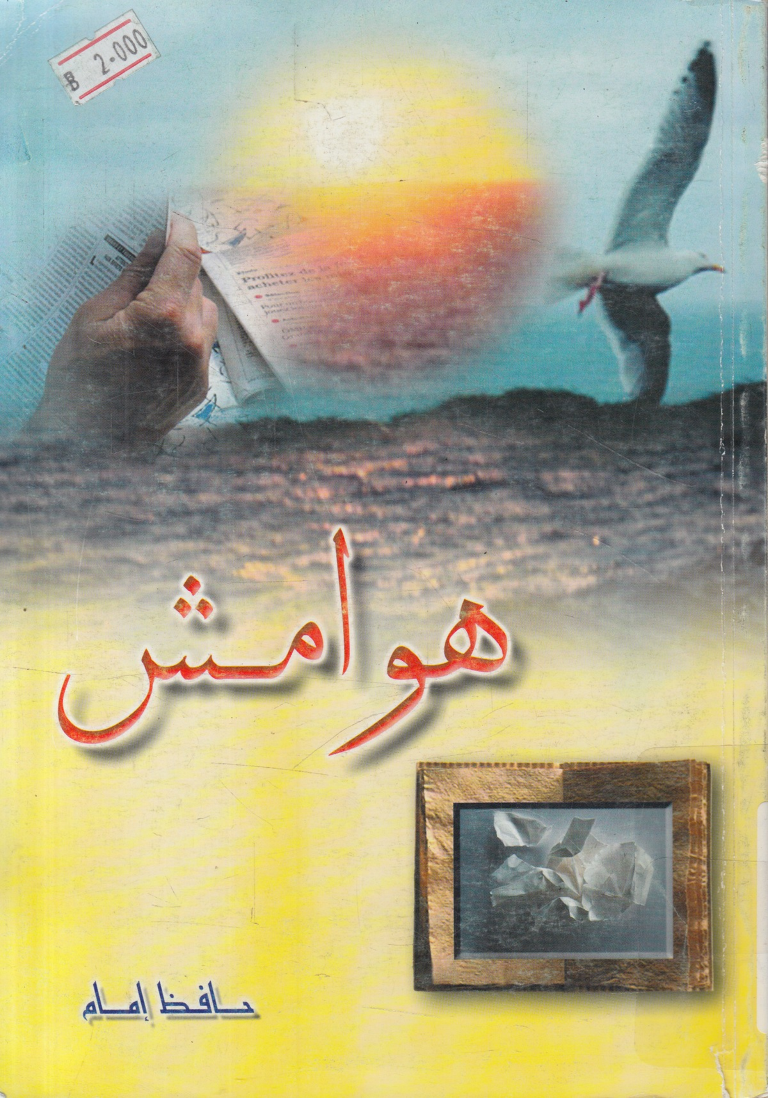

B 2.000
هوامش
حافظ إمام

هوامش

حافظ إمام

إهـــــداء

هذه السطور عصارة حياتي، غمستها في وجداني ورعاها عقلي ثم عبر عنها قلمي.. نظـرات.. إنها زفرات.. آهات وعبر.. فيض رأي .. بعض من موقف.. على الهامش.. والمتون.. لكنه تحشيه على مضمون الحياة وصفحاتها الطويلة.. العريضة..

ولأن هذه السطور فيض نفسي فإنني أهديها هكذا بكاملها.. بمالها وما عليها إلى الربان الماهر لسفينة البحرين.. رجل الدولة المتميز السياسي المحنك .. الذي نعمت في ظل رعايته ـ بعد الله ـ بطيب اقامة وحسن معاملة ..وفيض كرم في هذه الديار الكريمة.. البحرين.

أهدى هذا السفر المتواضع إلى صاحب السمو الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة رئيس الوزراء الموقر داعيا المولى عز وجل أن يحفظه عوناً وذخراً لهذا الوطن الآمن المطمئن المزدهر بالخير والبناء والرخاء.

المؤلف

تقديـــم
متون وهوامش
على سفر الحياة

الكتب والمتـون لابد لها من شروح.. لـذلك كان للمتـون والكتب هوامش.. وهـذه الهوامش لا تمس جوهر المكتـوب أو المنظوم وان زادت في الكشف عن مضمـونـه وإضـاءة جـوهـره وسبر أغـوار مكنونه لتوضح مـا عمي من الفاظ أو ما خفي من معان لا تستقيم بدونها العبـارة ويكتنفها الغمـوض.. الغموض ليس مطلـوباً فيما نقرأ وفيما يجب أن نعـرف لذلك فإن للحيـاة مثلما للكتب هوامش تضيء معالمهـا وتبين طرائفهـا وتكشف غموضهـا من أجل إجلاء معانيها وجوهرها وتبيان بعض حقائقها ليس في مسارها العام أو حتى مجمل جـوانبها ولكن من خـلال بعض التفصيلات الصغيرة التي تفصح عنها ذكريات ومعان وأفكار.

ولقد أردت أن اختـار لهذا الكتاب عنوان هوامش لأن مضمـونه هو من قبيل الشرح على متن أو سفر الحياة مجرد وقفات عندها.. أمام محطـات فيها تمور بـالتفاصيل وتعج بـالذكـريات.. تفيض بالمعانـي التي تكشف عن الخافي من أمـور مع الحياة.. مع الناس فى أدق العلاقـات والوقفات والتأمـلات التي قد يأخـذ بعضها منحى خاصاً.. لكنه في النهـاية يخرج من الخاص إلى العام فإذا هو يتصل بـالحيـاة، ويتواصل معهـا آخـذاً من الماضي اكثـره ومن الحاضر

بعضه متأملاً المستقبل مستشرفاً آفاقه في وقفة عمل.. وأمل ورجاء.

إن هذه الهوامش ليست تهميشا للحياة بقدر ما هي تأصيل لها في محاولة لإجلاء جوهرها وإزاحة بعض غلائل من التراب قد تراكمت عليها أو لحقت بها فطمرت بعض حقائقها البديهية أو جَهّلَتْ معانيها أو لعلها سترت معاني الجمال والجلال فيها.

ولا أدعي في هذا المقام انني نجحت في إزاحة الستار عن جوانب مما دار أو يدور فوق خشبة مسرح الحياة لكنها مجرد محاولة على الطريق.. والطريق كان طويلاً وقد يطول سواء بقيت في العمر بقية أم آذنت الرحلة بنهايتها..

إنها سطور مكتوبة بخبرة الحياة وبمدادها.. نخلفها وراءنا علها قد تفيد وان لم تصل بفائدة إلى القراء فإنه يبقى لي منها جهد المحاولة على درب حياة طويلة امتدت وستمتد طويلاً بعد جيل والله من وراء القصد.

المؤلف

حافظ إمام

هوامش
الصحافة ولعبة
شـد الحبــل

لعبةشد الحبل بين الصحافة في مصر والسلطة التنفيـذية لعبة قديمة تشكل صراعاً بين صـلاحيات سلطتين ـــ هـذا إذا اعتبرنـا ان الصحافـة في النظم الـديمـوقـراطية أو شبـه الديمقراطية ـ سلطة رابعة كما يقـولون أو سلطة رابعة بفتح حرف السين كما يتندرون.. والتعديـل الذي أدخل على القـانون أخيراً فأثـار الضجة والغضب في الأوسـاط الصحفية والذي قضى بجـواز حبس الصحفي احتياطياً عن خبر أو موضـوع ينشره دون ان يكون مدعماً بـالوثائق والأسانيـد هو أمر من الأمـور التي تدخل في أصول لعبـة شد الحبل بين السلطتين ـ هذا إذا كان للعبة أصول ـ لماذا؟

لأن هذا التعـديل سيجعل من الصحفي إنسانا مـرتجف القلم مرتعش الفكر هيـاباً من الخوض فيما يجب ان يخوض فيه من أمـور وشئون بلده، فهو سـوف يحتاج إلى مسجل ليوثق ما يدور بينه وبين مصدره بل ربما احتاج إلى شهادة الشهود العدول كما في المحاكم وديوان المظـالم.. ثم عليه مساندة ذلك كلـه بالوثـائق والحقائق.. وهذا أمر يـدخل في باب المستحيلات.

والواقع أن سحب بساط الأمان من تحت أقـدام الصحفي مذهب قديم.. وسلاح سقيم له تـاريخ ما أهملـه التاريخ قبـل الثورة المصريـة، وبعدها طبعـاً، قبل الثورة كـان حبس الصحفي احتياطيـا رهنا بإقدامـه على العيب في الذات الملكية.. أمـا ما خلا ذلك فـالحساب مؤجل.. والحبس الاحتيـاطي لا يتم دون علم النقابة ودون وقوفهـا إلى جانب الصحفي.. وبين هذا وذاك إجراءات وإجراءات.. قوانين ومحاكمات.. لقـد كانت الصحافة في مصر من أولى الصناعات الوطنية التي تواكبت مع نشأة صناعة السينما، وكان تأثيرها واضحا على حركة الجماهير، وهي التي مهدت لثورة ٢٣ يوليو.

وفي عهود تلت.. كـان الله في عـون الصحافـة والصحفيين عندمـا صدر قانـون تأميم الصحافة وأيلولة نقابـة الصحفيين ومعها الصحف الى الدولة، وتحولها الى مجرد هيئات متفرعـة عن الاتحاد الاشتراكي الحزب الواحـد الذي كـانت تتناوشـه الاتجاهات والآراء والتيارات الفكرية المتباينة من آن إلى آخر وكلهـا تدور وجودا أو عدماً مع السلطة وتسعى

إلى رضـاهـا. واحتل الضبـاط الأحرار وغير الأحـرار الصحف وتـولـوا رئاسـة مجالس إداراتها.

وسقط الصحفيون المحترفون إلى قاع هذه المؤسسات.. هم الذين يعملون.. ويصدرون الصحيفـة وغيرهم ينعمـون بالخير الـوفير والكـرسي الـوثير.. والعلاوات والسفـريـات والامتيازات.

أذكر انني حـولت عضويتي في نقابة المحـامين إلى عضوية غير عاملة كي التحـق بنقابة الصحفيين.. وكان من الضروري وقتها الحصـول على إذن من الاتحاد الاشتراكي باعتبار الصحافـة تابعة لـه.. وكانت تسيطر عليه اتجاهـات فكرية معينـة.. وتأجل صدور الاذن مرارا وتكـرارا وكان القيد في النقـابة بحكم من القضـاء.. وفي كل مرة كان القـاضي يؤجل النظـر لعـدم وصـول الإذن والتصريح وأصبحت في مـوقف حـرج.. فانـا أعمل فعـلا بـالصحافـة.. ولابـد من الإذن لـلانضمام الى النقابـة.. والاذن عنـد الاتحاد الاشتراكي.. والاتحاد الاشتراكي له تياراته.. كان القاضي في دهشة إذ تصلـه تصاريح بالقيد في النقابة لعناصر معينـة بالذات. وفي خـاطر نبيل تقدم سكـرتير نقابة الصحفيين المرحـوم الاستاذ ابراهيم البعثي الى القاضي بورقة أثناء الجلسـة شرح له فيها واقع الأمر.. وابتسم القاضي.. وحكم بعضويتي في النقـابة.. ولم تكن هذه حكـايتي وحدي بل هي جزء من حكـاية كبيرة اسمهـا الصحافـة التي دخلت في لعبـة شـد حبل غير متكـافئة مـع السلطة في مصر إبـان الستينيـات والسبعينيات.. وهي لعبـة لن تنتهي، ولـو عـرف هؤلاء ان كـل ما يتمتع بـه الصحفي في مصر من امتيازات بـدءاً من عدم جواز الحبس الاحتياطي الى امتيـاز التليفون والمواصلات.. وغير ذلـك إنما هو ليس امتيازاً للصحفـي بل امتيازاً للمهنة التـي لابد وان يكون لها قدرهـا كي تمارس مسئولياتها في التوعيـة والتنوير والرقـابة الشعبية على أداء الأجهزة التنفيذية.. وللحديث بقية.

على هامش لعبة
شـد الحبـــل!!

مازال يثير شجوني الصحفية وغير الصحيفة ذاك الصراع الذي نشب في مصر مؤخراً بين الصحافة والسلطة التنفيذية حول التعديلات التي أدخلت على القانون بما يقيد حرية الصحفي في التعبير.. ويعرضه للحبس على سبيل الاحتياط، وذلك الصراع هو ما اصطلحنا على تسميته بلعبة شد الحبل بين الصحافة والسلطة.. ولقد أغرتني الأحداث الأخيرة الى استرجاع أحداث مضت وانقضت وقعت في تاريخنا الصحفي.. لهذا فإننا نعود الى بدء وفي البدء ـ لن نقول كانت الكلمة كما يقول المفكرون ـ لكن البدء.. بدء المأساة كان قرار تأميم الصحافة.. في مصر عام ٦١، لقد طال التأميم الصحافة مثلها في ذلك مثل مصانع الكبريت والبيبسي والورق والدخان والعطور والأواني.. بل وحتى محال الملابس والأدوات الكهربائية وشركات القطن والبنوك.

وتحول الصحفيون إلى باعة للرأي في دكاكين القطاع العام.. بضاعتهم الرأي الواحد للحزب الواحد.. وفي الحزب الواحد.. وتناوب الضباط على ادارة المصانع والشركات والمؤسسات الصحفية كذلك.. علي صبري أشرف على صحيفة «الجمهورية»، السادات على «دار الهلال» و«الأخبار»، أما حسنين هيكل فكانت له «الأهرام»، ولأنه صحفي حرفي من الطراز الأول فقد دانت له الأهرام واستطاع بحكم صلته القوية بالزعيم الراحل جمال عبدالناصر ان يصول ويجول وحده في الساحة الصحفية.. لقد أصبح هو الآخر الصحفي الأوحد.. ولم تستطع الرؤوس الصحفية الأخرى ان تطاله.. وتلك كانت أزمة الصحافة المصرية ومحنتها.

صحيح ان الاستاذ هيكل برز كأبرع صحفي عربي وكواحد من مشاهير الصحفيين المرموقين على صعيد العالم.. لكن أحداً غيره لم يبرز بجانبه في مصر.. لا أحد.. وليس ذلك سببه جدب الأرض الصحفية المصرية من المواهب والقدرات إنما مرجعه إلى أن المناخ الذي كان سائداً لم يكن ليسمح سوى بأن تنبت زهرة واحدة في حديقة الصحافة المصرية، أما فيما خلا ذلك فكانت كلها نبتات ضعيفة.. طفيلية.. هشة.

كان هذا هو المناخ السائد إبان تأميم الصحافة في مصر.. ولذلك فإنني اتصور ان لعبة شد الحبل بين الصحافة والسلطة في مصر والتي أشرنا إليها سلفاً قد توقفت تماماً حقبة

من الـزمـان امتـدت الى السبعينيـات.. ثم بـدأت من جـديـد مع انتعـاش منـاخ الحريـة والديمقراطية بالتدريج، في تلك الحقبـة.. حقبة التأميم.. لم تكن اللعبة قائمة.. لأن السلطة جذبت الحبل إليها من الصحفيين ونقابتهم تماماً بالتاميم.. بالتكميم.. والتعتيم أيضاً.

قبل التاميم كان هناك مجال لممارسة اللعبة «اياها» وكان آخر عهدنا بتلك اللعبة أحداث مارس عام ٥٤، وهي أحـداث معروفة خرجت في الصحف بـالرأي والتحليل بما لم يوافق وقتها هوى الضباط المتطلعين الى السلطة.. فكـان ان أسسوا جريدة «الشعب» التي أشرف عليهـا «الصاغ» صـلاح سالم وحـاول من خـلالها التصدي لموجـات الرأي التي قـادتها صحيفة «المصري» وقتهـا، فلما أخفق في التصدي.. ولم يستطـع مواجهة التحـدي شطب اسمها من الوجـود المصري.. وظلت لعبة شد الحبل مستمرة حتى أجهـزوا على الصحافة بـالتاميم.. وتعـرض الصحفيـون للنقل والفصل.. نقل بعضـهم للعمل في شركـة «بـاتـا» للأحـذية مثـل الراحل الأديب عبـدالرحمن الخميسي، وآخـرون الحقوا بشركـات منتجات الألبان، ومصـانع الجبنة، ومحال الأقمشة.

على حين استطاع آخرون من أصحاب المواهب الأخرى تسلق أسوار الصحافة ليشبعوا بطونهم.. وطموحهم.. ويشبعوا الناس أيضاً وهماً ونفاقاً.

وجاء الضبـاط الى المؤسسات الصحفيـة هـم وحواريوهم وأقـرباؤهم واتبـاع الاتباع ليفسدوا هذه المؤسسات وليحتلوا المناصب الـرئيسية بدون حق أو علم.. وشـهدنا نحن في «أخبـار اليوم» جـانبا من المأسـاة.. وتمت تنحية الكتـاب والصحفيين المقتدرين.. وكـان الشعار المرفوع هـو شعار مضلل «لنفسح المجال أمام العناصر الشابـة.. ولتتسرب الدماء الجديدة الى مواقع المسئولية.. وكان رافعـو هذا الشعار كاذبين والله والناس يعلمون انهم لكـاذبون.. فلم تكن تلك العنـاصر الشابـة والدمـاء الجديدة سـوى عناصر قليلـة الخبرة متواضعة الامكانيات الصحفية اتخذوهـا مطية لهم من أجل إحكام قبضتهم على الصحافة والصحفيين.. كيف؟

تلك حكاية أخرى قادمة..

الحنان الذي نسكبه
في الآذان

في الحياة.. وعلى امتدادها.. في سنيها المزهرة، واحياناً المقفرة نعرف ناساً.. نقترب منهم ونفترق.. ونفترق ثم نعـود؛ لنتلاحم من جـديد ونقترب.. وفي رحـلات الافتراق والاقتراب نعيش معهم تجاربهم.. ونعيش تجاربنا ايضـا. ومن خلال تـلاقح التجارب تبرز الخبرات مضيئة متوهجة كيَـد موسى عندما اخرجها من جناحه «جيبـه» بامر الله، هي تجارب لها لون الأيام.. وطعم المعرفة فضلا عـن انها تكتسب مذاق الحكمة.. والحكمة دائماً بالغة وفي حياتي بـالبحرين عـرفت اناسـاً وعرفوني.. اقتربت منهم.. احببتهـم، أخلصت لهم الود.. وكـانت مؤشرات ذلك كثيرة.. مجرد مـؤشرات ليست في حاجـة الى تعبير الكلمات أو حتى السكنات والحركـات.. من هؤلاء ذلـك الشاب دكتور الجامعـة.. الذي اخلص للعلم فـأتاه نفسه، وأغدق عليه من فيض معرفته منذ ان كان يدرس العلوم السياسية في فرنسـا.. ومنذ عاد حـاملاً الدكتـوراه ليلتحق بالجامعة على استيحاء وتـواضع ليفرز آفاق معـرفته علماً ومودة واخلاصاً.

اقتربت منه عندما وقفنـا معاً فوق ارضية فكرية واحدة.. اتفقت فيهـا تحليلاتنا للواقع المعـاش هنا وهنـاك.. وفيما حولنـا.. كنـا نلتقي في أمسيات حـول مائدة الفكـر.. وإشراق العبارة.. وخلـوص النية.. تعودتـه ضـاحك السن.. منشرح النفس.. مرهف الفـؤاد.. وهو فؤاد لمع في حيـاتنا كشهاب.. واذا بي أراه فجأة وقد كـاد يفقد لمعة عينيه.. بعـد ان انزوت البسمة من على شفتيـه.. وماتت الضحكة داخل حلقـه.. واسأل لألتقي به فلا اعـرف عنه جوابـا ولا له مكـانا.. ورغم ذلك كان يبـادرني بين الحين والحين بإشراقة فكـر عبر ندوة جامعية بالقاهرة.. او لقاء ضمه مع نخبة مـن أساتذة السياسة في كلية العلوم السياسيـة.. لكن هذه الاشراقـات المتفرقـات لم تُعد اليه اشراقـة نفسه فقط؛ كنت ألمح في نظـرات عينيه معاني التحدي.. وكنت احسبه كثير التردد على القاهرة لمراعاة شقيقة نابهة له تدرس الطب هناك.. وفجأة علمت ما وراء الأكمة من مشاهد.. كانت المشـاهد فيها حزن.. وفيها معاناة ايضا.. ومحنـة اسرة لم تُرد ان تسلس قيادهـا لقدرهـا وان سلمت به ونزلت عنـد حكمه مؤمنة ان الاخذ بالاسباب مهم في هذه الحالة..

الصغيرة الرقيقـة الابنة التي لم يتعـد عمرها وقتهـا العامين ونصف العـام لا تكاد ان

تسمع.. وبالتــالي فانها لا تنتبه الى مــا يقولون ولا تــدرك ما حولها يفعلــون او يصرخون وحاولوا.... باللعب... بالمناغاة.. بالطب.. بغيره حاولوا لكن دون جدوى ظاهرة... وخيمت ظلال يأس طارىء.

تردد الاب على مصحــاب الاطباء المتخصصــين.. واستمع الى نصح المجــربين منهم ولم ييأس دكتــور فــؤاد شهــاب من رحمة اللــه، ولا من سبل العلم والطب والمداواة.. كــان في رحلات مكوكية مستمرة بين القاهرة والبحرين.. وكنت القاه وقد ملأه الإصرار.. ولمعت في عينيه ايات التحدي.. احتضن امله بين جــوانحه .. وأمله في صدره وانطلق في رحلة الاصرار والتحدي.. وبالمناغــاة.. بالـحب.. بالـحنان.. بالكلمات يسكبها هو والسيدة الفــاضلة حرمه ليل نهار في آذان الصغيرة.. وعلى مدى اكثر من عامين.. وبالإصرار العنيد العجيب.. انفرج الصمم.. وانفتحت آفاق السمع.. والبصيرة.. ونطقت الصغيرة بعد ان سمعت.. نطقت احلى العبارات ونمقت اجمل الكلمات.. اندمجت في المدرسة العادية بين لداتها وأترابها.. وتميزت ذكاء متقــداً.. حساً مــدركاً وعــادت الى وجه دكتــور فؤاد شهــاب ابتسامتــه.. والى عينيه التماعها الماضي المتألق.. وأتلق على جبين الاسرة من جــديد ألق عافيــة الحياة.. لتعيش احلى أيامهــا مع الصغيرة وبالصغيرة الرقيقــة.. وقدم الدكتــور فؤاد شهاب تجربتــه الحية الى الآخــرين في نــدوة الــدمج التربــوي والإجتماعــي للمعــوقين سمعيــاً.. قــال لهم من واقع تجربتي.. بالاصرار.. بالحب.. بــالحنان.. بسكب الكلمات في الآذان التي بها صمم يمكن ان نجتاز المحنة.. ونداوي العلة.. وتلك مسئولية الأسرة.. ويالها من مسئولية.

معارك العقاد وبنت الشاطىء فى بيت القرآن

فى نهايات رمضـــان تأتلق الرؤى، وتشف البصـيرة، وتتخفف النفس من أعباء مــاديات الحياة، فيكــون المناخ مواتيــا للصفاء والخلوص الــروحي، بل تكون الــروح نفسها مهيأة للنقاء فتحلــو الفكرة، وييسر الخاطر، وتعمر النفس بما لــذا وطاب من أطايب الفكــر وآيات الــذكــر فتتجلى على تلك النفوس وفي ذلــك المناخ ليلــة القــدر التي هي خير من ألف شهــر، ويستحب المؤمنون الاعتكاف وصلاة القيام، واخــراج زكاة الفطر.. فيعجلون بها طواعية وبنفس راضيــة مرضيــة قبل حلول أيــام العيــد وبزوغ أيــامه التي تصحبهــا متطلباتــه واحتياجاته.

ولقد أحســن بيت القرآن استثمار هــذا المناخ فكثف في نهايات هــذا الشهر الكــريم من حلقاتــه القرآنية، ونــدواته الفكرية، واستضــاف واحدة من قمم الفكر الإســلامي العربي وهي الدكتورة عائشة عبدالرحمن «بنت الشاطىء» سليلة المشايخ ورجال الازهر والدين. التي تربت في بيوت علم، وتعلمت في بيوت دين، ثم اقترنت في حياة زوجية بصاحب الأمناء المرحوم الاستــاذ أمين الخولي استاذهــا وراعيها وكــانت لهما ذرية مــن أساتــذة الجامعة والعلماء فأفاض الله عليهما نعمة ظاهرة وباطنة.

وللــدكتورة عــائشة عبــدالــرحمن مكانها المرمــوق في الموقع العلمي والفكــري للأمــة الإسلامية دراسة وتدريساً واشرافاً على رسائل الــدراسات العليا لعلوم الإسلام والعربية في جامعات بالمشرق والمغرب وجهاداً ودعوة من فوق المنــابر العامة وفي المحافل الإسلامية والمؤتمرات الدولية.

درس وتتلمــذ على علمها آلاف الطــلاب في جامعــات أم درمــان الإسلاميــة بالســودان والخرطوم وجامعة القاهرة فرع الخرطوم وجامعة الجزائر وجامعة قسطنطينة بالجزائر وجامعــة بيروت العربيــة وجامعة الامــارات «العين» وجامعة قطــر وكلية التربيــة للبنات بالــرياض بــالاضافة الى عضــويتها بــالمجلس الاعلى للشئون الإســلامية والمجلس الاعلى للثقافة في مصر وعضو اللجنــة الاستشارية للثقافة بمعهد العــالم العربي في باريس ناهيك

عما حصلت عليه من العديد من الأوسمة والجوائز.

ولسنا هنا بصدد تعداد مناقبها العلمية وآيات ابداعاتها الفكرية، يكفي القول انها ـ لو تعلمون ـ قد طاولت بقامتها عمالقة عصرها أمثال: الدكتور طه حسين والاستاذ عباس العقاد.. ورغم ان العمر قد تقدم بهذه العالمة الجليلة، وحاصرتها أحداث الحياة بالرزء والثكل فعدت عليها الأيام فاذا العظم قد وهن وارتعشت اليدان وتعثرت قليلا نبرات الصوت.. نقول رغم ذلك فقد بدت عائشة عبدالرحمن أمامنا وأمام غيرنا عملاقة، وظلت على عهدها متوهجة الفكر.. صاحبة رأي شجاع وتخريجات فقهية.. ورؤى فكرية جديرة بالاهتمام تدعونا الى الالتفات اليها وليس عنها حتى وهي في هذا السن عندما شرعت تحدثنا في ليلة رمضانية ببيت القرآن عن ليلة القدر.. ليلة الليالي التي حملت لنا وللبشرية كلها آيات الحضارة والبشارة.

لقد راحت بفكر مستنير تستعرض دقائق من مواقف الإسلام الانسانية والجمالية والفكرية التي تنظم الحياة، وتنتظم من خلالها علاقات الأسرة والحق والعدل والجمال والسلام بعد ان حسب العالم المعاصر أنه قد سبقنا الى اثبات منطق العدل والسلام وإعلاء قيم الحق بينما هو متورط في مذابح البوسنة والهرسك والشيشان وغارق في بحور التفرقة العنصرية المعادية لمنطق الانسانية.

ثم فرقت فيما فرقت بين الانس.. والإنسان.. بمنطق لغوي ومعالجة فلسفية فالانس نقيض الجن، أما الإنسان فله دلالته العقلية والفكرية وممارساته الإنسانية.

وتتسرب ابتسامة ذات معنى الى كل وجه الدكتورة المحاضرة عندما تتذكر وتذكر فضولا من معاركها مع الاستاذ العقاد حول المرأة، وهي معارك عايشناها واستمتعنا بها لفترة كانت هي بعلمها وتأصل التراث فيها وغلبة الرأي الديني لديها في جانب والعقاد بشموخه وجبروت فكره وكبريائه ونظرته المتوحدة الجادة في جانب آخر.

اعتبروا العقاد في مواقفه من المرأة أنه عدو لها وان كان هو في الواقع مولع بها.. «غرقان لشوشته في حبها» اذا ما تطلعنا الى جزء من سيرته الذاتية التي سجلها بوعي أو بدون وعي في قصته الوحيدة «ساره» ثم كشفت عنها علاقاته بسمراء السينما المصرية وقتها لأدركنا هذه الحقيقة.

ولأن عائشة عبدالرحمن امرأة وتعرف مدى مداراة العقاد لعواطفه تحت عباءة كبريائه وعنفوان جبروتـه، فإنها تصدت للـرد على حملته التي غلب فيها عقلـه عاطفتـه فادعى ان المرأة لم تفلح فيما يجب ان تفلح فيه، بل فيما هي مهيأة له بطبيعتها، فلم تطاول الرجال في الطهي والتجميل والحياكـة وتصميم الملابس فهي تلجأ ومازالت الى الرجل البارع طـاهياً والى مصمم الملابس الرجل والى مصفف الشعر ومجمله.

وتتذكر عائشة عبدالرحمن تلك الحملة المتبادلة بينها وبين الاستاذ العقاد وتذكر بعضاً من تلك المساجلات في أمسية بيت القرآن، فتزيدنا إمتاعاً عندما تعلي من قيمة المرأة وشأنها وتضرب الأمثلة على ان الله سبحانه وتعالى خص أمهـات الأنبياء والرسل في الذكر الحكيم فلم يتطـرق الى آبائهم الا لماما.. فهـذه أم موسى التي أوحـى الله إليها ان تلقي بـه في اليم وترعـاه ليرجعه اليها لترضعه وتـربيه، ومريم التي حباهـا الله سبحانه وتعـالى بالمسيح عيسى عليه السـلام.. فحملته وانتبذت بـه مكانا قصيـا، وتحملت وحدها غضب قـومها، وهي الوحيـدة التي جاء ذكرها في القـرآن بالاسم تكريما لها وتعظيما، ثم والدة رسـولنا محمد صلى الله عليه وسلم التي حملته نورا ورحمة، ولما مات أبوه عكفت على تربيته حتى توفـاها اللـه وهو لم يزل صغيرا فعـرف معنى اليتم بل ان الشيطان أغـوى آدم فهبط هو وأمنـا حواء الى الارض ليعمـراها معـا وهكذا تصـدت بنت الشاطىء للعقـاد قديما إبـان حملاتها المتبادلة ثم عادت لتذكرنا ببعض فصولها المختارة في كلمات ذكية العبارة.. حافلة بـالايحاءات غنية بـالاشارات التي تعلي من قـدر المرأة. بل وتضعها عنـد قدرهـا الحق في الكتاب الحق والذكر الحكيم.

عن الصحافة والصحافيين..

بالأمس تـوجه اكبر تجمع للصحفيين في الوطن العربي.. اكثـر من أربعة آلاف صحفي وصحفية لـلإدلاء بأصواتهم لاختيار نقيب ومجلس نقـابة الصحفيين في مصر.. ولأنني - كعضو قديـم في هذه النقابة - لم أتمكـن من حضور هذا المهرجـان النقابي الكبير لظروف عمل.. فانني ظللت مشـدودا بالمتابعـة أولا لما يجري هناك.. بصرف النظر عن نتـائج هذه الانتخابات.. ومن ناحيـة أخرى فقد شدتني الذكريات بعيـدا الى بدايات انضمامي الى هذه النقابة العتيدة التي شاء قدري أن أنتسب اليها عضوية واحترافاً.

وحول الصحافة والصحفيين ونقـابتهم في مصر تثار كثير من الشئون والشجون.. عن البدايات.. عن النهايات.. والبدايات.. بدايات أي عمل أو تجمع مهني.. عادة ما تكون صعبة بل وحرجة خاصة اذا اتصل الامر بالصحافة والصحفيين.

وأعترف هنا.. انه رغم قدم اشتغـالي بالصحافة وأنا مازلت طالباً بالحقوق فإنني بعد حصولي على الليسانس وانضمامي الى نقابة المحامين.. وجدتني أقف في مفترق طرق.. فبعد ان آثرت الصحافـة عملاً كان عليّ ان أنضم الى نقابـة الصحفيين.. وكان على ان اختار بين عضوية النقابتين فمن غير المسموح الجمع بين عضـوية نقابتين مهنيتين. فالارتباط بمهنة عندنا ارتباط كاثوليكي.. ولا يسمح بالجمع بين نقابتين.

كان الاختيـار صعبا.. شاقـاً بعد أن تأملت هذه المهنـة وتألمت فيها وعانيت في بـلاطها الكثير مع البدايات..

وفي مرحلـة الاختيار راودتني أفكار كثيرة وبـدائل شتى وتناوشتني أراء.. فعضـوية نقابة المحامين رهن بالحصول على شهـادة الليسانس.. ولن تجد عضواً في هذه النقابة غير حـاصل على ليسانس الحقـوق أو مـا هو أعلى مـن ذلك، أما في نقـابـة الصحفيين فالأمـر مختلف.. فقبل انشاء نقـابة للصحفيين اختلط الحابل بـالنابل كما يقـولون.. خـاصة من

تراكمات عصور خلت حيث كانت الصحافة مهنة الذين لا مهنة لهم.. الذي لا يجد عملا.. ويستطيع أن يفك الخط يشتغل بها.. وكان الصحفيون يسمون «بالجواسيس» حيناً، «وبالجورنالجية» أحياناً، أما وضعهم في المجتمع فكان في وقت من الأوقات مثل وضع «المشخصاتية» ويتردد القضاء كثيراً في الاستماع الى شهاداتهم.

فالرأي العام في مصر لم يكن يعتبر أمين الرافعي وعباس العقاد وتوفيق دياب وأحمد ماهر والدكتور محمد حسين هيكل والدكتور محمودعزمي صحفيين، وانما كان يعتبرهم كتّابا، ولكن الذين كانوا يعملون في مهنة الصحافة نفسها كالمخبرين والمندوبين والمراسلين فكانوا يسمونهم ـ كما سبق وقلت ـ جورنالجية أو «غازيتجية» و«الغازيتيجي» كما يقول استاذنا مصطفى أمين هو لفظ تركي للصحفي.

ويدلنا تأليف أول مجلس ادارة لنقابة الصحفيين في مصر انه كان يتكون من ستة من أصحاب الصحف هم: جبرائيل تقلا باشا صاحب الأهرام، والدكتور فارس نمر باشا صاحب جريدة «المقطم» ـ وعبدالقادر حمزة باشا صاحب جريدة «البلاغ» ومحمد التابعي صاحب مجلة «آخر ساعة» واميل زيدان صاحب «دار الهلال» ومحمود أبو الفتح صاحب جريدة «المصري»، كما ضم ستة من رؤساء التحرير هم: أنطون الجميل باشا رئيس تحرير «الأهرام»، وخليل ثابت باشا رئيس تحرير «المقطم»، وفكري أباظة باشا رئيس تحرير «المصور» وابراهيم عبدالقادر المازني المحرر «بالبلاغ» وحافظ محمود رئيس تحرير «السياسة» ومصطفى أمين رئيس تحرير «آخر ساعة».

ولقد واجهت مجلس النقابة الجديد مشكلة القيد في النقابة وكما يقول استاذنا مصطفى أمين فقد ثبت من البيانات المقدمة أن ١٪ فقط من الصحفيين هم الذين يحملون شهادة عليا، ٥٪ يحملون شهادة البكالوريا، و٣٪ يحملون الكفاءة (الاعدادية) و١٠٪ يحملون الابتدائية، و١٥٪ سواقط الابتدائية و٥ر٢٦٪ نصف متعلمين، و٤٠٪ لا يعرفون القراءة والكتابة.

ومن المضحكات المبكيات حقاً التي يرويها الزميل الكبير المخضرم الصحفي جميل

عارف أن أول مقر للنقابة كان في شقة للقمار قبل ان تنتقل الى مقرها الحالي في شارع عبدالخالق ثروت، وان فؤاد سراج الدين وكان وزيرا للداخلية في حكومة الوفد في عام ١٩٤٢ أراد مجاملة الصحفيين فداهم البوليس هذه الشقة التي كانت تدار للقمار وصادرها وتقرر تسليمها للصحفيين لتكون مقراً لنقابتهم بعدها بادر الزعيم مصطفى النحاس باشا رئيس حكومة الوفد بتخصيص قطعة أرض مقراً للنقابة الحالي في شارع عبدالخالق ثروت.

وبدأت نقابة الصحفيين ومهنة الصحافة عهداً جديداً، وأصبحت عضوية النقابة قاصرة على الحاصلين على المؤهلات الجامعية بمستوياتها العليا المختلفة، وأنشىء قسم للصحافة وتحول الى كلية للاعلام.. وتضاعف عدد الصحفيين بعد ٥٠ سنة ٣٢ مرة ليصبح حوالي ٤٠٠٠ صحفي وصحفية بينهم اكثر من ٧٠٠ صحفية أي بنسبة ١ ــ ٥ من مجموع العاملين في عضوية النقابة.

والآن.. هل كان اختياري صائباً.. اعتقد ذلك والخيرة فيما اختاره الله..

أيـــام العمـــــر

و.. يمضي عام.. ويأتي عـام آخر.. تصـورنا اننـا علمنا ما مضـى وانقضى.. ولا نكاد ندرك ما الذي قد يأتي به عام جديد..

عـــا م مضى عنـــا وعــــام مقبل بـــاللـــه يـا دهـــر أيهما أعــز وأفضل

في طي الغيب ما هو آت.. والغيب بعيد عن علمنا

رغم أنه محسوب الخُطى.. والملامح.. والوقفات.. طريق مرسوم معلوم ومجهول..

«وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال..»

ولأن ذلك كذلك.. فلا معنى للخوف أو الـوجل من المجهول القادم أو المعلوم الحاضر.. فالأيام تمضي ونحن نمضي معها.. نمضي بها ولا نملك غير ذلك.

جئنا من الغيب.. ونذهب إليه.. ولا ندري.. ولا يجب ان ندري لم أتينا ولم نذهب.. وهذا ليس ترديداً لطـلاسم ايليا ابي ماضي أو ترجيعات لفلسفات الخيـام أو تهويمات للاحدة.. انما هو ترجمة لإيمان عميق.. وتلك مشيئة عليا وقـدرة متحكمة عادلة خيرة.. آيات بينات تعكس نواميس الكون والحيـاة.. فماضي الأيام كان وقادمـه سيكون.. فلا معنى ولا مبرر لأن نفرح بما أتـاناء أو نأسـى على ما فاتنـا من مكاسـب وخيرات فالكل في ميـزان الحياة سواء.

وعندما يهِل عام جديد.. وتدق ساعـة زواله.. والناس يمرحون ويفرحون.. يلتقون أو يفترقون.. يتحابـون أو يتخاصمون.. يشقون أو يسعدون تأخـذني عادة سرحات تأمل.. ولحظات تدبر في ماضي الأيـام وقادمها.. لأن بداية عام جديد.. لـه معنى خاص لدى.. فيه يتواكب دائماً يوم ميلادي فاذا المناسبة مناسبتين ذات بعدين احدهما عام والآخر خاص.. وعند ذلك تختلط الـرؤى والمشاعر الخاصة بـالرؤى العامة.. فأراني أسترجع البـدايات.. وأيام العمر التي تمضى سريعا دون ان أدري وعلى غير ما أريـد.. فالعمر قطار تعلقنا به.. في محطة مـا.. في زمن ما.. ولسبب ما.. ولابـد للقطار أن يتوقف.. ولابـد لنا من ان نهبط.. وما بين البداية والنهاية لا رادّ لنا ولا إرادة.. لا هدوء ولا ثبات ولا استقرار.

الأيام تعتصرنا بالعمل.. بالأمل.. بالقلق.. بـالمعاناة والسنون تطوينا ولا نطويها.. هي

باقية.. ونحن نمضي..

«في صباي بدأت أدرك معاني الأشياء والأيام قليلاً.. ورويداً.. رويداً.. كانت تتوقفني مثل هذه التأملات لكن بصور ودرجات مختلفة كنت أحسب ـ لجهلي ـ أن بدايتي هي بداية الحياة، وان الكون أنا محوره.. وان عالمي الصغير.. لعبي وكتبي وأصدقائي.. ورضا أمي وحنان أبي.. غدواتي.. روحاتي.. ألعب مع لداتي.. نلهو معاً.. نجد أو نهزل.. هو العالم بأسره.. لكن مع السن المسؤول تعمقت رؤياي للحياة والناس من حولي.. وعندما بلغت ميعة الصبا أدركت بعضا من المعنى.

رحت أقرأ.. أتأمل.. أحلق في آفاق بعيدة.. من الفكر لم أكن لأطرحها من قبل.. أتأهب، أتحفز للمعنى.. للدلالة.. للبدء والنهاية.. معنى الحياة.. والوجود حتى أضناني التأمل وقادني إلى متاهات رحت معها عندما أتممت العشرين من العمر أداعب قلقي.. وحيرتي في قصيدة لم تكن مبهرة أبداً.. أو حتى مزهرة بالأمل الحلو.. كانت تعبيراً عن مرحلة راحت وانقضت.

عشرون عاماً أو تزيد مضت عليك يا غريب
مضت عليك في سُهاد وفرقت بين الحبيب
وحطمت فيك الشباب واقبلت نحو المشيب
عشرون عاماً يا غرامي تبدلتها فيها الليالي
بين إعراض وحب تحت نخل وظلال
بين ماء وورود وسط ينبوع الجمال

وهذه كانت شبه قصيدة.. ذات أبيات عديدة لازمني معناها لسنوات حتى انتفضت معرفة أعمق بالحياة.. بالناس.. أحتضن الوجود كله. أرنو اليه.. وتتبلور المعاني مع خبرات الحياة.. تطفو الآمال والأماني على سطحها أو تخبو.. تنتعش وتتجدد أو تذوى وتتراجع.. لكن تبقى الآمال مفعمة بحكمة الأيام، بدفقات ايمان لا يتبدل مذاقه ولا معناه في القلب أو النفس أو الوجدان.

فما ينبئك عن خلق الليالي كمن فقد الأحبة والصحابا
ومن يغتر بالدنيا فإني لبست بها فابليت الثيابا

وتتمخض المعاناة عن حكمة الحياة.. أسترجعها مع يوم مـولدي.. بداية كل عام جديد.. وهي أننا جئنا الى هذه الحياة لحكمة نرضاهـا أو لا نرضاها.. لكن الله أرادها.. حكمة جئنا بها الى هذه الأرض ولحكمة أرادها الله نمضي كي لا نأسى على مـا فاتنا ولا نفرح بما أتانا متسربلين بإرادة الله.. سائرين بها ملتحفين برحمة منـه ورضوان.. ظانين به ظن الخير.. فهو الخير.. ولقد أرادها سبحانه حيـاة للخير.. فالخير باق والشر عارض زاهق.. فلنحاول مع عام جديد ان نحقق ارادة الله في الأرض حباً وعدلاً.. سلاماً وخيراً..

وتتوقف ذكريات العيد.. عند الطفولة

كلما طافت بنا أيام العيد تداعت ذكرياته واحدة وراء الاخرى.. أيام الفرح واللهو والسرور.. أيام المودة والحب وصلة رحم القربى ورحم الانسان عموماً.. فكلنا منتسبون الى واحد.. متفرعون منه بالانساب والأصلاب ملتقون فيه.. وعنده في النهاية.. فمثلما كانت البداية.. تكون النهاية.

وما أجدرنا في رحلة الحياة هذه الممتدة الطريق، الصعبة المراس من أن تتماسك أيدينا، وتتلاقى قلوبنا.. ونحن رفقاء سفر طال أم قصر.. فإن له نهاية معروفة.. أما ما بعدها فهو مازال غير معروف وفي طي الغيب.. ونحن نسلم به.

ومع تداعي ذكريات العيد عادة ما تكون لي وقفة أجتر فيها الذكرى مع أطفالنا اليتامى.. أولئك الذين حرمتهم الدنيا من الأب والأم لسبب أو لآخر فاذا هم في حياتنا.. نبتة غير معروفة الجذور في أرض روتها قساوة الظروف بمياه خرجت من الصلب والترائب.. مجهولة المنبع.. وان كانت تصب في صعيد الانسانية المؤتلفة.

كانت دار الأطفال اليتامى قديماً بالمحرق الى جوار مستشفى الولادة المركزي وتخضع لإشراف وزارة الصحة وقتها. وكان يوم عيد فكرت فيه ان أزور أطفال هذه الدار ولم يكن دافعي صحفياً وإنما كان انسانياً.. وفي الصباح الباكر للعيد «الصغير» توجهت الى هذه الدار القديمة المتهالكة.. ودقت يداي الباب برفق.. ومن وراء الباب كنت اسمع اصوات أطفال صغار.. وصخب وضجيج يجمع بين فرحة وشقاوة وبكاء ايضا في آن واحد.. ومع توالي دقات الباب انفرج الباب عن بعض المربيات الهنديات أو غيرهن.. ومن خلفهن أطفال صغار انطلقت شفاههم بابتسامة تسبقها كلمة بابا.. بابا..

وتدفقت الدموع من المآقي.. انهم جميعاً ينتظرون الأب.. ويبصرونه في كل قادم إليهم.. انهم يفتقدون الأب ولن أروي مدى ما تركته هذه التجربة في النفس من هزات أشبه بهزات صدمة كهربائية.. كما لن أسجل مشاهدات حالة البؤس التي كان يعيشها هؤلاء الأطفال.. خاصة وان الحال قد تغيرت الآن.. ومنذ ١١ عاما تقريباً عندما كفل الله لهؤلاء الصغار أيادي رحيمة بَنَت لهم دار الطفولة في موقعها الحالي.. مجهزة.. مؤثثة يحاط فيها هؤلاء الأطفال برعاية مجلس ادارة الدار ووزارة العمل والشئون الاجتماعية ينعمون فيها

ببعض من دفء الأسرة.. وان كان دفئاً مازال مصطنعاً.. وليس طبيعياً.. فليس هناك مناخ ـ مهما أجدنا اصطناعه ـ يماثل مناخ الأسرة ويوفر دفئها.

وبعد هذا العمر الذي كان.. زرت منذ أيام دار الطفولة ورغم ما يزخر به من امكانيات وما يحيط به من قلوب انسانية رحبة.. دافئة فان مشكلة هؤلاء الأطفال الصغار مازالت ماثلة.. ومازالوا على جانب المجتمع وليسوا في قلبه.. لا شرعياً أو انسانياً.. المشكلة.. اصبحت مشكلتين.. فالأطفال الصغار خاصة الذكور منهم كبروا.. وصل عددهم نحو ٢٠ طفلا من بين ٣٣ طفلا الى سن ١٣ سنة ولم يجدوا أسراً حاضنة لهم.. فالأسر أكثر ميلا إلى تبني الاناث.. يفضلونهن عن الذكور لاعتبارات اجتماعية وربما دينية بل وشرعية. فمن بين ٣٣ طفلا وطفلة توجد في الدار ٣ بنات فقط ينتظرن الاحتضان.. الباقي أولاد.. يعيشون في هذه الدار ومازالوا في الانتظار.. ولا أحد ولا أو اسرة تتقدم للاحتضان.. والأولاد يكبرون.. ويكبرون..ن ويكبرون.. ويواجهون واقعهم مع المجتمع.. وواقعهم في المجتمع.. وهو واقع قاس ومر، ولأن هذه الدار نشأت للحضانة المؤقتة.. بل هي محطة مؤقتة كي ينتقل الصغار منها الى حضانة الأسر.. فما العمل..؟ تلك هي المشكلة.

أما المشكلة الأخرى فهي انه لا تبني في الاسلام.. وذلك حق (أدعوهم لآبائهم)، والطفل يكبر في كنف الاسرة الحاضنة وهو يعرف انه عضو دخيل عليها لا حق له.. لا مكان.. فما العمل؟

المسئولون عن الدار يحاولون ايجاد حل مع رجال الدين والدنيا.. ولا أمل رغم كثرة الفتاوى وتعدد الآراء.. فالطفل تحت حضانة الاسرة لا يكتسب اسمها.. ولا يرث أموالها.. ولا يتطلع الى اكثر من دفء الاسرة الى حين.. وبعدها يضيع في متاهات المجتمع.. ولأنه يعرف.. وكلنا نعرف انه يعرف.. كنهه.. ووضعه.. وماذا بعد ذلك؟.. لا ندرى.. المشكلة مازالت حالة.. ولابد من حل.. ولا ندري على أي يد أو رأي يكون الحل.. وبأي حكمة نداوي المشكلة؟.. وبأي منطق نداري خجلنا هل نكتفي بكفالة اليتيم.. أم يدعي من يريد التبني ان هذا الطفل ولد لفرا شه كي يأخذ حكم الولد الشرعي للأسرة الحاضنة.. المسألة شائكة.. والمشكلة قائمة.. والأطفال أبرياء ونحن مطالبون بإيجاد الحل.. فما العمل؟

من سور الأزبكية
إلى سور باب البحرين

تغمرني السعادة عندما تتعدد وتتنوع أسواق عرض الكتاب.. سواء أكان كتاباً إسلامياً أم غير إسلامي.. سياسياً أم ثقافياً، فكلما تعددت الأسواق وتزايد الإقبال عليها كان ذلك إيذاناً بتحول في أفكارنا واهتماماتنا وتحريكاً لمياه أفكارنا الآسنة، ورؤانا الراكدة الجامدة.. فالكتاب يفتح أمام كل منا نوافذ جديدة وعديدة على عوالم لم نكن نعرفها أو ندركها من قبل.. إنه إضافة.. والاضافة هنا مفيدة وضرورية خاصة في عصر ألهتنا فيه القنوات الفضائية والتليفزيونية عن القراءة الجادة المتأملة.. بل أنستنا حتى القراءة المسترخية.. قراءة الكسالى فيما قبل النوم أو استعدادا له. من هنا كان ضرورياً أن نعوّد أنفسنا ونعود أبناءنا على الاهتمام بالكتاب قراءة واقتناء.

فالكتاب.. أي كتاب يحمل في طياته فكرة.. والفكرة تتوالد في الذهن الواعي مائة فكرة.. سبعمائة فكرة.. مثله مثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة.

وأذكر أن والدي رحمه الله وأحسن مثواه كان يحضر لي وأنا صغير مع الشيكولاته الكتاب.. القصة.. الرواية.. الصورة المعبرة.. وتعودت أن أقرأ.. وعندما حصلت على الشهادة الاعدادية أهداني دولاب كتب خاصا بي (مكتبة) حفظت فيها ما جمعت وما قرأت وما اقتنيت من كتب حتى الآن ومازلت أعتز بهذه المكتبة ولا أتصور أن أفرط فيها فهي لاتزال تحتل مكاناً ما في شقتي بالقاهرة.

وهنا في البحرين على امتداد سنوات العمل التي مرت سريعاً عنيت بالكتب اقتناء وقراءة.. فتكونت لدي مكتبتان اثنتان تحويان آلاف الكتب.. وهما تنموان وتكبران مع سني.. وكلما طوّفت بالمكتبات ومعارض الكتب وجدت نفسي أنتقي الجديد من الكتب بل والقديم الدارس منها ذا القيمة.

ولقد ظلت هذه هوايتي الأسيرة حتى الآن.. ومنذ ان كنت أطوف بسور الأزبكية للكتب القديمة في القاهرة المحروسة وحتى اثناء اقامة معارض الكتاب الدولية في مصر والبحرين على السواء.

ولا أنسى ما حييت كيف أغنيت فكري ومكتبتي ببعض نفائس الكتب القديمة جداً والنادرة التي كان يزخر بها سور الأزبكية في سالف الزمان.. كتب دراسية وأخرى

ثقافية.. وسياسية.. وأدبية.. فأنا مدين لسور الأزبكية ببعض ثقافتي غير المبرمجة.. بل والمبرمجة أيضاً في معاهد العلم والدراسة.. فحينما كان يستصعي عليّ العثور على كتاب في اللغة أو الأدب أروح لأفتش عنه في سور الأزبكية وعادة ما كنت أعثر عليه بثمن بخس.. دراهم معدودة.. وأنا به من الفائزين المحظوظين.

وللأسف.. فقد غربت أو كادت أيام سور الأزبكية وزوت وانزوت شموس فكره، وتوهج ثقافته أمام زحف الحياة وتطور العمران.. حتى أن معرض القاهرة الدولي للكتاب حاول احياء هذه السنة الحميدة داخل أروقته فأفرد موقعاً لسور الأزبكية، ورغم أن سور كتب الأزبكية كان معْلما من معالم القاهرة الثقافية مثلما أن سور الكتب القديمة على ضفاف نهر السين في باريس يعد معلماً آخر من معالم الثقافة في بلد النور.. فان هذا السور بدأ يتهاوى ويندثر رغم انه أثر من آثار التراث الثقافي الغالي.

ولكم جلست ساعات أمام مكتبتي وكتبي أتأمل.. وأنتقي لأقرأ فأجد أن ما جمعته من كتب حديثة وقديمة دارسة.. وكتب أخرى ذات قيمة أو قليلة القيمة مازال الكثير منها يطل برأسه ينادينى أن أقرأ.. وأسأل نفسي هل تمتد بي ساعات العمر لأقرأ كل هذا الحشد الباقي من الكتب التي غمرت بها مكتبتي.. ويأتيني الجواب المعروف.. «إنك لو قرأت كل يوم كتاباً فلن يطيق باقي عمرك قراءة هذه الأرفف من الكتب المتراصة التي ينافس بعضها البعض في دعوتك الى القراءة.. فلا فسحة في العمر ولا الوقت كي تقرأ القراءة الجادة المتأملة.. وليست مجرد قراءة إزجاء الوقت ساعة أو بعض ساعة قبل النوم.

ولكم فكرت ودبرت.. وتساءلت.. ماذا افعل بهذا الحشد من الكتب عند الرحيل من البلاد أو عند الرحيل الأبدي.. هل أوصي بمكتبتي للمكتبة العامة.. وهل كل ما فيها صالح للاهداء؟ فأقول ليس كل ما تزخر به من كتب قابلاً للاهداء.. البعض فقط.. أما الباقي فما مصيره.. ولاحت أمامى فكرة.. مجرد فكرة.. لماذا لا ندعو الى مشروع ثقافي تثقيفي على غرار سور الأزبكية، ولنسمه سور باب البحرين، وليتخذ موقعه هناك الى جوار مركز التراث والسياحة وفيه تباع الكتب القديمة.. وتلك التي يستغني عنها أصحابها بالحياة أو بالممات.. وليصبح هذا السور معرضاً دائماً للكتاب.. تباع فيه الكتب بأسعار رمزية وخاصة جداً.. ويكون مرتعاً للصغار والكبار.. من محبي الثقافة ومريديها.. وليصبح معلما من معالم الثقافة الحرة.. انها مجرد فكرة.. فمن يحتضنها.. ومن يرويها.. ويرعاها؟

مقابلـــــة
بين شاعرين

عندما تـدْلهمّ الخطوب، وتحيط بنا ظلمات بعضها فوق بعض باسطـة استارا سوداء، وحجبا كثيفة تمنعنا من رؤيـة ضياء الحقيقة والحق، وعندما تتوه منـا الاقدام في متاهات الآراء المتناقضـة.. والأفكار المتباينة.. عنـدها تلفنا الحيرة.. كأفـراد ومجتمعات.. فيختلط الحق بالبـاطل لا يكون لنا أمل سـوى في كوّة صغيرة تخترق تلك الجدر لنـرى من خلالها نور الضياء الذي يشع علينا فإذا الحقيقة ماثلة.. والحق أبلج.. وصباحنا متجدد..

وبالأمل.. بالحكمـة.. بالوجدان الصافي يفتح لنا الشعـراء هذه الكوة الصغيرة لينتعش من خلالها الأمل.. ويتجدد العمل.. فتتنوع أغاني الحياة..

وعلى امتداد تاريخنا أشبعنا الشعراء حكمـة.. ويأساً أيضا اشاع بعضهم النور وسط دياجير الظلام فاضاءوا نور الحقيقة.. واحاطونا بالأمل.. بينما البعض الآخر أبى إلا إظلام حياتنا.. ولم يدع الأمل يتدفق إلى نفوسنا.. ولا لشجاعة مواجهة الواقع فرصة للبروز.

وإذا كانت وظيفـة الشعر هي التعبير عن أحـاسيسنا تجاه الانســان والمجتمع والكون كله.. ومحاولة الكشف وخلق رؤيا جديدة لهذه العوالم.. بمعنى أن نرى من خلال الشاعر رؤيا جـديدة للانســان.. والمجتمع والكون أكثر أمـلا وكمالا.. وأعظم جمالا وجلالا.. فهل يؤدي الشعر العربي هذه الوظيفة الآن؟

أعلم ان بعض الشعراء يثيرون فينـا نخوة الانتماء وحب الـوطن إلا ان البعض الآخر ـ وهم الكثيرون ـ يستمرئون ازماتنـا العربية والانسانية فيشبعونـا يأسا وبكاء.. يحولون حياتنا إلى «مندبة» تزيد من كبوتنا وشقوتنا. من هؤلاء شاعرنا نزار قباني.

الذي خط بقلمـه أخيراً شهادة وفـاة للعرب.. قصيدة بـائسة جـاءت تحت عنوان متى يعلنون وفاة العـرب. حاول فيها احراق كافـة الرموز العربية.. كما سماه ــ مجازاً ـ بلاد العرب:

أحاول احراق كل النصوص التي أرتديها

فبعض القصائد قبر

وبعض اللغات كفن

وواعدت آخر أنثى.. ولكنني جئت بعد مرور الزمن..

أنا منذ خمسين عاما..
أراقب حال العرب.. وهم يرعدون ولا يمطرون
وهم يدخلون الحروب ولا يخرجون
وهم يعلكون جلود البلاغة علكاً.. ولا يهضمون.

إلى ان يصل بنا نزار في نهاية المطاف إلى القول.. رأيت العروبة معروضة في مزاد الاثاث القديم.. ولكنني ما رأيت العرب.

وبالمقابل دفع إلى شاعرنا المبدع عبدالرحمن رفيع اخيرا بقصيدة تحت عنوان.. من هنا.. من الخليج.. قصيدة تفتح كوة الضياء وسط ظلام الواقع.. تبعث في النفس الامل الحلو.. وتجعل الانسان يمتلك شجاعة القول انني خليجي.

تأملوا ماذا قال في بعض أبيات من هذه القصيدة الطويلة:

من حقيبة النفط يصمد مرة أخرى　　يُثري الحياة كما من نفطه أثرى
قفوا جميعا له.. ان الخليج بدا　　من الجهالة، من اسمالها تعرى
خمسون عاما مضت/ شاد الاساس بها　　واليوم ينهض حتى يدخل العصرا
مرت عليه قرون وهو ليس يعي　　أن الحياة صراع، لعبة كبرى
لكنه اليوم يجتاز المدى، ويرى　　أن الحضارة ليست سلعة تشرى
ما عاد بائع نفط، مثلما زعموا　　بل رائدا يصنع التاريخ والفكرا

***

يريد ايصال ماضيه بحاضره　　والشرق بالغرب.. لا يمنى ولا يسرى
يريد، يبتدع الدنيا فأول ما　　كان البديع هنا.. أسفارها فاقرا
غصنا على الدر من بدء الوجود فلم　　ير الوجود قديماً.. مثله درا
ومن شواطئنا رف الشراع فسل　　أمواجها والصواري.. انها أدرى
واليوم ها نحن نخطو مثل خطوهم　　نخط سطرا.. كما خطوا هم سطرا

حياك الله أيها الصديق الشاعر وزادك الله ابداعا فوق ابداعك لتغني للحياة... للأمل.. ولتنتشلنا من وهدة الألم ومعاناة الذات.

البحـــرين
فوق الجميع

أنا على ثقة كاملـة بأن البحرين سوف تعلو فوق جـراحها.. وتداوي أدواءها.. وتسترد عافيتها وصحتها الموفورة والمتجددة بالحب وحده.

فالحب يصنع الأعاجيب بـالنسبة للأفراد والمجتمعات والشعـوب، انه يشفي الصدور ويعـزز انتماء المحبـوب لحبيبـه.. ولا ينكر احـد ان الحب الكبير مـوصـول بين البحـرين وشعبها.. كل شعبها.

الكل يحب محبوبته بطريقته الخاصة.. لكن الكل ايضا يحافظ على محبوبته.. يتعشقها الجميع على البعد وعلى القرب.. فهي المحبوبة.. هـي الغرض.. الهدف.. الغاية.. حتى لو لم تدرك الغاية المبتغاة.. فالكل يذوب في معشـوقته هياماً.. يغني لها.. يتلاشى فيها حتى ولو لم ينل لمسة من يدها.. أو نظرة من طرف عينيها.

هذه دائماً علاقـة الشعوب بدولها.. بأممها.. وهـذا الذي اعرفه هـو ان شعب البحرين عاشق لبلـده.. وذلك العشق النادر يجعلني على ثقة تـامة بأن ما حدث أو يحدث مـا هو الا أمـر عـارض مصيره الى زوال.. حيث يـذوب الكل في واحد.. وينصهـر الجميع في بـوتقـة الانتماء الذي تعززه المحن دائماً، وتصقله التجارب، وتفصح عنه المواقف.

ومادام أحـد لا يشك في حب أحد لمحبوبته البحـرين.. فان الغمة لابـد زائلة.. والسحب المجتمعة سوف تمطر محبة ومودة وخيرات تسقي الزرع.. وتحيي الأرض، وتنبت الورود والياسمين فوق هذه الأرض الطيبة.

ان هـذا ما لقنتني ايـاه خبراتي الطوال هنـا في البحرين وبينما أنـا أرقب كذلك أحـوال الشعوب في تقـدمها وانكسارها.. في نشـوة نصرها وعوارض هزيمتهـا.. في الصحوة وفي الكبوة ايضا.

وقد ادعى مثـلا - القـول - إن أفضل مـا أفصحت عنه حـرب عام (٥٦) أيـام العدوان الثلاثي على مصر هو ما تغنى به شعبها كله من أناشيد وقصائد ومواويل، لقد خرجت هذه الكلمات كلها من رحـم الأزمة.. ومن كبد الأمـة وقلبها وعقلهـا تعبيراً صادقـاً عن وجدان

الانسان المصري كله.. نشيد «الله أكبر فوق كيد المعتدي، مصر التي في خاطري وفي فمي، أحبها من كل روحي ودمي، وأفرزت نشيد: الى المعركة.. والمرشدين فوق السفينة، ونشيد: وطني وصباي وأحلامي.

جاءت الكلمات هذه تعبيرا عن عمق الانتماء، وعظمة الوحدة والتوحد.. ففي المحن يتعزز الانتماء.. ويعبر عنه الشعب بأكثر من معنى وموقف وكلمة.. بأدق حكمة.. بأحلى تعبير.

هكذا كان موقف شعوب عدة.. فالشعب الفرنسي عبر عن هذه المعاني في نشيده القومي «المارسيلييز» .. كما ان الانجليز لهم نشيدان أحدهما «احكمي يا بريطانيا». وكان لألمانيا نشيد «ألمانيا فوق الجميع».. ولكل نشيد تاريخ ومعنى.. وتعبير عن موقف شعب وأمة..

الكويت أيضاً غنت نشيدها «في موكب الخير والسماح تعيش مرفوعة الجناح» وبغداد «قلعة الأسود»، والامارات نشيدها «لعز الخليج ومجد العرب.. سنمضي الى يومنا المرتقب».

وللبحرين قصيد للشاعر محمدسليم فليفل:

نحن للبحرين شط العرب   هدينا الايمان من روح النبي

تدفع الخطوب نلتقي الحروب

في قلوب ملؤها عزم أبي

نحن أبناء العلا نحن المثل   في الأمان

قد وثبنا وثبة بين   الدول يا زمان

فلنا البحرين شطآن الأمل والجنان

كلنا ننادي نحن يا بلادي صرخة الجهاد في دنيا العرب

وللهند وضع الشاعر الكبير تاجور، نشيد «جانا.. جانا.. مانا» الذي رددته الملايين حباً وانحناء للهند.

«تباركت يا محرك العقل البشري..

يا من بيد مصائر الهند باسمك مقمر

قلوب الناس في البنجاب والسند

في جو جارات وماراتا، وفي الدرافيد»

وهكذا تتوحد الأمم وتتلاحم الشعوب في المحن وعند الألم فتخفق القلوب بحب عارم للوطن الأم.. من «المانيا فوق الجميع» الى «جانا مانا» الى «المارسيلييز» .. الى الكويت والامارات والبحرين..

نحن للبحرين والشط الكبير . والحدود

نسرع الوثب اذا دوى النفير يا جنود..

نحن حراس الحمى صوت المجير والبنود

كلنا ننادي نحن يا بلادي صرخة الجهاد

في دنيا العرب..

ولأن الحب.. حب البحرين مُعْتمل في حنايا كل انسان يعيش فوق هذه الأرض الوادعة.. ولأن الجميع يتعشقون الوطن على البعد وعلى القرب ولأن الكل يذوب في معشوقته.. يغني لها.. يتلاشى فيها حتى ولو لم ينل لمسة من يدها أو نظرة من طرف عينيها فانني اؤكد مرة اخرى ثقتي بأن البحرين سوف تعلو فوق جراحها وتداوي أدواءها.. لتصبح انشودة الحاضر والمستقبل.

البحرين فوق الجميع.. لأنها من أجل الجميع.

صـــــورة

صورة الشعوب.. وبيان مقدارها من السلوك الحضاري والتمدين الانساني.. والرقي في مدارج الحياة.. ورقة الشمائل.. كل ذلك تصنعـه سلوكيات أفراد المجتمع.. أي مجتمع.. ومن خلال هذه السلوكيات تتحدد مـلامح الصورة.. بهاء ونضارة.. تقدما وازدهارا.. ثم يجمع اطار ذلك كله سياج من التراث العريق.. والتقاليد الراسخة المتينة المضيئة التي عادة ما تصنع التقدم إلى الأمام ولا تجر الركب العام إلى الخلف.

ومنذ حضوري البحرين وملامح الصورة تتشكل في خاطري.. في وعيي.. في كياني كله بقدر مـا جبت هذه الـدروب.. وبقدر مـا اختلفت إلى أماكن وعـاشرت الناس في كل مـوقع ومكان.

الصورة تكـونت رغم انها متباينـة الخطوط متمايزة الملامح.. دقيقـة التعابير.. كثيرة الألوان والأشكال.. من رجل الشارع إلى من هـم في قمـة المسئولية.. من وسط العارفين الى تكوينات العارفين من ذوي الفكر والعلم.. بل ان الملامح حـددتها معاملات يومية بسيطة في الاسواق.. وخـلال السعي الى الأرزاق.. ومن ثنايا علاقـات المودة الاجتماعية والعطف الانساني النبيـل.. لن استطرد في رسم مـلامح صورة البحـرين التي عايشتهـا وعشتها وعرفتها.. فقط أقدم صورة داخل الصورة.. رسمتهـا خطوط وألوان أبدعها نبل انسان، وخطها يراعه عندما واجهتني أزمة من أزمات الحياة اليومية العارضة.

الصورة كما حدثت تفصيـلا وبكل أمانة النقل ودقة الحس والمشـاعر هـي: كنت عائدا من عملي شتاء.. وكان الوقت متأخرا نسبيا.. الثامنة مساء أو ما قبلها قليلا وفي ذلك الوقت في شوارع البحـرين العلوية يكـون الجو مظلما بل موحشا إلى حـد ما.. حركـة السيارات قليلة جدا.. الناس قد لاذوا ببيوتهم حذر البرد.. الآباء والأمهات سعوا لى بيوتهم استعدادا لرحلة أولادهم الى المدرسـة صباح اليوم التالي.. كنت أقـود سيارتي مسترسل الفكر فيما كان وفيما سيكون من أمر العمل والحياة.. وفجأة «عملتها» السيارة.. وتوقفت عن السير في هـذا الجو البـارد.. والليل الموحش.. حـاولت ادارتها من جـديـد دون جـدوى.. أطلقت اشارات التوقف وانتظرت آملاً المساعدة.. لكن أحدا في هذه الساعة لم يتوقف.. ماذا أفعل؟ والعثور على تاكسي ايضـا امر صعب في هذه الحالة.. وفجأة أقبلت سيارة تتهادى وتوقفت خلف سيـارتي.. وكـانت المفاجأة.. سيـدة في منتصف العمـر تـرتـدي حجابـا لم يخف ملامحهـا الرقيقـة الطيبة الودود.. ولم يطـو جمالا واضحـا.. ورغم لمسـة اهتمام مفعمة

بالثقة فإنها سألتني في حزم جاد ما إذا كنت في حاجة الى مساعدة فأجبت شاكرا.. أنا في انتظار احد يقيل عثرة سيارتي.. كان واضحا ان احدا منا لا يعرف الآخر.. لقد جمع بيننا هذا الموقف فبادرت الى مساعدتي.. حاولت تشغيل السيارة فلم تفلح.. فبادرت فاصطحبتني في سيارتها لإحضار ميكانيكي من مكان معين.. ترددت خجلا.. إلا ان شهامتها الأصيلة أبت إلا المساعدة.. ولم يكن لي في الأمر حيلة.. وانطلقنا في تلك الساعة التي قاربت الثامنة والنصف مساء. وطوال الطريق لم يجر بيننا حديث.. كان الصمت الوقور هو ما ربط بيننا.. ثم كلمات شكر رحت أزجيها إليها بين آن وآخر على ما أسدته إليّ من معروف.. ولم يفلح الميكانيكي في إصلاح فساد السيارة.. واضطررنا الى العودة بالميكانيكي الى حيث جئنا به.. فلم أرد ان أتركها تعود به وحدها.. وعدنا.. رحت ارجو هذه السيدة الفاضلة ان تنصرف وتتركني أواجه مصيري.. فالليل يتقدم.. وهي أمرأة وحيدة، وجاء صوتها حاسما شهما.. لو كنت مكانك لسارعت بمساعدتي يا رجل..

وفجأة أطلقت هذه السيدة الفاضلة نظراتها على الجانب الآخر من الشارع تبحث لي عن معين.. ترقب السيارات التي تمرق الطريق بسرعة هائلة.. وكان الفشل نصيبنا..

قالت في نبرة واثقة.. لم لا تحضر بترولا.. فقد تكون هذه هي المشكلة.. وأحسست من نبرة صوتها وكأنها تواجه مشكلتها الشخصية.. خجلت من نفسي.. وألححت عليها بالانصراف.. فأبت بل انها اصطحبتني في سيارتها وأحضرنا البترول.. وراحت تبحث في جدية وسط الخلاء عن ورقة مقواة.. قطعة صفيح تصلح لسكب البترول داخل السيارة مما آثار اعجابي وتقديري.. وأفلحنا في صب البترول.. واحتلت السيدة مقعد القيادة محاولة إدارة السيارة فلم تفلح.. واخذت أنا مكاني محاولا بدوري فأفلحت ودارت السيارة.. وعلت وجهها الطيب آيات البشر ثم لوحت بيدها الكريمة «في أمان الله» وانطلقت.. وحتى الآن لم اعرف من كانت هذه السيدة؟.. لكنها واحدة من البحرين التي ساهمت في صنع صورة البحرين الحبيبة التي عرفتها ولم أعرف غيرها.. دخلت اطار الصورة الكبيرة.. صورة الحضارة.. الحب.. رقة الشمائل.. حسن المعاملة.. شهامة العرب.. عظمة الانسان..

و.. عدت
يا عيــد

هذا العيـد الذي جاء والعيد الـذي كان على مدى الأزمـان تتوالى أيامه وسنـواته.. هل يكرر نفســه وايامـه فلا يتغير ولا يتبدل وكأنــه مرجـوع القول والفعل؟ حتى تفـاصيله الصغيرة جدا هـي أيضاً تتكرر في داخلنا وفيما حولنا فنردد مع الشاعر:

عيــد بأيــة حــــال عـــدت يــــا عيـــد   بما مضى أم لأمـــــر فيك تجديـــــد

ودعونا لا ننساق مع هذه المعاني ما دمنا نعيش أيام العيد، ومفروض علينا أن نعيشها ونحياها، نبحـث عن الجديد في هذا العيد وغيره من الأعيـاد علها تبعث فينا يومـا جديدا.. وعيدا متجـددا.. نفتش في التفاصيل.. نجتر أيـامها الخوالي أيـام كنا صغـارا نتعلق بثياب الأب.. ونتشبث بحنان الأم.. ونتـوه مع فرحة الصغار منـذ بدايات أيـام العيد.. بل وحتى قبل بداياته أيـام وقفة عرفات حيث كان يدور اهتمامنا وينصب همنـا حول خروف العيد الذي كنا نطلق عليه في مصر «سعد» لست أدري لماذا؟ هـل تيمنا بزعيم مصر سعد زغلول.. لكن ما وجـه الشبه بين هذا وذاك.. هل كـان تعبيرا.. أم رمزاً، اعتزازا أم انهزامـا نعلن عنه بذبح سعد في النهاية ونحن محزونون عندما نرى يد الجزار تمتد بالسكين لتقطع الرقبة.. فتسيل الدمـاء.. وبعد سـاعة أو اقل يكـون اللحم فوق نـار الموقد.. فيسيل اللعـاب وتمتد الموائد.. وتحمل أنصبة من اللحم الى الفقراء.

.. هل نـرجع الى تفاصيل اخـرى كان لها رونق مع «عطيـة العيد» ثم تكبيرات الصـلاة المنغمة المحببـة ونحن نصلي مع الكبار في المسجـد الكبير.. ووسط حشد هـائل مقلدين غير مؤدين للصلاة.. وتتوه منا التفاصيل الخاصـة.. الصغيرة.. التي تكررت عدة سنوات حتى كبرنا.. وشببنا عن الطوق .. فعايشنا الواقع ولم تبق سوى الذكرى.

وتمضي أيام العيد متوالية كل عـام.. رتيبة.. متكررة.. حتى التفاصيل الصغيرة تتوه في نفوسنـا.. وتمحوها ذاكـرة الحياة التي طوتنا بأثقـالها ومشاغلها وهمومهـا.. وهمومنا العامة.. ورغم ان التفاصيل الصغيرة.. القليلة.. الباقية لنا تتوه منا وسط زحام الحياة فإن ملامح العيد تظل هي.. منذ وعينا هذه الحياة تزحم حيـاتنا بالأحزان القومية العامة حتى الآن..

في عام ٤٨ خيمت على أعيادنا أيام استلاب فلسطين والقدس منا.. وتسليم الانتداب البريطاني أرضنا الى المنظمات الصهيونية العنصرية.. وفي ظل أعيادنا.. طعنت بهجتنا مذابح دير ياسين ومعارك الصبحة.. وتخضبت أرضنا بدماء الشهداء.. ورحنا نتغنى باسم احمد عبدالعزيز.. والضبع الأسود.. وعبدالله التل.

وأطلت على منابرنا دموع الخطباء مع حناجرهم.. وهي تدعو على اليهود بالإبادة.. ولقومنا بالنصر.. ولنا بالوحدة والتوحد في مواجهة الخطر.. ومن فوق نفس المنابر أطلت الفتن.. وتوزعت عناصر الفرقة.. ونكّست أعلام النصر..

وأذكر اننا كنا نتغنى شعرا:

عيد الأضاحي للعروبة عيد ... ان زال من كل الوجود يهود
إن اليهود عناصر شريرة ... اجرامهم بين الورى مشهود

وتنتقص الأحداث من فرحة العيد.. ونحن نعيش عهودا من الفتن والحروب الداخلية.. والصراعات على السلطة بعد حرب عام ٤٨ وفي كل المواقع يلتفت كل منا الى شقيقه ليطعنه.. والعدو وراءنا يتوسع في طموحاته.. ويثبت أقدامه فوق ارضنا..

وتتوالى الاعياد.. ومعها.. وفي سمائها تخيم ظلمات الاحداث.. ليست نفس الاحداث.. لكنها فواجع من نوع آخر.. العدوان الثلاثي عام ٥٦، حرب وهزيمة ٦٧، ثم تشرق شمس عيد آخر مغاير لما سبقه من أعياد بانتصار اكتوبر ٧٣، لكننا نرتد الى نكستنا مرة اخرى بالحروب العربية العربية.. وبحرب الخليج المتوحشة.. واحتلال الكويت وما سبقها وما لحقها من عار وشنار.. ودمار.. مازلنا نلملم آثاره حتى الآن.

وعلى الجانب الآخر.. تدوي من فوق منابرنا.. الدعوات بالنصر.. بالوحدة.. بكسر الاعداء، بنصرة الأصدقاء المكلومين في البوسنة والهرسك.. في الشمال العراقي.. في الشيشان.. في الصومال.

ويأتي العيد.. وتنتقص من بهجته هذه الأحداث التي تتوالى على مدى الأعياد.. وتبقى التفاصيل الصغيرة.. الباقية في مخيلتنا.. في ذاكرتنا هي التي نقتات عليها.. وعليها نتوكأ.. محاولين استثارة معاني النخوة والجهاد والتضحية والفداء في نفوسنا مع كل عيد.. فالمعاني التي رمز اليها عيد الأضحى.. وفداء اسماعيل بذبح عظيم تظل ماثلة في الأذهان والآذان.. تستحثنا ان نعي معناها.. ونحول رموزها الى واقع يحيي أمتنا من كبوتها..

ويخلق الدافعيـة الحقيقية فينا كأفـراد وجماعات وطوائف كي نعلـو على ذواتنا ونتجنب شهواتنا ونـؤاخي بين بعضنا البعض على امتداد الأقاليم العربيـة وداخل الاقليم الواحد.. ومع ذلك تتكتل سحب الفتن.. وتستثار فينا عوامل الفـرقة داخل كل قطر.. فاذا نحن نهب التمزق.. التطرف.. العنف..

ويأتي العيد.. وتتوه التفاصيل الحلوة.. والمرة.. وتبقى فقط هـذه المعاني الكابية باقية فينا.. سابحة في نفوسنا ونردد مع الشاعر.. عيد بأية حال عدت يا عيد..

فمتى نتزود من العيد بأغلى معانيه.. معاني الـوفاء والفداء.. والتآخي ونعلي كلمة« الله اكبر» فوق كل الـرؤوس.. ولا نكتفي بترديدهـا فقط.. متى.. متى.. حتى تتـوه التفاصيل الصغيرة فلا نحزن عليهـا.. أو ندمع من أجلها.. لأنها ستخلي الساحـة لمعان أخرى كبيرة مبهجـة في حيـاتنـا.. معـاني العـزة.. والكبريـاء.. والانتصـار على الأعـداء، وعلى ضعف نفوسنا.. وتعود سـاحتنا العربية والإسلامية الى نقائها.. ونصـاعتها.. وأمنها.. ونقول.. مرحبا بالعيد..

آيات في الرشد والتجريـــد

كلما أهل علينـا موسم الحج تـداعت على خـاطري أفكـار عدة لا تمس هـذه المناسبـة القدسية وحدها.. طقـوسها ورموزها بل تمتد لتشمل العقيدة الإسلاميـة بكاملها.. بكافة أبعادها العقدية الايمانية التوحيدية والتي تسيطر عليها في شتى مناحيها فكرة واحدة هي التجريد لا التجسيد.

ومن يتأمل ما تنطوي عليه العبادات من أحكام وطقوس ورموز ومنها أحكام الحج من طواف، ورمي للجمرات، وسعي وتقصير، وتلبية واحـرام وحلّ. يدرك ان هذه كلها رموز لمعان ودلالات لشعائر التوحيد.. والتجريد.. حيث الكل في واحد.

اذكر انني عندما كنت أطوف بالكعبة المشرفة ذهلت خلال تطوافي هذا عن البيت المعمور نفسه.. ووجهت نفسي بكاملها نحو اللـه أدعو.. وأدعو فلم أشعر للحظة انني أدور دورات الطـواف حـول الكعبة.. وأدركـت ان المطلوب في هـذا الموقف هـو التجـرد ليس الا، نفس الشعور والمعنى طغى عليّ وأنا أسعى بين الصفا والمروة. لقـد شعرت بذلك الموقف النبيل للسيدة هاجر رضي الله عنها وهي تسعى مهرولة باحثة عن الماء لولدها إسماعيل.. فمازال السعي مطلوبا إلى الآن.. ليس بين الصفا والمروة وحدهما. بل هو سعي مطلوب ومفروض في الحياة.. نقطعه أشواطا وأشواطا.

ولم يكن رمي الجمرات بعيدا عن معاني التجريـد وتحويل الرموز والطقوس إلى معان مجردة.. فنحن نرجم الشر والشرك داخل نفوسنا الى الأبد والشيطان رمز لكل ذلك.. فهو ليس ذلك الحجر الشاخص الذي نرجمه انه في داخلنا.

وهكذا ينقلنا الإسلام من الطقوس الى المعاني المجـردة التي تصاحبنا على مدى حياتنا وتحكم تناولنا لأمور العبادات والمعامـلات.. انه يسعى بنا دائماً من المحسوس الى المجرد والمطلق.. وذلك هو منتهى الرقي في التناول سـواء في الفن والأدب أم الدين، ومنذ اكثر من

١٤٠٠ سنة جـاء الاسلام في جوهـره صورة مثلى للتجريد.. خـاصة في المسائل العقـدية، يتجاوز المحسوس الى المطلق.

ولو ان أحداً لا علاقة له بالإسلام شـاهد مسلما في الخلاء واقفاً يؤدي حركات الصلاة لأخذته الدهشـة بغتة ولتملكه العجب ولتساءل.. ما الذي يفعلـه هذا من حركات.. فليست أمامه أيقونة أو تمثال أو جذوة نار يتوجه إليها بهذه الحركات.. وهو لم يدرك أن المسلم في موقفـه من الخالق وتوجهـه اليه قـد تجاوز المحسوس والملمـوس في المكان والـزمان الى المجرد.. والمجرد هنـا ليس له مكان ولا زمان أو حيّـز.. منتهى الرقي.. التعقل.. الحكمة في التوجه الى الله الذي ليس كممثله شيء.

وفي القـرآن الكريم آيـات بينات تمس العقيـدة والايمان والاعتقـاد وهي آيات قمـة في التجرد عنـدما تتحـدث عن الله.. عن الكون... ﴿اللـه نور السمـوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصبـاح في زجاجة، الزجاجة كأنها كـوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار.. نور على نور﴾.

وعند الله الأحـد.. الفرد الصمد.. تنتقل حركـة فكرنا من المحسوس إلى المجـرد كذلك، فإن القصص القـرآني يحمل من الـرموز ذات المعـاني المجـردة التي لا يحدها زمـان ولا تاريخ أو واقعة ما.. في زمن ما..

فرعون مصر.. صورة تجسد الديكتاتـور في كل زمان ومكان.. انه فرعون لا اسم له.. لأنه يـوجد في كل مكان وزمـان.. كذلك قارون صورة اخـرى نجدها ونعثـر عليها في كل زمان ومكان فلا تخطئها العين أو يتجاهلها الفكر الثاقب.

الأمثلة كثيرة.. متعددة تتجاوز المحسـوس بحيزه مكانا وزمانا، وتتعـداه بالتجريد الى المطلق الذي يعانق كل زمان ومكان.. وعصر وأوان.

حتى الفن والزخرف الإسلامي من أرابيسـك وغير ذلك يتسم بالتجريد.. وكلما ارتقى الفن والأدب في مدارج الابداع اتسم بـالتجريد ونحا منحى الـرمز من فن تجريدي، وأدب رمزي، ومسرح ذهني.

وهل ثمة عقلانية وتجريد في الإسلام اكثر من ذلك؟! وعندما أكد الإسلام ان محمداً خاتم الأنبياء والمرسلين ولا نبي أو رسولا بعده انما أكد ذلك استشرافا واستقراء لتطور البشرية عبر قرون عديدة حتى الآن وبعد الآن.. لقد استشرف الاسلام المعنى وقرأ الحكمة وقادنا إلى التطور الحادث بعد أن بلغت البشرية رشدها.. والا فليقل لي أحد هل من المنطق والمعقول أن يأتينا أحد الآن ونحن نخطو خطونا إلى القرن الواحد والعشرين بكل آفاقه وتوقعات انجازاته فيدعي النبوة أو انه حامل رسالة؟ هل يتقبل أحد الآن في هذا العصر هذه الدعوة أو ذاك الادعاء..؟ بالطبع لا.. فمنطق تطور البشرية يرفض هذا عقلا.. ونقلا.. تطورا وتقدما.

ومنذ اكثر من ١٤٠٠ سنة جاء الاسلام مؤذناً بأن البشرية قد بلغت رشدها، واكتمل لها عقدها وعقلها فتجاوزت سذاجة المحسوس إلى عملية التجريد وفرضيات المطلق، فجاء الإسلام آية في الرشد.. وتعبيراً عنه.

في ذكـــــــرى
اغتصاب فلسطين

و.. وقـد مرت بنـا ـ منـذ أيام ــ دون أية ضجـة أو عبرة ذكرى استـلاب فلسطين ثم احتـلال القـدس وتهويـدهـا رويـدا.. رويـدا وفق مخطط مـدروس يجري تنفيـذه منـذ الستينات.. نقول: أما وقد مرت بنا هذه الذكرى هكذا؛ أما من وقفة مع الذكريات ـ حتى لو كانت مؤلمة ـ كي نترحم على شهدائنا ونتذكر ابطـالنا الأوائل الذين جاهدوا فينا، وحاولوا منع هذه المأساة فما استطاعوا، كل ما إستطاعـوه هو ان يقدموا ارواحهم من البداية فداء لفلسطين ــ قبل ان تعتـزم الجيـوش العــربيـة دخـول ارض فلسطين عـام ٤٨ لسحق العصابات الصـهيونية المزعومة كما ادعو ايـامها ـ كان الحس العربي القومي والإسلامي اسبق الى ادراك عمق المأساة، ودقة المؤامرات الدولية لاغتصاب فلسطين العربية وتقديمها فريسـة سهلة للعصابات الصـهيـونية.. لم ينتظر أبنـاء مصر والعرب قرارا بالـدخول في الحرب بل شكلوا فرقا من المجاهدين المتطـوعين بقيادة القائم مقام (المقدم) الشهيد احمد عبدالعزيز وكان ضابطا في القوات المسلحة المصرية، وانضم اليه رفاق له في السلاح منهم عضو مجلس قيادة الثـورة في مصر لاحقا الصاغ «الرائد» كمال الـدين حسين وعدد آخر من جنود واطباء وبعض المتطوعين من السودان.. وكان الرأي ان الدخول في حرب رسمية بالجيـوش العربية في فلسطين خطأ.. وأنه من الافضـل الدخول مع عصابـات صهيون في حرب عصابات.

لم ينتظر هؤلاء المتطوعون موافقة القـوات المسلحة المصرية.. بل قدم احمد عبدالعزيز ورفاقـه استقالاتهم من الجيش، وتقـدموا في كتائب الجهـاد الى فلسطين، واستطاع احمد عبدالعـزيز ان يفتح طريقـا لقواته بين المستعمـرات الاسرائيلية حتى وصل الى بيت لحم، وغنم هـو ورجـاله اسلحـة وعتـادا ثقيـلا وخفيفـا من عصابـات اسرائيل.. كـانت هـذه العصابات تـرتعد فَرَقا من احمد عبـدالعزيز وقواتـه.. كانوا يقولـون عنه نحن لا نخشى الدخول في حرب مع قـوات عربية نظامية أو جيوش عربيـة فهؤلاء كلهم جنود محترفون للقتال أما امثال احمد عبدالعزيز ورجاله فهم هواة قتال وطلاب شهادة.. لذلك اطلقوا على احمد عبدالعزيز اسم «المرعب».

وتقدمت قوات الشهيد احمد عبدالعزيز الى قرابة كيلومترات عدة من تل ابيب.. وعندما

دخلت الجيوش العربية الحرب العنترية في فلسطين سبقتها دعايات ضخمة واقوال سانجة عن رحلة عسكرية سهلة تلقن العصابات الصهيونية دروسا وتؤدبهم وتردعهم عما يفعلون وعما فعلوا في دير ياسين ودير سنيد وغيرهما.. كانت قوات الاردن بقيادة جلوب باشا والقدس تحت قيادة الكولونيل عبدالله التل.. واستطاع احمد عبدالعزيز ورجاله ان يسهلوا اختراق القوات المسلحة المصرية للمستعمرات الصهيونية.. كانت قوات المجاهدين تسلم القوات المصرية مستعمرة بعد مستعمرة.. واحاطت بأحمد عبدالعزيز هالة من البطولة.. كانت أشبه بالأساطير وحكايات عنتره بن شداد.

وكان مساء يوم ٢٢ اغسطس من عام ١٩٤٨.. كان يوما حزينا مؤسفا لطخ جبين كل انسان عربي بعار ما بعده عار.. فما الذي حدث؟

ما حدث نعرفه.. وعرفناه منذ قتل احمد عبدالعزيز برصاصة عربية وياللاسف.

وأترك التفاصيل يرويها الزميل الصحفي المخضرم الاستاذ جميل عارف في كتابه الاخير بارونات الصحافة المصرية.. فقد كان - والعهدة عليه - متواجدا بين المتطوعين كمراسل صحفي في فلسطين وقتها.

ذكر جميل عارف ان البطل احمد عبدالعزيز غادر مقر قيادته في المدرسة الثانوية في بيت لحم مستقلا سيارة جيب والى جواره المرحوم صلاح سالم متوجها الى غزة لمقابلة القائد المصري اللواء احمد المواوي للتباحث معه حول سير المعارك ودور المجاهدين المتطوعين وحاول الصاغ (الرائد) معروف الحضري وكان واحدا من الضباط المتطوعين ان يثنيه عن المغادرة ليلا وليذهب الى غزة في الصباح الا انه أبَى.. وكأنه يسعى الى حتفه.. انطلق احمد عبدالعزيز ليلا وامام بلدة بيت جبرين وعلى مسافة عدة كيلومترات من الفالوجة اصيب الشهيد البطل احمد عبدالعزيز برصاصة قاتلة.. وقيل ان هذه الرصاصة انطلقت من خطوط القوات المصرية وان احد الجنود المصريين سأله عن كلمة سر الليل ولما لم يتلق الرد اطلق رصاصته لتنقلب السيارة ويستشهد البطل المرعب الشهيد احمد عبدالعزيز ويصاب صلاح سالم برصاصات غير قاتلة ويسدل الستار على قصة بطولة عربية صنعت بدمائها اروع آيات الفداء والجهاد.

وللحديث بقية مع القدس العربية.

مسلسل ضرب
الزوجـــــات

إذا كنا قد نعينا سابقا على بعض النساء قساوتهن التي يخفينها وراء نعومة ملمسهن، مما آثار غضب الكثيرات علينا، وليس لنا مهرب من غضبهن، رغم هذا فهن شقائق نفوسنا ويعشن تحت جلودنا وفي اعماق قلوبنا، الا اننا ـ وليس هذا استرضاء لهن أو تزلفا اليهن ـ لنا وقفـة امام بعض الـرجال ذوي القسوة الظـاهرة، والخشونـة القاتلـة في تعاملهم مع زوجاتهم حيث يمارسون معهن أسـوأ معاملة تصل أحيانـا الى الضرب الموجع مما جعلنا نشهد هـذه الأيام مسلسلاً جـديداً اسمه ضرب الـزوجات من قبل الأزواج غـلاظ الأكباد القاسية قلوبهم من الذين أساءوا فهم حكم الشرع حينا ومارسوه بجهل أحياناً أخرى.

وليس بعيدا عن اسماعنا قضية زوج ضرب زوجته وشـوه وجهها، كما انه ليس غريبا عن الواقع ما تزخر به ملفات المحاكم من دعاوى ترفعها زوجات يشتكين فيها الى الله والى القضاء ضرب ازواجهن لهن ضربا مبرحا يكسر الضلوع والأطراف حتى ان بعضهن طلبن التطليق للضرر، واذا فشلن في اصـدار الحكم ـــ وكثيرا مـا يحدث ذلك ـ هـربن الى بيـوت أسرهن فرارا من ذلك الايذاء المبرح.

روت لي احدى الاخصائيات النفسيات وغيرها من طبيبات كيف ان الكثيرات جئن اليها باكيات شاكيات من ضرب أزواجهن لهن.. ولسنـا في هذا العرض مبرئين الزوجة دائما من تصرفات مستفـزة.. أو من سلوكيات تـدخل في باب النشوز شرعـاً لكن ذلك كله لا ينهض أبدا مبررا كي يعتدى الرجل على زوجته بالضرب متصـورا انه بذلك يطبق شرع الله اذا ما خرجت الـزوجة عن طوعـه أو قلبت له ظهـر المجن بل ان كثيرا من الازواج يفسرون آيات القرآن الكريم تفسيرا ينطوي على جهل يتجاوز في معناه ومفهـومه غاية التشريع.. فالآية الكريمة من سورة النساء تقول: ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم، فالصالحات قانتـات حافظات للغيب بما حفظ الله، واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضـاجع.. واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ان الله كان علياً كبيراً﴾.

(آية/ ٣٤)

(صدق الله العظيم)

ولقد اجمع علماء المسلمين وفقهاؤهم دون استثناء على ان الضرب المقصود وفقا للتدرج التشريعي ليس هو الضرب الموجع أو المبرح انما الضرب برفق بما يظهر فقط غضب الزوج واستياءه وعدم رضاه عن سلوكها.. وليس المقصود هو ذلك الاعتداء المادي الموجع الذي يؤلم أو يشوه..

وكما نعرف فإن اجماع علماء المسلمين هو مصدر من مصادر التشريع الاسلامي الملزم لعامة المسلمين، وعلى هذا الاساس يجب الالتزام به، وعلى القضاء التشدد في تطبيق حكم الله والشرع فلا يتسامح أبداً في تجاوز بعض الأزواج لحكم الشريعة أو حكمة التشريع بالاعتداء على الزوجات اعتداء مبرحا بالضرب المؤذي حتى تنتهي هذه السلوكيات الخاطئة الجاهلة من قبل بعض الأزواج.

ولا يسعني في ختام هذه السطور الا ان أروي واقعة رُويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تدور حول انه صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فوجد رجلا يرفع يديه الى السماء يدعو ويستمطر لعنات الله على زوجته، طالبا القصاص منها، فأشار رسول الى ان الله لن يستجيب لهذا الرجل الزوج.. لماذا؟ لأن هذا الرجل الذي بلغ به الضيق مبلغه من زوجته مما حدا به الى الدعاء عليها بين يدي الله كان بإمكانه بدلا من ذلك ان يمارس رخصته التي منحه الله اياها وهي الطلاق.. ولو شاء لطلقها بدلا من أن يدعو عليها أو يضربها.

الذين علمونا
الحياة والصحافة

الذين علمونا في العمل وفي الحياة كثيرون.. تركـوا بصماتهم علينا.. نقشوها في عقولنا وقلوبنـا ايضا، وداعبـوا بها نفوسنـا فنظل نذكـرهم ما حيينـا وان ودعوا هـم الحياة أو فارقـوها وفـارقونا.. ولكم كنـا آسفين لفراقهم وعلى فـراقهم اسفنا على فـراق الحكمة.. والمحبة.. وتجربـة الحياة.. ولن استعير هنا عنوان كتـابات الاستاذ الكبير الراحل سـلامة موسى «هؤلاء علموني» لكنها وقفات على طـريق الحياة التي امتدت بي الى هذا العمر الذي اختطلت فيه رؤية الحياة العامة بـالحياة العملية والصحفية. بالتجارب الصغيرة والكبيرة في الصغر وعند الكبر.

سأضرب صفحـا الآن عن تجاربي مع الـذين علمـوني صغيرا في البيت والمدرسـة والشـارع وان كنـت سأعود اليهـا مرة اخـرى لأتوقف في شـارع الصحافـة.. وفي شارع الصحافة اذكر الآن ثلاثة من الاعلام.. الأديب يوسف السباعي رحمه الله، الراحل الكاتب الصحفي صلاح حافظ.. العالم الفيلسوف محمود أمين العالم.. هؤلاء الثلاثة عملت معهم وسعدت بذلك أيما سعادة.. لمست فيهم وبـالقرب منهم معالم عظمة لا تغيب ولا تغيض في النفس أبداً.

كان يـوسف السباعي اديبا قبل ان يكون صحفيـا.. لكن الحياة السياسية بعـد الثورة اقحمتـه في عالم الصحـافة ليترأس تحريـر مجلة «آخـر سـاعة».. كـان هذا الـرجل دائماً مبتسماً.. يدعوك بابتسامته الى الابتسام.. ويـدعوك في الواقع الى الإحساس بالبهجة، كان يصدر مقالاته بكلمة.. لا اجد على شفتي كلما التقيت بك سوى أهلاً.

و«أهلاً» هذه كانت سمة أساسية في شخصيتـه.. مهما كنت منفعلا.. غاضباً.. وما اكثر غضبنا الصحفي.. وانفعـالنا معـه وبه.. فما ان تدخل عليـه مكتبه حتى تقـابلك وداعته.. وابتسامتـه العريضـة الصافية جـدا حتى ان من يرقب حجـرة الراحل السبـاعي ليرصد الداخلين الى مكتبه والخارجين من الصحفيين والكتاب والفنانين لابد وأن يدرك هذه السمة وقد تـركت آثارها على وجـوه جميع الذين قـابلوه وخرجـوا من مكتبه والابتسامـة تعلو شفـاهم.. وكنت واحدا من هـؤلاء.. فما ان يبلغ بي الغيظ مبلغـه لأسباب صحفيـة وحتى شخصية خاصة بـالنشر أو من باب مقالب المحررين حتى أندفع إليـه في حجرته.. وما هي

سوى برهة صغيرة أخرج بعدها مبتسماً.. لقد علمنا هذا الرجل معنى الحب.. حب الحياة والناس، واستطاع ان يجعلنا ندرك حقيقة هامة وهي ان أي شيء في هذه الحياة لا يستحق ان تنفعل غضباً منه أو حتى أسفاً عليه.

أما الراحل العظيم والكاتب الصحفي صلاح حافظ فكان له اسلوب آخر في إعادة صياغة الحياة معنا ومن حولنا.. كانوا يطلقون على مجلة «آخر ساعة» لفظ «الغابة» تعبيرا عما تمور به من صراعات بين المحررين والمحررات.. والمسئولين وغيرهم.. حتى انهم كانوا يطلقون على كل محرر اسما من أسماء قاطني الغابة.

وأدرك صلاح حافظ ان العمل لابد وان يحكمه منطق الأسرة لا الغابة فرتب ـ لأول مرة في تاريخ الصحافة على ما اظن ـ لقاءات أسرية بين زملاء المهنة في «آخر ساعة».. كان يوم الثلاثاء من كل اسبوع اشبه بعطلة للعاملين بالمجلة.. وخصص هذا اليوم للقيام برحلة الى خارج القاهرة.. ينطلق فيها الجميع معاً على سجيتهم.. يمارسون اخوتهم وحياتهم دون قيود أو رسميات أو حزازات عمل..

ونجح صلاح حافظ ومعه الفنان «بيكار» في إعادة صياغة الحياة الحلوة من جديد في «آخر ساعة».

وفي عهده عملنا معا كأسرة واحدة.. كان هو الراعي والأخ بل والعون.. فإذا ألمت بالمحرر مشكلة عاطفية أو أسرية أو حتى مالية أخذ على عاتقه مساعدته في حلها.. كنا نلجأ إليه بحب.. وكان هو ايضا يمد يده إلينا بحب اكبر.. وبذكاء نادر.. ووفاء عجيب.. وتلك حكايات لا تنتهي عن هذا الرجل.

وحكايتنا مع الفيلسوف والأديب الكاتب محمود أمين العالم تحتاج الى مجلدات منقوشة بحروف من الذهب، مرصعة بآيات الوفاء.. ترأس هذا الرجل مجلس ادارة «أخبار اليوم»، فكان قمة في التواضع، يذوب رقة.. مثلما يذوب فناً ورجاحة عقل.

لا يركب سيارته التي خصصتها له المؤسسة الا بجوار السائق، يأكل معه «ساندويتش» الفول والطعمية.. صباحاً.. فإذا جاء موعد الغداء كان سائقه معه.. ومعه ايضا من قاده حظه ان يركب سيارته أو يتواجد في مكان وجوده اجتماعا أو نقاشاً.

بعفويته ورجاحة عقله أحبه الجميع حتى الذين اختلفوا معه في الاتجاه والرأي، ودفعني حسن حظي الى الاقتراب من العالم.. محمود العالم..

كنت قد كتبت قبل مجيئه الى المؤسسة سلسلة من التحقيقات والدراسات وضعت في الأدراج ولم تجد طرقا للنشر، وفي اجتماعه معنا لإشرافه على قسم الشئون العربية في

مؤسسة «أخبار اليوم»، سألني الرجل عن مقالاتي وتعليقاتي.. فلما اخبرته بأنها حبيسة الأدراج طلبها.. وأفرج عنها وعني.. وكلفني بالسفر في رحلة صحفية الى كل من الاردن ولبنان وسوريا لمراقبة الاوضاع المتوترة هناك بين الملك حسين والفدائيين قبل «أيلول الاسود».. اذ كانت الاجواء كلها تنذر بالصدام.. قال لي «العالم» اذهب وراقب ولا تكلف نفسك ان تكتب شيئاً.. ثم عد واكتب ..

وبالطبع ملأت الصحف الثلاث «الاخبار» و«آخر ساعة» و«أخبار اليوم» من الاردن وسوريا على مدى ثلاثة اشهر كتابة عن الفدائيين الفلسطينيين، والصدام المحتمل، فلما عدت قابلني بالأحضان.. لكن الفرحة لم تكتمل.. فقد أبعدوا «العالم» عن «أخبار اليوم» لتعود «ريمة الى حكايتها القديمة»!

وافتقدنا نحن صغار المحررين.. العالم.. الأستاذ الفيلسوف.. الذي علمنا كثيرا..

وللحديث صلة عن هؤلاء الذين علموني..

.. و .. يبقى
هو البطل الحقيقي

جلست أتأمل البث التلفزيوني المباشر وغير المباشر لما سمي باللحظة التاريخية لتوقيع اتفاق .. غزة ـ أريحا بين الفلسطينيين والاسرائيليين في هذه اللحظة استجمعت أحداثاً متعددة ومتنوعة عاشها الصراع العربي الإسرائيلي.. الصهيوني حول الأرض العربية التي سلبت في فلسطين وأراض أخرى.. وأدركت للوهلة الأولى والأخيرة أيضاً أن هذا عدو ما من صداقته بد.. تماما أنه ما من عدواته بد أيضاً فعندما تختلط الرؤى التكتيكية بالرؤية الاستراتيجية تمتزج العدوات والصداقات.. فمن كان عدو بالأمس هو صديق اليوم.. لكن إلى حين.. فالصراع العربي الإسرائيلي صراع أجيال تتخلله حقب يتجمد فيها بسبب صقيع العلاقات الدولية أو الحرب الباردة أو حتى الساخنة.. لكن هذا الصراع لا ينتهي أبداً.. والمهم أن ندرك نحن العرب ذلك ونعيه جيداً.

إلا أن ما شدني في هذه اللحظات التي جمعت عرفات وشيمون بيريز أبعد من ذلك كله.. فبصرف النظر عن المتغيرات الدولية، وتلون الأفكار الصهيونية أو المرونة الفلسطينية.. والتداخلات المصرية والوساطات الأمريكية والأوروبية.. والروسية.. بل وعلى الرغم من متغيرات الزمان والمكان، وتضخم الشعور بالهوان، فإننا نبقى أمام حقيقة أساسية لا يجب أن ندير لها ظهورنا أو نلتفت عنها إلى غيرها من عناصر هذا الصراع وهي أن الشعب الفلسطيني هو البطل.. أو هو بطل كل المواقف.. إن هذا الشعب الحر هو الذي قام.. وناضل وثبت ضد كافة الأعاصير الدولية والمؤامرات الأجنبية، أو حتى العربية والإخفاقات النفسية التي تعرض لها عندما أغلقت في وجهه كافة الحدود ورسف أبناؤه في شتى القيود.

فلو تعرض شعب آخر لِمَا تعرض له الشعب الفلسطيني من مؤامرات دولية للإبادة،

وشراك صهيونية للتصفية، وميول عربية للتمزق والاضطهاد، أو الاستيعاب لما كان له وجود ولما سمع أحد له صوت أو حتى صدى.

إن هذا الشعب.. رغم كل ذلك الحصار الذي كان مضروباً عليه غربياً وأوروبياً وصهيونياً ثم عربياً ظل يؤكد ذاته عبر نضالات متعددة.. بالسلاح.. بالعلم.. بالعصى.. بالخناجر.. بالإعلام.. بالثبات.. بجمع الثروات والتفوق في أسواق المال والتجارة.. بل وبالنضال والالتفاف حول المصاعب والمصائب التي ترد إليه من الخارج أو تنبت له في الداخل.

إن حيوية هذا الشعب.. هي التي رسخت وجوده حتى استعصى على الإبادة والاستيعاب رغم ما تعرض له من تصفية وهوان.

بين هذا الشعب أكبر نسبة من المتعلمين والأثرياء والمثقفين والمتخصصين على أعلى مستوى.

ومن بين ظلمات التحدي الذي واجهها هذا الشعب ولد المجاهدون والمجاهدات.. أمثال أبو جهاد.. أبو اياد.. أبو موسى.. ليلى خالد.

مارس هذا الشعب كافة أوجه النضال وألوانه من خطف للطائرات إلى تفجير المستعمرات وبناء الكوادر السياسية والعسكرية.. فقد آلاف الشهداء.. ولم ينثني.. أو يتهاون.. تسلح بمرونة ثورية عجيبة وإصرار نجده لدى كل فلسطيني صغيراً كان أم كبيراً فالعودة محتمة.. وفلسطين التي ذهبت سترجع مرة أخرى وأفرزت الرحم الفلسطينية المجاهدين والمجاهدات.

وتحسست ذلك بنفسي عن قرب خلال بدايات مرحلة أخرى من النضال العسكري والسياسي والفلسطيني انطلقت في يناير ٦٨ مع حركة فتح.. عشت في أغوار الأردن مع قيادات وكوادر فلسطينية.. أيام كانت العمليات الفدائية تنطلق عبر مياه نهر الأردن،

وكنت أستشعر الفخر عندما أسمع زغاريد أمهات الشهداء احتفاء بشهدائهم عندما يسقطون في عملية بطولية فدائية.. اقتربت منهم أيام أحداث أيلول عام ٧٠ . ولم ينسوا فلسطين أبداً.. وعرفتهم أيام مبادرة روجرز فلم يهنوا.

لقد كان هذا الشعب وما زال عجينة غريبة من الإصرار لم يهن ولم يحزن رغم سقوط الشهداء تلو الشهداء.. وقيود السجن.. واستطاع شعب فلسطين بعلمه وذكائه.. بتفوقه في بسالته أن يفرض وجوده داخل أرضه وفي خارجها.. في المهجر وفي كل موقع يجد فيه موطئا لقدم.. عرفناهم في مصر وفي الشوام.. عشنا معهم وعاشوا وما زالوا بين ظهرانينا فكانوا دائماً رواداً في التجارة وإدارة الأعمال.. في غير مصر ساهموا في بناء دول أخرى ورغم ما حققوه من نجاحات لم يتخلوا عن تعلقهم بالأرض وسعيهم إليها فكتبوا لشعبهم الحياة.. وأنني لعلى ثقة من أن الفلسطينيين قبلوا هذا الاتفاق كجولة لها ما بعدها وهم واثقون من أنهم بحيوية شعبهم قادرون على تطوير نضالهم ووجودهم، ولو فوق شريط صغير من الأرض فالاستراتيجية ثابتة.. والتكتيك المرحلي هو الذي يتغير. فتحية إلى شعب فلسطين وشهدائه على تحقيقه أعظم انتصاراته، وهي أنه بقي حيا.. راسخا.. ثابت القامة وانتصرت إرادته.. لأنها إرادة الحياة.

«لولي» يا بحرين

أعود الى الشعـر طوعا.. اعـود اليه حبا ووجـدا.. اعود.. رغم كل مـا قيل ويقال من ان اصحابه يتبعهم الغـاوون.. وعلى الرغم من قول ساد لقـرون بأن افضل الشعر وأحسنه هو اكذبه!!.. اعود مخلفا ذلك كلـه وراء ظهري اضافة الى الاخطاء المطبعية وغير المطبعية.. صائبة كانت أم خاطئة في معناها أو مداها.

الى الشعر اعود فهـو دفقات المشاعر لأعمق احاسيـس الشاعر، فالشاعـر هو صاحب المشاعر الدفاقـة.. المنسابة.. المنسالة حبا وعشقا.. للانسـان.. للارض.. للزمان.. للسماء وللبحر.. بل حتى للحيوان والجماد.

وعندما التقى بمشاعر شاعر عبر دواوين أو كلمات أو لقاءات اتشبث بها بل أذود عنها قبل ان اترنم بها. ومنـذ ايام حط على يدي كحمامة بـرية ديوان شعر ظل يـرفرف حوالي طويلا كي ارنو اليه.. اسمعه.. اتلمس معانيه.

صاحبة الديوان.. أو الدواوين طبيبة.. وما اكثر الاطباء الشعراء.

عرفـت منهم هذه الطبيبـة الشاعـرة أو الشاعرة الطبيبـة ولقد اردت ان تسبـق صفة الشعر لفظة مهنة الطب.

وها هي الـدكتورة فاطمة الحفني اخصـائية الطب النفسي وهي زميلة الدكتـور تيمور ونفس دفعتـه في كلية الطب في جـامعة القـاهرة.. ها هـي ترتاح على صـدر البحريـن منذ سنوات طوال تسند رأسها وتبث حنينها وتترجم كلماتها الحانا والحانها شعرا وشعرها حبا في البحرين، لها من الدواوين ستة آخرها دموع البنفسج.

ولست ادري من اين استقت هذه الـدموع لبنفسجهـا؟ ولا لماذا اختارت لديـوانها هذا الاسم الحزين.. حزن زهرة البنفسج.. ألا يكفي ان البنفسج حزين فتأبى عليه الا ان يقطر دمعاً؟!

وحتى تتجاوز بنا الشـاعرة دموع البنفسج وترطب نفوسنـا في مستهل ديوانها بحلو الكلام جاءت اولى قصائدها عن البحرين وتحت عنوان «لولي» يا بحرين.

قالوا لي حتسافري

خوفي سالهم.. فين؟

ازاي اسيب بلدي

أهلي ونور العين؟
قالوا هناك برضه
حتلاقي اهل كتير
أصل البلد واحدة
ومصر للطيران.. وخداكي
ع البحرين
سألت
مين هيه؟
لقيتها اخت امي
واصلهم توأم
ودمهم دمي
وجذورنا عربية
نفس الجذور هيه
مزروعة في ابويا
في خالي وفي عمي
وصلت لمطارك
يا ارض من لولي
فيكي النخيل والناس
يا حلو قالو لي
أهلاً يا بنت العم
أنا قلت من فرحتي
يا غربتي طولي
***
لقيت فيكي الامير
عيسى بقلب كبير
طيب ونبضه حرير
منه الحنان
بيغير

الله عليه الله
في موكبه بالقاه
حتى النخيل حياه
***
فيكي للوزارة رئيس
ما شفت زيه اثنين
خليفة بن سلمان
شيخ الشيوخ الزين
***
اما ولي العهد
سماته فيها المجد
اسمه حمد.. محمود
انا قلت ما شاء الله
من كل قلب حسود

الأم مدرسة
ومدرسة الأم

كثيرون منا هم الـذين عرفـوا الأمومـة معنى اكثر ممـا عرفـوها مجرد حمل وولادة، رضـاعـا أو فطـامـا.. ورغم ان الامـومة عـادة مـا تمر عبر هـذه المراحل البيـولـوجيـة والفسيولوجية فتتكون من خلالها معـاني العطاء والحب والرحمة والحدَب والرعاية.. الا ان معنى الأمـومـة في كثير من الاحيـان يضيق بكل هـذه المراحل الخاصـة والشخصيـة فيفيض عنها ويتخطاهـا متجاوزا الى معاني اكثر نبـلا وأوسع عطاء وأوفر رعايـة وحدبا على الآخرين.. حتى ان بعض الشعراء منح صفـة المدرسة للأمومة.. فقالـوا: الأم مدرسة الحياة فوجهوهـا للحياة، وقالوا: الأم مدرسة اذا اعـددتها أعددت شعبا طيب الاعراق، بل ان الشعب المصري في عهد زعامـة سعدزغلول اطلق على حرم سعد زغلـول السيدة صفية زغلول لقب أم المصريين.

والنماذج المعبرة عن عطاء الأمومة الذي يتجاوز المراحل الطبيعية والمعاني التقليدية من حمل وولادة ورضاعة كثيرة؛ لذلك قالـوا: انه ليست كل والدة أما.. تماما مثلما ان كثيرات هن الامهات اللائي لسن والدات بالمفهوم البيولوجي أو الفسيولوجي.

ولاشك ان ادراك هذا المعنى الشامل للأمومـة دليل نضج انساني، كما انه ميزان وفاء واخلاص وتفان من قبل الـذين ظللتهم معاني الأمومة الرؤوم. ولقد تجسـد هذا الوفاء في أجلى مظاهره ومعانيه خلال أيام مضت.. ولعلها أيام لم تنقض بعد.

لقد تلقت اذناي عبر الهاتف سيلا من المكالمات عبرت فيها أمهات وعبر أولياء امور التلاميذ وتلميذات مدرسة البيان عن جزعهم لما تردد من ان أم البيان السيدة الفاضلة الشيخة مي العتيبي آل خليفة المديرة التنفيذية عضو مجلـس الادارة والمؤسسة لدار البيان قد تقدمت باستقالتها من المدرسة.

لقد هبط النبأ العظيم على نفوس الجميع كصاعقة أذابت النفوس جزعاً وهلعاً.

ولاشك ان الذين لا يعرفون تلك العلاقة العضـوية والنفسية الحميمة بين مدرسة بيان البحـرين وبين مي العتيبي، ثم ما بينهـا هي شخصيـا وبين جميع طلاب وطـالبات هـذه المدرسة وأولياء امـورهم قد يبدي دهشـة، ويـرفع حاجبيه من هذه الضجـة المثارة.. التي وصلت ذروتها برفع أولياء الامور رسالة مكتـوبة الى مجلس الادارة طالبين فيها برد هذه الاستقالة والاصرار على بقاء ماما «مي» في موقعها في قلب بيان البحرين.

والى الذين لا يدركون هذه العلاقة ومدى عمقها أروي كيف كانت بداية مدرسة البيان، وكيف ان هذه السيدة المثالية الحالمة أطلعتني ـ لحسن حظي ـ شخصيا على فكرة مشروع مدرسة بيـان البحرين من البداية كانت متحمسـة للمشروع حماسا مخلصا.. بل ومنقطع النظير لا يعتوره ريـاء ولا يدفع اليه كسب مـادي، واتخذت من احدى الشقق الصغيرة في عمارة بجـوار منطقـة السوق المركـزي مكـانـا للانطـلاق.. سعت بنفسهـا الى الخبراء.. واستـدعت بعضهم من الخارج.. نظمت اللقـاءات، ووضعت بصماتها على كل مرحلـة من مراحل بنـاء هذه المدرسـة.. بناء ماديـا وبناء أكاديميـا.. بذلت روحهـا وراحتها من اجل اخراج هذا المشروع الى حيز الوجـود موقنة انها تسعى الى تأسيس مبنى أكاديمي مدرسي متميز للبحرين.. يقـوم على منهج يجمع بين الحداثة والأصالة وشمول المعـرفة ويؤسس على قيم الدين والوطنية.

كنت اتابعها وهي تـرى حلمها يتحقق.. يتجسد.. يتعملق.. يحتضن البراعم الصغيرة.. وكانت لمعـة الفرحة والـزهو تأتلق في عينيها الصـافيتين بينما يفيض جبينها بألق النصر، وتعتمل في نفسها معاني الحب الشامل الذي احتضن كل هذه البراعم، ثم امتد ليرعى أولياء الامور جميعـا.. فاذا هـم والمدرسة وأم المدرسة مـاما «مـي» يأتلفون في بـوتقة مـزهرة بالعطاء المتبادل.. والجهد المشارك.

وعنـدما كـانت الظروف تضطـر هذه الأم الحانيـة ان تبتعد قليـلا عن المدرسة كـانت روحها تظل معلقة بها.. موصولة بنشاطها، تضفي عليها من روحها الوثابة حيوية، ومن حيويتها حبا، ومن حبها حدبا مستمرا على البعد مثلما هو دائم على القرب.

لقد نقل اليّ الهاتف مشاعر امهات وأولياء امـور تفيض رقة وعذوبة وتعلقا بأم البيان الشيخـة مي.. قالـوا: كيف يعيش الجسد بـلا روح؟ كيف تفقد الأسرة البيـانية أمهـا.. أو تنفصل عنها؟

قالـوا لها في اهداء موجـه اليها بمنـاسبة حصولها على درجـة الماجستير «لقد أرسيت صرح هذه المؤسسـة التربوية بكل جهد وتفـان.. ونحن نفخر بهذا ونعتز به، كنت مـربية فاضلة وأماً رؤوماً تظلل أبناءهـا بسحب العلم والمعرفة، وتمدهم بالحب والحنان، اعطيت وما بخلت بالعطاء، فكنت المثال الذي يحتذى، وثقي بأننا سنعتز بوصاياك متخذين العمل رمزا، والمحبة شعاراً، والعلم منهجاً، والبناء هدفاً»..

أتصور.. بعد كل هذا العمر.. والجهد الذي تكلل بـالنجاح وبعد هذا الفيض من المشاعر الجياشـة والعطاء الصادق.. أتصور أن أم البيـان لن ترد طلبا ولن تستكين لأية مشـاعر يمكن ان تبعدها عن معبدهـا الذي اقامت دعائمه في سويداء قلبها وأحـاطته بحب الأمومة الجارف.

ورغم تقديرنـا لزحمة المشاعر المتباينة التي تموج بها نفسهـا النبيلة الآن فإننا على يقين بانها لن تستطيع ان تصد زخم المشاعر الصـادقة الملتهبة التي أحاطت بها دائماً لتبقى دوما أما في قلب البيان.

درس من الشيشان

من بين انقاض الاتحاد السوفيتي الغارب تفجرت قـوميات وتنازعت عرقيات وبرزت جمهوريات ذات مسميات لم نكن نسمع عنهـا قبلا اللهم إلا على سبيل التفكه بالأسماء في أفلام بعض أساطين الكـوميديا من أمثال اسماعيل يـاسين وفؤاد المهندس وأضرابهم من اصحـاب الأفلام الفكـاهية والمسرحيـات الهزليـة التي اضحكتنا فلم تبكنـا.. الا ان رحم الاتحاد السوفيتي وهو في مرحلة المخاض الأليمة التي تولد عنها الاتحاد الروسي قذف الى وجـودنـا نمطـاً من الجمهـوريـات التي استقلت، والقـوميـات التي ارادت ان تستقل، والعرقيات التي تناحرت أو أرادت التناحر فأصبنا بالدهشة وعدنا الى التأمل لا التفكه.

بل ان بعض مظاهـر الصراع بين القوميـات أو من اجل القوميات العـرقية أبكـانا ولم يضحكنا.. فأصـابنا الهلع حينا والإحباط احيـانا اخرى، وفيما نحن بين الـدهشة والهلع والاحباط دارت المعـارك، وسالت الـدماء، واستـذل الضعفاء، وقطعت الـرقاب.. رغم ان رايات الحرية الاقتصـادية والسياسية مرفوعـة في كافة الربوع الروسيـة وغير الروسية تساندها آلة الرأسمالية الغربية والامريكية حتى حسبنا ـ وهما ـ ان هذه الحرية سمة من سمات النظـام العالمي الجديـد الحالم الـذي تتبلور مـلامحه في غفلـة منا، بل ورغما عنـا رضينا أم أبينا.. و بين أوزبكستان وطاجيكستان وغيرهما بـرز الشيشان كقومية أخرى لها سماتها وتطلعاتها وعقائدهـا ومعتقداتها وقضاياها بعد ان خـرجت ـ أو توهمت أنها خـرجت ـ من شرنقـة الاتحاد السوفيتي ثم الاتحاد الـروسي.. وعندمـا طالب الشيشـان بالاستقلال في هـذا الزمان طلع عليهم الروس كطلعتهم السابقـة على المجر في الخمسينات بالدبابات والأسلحة التي لا تبقي ولا تذر تسحق الناس سحقاً، وتدخل عليهم بالآليات الى مخادعهم فتفري جلودهم فريا وتذيقهم ضعف الممات ولا ترحم!

واذا كان المجريون في السابق قد استناموا للغزو السوفيتي الذي استباح حرماتهم بين عشية وضحاها فان اهل الشيشان قـد استبسلوا وهم قلة في البشر وفي السلاح.. (تلاحظ انني لم اقل انهم قلة في الرجال؟!!) انهم الرجال حقاً.

﴿ من المؤمنين رجال صـدقوا ما عـاهدوا الله عليـه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من

ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم﴾.

لقد عرف الشيشان كيف يدوخون الروس ثاني أعتى قوة عسكرية في العالم، ويصيبونهم بهلع الخوف وذل الضعف فلاذوا بالفرار تاركين الدبابات والمدرعات والمصفحات وسط الطرق في محاولة لجمع طابور التقهقر أمام عظمة المقاتلين الشيشان الذين آثروا الموت دفاعا عن قضية.. وحماية للأرض والعرض والعقيدة فضربوا بذلك مثلا على الثبات لم يتكرر في هذا القرن الذي أوشك على نهايته سوى أيام الحرب العالمية الثانية عندما تصدت ستالنجراد الروسية للغزو النازي الألماني فضربت مثلا في الثبات والاستبسال دفاعا عن الوطن والأرض والعرض حتى ان ملاح وادي النيل أو صاحب ديوان الملاح التائه الشاعر الراحل علي محمود طه نظم قصيدة عصماء أشاد فيها ببراعة الاستبسال عندما قال:

يا فتية الفولجا تحية شاعر رقت له في شدوه الأشعار
ابدا يطوف حائرا بشراعه يرمي به أفق ويقذف دار
ملاح وادي النيل إلا انه أغرته بالتيه السحيق بحار

إلى أن يقول واصفا فصولا من المعركة:

حتى إذا سهت العقول وزاغت الأبصار وتربص المستقتلون و(عربد) البتار

ولكم تمنيت الآن لو سرت على وتيرته فأسعفني القول شعرا حتى اسجل ذلك الاستبسال الشيشاني في مواجهة البطش الروسي الذي أعماه النفط والتعصب، وأثارت أحفاده بسالة رجال الشيشان فراحوا ينصبون المذبحة الكبرى للإنسان حتى وقعوا في مصيدة الشيشان الأشداء الأقوياء في الحرب والكر والفر الذين أذاقوا الروس ضعف المات بقوة الإيمان وعظيم الثبات على المبدأ دفاعا عن القضية. ولعلنا هنا نتذكر قوله تعالى في سورة الانفال:

﴿ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾. صدق الله

العظيم.

المعادلة واضحة إذن.. الإنسان المؤمن إيمانا خالصا يساوي عشرة من الكافرين، لقد بشر الله المؤمنين الصادقين بالنصر ﴿حتى إذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليهم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا﴾.

نلاحظ بالتأمل هنا شروط النصر.. في كلمة ـ عبادا لنا ـ أي الذين أخلصوا العبودية لله، وأولي بأس شديد: أي اصحاب قوة معنوية ومادية تتمثل في العقيدة والقضية والإعداد الجيد بالسلاح والتدريب.. وكل هذه إشارات علنا نفهمها، وقد ترجمها الواقع في كل حين.. وعلى مدى التاريخ.. فهل نفهم؟!!!

الالتزام وسلاح الكلمة

مسئوليـة الكلمة.. امـانة في عنق كل من يتعامل مع الكلمـة.. أو يتعامل بـالكلمة تعبيرا وقولا.. كتابة.. فنا وفكرا.

فالكـاتب والمفكـر والفنان لابـد وان يكون امينـا في حمل مسئوليتـه.. مسئولا في حمل أمـانته وهـي مسئـولية لـو تعلمـون عظيمة.. وأمـانة تقتضي ان يستجمع الانسـان إرادة الشجاعة في نفسه.. وقوة اليقين في قلبه، وصراحـة الحق في لسانه.. ثم ليخط قلمه سطورا هي مزيج من كل هذا.. أو مزيج كل هذا معبرا عن قضايا الانسان وهموم مجتمعه.

من هنا كـانت مسئوليـة الفكر والفنـان والأديب.. ومن هذا المنطلق كـان التزامـه.. انه التزام الانسـان في كل مكان.. التزام نـابع من الذات.. من الداخل وليس من خـارج الذات، والا كان قيدا على حرية المفكر والأديب.

وبقدر ما يتمتع بـه الكاتب والمفكر من صدق مع نفسه فهو حقيقي.. وهـو فنان.. وهو انسان.. بل انـه لا يمكن ان يكون كاتبا أو مفكـرا الا اذا كان صادقا.. حقيقيـا شجاعا.. في مواجهـة الباطل.. هادما لطـواغيت الفساد.. معريا اسـاليب الكذب والنفاق.. ناشـرا ضوء الحقيقية في كل مكان يطـارد به ظلام الختل والخيانـة والانهزامية.. مبشرا في ذات الوقت بالحق والخير والحرية. وما احـوج كتابنا ومفكرينا في الوطن العـربي الى لحظة صدق مع انفسهم ومع مجتمعاتهم.. لحظة يتحملون فيها الامانة.. ويرتفعون الى مستوى المسئولية كي يقذفوا بالحقيقة وجه الزيف، ويحطموا بشجاعة اصناما وطواغيت.. ثم لينثروا ضوء الحقيقة في كل مكان. وهنا يمكن القول انهم قد ادوا رسالتهم، وحملوا بجدارة الامانة التي شاء قدرهم ان يحملوها، وقد وضع الشاعـر الفنان نزار قباني الشعراء والمفكرين العرب في موقفهـم الذي رآهم فيـه.. موقع السلبية.. اتهمهـم بعدم الارتفاع بـأدبهم الى مستوى الظروف التي تمر بها الامة العربية.. ظروف الهزيمة والتمزق والاحتلال..

وقد كان نزار صـادقا مع نفسه كفنان وكشاعر عندمـا القى قصيدته هذه التي وضع

فيها الكتـاب والمفكرين والشعراء في مـوقعهم الذي اختـاره لهم.. أو الذي اختارتـه رؤيته لهم.. القى قصيدتـه هذه في مهرجـان للشعر العربي بالقـاهرة.. وكنت احد حـاضري هذا المهرجان، قال نزار:

شعراء الارض المحتلة
يا من اوراق دفاتركم
بالدمع مغمسة والطين
يا من نبرات حناجركم
تشبه حشرجة المشنوقين
يا من الوان محابركم
تبدو كرقاب المذبوحين
نتعلم منكم منذ سنين
نحن الشعراء المهزومين
شعراء الأرض المحتلة
يا اجمل طير ياتينا من ليل الأسر
نتعلم منكم كيف يغني الغارق من اعماق
البئر
نتعلم منكم كيف يسير على قدميه القبر
نتعلم كيف يكون الشعر

والـواقع ان هذه القصيـدة التي ذكرت بعض ابيـاتها جعلت شعراء المهـرجان يقفـون موقـف الدفاع عـن النفس... ان ابياتها.. كل ابيـاتها تدينهم بـالسلبية.. وبعـدم الارتفاع بأدبهم وشعرهم الى مستوى النكسة.. ومستوى المقاومـة المطلوبة في هذه المرحلة.. لايزال شعرهم مجرد «درويش» يترنح في حلقات الذكـر.. واقوالهم مجرد الفاظ مفتعلة لا تتعدى

سطح الجلد.. بـلا أعماق.. يعيشـون في عصر الذرة بمنطق العصر الحجري.. لغتـه وقوالبه وتراكيبه.

ان القصيدة تـدعوهـم ان يتعلموا من شعـراء الارض المحتلة كيف يكون للحـرف قيمة الرصاصة.. وشكل السكين.. وكيف تكون المقاومة بالكلمة والعبارة أقوى من كل سلاح.

وقد دار بينـي وبين نزار قبـاني حوارا في هـذه المناسبـة حول دور الشعـراء والأدباء والمفكرين في هذه المرحلة.. قال نزار:

ان معظم الأدباء والشعراء لم يـؤدوا دورهـم حتى الآن.. والنكسة مع الاسف لم تعطنا ادباء على مستوى احزاننا.. ومستوى مأساتنا.. ان أدباءنا، واصحاب الكلمة فينا يعيشـون ازدواجية بشعة في حياتهم وسلـوكهم .. انهم يفكرون في اعماقهم بشكل، ويكتبون بشكل آخـر، ان ما نبحث عنـه في هذه الفترة هـو الأديب الشجـاع القادر على ان يحمل الشمعـة، ويضيء لنا الطريق.

ان النكسة التي تحيط بنا من كل جـانب.. والمناخ الذي نعيش فيه يجب ان يحول جميع الشعراء الى شعراء مقاومة.. وأنا شخصيا ذلك الشاعر الذي كانت اهتماماته كلها تنحصر اثناء السلم في تسجيل العلاقات العاطفية في حياتنا.. انقلبت بلحظة واحدة من شاعر يكتب شعر الحب والحنين لشاعـر يكتب بالسكين.. فليست هناك أوامر خـارجية يطلب فيها من الشاعر ان يتحول.. انـه يتحول بتلقائية الى ما يتطلبه الظرف.. وبـالتالي تتحول الكلمة بين يديه من وردة في زمن السلم الى خنجر في زمن الحرب.

ابتهـــال

مولاي.. وسيدي.. والهي

لا حب الا لك.. ولا فناء الا فيك.. في ذاتك القدسية العلوية.. ولا عون الا بك.

لك النواصي خاشعة.. والنفوس جازعة.. والقلوب واجفة.. والأيدي راجفة..

لا ذل الا لك.. وفي رحابـك.. ولا عزة الا بطاعتك.. و انـت الهي وسيدي وحبيبي.. صديقي واهلي وناسي.. تعاليت عن كل تشبه أو شبيه.

أنت مـلاذي عندما تضيـق النفس ويزيد الهم.. ويعـم الكرب.. وتنفد الحيلـة ويفيض الفؤاد حزنا ووجدا..

لا مـلاذ الا بك والا اليك.. مهما تنكبت الحق فأنــت ارحم بي من نفسي اقـرب الى مني.. واحن على من..

مولاي وخالقي والهي..

أنا ذا ادق بابك.. ادقه على استحياء.. اذرف دموع التوبة على أعتابك القدسية ياذ الجلال والاكرام.. أعود اليك.. بعد رحلة ضلال.. عـذاب.. عذبت فيها نفسي.. وعذبنى فيها الناس.. وكلما زاد عـذابي، ارتمي على صـدرك الحبيب لاهثا.. وارتـاح.. وارتـاح.. ادفن رأسى فى بحار رحمتك.. واستمـد لنفسي من نورك يـا نور السمـوات والارض.. وارتاح بعـد طول عناء.. دائما ملاذي.. انت ربي والهي.. وانت اهلي واسرتي.

جئت اليك يـا سيـدي رافعـا رايـة الاستغفار.. رافـلا في حلل التـوبـة.. متشبثـا بك.. برحتمك.. بعفوك.. بمغفرتك التي وسعت كل شيء.. «قل لعبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطـوا من رحمة الله ان اللــه يغفر الـذنـوب جميعا» ولقـد اسرفت على نفسي ذنوبـا.. واسرفت عليهـا طلبا للمغفـرة.. وهـا أنا ذا اعـود اليك في شهـر الاستغفار.. شهـر الهدى والقرآن.. اعود اليك بعد ان ضلت القدم الطريق.. وفقدت الصديق.. ولا صديق.. لا اهل ولا

رفيق.. ورانت على القلب سحب الشك والضلال.. وتنازعتني الهواجس فصرت في تيه حسبته طريق هدى فإذا هو ضياع.. واذا كل الرؤى زائفة.. والاماني باطلة.. انه السراب يحسبه الظمآن ماء.. طلبت العزة.. واطلبها في ظل طاعتك.. في ذل عبادتك..

وظننت الجاه ان يكثر حولي الاهل والصحاب والخلان.. فاذا أنا في النهاية صفر اليدين.. لا جاه ولا عزة.. انه السراب.. انه الهم والكدر.. انه الضعف والخور.. انها الهواجس والشكوك.. قتلني الغدر وعذبتني الحيرة.. وآلمني ظلم الانسان لأخيه الانسان.. واذا بالحقيقة سافرة.. «الكل باطل» قبض الريح..

لا عزة الا بك وحدك يا ألله.. ولك وحدك يا سيدي والهي.. انت منبعها ومصبها.. انت اصلها وأساسها.

الجاه في رحاب رحمتك.. وطاعتك.. والسير على جادة طريقك.. لا ذلة إلا لك وحدك.. ولا ملاذ إلا بك.. ولا هدوء ولا استقرار ولا رفعة الا بذل النفس لك.. يا ألله.

الكل باطل يا حبيبي.. وسيدي والهي.. وحدك ـ تعاليت ـ الحقيقة السرمدية الخالدة.. انت علة العلل وغاية الأمل..

اللهم يا رب قوني على طاعتك.. وامنحني شرف عبادتك.. لا تردني عن باب رحمتك خائبا فأضيع.. و تبعدني عن اعتاب غفرانك فأشقى.. أنا قادم اليك يا مولاي.. انا قادم اليك.. فأعزني بطاعتك.. وشرفني باللجوء اليك.. وارحمني بك منك.. وارحم نفسي بالغفران.. انك واسع المغفرة.. يارب.. انك قلت وقولك الحق «واذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان» وحق قرآنك وشهرك.. أنا على العهد حتى القاك يا حبيبي.. وسيدي والهي.. و.. معذرة.. فهذه كلماتي.. اليه.. اليه وحده.. الهي وسيدي وحبيبي.. ترى.. من لي سواه اخاطبه؟

والآن أقدم هذه الكلمات المنظومة جاد بها يراع الشاعر المصري صلاح جاهين في ذكرى جمال عبدالناصر لمستُ فيها صدق المشاعر وصدق الشاعر.. ولعلك تلمس فيها ما لمسته

اذا قرأتها وتأملت معانيها:

حتى الرسول.. مات.. وامر الله لابد يكون ـ

بس الفراق صعب واحنا شعب قلبه حنون

وحشتنا نظرة عيونك للبلد يا جمال

والحزم والعزم فيها وحبها المكنون

وحشتنا عبسة جبينك وانت بتفكر

ونبرتك وانت بتعلمنا وتفسر

وبسمة الود لما تواجه الملايين

وقبضة اليد لما تدق على المنبر

وقبضة اليد لما تلاطم الجرانيت

وترفع السد عالي المجد عالي الصيت

وتادب النيل وتحكم مية الفيضان

ما تعدى نقطة سوى بالخطة والتوقيت

وبقيت اقول مية الفيضان واحشاني

سبتمبر ازاى بدونها يكون يا خلاني

يا ويلي من ده طلب وياريتني ما اتمنيت

لبى الزمان منتي من دمع اشجاني

وعاد لسبتمبر الفيضان دمع هتون

ينصب م القلب ويهيم فى النسيم محزون

يميل نخيل الرطب على بعضه بالهمسات

حتى الرسول.. مات.. وامر الله لابد يكون.

بين قرار البلدية
وعذاب الأكاديمية

جزى الله الهيئة البلدية عنا كل خير.. ووفّاها أجرها في الدنيا والآخرة بعد ان استخارت الله، واستنارت بأذواق الناس، واستمزجت آراءهم.. ثم استجمعت كامل ارادتها لتصدر قرارها بوضع حد زمني لسهر المقاهي الشعبية هو منتصف الليل دائما وتجاوز ذلك الى الوحدة في العطلات والمواسم.. وجاء في حيثيات هذا القرار كما أعلنه الصديق سيف البنعلي انسجاما مع ما هو متبع في كل انحاء المعمورة العامرة، وسعيا الى عدم اقلاق راحة الناس.. وكأني بالصديق سيف البنعلي يقرأ افكاري، ويطلع على خالص أسراري وكأنه قد محضنى وحدي هذا القرار الحضاري الذي يضع حدا لضجيج بعض هذه المقاهي الشعبية خاصة التي تقع وسط المناطق السكنية.. كما يضع حدا لضوضائها عند منتصف كل ليلة.

وانني اعلم ان البعض قد لا يسعده هذا القرار الذي يصادر حرية هذه المقاهي ـ آسف ـ الاكاديميات على حد تعبير صديقنا العزيز الدكتور علي محمود. فهو أول من أطلق على المقاهي الشعبية اسم الاكاديمية.. ولست ادري لِمَ اختار لها هذا الاسم الذي ليس على مسمى اللهم الا اذا كان تعاطي الشيشة ولعب النرد وشرب الشاي والقهوة مع احاديث «الفرفشة» والمحبة من قبيل الدراسات الاكاديمية العصرية «قوي».. المهم ان صديقنا الدكتور علي محمود قد التحق بإحدى هذه الاكاديميات حيث يطيب له المقام فيها ليلا.. ويمتد السهر مع الأرجيلة «الشيشة» وجلسة الاصدقاء وحلو الحديث.

أقول انني اعلم ان البعض قد يعتبر هذا القرار الذي صدر انما صادر حق هذه الاكاديميات في ممارسة دورها التنويري و«التدخيني» ومد جلسات الحظ «والفرفشة» الى ساعات الصباح الاولى. ولو ان هذا الذي يعترض.. كان مكاني.. ولو ان الله ابتلاه بما ابتلاني بسكن يعيش في قلب احدى الأكاديميات العريقة حتى اصبحت جزءاً منها، وهي بالتالي جزءاً مني من بدايات الليل، وحتى ساعات الصباح الاولى.. أقول لو ان احدا ابتلى بما ابتليت به لرقص طربا تعبيراً عن امتنانه بصدور هذا القرار الذي خفف بلوته ولو جزئيا، وترك له مساحة من الليل لينام في هدوء داخل بيته.

ولو أن أحداً عاش ما عشته مع هذه الاكاديمية اللصيقة بي لأدرك كيف ان هذا القرار

كفل لنا نحن السكان المجاورين قدراً من الـراحة بعد تعب دائم.. وإزعاج مستمر من رواد الأكاديمية أولا ومن صياحهم وصياح المذياع ثانيا.

لقد عشت سنـوات مع هذه الاكاديمية. استمتعـت فيها أولا بما تبثه من أغان منـافسة بـذلك اذاعة البحـرين.. لكنها تختلف عنهـا في ذلك ـــ وأنت في موقعي ـــ فأنت لا تستطيع التحكم فيها واغلاق الراديو اذا أردت الهدوء أو النوم، أو حتى اذا لم تعجبك ثرثرة متحدث أو ثرثرة مطرب.

أكاديمتي كـانت حريصة على ان تلقنني دروسهـا في الغناء قسراً.. تدس صـوتها الذي يتسرب الى غرفة نومي من بدايات الليل حتى نهايته.

أحياناً كنت استعذب غناء أم كلثوم وعبدالـوهاب لكنني عندما اريد الراحة كنت أفضل كوابيس الأحلام على صوت حليم وفريد وثومة.. واتمنى لو تغمض عيناي ولو للحظة لكن صوت فريد الأطـرش، كان يطاردني ـ رغم حبي له ـ قائلاً مترنما «يـا حبايبي يا حلوين» وتظل هذه الكلمات ترن في أذني وتقض مضـجعي.. حتى لا اكاد اطيق سيرة الحبايب سواء كانوا «وحشـين أم حلوين».

و.. وتحولت الأكاديمية الى مصدر ازعاج.. فما بالكم اذا كان هذا الازعاج يمتد بنا الى ما بعد الثالثة صباحاً.. يختلط فيـه صراخ الشباب وصخبهم.. مع الاغاني والآهات للمطربين والمطربات؟.. وقانا الله واياكم شر الأكاديميات حتى لو «زعل» علينا أخونا الصديق د. علي محمود.

نحن وإسرائيل
بين الممكن والمستحيل

لأن السياسة هي فن الحصول على الممكن.. ولأن الممكن هذا ليس ثابتاً أبداً، بل هو متغير دائماً تحكمه الظروف، وترسمه المواقف، وتشكل هيكله المصالح.. والمصالح ليست أبدية.. وليست دائمة؛ لذلك فإن الشكل والمضمون في عالم السياسة دائماً متغيران متبدلان.. لأنه لا ظروف ثابتة أو جامدة، ولا مواقف أبدية.. كما انه لا مصالح سرمدية.

والذي كان مستحيلا في الماضي القريب أصبح ممكناً الآن، وقد يصبح الذي هو ممكن مستيحلاً بعد أيام.

والذي كان يتصور أن يجلس العرب مع اسرائيل على مائدة مفاوضات في الستينات مثلا كان يتهم في عقله وفي وطنيته... اللاءات الثلاث كانت تقف بالمرصاد.. واسرائيل كانت لاتزال مزعومة.. وجيشها مجرد عصابات متشذرمة لا ضابط لها ولا رابط.. يحكمها منطق عصابات المافيا.. ويسودها العهر الاخلاقي.. والفساد السياسي..!!

وعندما دعا الرئيس التونسي السابق الحبيب بورقيبة الى التفاهم ـ لا التفاوض ـ مع اسرائيل على أساس سياسة المراحل اتهموه في عقله وفي وطنيته؛ لأنه كان أول زعيم عربي يفكر بعقله لا بحنجرته.. ولم يكن بورقيبة في ذلك مختلفاً مع العرب في الاستراتيجية.. وان حكمت نظرته رؤي تكتيكية اكثر عقلانية.. فالهدف كان ولايزال هو تحرير الأرض.. استعادتها.. ولو بالقوة.. ولم يكن ذلك تناقضاً أبداً مع ما نادى به الراحل جمال عبدالناصر.. «ما أخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة» لكن مع اختلاف في التصور لعناصر القوة.. فالقوة في رأي العقلانيين والمنطقيين والواقعيين من العرب ليس استخدام السلاح فقط.. فاستخدام السلاح هو تعبير عن منطق القوة للتفاوض.. وقد يكون التلويح بالقوة جزءاً من المفاوضات.. بل ان قوة الحجة في التفاوضة قوة.. وتعبئة قوى الرأي العام المحلي والاقليمي والعالمي وجذبها الى موقف مساند لنا جزء من القوة المطلوبة تماماً مثلما

ان حشد الموارد والإمكانيات والإرادة العربية هو في حد ذاته قوة.. فالقوة بهذا المفهوم الشامل هي التي تسترد الحق وتحميه على مائدة المفاوضات.. ولعل ذلك هو ما حاوله السادات في حرب اكتوبر وبحرب اكتوبر التي كانت مجرد حرب تحريك للإرادة العربية.

وبعد المفاوضات المصرية الاسرائيلية في كامب ديفيد سقط تماماً منطق الحرب، وحل مكانه منطق آخر يعبر عنه الواقع الراهن الذي جعل المستحيل ممكناً.. وهو ان يجلس العرب والاسرائيليون.. وخاصة الفلسطينيين.. على مائدة مفاوضات واحدة.. يتبادلون التصريحات والتنازلات مع الصور الفوتوغرافية والتليفزيونية.

ان من كان يتحدث عن هذا الذي يحدث الآن في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات وحتى الثمانينيات كان يتهم بالجنون والمروق.. فما الذي غير الموقف؟.. وما الذي جعل المستحيل ممكنا؟.. انها تغير المواقف والظروف الدولية والمعطيات العربية.. و.. و.. وغير ذلك من المتغيرات ومنها تغير الذهنية العربية أيضاً.. ان لله في خلقه شئوناً.. ومن يدري فقد يتحول الممكن الى مستحيل مرة أخرى، ثم يصبح المستحيل ممكناً.

حكـــايتنـــا
مع الماء والكهرباء

و.. وكأنني سقطت من حالق فـارتطمت بالارض فلم أصب بشيء سوى ارتجاج في المخ اعاد إليّ عقلي الـذي كان قـد حلق من مكانـه وتاه في تهويمات الخيـال، وميتافيـزيقا القيل والقال، وكثرة السؤال عن الخطأ والصواب في اصل الوجود.. وسر الحياة.. وسلوك البشر وغير البشر من الأحياء.. وحكمة الحزن ومعاناة الاغتراب ومعنى السعادة..

عاد إليّ عقلي بعـد ان عدت مرغما الى ارض الـواقع لأعايشه مع الآخـرين ويعايشني .. اعيش مشاكله ومعاناته اليوميـة من مشكلات كهرباء وماء وعمل وبيئة ومرض لا ينتهي الا ليبدأ.. ولا يبرأ المرء منه حتى يضيف الى قائمة الأوجاع وجعاً آخر جسدياً أو نفسياً.

وعند مشكـلات الكهربـاء والماء ودعاوَى الترشيـد والتخصيص أو الخصخصـة بلغة الاقتصـاديين الجدد تأمل عقلي وانطلق ذهني يفتش في المخارج والمداخل التي سعت اليهـا الدولة بعـد طول معاناة لمواجهة مشكلتين حـادتين على المدى القصير والطويل أيضاً وهما مشكلتا شح الماء ونضوب معينه من الآبار الجوفية وعدم قـدرة الطاقة المتاحة على مواكبة طموحات التنميـة والبناء والاحلام السياحيـة، وهي طموحات تبدو في الأفق القـريب جداً يئدها أو يحد منها نقص في الامكانيات جعلت الـدولة تسعى سعيها النبيل وسط أولويات المشروعات المتعددة، كي توفـر الميزانية المكنة للمياه والكهربـاء.. ثم تضطر في النهاية الى طرح مشروع انشـاء محطة لإنتـاج الكهربـاء في الحد على شركة اجنبيـة تقوم هي بـالبناء والتشغيل ثم تبيع الكهرباء على الدولة التي تقدم الدعم وتدفع كي يصل سعر الكهرباء الى جمهور المستهلكين بالتعريفات المناسبة.

ثم ها هي الـدولة ايضا وكما علمنا تتجـه نفس التوجه الى طرح مشروع انشـاء محطة للتحليـة في منطقـة البسيتين وهـي في ذلك تستمـزج ــ ومـازالت تستمـزج ــ آراء بعض الشركـات في الخارج لتسير على نفس الـدرب سـاعيـة الى الخروج من مـازق شح الميـاه ونضوب مخزون المياه الجوفية في كثير من المناطق.

وفي كل الأحـوال فإن الـدولة معـذورة وهـي تحاول هـذه المحـاولات في غياب وجـود مبادرات اهلية أو مؤسسيه للتكاتف معهـا والإسهام في بناء محطتين للكهرباء والماء. رغم انه مـن الثابت يقينـا ان وراء هذين المشروعين ربحية اكيـدة لم تغفل عنها الشركـات التي

تتقدم بعروضها، ولو لم يكن هناك ربح من وراء ذلك لما دخلت مثل هذه الشركات في مفاوضات شاقة أو حتى بسيرة من اجل الفوز بإقامة محطة للكهرباء أو أخرى للمياه.

ولعلنا نتساءل هنا اين دور القطاع الخاص في هذا المجال؟ بل لنطرح نفس السؤال هنا على جزء من القطاع العام واعني به قطاعين محددين: التأمينات الاجتماعية وصندوق التقاعد، فمدى علمنا ــ والعلم عند الله وحده ــ ان رصيد التأمينات الاجتماعية وكذلك صندوق التقاعد كبيران جدا وان هذه الأرصدة يتم استثمارها وتدويرها إما في مشروعات وأسواق استهلاكية وإما في التعامل بها كودائع في البنوك بالدولار أو الاسترليني وغيرهما من العملات الأجنبية ذات البريق الخاص. لكن معلوماتنا ايضا تقول لنا ان ربحية هذه الودائع لا تكاد تتجاوز ٣ أو ٤٪ بالنسبة للدولار أو ٥ أو ٦٪ بالنسبة للاسترليني النشط كذلك ان ربحية الاسواق والمجمعات محدودة على حين ان عائدات الاستثمار في مشاريع تحلية المياه أو انتاج الكهرباء قد تصل الى ٢٠٪ أو اكثر. وهذا امر ثابت بالتجارب ومن خلال دراسات الجدوى. فما الذي يمنع القطاع الاهلي وبعض مؤسسات القطاع العام من ولوج هذا النوع من الاستثمار الوطني البحت ذي الربحية الاقتصادية العالية في نفس الوقت؟

إن مبادرة القطاع الاهلي والقطاع العام إلى المساهمة في مثل هذه المشروعات الوطنية مطلوبة جدا وملحة ومفيدة في نفس الوقت للمستثمرين وللبلاد ولمستقبل التنمية الذي سينعكس بالضرورة على مثل هذه القطاعات في النهاية ومن البداية.. ولعلنا نأخذ مثالاً ناجحاً من تجربة شركة بتلكو التي دخلت فيها الحكومة مساهمة، وفتحت مجال المساهمة فيها امام القطاع الاهلي، وتحولت هذه الشركة الى شركة وطنية تقدم خدمات متنوعة، وتحقق ربحية تصل الى نحو ٢٤٪.

فما الذي يضير القطاع الاهلي أو غيره اذا ما بادر بالمشاركة في مثل هذه المشاريع الوطنية والحيوية جداً؟. انه لو فعل ذلك لحقق فائدة لنفسه اقتصاديا ولساهم في توفير هاتين الخدمتين للبلاد اللازمتين لزوم الحياة ولإدارة عجلة التنمية الطموحة في مجالاتها الاقتصادية والصناعية والسياحية بل والاجتماعية ايضاً.

و.. وترجّل
.. فـــارس

دائماً مـا يترجل فـرســـان الحيـاة، وهم في قمـة نبلهم وخـالـص عطـائهم.. وعظيم اهتمامهم.. فيتركون الســاحة لنا نستشعر فراغهـا.. ونستعظم خلوها لأنـنـا نفتقد نبلها.. وروعة أريجها الذي تَضوعناه حينا ثم ضاع منا أو أضعناه.

وفرســان الحياة ليسوا فقط في ســاحات الوغى والحرب والضرب، والكـر والفر.. انما تجدهم أيضاً متسربلين بنبل المحتد.. ودماثة الخلق.. يمشون على أرض الحياة هوناً.. فإذا مروا باللغو مروا كراما.. واذا تحدثوا فحديثهم همس.. وهمسهم أدب.

وفرســان وغى الحياة والحرب.. نفتقدهم كثيرا وقـد ترجلوا من فوق أحصنـة الحياة ولو بعيداً.. فاذا نحن نعيش الوحـدة.. ونفتقد الصحاب والأحباب وكما قال شوقي أمير الشعراء قاطبة:

ومــــا ينبيك عن خلـق الليــــالي كمن فقـــد الأحبـــة والصحــــابـــا

ولقد تـرجل فارس نبيل منذ أيام، وتـرك ساحتنا، ومضى بعـد أن ملأها حباً ودمـاثة خلق.. وكرم معشر.. رحل عنا السفير الصديق الشيخ عبدالرحمن بن فارس آل خليفة بعد أن أضاء في سماوات حيـاتنا وهنـا ثم خمد. أضاء بـالحب.. والصداقـة.. والنبل.. وعظيم الوفاء لأهله وناسه وبلده.

كل من عـرفه عن قرب امتصـه الحزن عليه.. وكل من عمـل معه أو التقى به في طـريق أدرك أي فارس نبيل ترجل عن صهوة جواد الحياة الذي استعصى عليه في الآونة الأخيرة فحاول الامساك بلجامه فلم يسلس له القياد.. فترجل عنه ورحل بعيدا عنه وعنا..

لم تكن الدبلوماسية بكل معانيها وأبعادها هي مهنة، أو مهمة السفير الصديق الراحل.. انما كانت الدبلوماسية خبز حياته اليومي.. سلوكه الطوعي دماثة خلق.. أدب جم.. اشاعة الحب بين الجميع ومن اجل الجميع.. كـان صـوته همسـاً.. وهمســه أدبـاً.. وأدبه مـودة

مطبوعة غير مصنوعة.

هكذا عرفته وألفته عبر تقلبه في مناصبه الدبلوماسية وغير الدبلوماسية مديرا للادارة القنصلية وسفيرا في لندن، ثم سفيرا في واشنطون. كان نجاحه كسفير تأكيدا لنجاحه كإنسان في المقام الأول.

أذكر انني توعكت صحياً، وقررت السفر الى لندن في الثمانينيات.. كانت هذه هي المرة الأولى التي أزور فيها هذا البلد المسمى ببلد الضباب.. كان كل ما حولي ضبابا حقاً.. المعلومات.. والناس.. والحياة.. والمؤسسات العلاجية.. وقابلت الفقيد الشيخ عبدالرحمن بن فارس آل خليفة عندما كان في زيارة قصيرة للبحرين ويومها كان سفيرا في لندن ولما علم بالنبأ طمأنني خيراً.. ووعدني خيرا ايضاً. قال لي بالحرف الواحد.. انت في ضيافتي عند وصولك الى لندن.

ولما اقلعت بي الطائرة الى لندن تناوشتني أفكار عدة، ورحت أرتب ترتيبات الوصول الى مطار هيثرو ثم الى السكن الذي اخترته للاقامة.. وكيفية التعامل مع سيارات التاكسي.. ومؤسسات العلاج في هارلي ستريت.. وغير ذلك من أمور تقلق بال من يزور بلدا للمرة الأولى..

وما إن حطت عجلات الطائرة على أرض المطار وفتح الباب.. سمعت كابتن الطائرة ينادي عليّ.. وفورا وجدت اثنين من ا لمضيفين الجويين يصحباني الى خارج المطار ومعي حقائبي.. حيث كانت سيارة سفارة البحرين في انتظاري، وانطلقت بي الى حيث أسكن.. وفي ثاني أيام وصولي كان الاخوة من اعضاء السفارة يقدمون لي كافة المساعدات من حجز لدي الأطباء وغير ذلك مع تحيات السفير الشيخ عبدالرحمن بن فارس الذي كان مازال في زيارة أهله في البحرين.. لم ينسني الرجل.. لم يتردد في مساعدتي رغم كونه في اجازة.. له الله.

وعندما استقر المقام بالفقيد الراحل في ديوان وزارة الخارجية مديرا للادارة القنصلية كنت أتردد عليه ـ بحكم عملي ـ فلم يضق بإلحاحي كصحفي.. ويسعد بلقائي كصديق..

لم يغلق بابا أمامي، أو يعتذر عن لقائي..

كانت تمتد الجلسات بيني وبينه ونتحاور في شئون الثقافة والسياسة والفكر.. يؤثرني بأحدث الكتب التي يقرؤها، وأنتقي أنا من بين الكتب ما أعتقد أنه يؤثر قراءته.. كنا نتبادل الكتب.. والأفكار ونتحاور دائماً.

وعندما تشغلـه الأحداث يعتذر عن اللقاء رقيقاً. ويصر أن يكون اعتـذاره هذا شخصياً وليس عن طـريق سكرتيرتـه.. يخرج من حجرتـه ويُقْبل عليّ هامسـاً ومعتذراً.. شـارحاً ومبينـاً انشغالـه عن لقائي.. في حين انـه لم يكن بحـاجة الى كل هـذا.. كان يكفيـه ان يبلـغ السكرتيرة بذلك.. الا انه جُبل ـ رحمه الله ـ على دماثة الخلق والأدب الجم.. ونبل المحتد..

كان رحمه الله يتحلى بخلق الفرسـان ونبلهم.. لم يتخل عن هدوئه للحظة.. ولم يتوان عن الترحيب بمن يعرف ومن لا يعرف أبداً.

عاش في هـدوء رحمه الله.. ومضى في هدوء أيضـاً.. وترجل الفارس.. الفقيـد المرحوم الشيخ عبدالرحمن بن فارس رحمه الله، وأجزل له عظيم العطاء في أعلى عليين.

التجديف في بحار
بلا قرار

إلى أين نمضي ايها الدهر بعد ما نصير هباء لا ضجيج ولا صمت؟
إلى أين يمضي شيبنا وشبابنا؟ إلى أين يمضي الومض والنبض والصوت؟

نعم.. من أين والى أين؟.. الى اين تمضي بنا الحياة؟.. نعبر جسورها لتسلمنا من المجهول الى المجهول؟

فيم أتينا؟ ولم أتينا؟ والى أين نمضي؟؟

هل نعاد في أنفسنا؟.. أم نعود في غيرنا؟ أم لا نعود؟

هل هي قصة لها بداية ونهاية؟ أم انها قصة بلا بداية وبغير نهاية؟

أم انها قصة سخيفة لا معنى لها؟ أو هي ليست بقصة بالمرة بل ولا حتى مجرد حكاية؟

هل هو الوهم نحسبه حقيقة؟ أم هل هي الحقيقة نحسبها وهما؟

ما هي الحقيقة؟ وما هو الوهم؟ بل أين الحقيقة وأين الوهم؟ أين شاطىء الامان المستقر؟ شاطىء وهم كان أم شاطىء حقيقة؟

فلطالما جرفنا تيار البحر الهادر ونحن نسبح بحثا عن الشاطىء دون جدوى.. فلا قدم لنا على اليابسة.. ولا منجاة من أمواج بحر لجُيّ موار بدوامات القلق.. والوساوس والشكوك.. الافق لا يكاد يبين.. والبحر يختلط بالأفق.. يزحف عليه حتى ليشعر المرء أنه سجين كره صنعه كل من البحر والأفق.. كره من القلق والألم والمعاناة.. «لقد خلقنا الإنسان في كبد» ولا فكاك.. لا شاطىء. هناك السجن أحكم اغلاقه.. ولا أمل حتى في مجرد البحث عن السجان الذي يمسك بيديه مفاتيح. كل المغاليق.. إننا نجدف بأفكارنا في هذا البحر الزاخر بالرؤى والمعميات بحثا عنه.. وأملا فيه وطمعا..

مرة أحس أنني أقترب منه واقترب.. واشعر أن ساعة الخلاص قد آذنت بالدنو.. ومرات يغيب عني أو قل اغيب أنا عنه.. وأروح أناطح برأسي جدار سجني حتى يكاد ان

ينفجر.. وأعـاود البحث من جديد مجدفـا في بحر الأفكار مستشرفا شـاطئ الأمان.. ولا شاطئ هناك!!

هل هناك شاطئ تستقر عليه وتركن إليه؟

هل ثمة يابسة نضع اقدامنا عليها؟

نعم أيها الغارق في بحر الأفكار الذي لا نـهاية له ولا قرار!

هذا ما قاله لي حكيم بن الحكماء.. صنعته الفكر.. وهوايته ارتياد بحاره وسَبْرُ أغواره.. يركب سفينة المعرفة فيمخر عبابه.. ويدير دفة الايمان فيذلل صعابه..

بالعقل والقلب معا نصل شاطئ الأمان!!

قـال الحكيم.. في نبرة صـافية واثقـة لا وجل فيهـا ولا خـوف.. أيها الفتى إنك تشقى بأفكارك.. وتتعذب بشطحات خيالك.. وهذا قدرك!! ثم أردف قائلا.. مفسرا!

دعني أوضح لك ما غمض عليك؟

انك تعـاد اليـوم بتركيبك النفسي والـذهني والجسـدي، انك سجين ذاتـك وملكـاتك وطباعك.. وقد كنت مـوجودا من قبل يوما مـا .. من ١٠٠ أو ٢٠٠ سنة أو حتى منذ آلاف السنين. المهم أنك كنت موجودا من قبل.. وها أنت تعود ثـانية.. لتحاسب عما قدمت يداك من معاص وذنوب.. بمعنى أوضح لقد عدت على هذه الصورة لتكفّر عن سيئاتك!!

قلت دهشا!! وهل ثمة وجود قبل هذا الوجـود كنا فيه سعداء أو أشقياء؟ هل نعاد مرة اخرى في أنفسنا أم في غيرنا؟

قال الحكيم: نعم.. يقينا ان ثمـة وجودا كان من قبل.. إننا نعاد في انفسنـا يا صديقي.. وسنظل نعاد هكـذا مرة ومـرات يتم خلالها تنقيـة أنفسنا ووجـداننا من شـوائب الحقد والضغينة، والحسد والـذنوب حتى نكون مهيئين ـ بعـد المرور بهذه المصفاة عبر قرون ـ نكون مهيئين بوجداننا الشفاف، ونفوسنا الصافية لكي تذوب في الذات الالـهية العليا التي نحن جزء منها.. وبعض من نورها ولا يختلط النور إلا بالنور.. وهذا معنى الخلود.

إذ كيف نتخيل أن نكتسب صفة من صفـات الذات الإلهيـة ـ الخلود ـــ إلا إذا أصبحنا

جزءا منها؟ ولن نكون جزءا منها الا اذا اتحدنا بها.. ولن نتحد بها الا اذا كنا بعضا منها، ولن نكون كذلك الا اذا تسامينا سموها وذبنا فيها.. وهنا نمسك تماما بشاطىء الأمان الذي لا أمان بعده ولا قبله..

.. وهكذا نمر بهذه المصفاة التي تنقي نفوسنا من الشوائب.. فنعاد في أنفسنا مرة ومرات.. اما الشهداء والانبياء والقديسون فهؤلاء لا يمرون عبر هذه المصفاة، انهم مؤهلون لان يذوبوا في الذات العليا دفعة واحدة!!

تحمل يا فتى.. تجلد.. قال الحكيم

جدف بالالم والمعاناة في بحار الافكار.. انك تعاد في نفسك مرة أخرى كي تتطهر.. ولسوف تعادمرة ومرة ومرة كي تشف روحك وتصفو نفسك وتكون مؤهلا لأن تذوب في الحقيقة الكبرى.. في علة العلل.. في الذات الإلهية القديسة.

وحتما ستصل الى شاطىء الأمان..

ترى.. هل تعبتم مثلي من التجديف بالالم والمعانات في بحار الأفكار؟

وهل تتطلعون معي إلى شاطىء الأمان؟

وهل يا ترى صدق الحكيم؟ أم أنه مثلنا جميعا قد أعيته الحيل، وأتعبته السباحة في بحار الافكار حيث لا مستقر ولا قرار فخرج علينا بمثل هذا المقال.

تكذبني..
وتصدق الحمار!!

لست أدري سر ولع كثير من الأدباء والكتاب «بالحمير» آسف.. أقصد الكتابة عن الحمير.. بل وجعلهم محورا لمؤلفاتهم، وعمادا لكثير من مقالاتهم الجادة حينا والساخرة في معظم الاحيان. حتى ان بعضهم جعل عنوان مؤلفه مركبا، ويدخل ضمن هذا التركيب لفظ الحمار.

هذا ما فعله الساخر الأديب توفيق الحكيم مع حماره، عندما تعاطف معه، وسخر منه وسخر منا من خلاله.. وهي نفس الفعلة التي فعلها المبدع الراحل يحيى حقي عندما خصص فصولا في كتاباته الوصفية للحديث عن الحمار، فأتى وصفه للحمار غاية في الحكمة المغلفة بالانسانية والرقة والرحمة والحنان، وصف الحمار - ولا ادري لم وصفه - فأجاد في الوصف مسجلا ذلته وانكساره وطاعته.. و«غُلبه» الزمني الابدي بين يدي عباد الله.. كما ان زميلنا الصديق العزيز الاستاذ صلاح المدني وكيل وزارة الدولة للشئون القانونية رصد في كتابه عن الأمثلة الشعبية عشرات من الأمثال التي تناولت الحمار في تراثنا الشعبي.. كما ان كاتبنا انيس منصور كثيرا ما يتوقف في كتاباته عند الحمار.. محدثا عنه متعاطفا معه، ومشفقا عليه عندما كتب مقالا في الاخبار عن حمار الشيخ عبدالسلام.. عندما سأل الناس ذلك المدعو الشيخ عبدالسلام وهو مهاجر من البلاد الى اين أنت ذاهب؟ فقال: بلاد الله لخلق الله ـ فقالوا.. وما هذا الحمار؟

قال انه نيابة عن الحمير في مصر..

وبين يدي الآن كتاب يحمل عنوان «تكذبني وتصدق الحمار.. للكاتب المستشار الدكتور عبدالوهاب العشماوي رجل الجامعة العربية سابقا ومستشار مجلس الشورى في البحرين حاليا.

ومع اننا لا نكاد نجد تفسيرا لهذا الولع الغريب بالحمار في كتابات بعض كبار كتابنا وأدبائنا، الا أن ما تحمله بعض سطور هذه الكتب وفترة صدورها تعطينا تفسيرا أشبه بتفسيرنا لكتاب ابن المقفع «كليلة ودمنة» حيث الحديث على لسان الحيوانات يحمل الحكم والعظة والتسلية ايضا.. وربما كان الحمار بين جميع هذه الحيوانات الأكثر «غلباً» والأعظم تحملاً.. في عينيه ذل الانكسار.. وفي طبيعته الطيبة والوداعة والصبر والاحتمال

على مـا تأتي به الأيـام والاحمال على يد الإنسـان.. ولعل ذلك يفسر لنا ذلك الـود الحميم لجنس الحمير.

وَيحُكي ان شخصاً ما طرق باب جحا طالبـا منه استعارة حماره للذهاب به إلى المدينة، وفتح جحا الباب ثم وقف دون دخول الرجل، وسأل الطارق القادم «خير ان شاء الله».

فقال الطارق.. هل تعيرني حمارك أذهب به الى المدينة؟

فقال جحـا: ياالسوء الحظ.. لـو انك سبقت بمجيئك لحظة لظفـرت به قبل أن يخرج إلى الحقل..

وما إن أتم جحا كلامه حتى نهق الحمار من داخل البيت نهيقا عاليا..

فقال الصديق: يا راجل أمال (ايه ده)!

فأسقط في يـد جحـا لفترة ثم استـدرك مستعبطـاً.. «مش عيب يـا صـاحبي تكـذبني وتصدق الحمار»!!

وكما يقول مؤلف هذا الكتاب عبدالوهاب العشماوي لقد حاولت خلال رحلتي معك ان احذرك من جحـا وان أحملك على ان تصدق الحمار فأنـا لم اعرف في حيـاتي حمارا يكذب ولكنني اعرف أناسا يكذبون منذ ولدوا إلى أن ماتوا.. فتولى الكذب عنهم الحواريون..

لقد استعـار المؤلف شخصية جحا والحمار ليقدم لنـا خلاصة الحكمـة على لسان ذلك الجحا الثـائر المستكين، الحكيم العبيط، الجاد أحياناً، السـاخر في أغلب الأحيـان، لقد لبس المؤلف مثلما لبس الحكيم من قبله لباس الحكماء، واستخدموا الحمار للتعبير عن حكمتهم، وايـراد ضالتهم في الفكـر، ومتابعـة أحـوال الناس والعبـاد.. وهي أحوال تعيي القـول.. وتناقض المقبول.. فلا بأس من القول على لسان الحمار.. أو عن الحمار..

ونقول مع الدكتور العشماوي: وهكذا.. ستبقى بقيـة حياتك أيها القارىء الكريم يطل عليك في كل صباح ومسـاء هذا الجحا الكذاب ليقف منك على مـا وصل الى علمك من أخبار وأنباء، فإذا افضيت إليـه بما رأته عيناك أو سمعته أذنك استنكر كـل ما رأيته واستفحش كل مـا سمعته وسـوف يقول لك عـاتبا «تكـذبني وتصدق الحمار» وسـوف تجد نفسك بالرغم من إرادتك تجيبه آسفا «حاشا لله.. وكيف لحمار أن يكذب»؟!

وقصيدتي كانت كاشفة عن اماكن الأورام فينا.. وربما كنت قاسياً فيها بعض الشيء لكن هذه القسوة كانت ضرورية.. انها كانت عملية كي بالنار لجسد الأمة العربية.

وإذا كان الكي موجعا فإنه فى بعض الأحيـان لا مفر منه إذا أردنا لمريضنا الشفاء. ان ما قلته أخيراً من شعر كان عملية تصـوير بالأشعة لأعماق الإنسان العربي.. وفي سبيل عافيتـه. وحتى نستطيع ان نبني على أساس سليم.. إننـا لا نريد بعـد الآن ان نبني أمتنا على أسس الغيبيات والعنتريـات والانفعالات التي لا تتعدى سطح الجلد.. نـريد ان نبني على أرض نظيفة خالية من الأعشـاب الطفيلية ومن كل العقد النفسية.

لكن ما هو مفهوم الالتزام عند نزار؟

لنسمع ما يقول:

في رأيي ان الإلتزام شيء واقع بالنسبة للأديب في كل العصور شاء أم ابى فهو ملتزم.. والإلتـزام انفعـال داخلي يصدر عن الأديب بعفـويـة وتلقـائيـة حين يتأثر بـالظـروف التاريخية والسيـاسية والحياتية التي تحيط به.. فالأديب جـزء من التاريخ.. ولا يمكنه ابداً أن يهرب خارج جدران التاريخ.

ورغم قنـاعتي بـرأي شاعـر الحب والـوطنيـة فإنني أعيب على شعره ـــ متفقـاً مع الكثيرين ـ إنه شعـر ينعى على الأمة العربية سلبياتها فقط دون الإشـارة إلى ما فيها من إيجابيات.. إنه اذن دعوة إلى الهدم لا إلى البناء.. دعـوة لليأس لا الأمل. لكن «نزار» عندما يسمع هذا الرأي يقول في انفعال ظاهر:

إن جسد الأمة العربية مليء بالأورام السرطانية..

ولد.. بنت
حسب الطلب!

علمنا فيما علمنا ـ والعهدة على من أعلمونا ـ أن المستقبل القريب سوف يحمل لنا الخيار في انجاب أبناء ذكور أو إناث، وأن وحدة العقم بالمستشفى العسكري تمتلك هذه التقنية فعلا ـ وهي مطبقة في كثير من الدول المتقدمة ـ مع فارق واحد هو أن المسألة لدينا ـ إذا ما طبقت وأخذ بها ـ سوف تحكمها نظرة إيمانية وضرورة قصوى طبية أو اجتماعية تتوافق مع الرأي الديني الذي لا يسمح بتطبيق أي تقنية إنجاب في الأنابيب أو غيرها من سبل الإنجاب، ومكافحة العقم المشروعة إلا إذا كانت مشروعة بمعنى أن يكون ذلك من صلب الرجل وبويضة المرأة زوجته.

ولأن العلم ـ علم الأجنة ـ يقول إن الهرمون الذكري يحمل صفتين «س» و«ص» وان بويضة الأنثى تحمل ما يرمز اليه بالرمز (س) فانه إذا التقى الهرمون الذكري (ص) ببويضة المرأة (س) كانت المحصلة ذكرا «ولدا»، أما إذا التقى الهرمون «س» ببويضة المرأة (س) تكون المحصلة «أنثى».. وتلك مسألة يتدخل فيها العلم في وحدات معالجة العقم وتقنياته.. بمعنى ان (س. س) تعني دائما «أنثى» بينما (ص. س) ينتج عنهما «ذكر».

وقد أمكن للعلم التدخل ليعطي نسبة نجاح في حدوث ذلك، واختيار جنس المولود وهذا بالطبع وفقاً لرغبة الأبوين «الأم والأب» وفي حدود الضرورة القصوى، كأن يكون محتملا ـ طبيا ـ الإصابة بأمراض وراثية عند إنجاب بنات فقط أو العكس عند إنجاب الذكور.

وقد يرغب الأب في إنجاب الأولاد لأكثر من سبب، وقد يجنح المجتمع إلى ذلك إذا كانت نسبة البنات إلى الذكور اكبر.

لكن يجب ألا يتصور احد ان المسألة «سايبه» يأتي إنجاب الولد أو البنت حسب الطلب، لأن تحقيق ذلك ـ أولا وأخيرا ـ رهن بمشيئة الله، وذلك ما يعترف به العلماء أنفسهم الذين يطبقون هذه التقنية.

فمن الثابت أن نسبة نجاح هذا الاختيار تقل عن ١٠٪ لأن كل أمر مرده إلى الله ﴿لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء، يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير﴾ (الآيتان ٤٨/٤٩ من سورة الشورى). فتحقيق وتطبيق هذه التقنية رهن بالقدرة على الإنجاب أولا ولا يمكن نجاحها حتى ولو بأي نسبة إذا كان العقم كاملا، بمعنى تلف الخصية أو تلف المبيض.

وإذا سلمنا ــ ونحن مسلمون بذلك ـ أن قدرة الله فوق الشك والتهم فإن نجاح هذه التقنية قد يجعل كثيرا من الآباء يفكرون في مسألة إنجاب البنين أو البنات، خاصة في هذا العصر الذي يجحد فيه الأبناء بالذات آباءهم عند الكبر ويقولون لهم (أف) ويرمون بهم إلى الملاجىء والمستشفيات في حين أن الغالبية الأعم من الإناث.. البنات يرعون لآبائهن وأمهاتهن عهد الوفاء حتى آخر العمر وأرذله.. وقد عرفنا حالات كثيرة يجد فيها الأب العجوز نفسه وحيدا وكذلك الأم وقد إنفض الأبناء عنهما مبكرا بينما لا تقطع البنت الوشائج، وتظل لينة الجانب حتى ولو على حساب حياتها مع زوجها، هذا إذا كان قاسي الفؤاد متحجره.

وأتصور ـ في هذا العصر ـ اذا طبقت علينا تقنية اختيار جنس المولود ذكراً أم أنثى فإن كثيرا من الآباء سيفكرون من الآن في إنجاب البنات تحسبا لمستقبل يهن فيه العظم ويشتعل الرأس شيباً.. ولن يعود الرجال كما كانوا في عصور ما قبل الإسلام.. ﴿إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ (آية ٥٧ سورة النحل).

وعلى ذكر الأبناء والحفدة والحفيدات فإن المثل القائل «أعز الوِلْد وِلْد الولد» مازال قائماً وإن كان من المتوقع أن يختلف المثل قليلا مع التعديل ليقال «أعز الولد ولد الولد أو ولد البنت» تأكيداً لنفس المعنى الذي أسلفت القول به في بدايات هذا المقال.

ورغم انني لم أعش بعدُ هذه الحالة فلم أصبح جدا لابن ابن أو ابن بنت فإن هذا المثل قد جسدته قصيدة جميلة جدا لأمير الشعراء احمد شوقي عندما تحدث عن حفيده ولتسمعوا الذي قاله في طرافة ودعابة وحسن صنعة، فقد رزق شوقي حفيدا من ابنه علي أسماه

«أحمد» تيمناً بـاسم الجد، كان ذلك في نوفمبر ١٩٢٦، أحب شوقي حفيـده أحمد حبا جما، ونظم فيه قصيدة، هذا بعض منها:

روحي ولذة عيني   عونته بالحسين
سلالتي من عليٍّ   ولدته مرتين
أحببته كأبيه   وزدته حبتين
طفل علينا أمير   مُقبل المركبتين
رضاه غير قليل   وسخطه غير هين
ويُوصي ويفي   بأول اشارة الراحتين
ويزدهي بخداع   وقول زور ومَينْ

الا حفظ الله الأبناء والبنات والحفدة والأحفاد، ومتعنا بفضلهم، ووقانا غوائل الزمان، ومنحنا حسن الاختيار وفي كل خير.

كرسي «ع» الشمال

جمعتنا مائدة عشاء، المفكر الاسلامي.. المصري الأصل، القناوي المولد المغربي الإقامة والهويـة الدكتـور رشدي فكـار، والأستـاذ الدكتـور حلمي مـرزوق رجل اللغة والفكـر والقانـون أيضاً وأنا.. كـانت المناسبة ندوة إشكـالية منهج العلوم الاجتماعـة التي نظمها قسم الدراسات العامة بكلية الآداب ـ جامعة البحرين.

كان الحديث بين هذا الثالوث ذا شجون خاصة مـع مداخلات الدكتور مرزوق.. هذا ما عودنا عليه في أي مجال يطرح فيه نقاش حول قضـايا فكرية.. اجتماعية كانت أم سياسية أم ثقافية.. فهـو صاحب باع طويل في الحديـث الطلي تزينه الذكريـات التي تنعش فينا وفي غيرنا ذاكرة سنين مضت.. وأحـداث وقعت وانتهت الا ان الدكتور فكار بـاستنارة أفكاره، وتوهج مداخلاته استطاع ان يحتل منا موقع الصدارة على مائدة الفكر ـ وان كان باعه على مائدة الطعام قليـلا ضئيلا ـ.. فهو لا يهتم بالأكـل الا قليلا.. ولا ينتقي سوى القليل من مشهيات الطعام والسلطات.

واستطيع القـول ان الدكتـور حلمي مـرزوق قد احتـل الكرسي الأيمن وكـان نصيبي الكرسي الأيسر على مائدة الطعام والفكر أيضاً.

استثار فينا صاحب الصدارة آلام الواقع العربي والاسلامـي.. وحاول ان ينتقل بنا الى رؤى المستقبل المأمـول، والمأمول في ظل قـرن قادم علينـا زاحف إلينا أن نجـد لنا ـــ نحن العرب والمسلمين ـ مـوقعا لقدم تـحت شمس هذا القـرن بعد أن غربت شمسنا طـويلا منذ القرن الساس عشر أو قبله قليلا.

قال لنا د. رشدي فكار لا تراهنوا أنتم وغيركم على زوال الحضارة الغربية الغالبة.. فلم يحن الآن أو حتى بعد الآن وقتُ انزوائها فى أعطاف عالم جـديد.. وقرن يؤذن ببزوغ قوى أخرى عاتية كالصين ومن بعدها الهند مثلا.

فهذه الحضـارة رغم توقع وقوعهـا فى هوة الأزمـات المادية والاستهلاكيـة، وتعرض

انسانها للأمراض النفسية والمأساوية مازالت قادرة بحيويتها على تجديد مسارها، وتحديث مفاهيمها الليبرالية. فمنذ الثورة البلشفية.. والرؤى اللينينة راهَن الكثيرون على زوال خطها الليبرالي.. واستفادت هذه الحضارة من أزماتها، وعادت لتجدد نفسها.. ولتشعرنا بتفوقها رغم كل معاناتها..

واذا كان الفلاسفة والمفكرون توقعوا لها هذه الأزمات، فليس معنى ذلك ان هذه ستكون هي النهاية.. قد تتزحزح قليلا عن موقعها في الصدارة.. لكنها لن تتخلى عن تميزها وقوتها، ولسوف يسمح القرن القادم بوجود حضارة تجلس إلى جانبها.. تنافسها.. تجلس على يمينها أو على شمالها لكنها لن تكون بديلا عنها.

الدكتور فكار يقول دون مواربة: ان كثيرا من المفكرين الذين التقيت بهم في أوروبا وألمانيا وسويسرا أكدوا ان الحضارة الاسلامية العربية يمكنها أن تأخذ لها مكانا إلى جوار الحضارة الغربية في القرن القادم.. لماذا؟

هذه الحضارة مازال لديها ثقة في الذات التاريخية من الممارسة الحضارية التي امتدت نحو ٩٠٠ عام من السيادة والريادة.. مازالت هذه الحضارة تمتلك الثروات البترولية التي سيظل العالم محتاجا اليها على مدى اكثر من ١٥٠ سنة.. مازالت لديها ثروة بشرية.. وموقع تحكمي في كل المضايق البحرية في العالم.

لذلك فإنها ـ أي الحضارة العربية والاسلامية ـ قادرة على أن تحتل موقعها المؤثر إلى جوار الحضارة الغربية إذا منحت الفرصة.. ليس ذلك فقط بل إذا تلاقت شعوبها ودولها من مجموعات متناثرة متنافرة إلى حزام إسلامي تتداخل في داخله دوائر عربية تتجه إلى منطق الأمة.

ان الوطن العربي من حوله حزام اسلامي يمكن ان يستوعب كيانات عربية تقوم على أرضية مشتركة على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتلتقي مع المجموعة الإسلامية.

إن ركائز الحضارة القادمة موجودة في هذا الإطار وضمن هذا التصور للدكتور فكار..

لكن الحضارة الغربية لن تمكن هذه المنطقة من اقتناص هذه الفرصة بزرع بذور عدم الاستقرار فيها.. بتصدير القلاقل.. هذا ما يقوله رشدي فكار.

ما يقوله ايضا إن العالمين الاسلامي والعربي لم يدركوا بعد معنى ان يتخطوا كل ذلك، ويتركوه وراء ظهورهم كي يلتقوا في كيانات كبيرة تجمع بينها هذه الأرضيات المشتركة.

إن الحضارة الغربية لا تريد أن تمنحهم فرصة الاستقرار.. فهل لا يريدون هم ان يقتنصوا هذه الفرصة؟.. أن يؤكدوا ذاتهم في قرن قادم لا يرحم، ويتواصل حديث مفكرنا الدكتور فكار عن صنع التلاقي العربي والاسلامي رافضا فكرة الخلافة التي عفا عليها الزمان ولن يسمح بها القرن القادم.. وينادي أن نسعى فورا إلى إعادة بناء الإنسان بالتربية الحديثة الواعية المستوعبة لمفاهيم العصر قبل ان نشغل أنفسنا ببناء المصانع فقط، واستيراد التكنولوجيا لا استيعابها.. ثم لنقضي على جذور الإرهاب بالتركيز على أصوليات الإسلام وسلوكياته.. فلا مجال الآن لإضافات جديدة إلى المبادىء الإسلامية فهي معروفة.. المهم السلوك.

وانفض العشاء.. وأيقنت أن الحضارة الإسلامية والعربية يمكنها - في القرن القادم - ان تأخذ لها.. ولو كرسيا على شمال الحضارة الغربية.. إذا أراد أصحابها.. وإذا تركها الغرب في حالها.

ولم يكتب تجربته الصحفية بعد!!

في الصحافة.. ومن أول درجة في سلمها سعيا إلى بلاطها الملكي تعلمنا الكثير.. على أيدي صحفيين وكتاب كبار.. علمونا مع الصحافة الحياة.. فاكتسبنا منهم حرفة القلم ومعاناة الألم.. مع صناعة الخبر واقتناصه.. من هؤلاء الكاتب الصحفي الاستاذ أنيس منصور الذي كان في زيارة إلى البحرين منذ أيام ضمن الوفد الإعلامي المرافق للرئيس محمد حسني مبارك، عملت مع أنيس منصور عندما كان رئيسا لتحرير مجلة آخر ساعة، وعايشته عندما تولى رئاسة تحرير مجلة الجيل الجديد التي أغلقت أبوابها وهي اكثر توزيعا من آخر ساعة.. وعن قرب عرفت أنيس منصور صاحب ١٥٣ كتابا في الفن والأدب والفلسفة والمسرح والنقد الأدبي.. من هذه الكتب في صالون العقاد. والبقية في حياتي وكتاب في تلك السنة سنة١٨٨٨ التي رصد فيها مولد عدد من العظماء ولدوا معا منهم العقاد وطه حسين وابراهيم عبدالقادر المازني وإيليا ابي ماضي، هتلر، نهرو وعدد من الفلاسفة الوجوديين، ثم صدر له كتاب «السيدة الأولى في العالم».. وأنيس هذا الذي أكدت الاحصائيات التي أجرتها «جريدة الأهرام» انه اكثر الكتاب شعبية في مصر.. لم يكتب بعد تجربته الصحفية التي امتدت اكثر من ٤٦ عاما.. هو خائف وجل عادة ما يردد قول المتنبي:

وضاقت الأرض حتى ظن خائفها   إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

وهو يقول دائما: يارب اني غريق كما ترى، يا ربنا ماذا ترى فيما ترى.. وأنيس منصور كما عرفته رئيسا للتحرير.. وصديقا لجميع من يعمل معه من المحررين يكتب كما يتحدث، ويتحدث كما يكتب تماما لا فرق.. تدخل عليه المقال أو التحقيق فيقرؤه في دقائق ويستوعبه تماما ثم يضع له عنوانا صحفيا صارخا يشد الاهتمام.. اهتمام حتى من لا يهتم، فهو «شاطر» في العناوين الصحفية شطارته في الكتابة الرشيقة العبارة.. القصيرة الجملة.. التلغرافية المعنى.

كان عندما تمر مجلة آخر ساعة بموقف حرج.. وما اكثر المواقف عندما نصل الى يوم الأحد.. يوم مونتاج المجلة ومازال هنا نقص في التحقيقات المطلوبة نتيجة لتراخي بعض

المحررين.. كان أنيس يعلن حـالة الطوارئ، ثم يغلق باب حجرتـه عليه، ويظل يكتب عدة مقالات وتحقيقـات ويوقعها بأسماء مستعارة أذكـر منها أحلام شريف، وفـوزي مختار، وناهد.. اسماء يخترعها لموضوعات في الفن والأدب والثقافة يكتبها على عجل فتأتي خفيفة الدم.. رشيقة العبارة.

أذكر انه عندما تولى رئاسة تحرير آخر ساعة وكنت مسئولا عن قسم الشئون العربية في بدايـة السبعينات أن أتخذ اجـراء بإلغاء هـذا القسم.. وواجهني بصراحتـه بهذا القرار وأسقط في يـدي.. لكنه لم يكن يـؤمن بهذا التخصص.. ولما سألته مـاذا أفعل؟ مد يـده إلى مكتبته ثم دفع اليّ بكتـاب طلب مني أن اقرأه ثم استعرضه في المجلـة.. وقد فعلت.. وظللت أفعل لمدة عـدة أشهر بعـدها اتخذ قـرارا بإيفـادي في رحلات صحفيـة أعود منهـا لأكتب تأمـلات.. ورؤي.. كان يشجعني.. ويـوجهني.. واعترف أنني استفدت منـه كثيرا عندمـا قــررت الرحيل إلى البحـرين ظل يحدثني عنهـا حديث العـارف.. المطلع.. فقد سبق لـه أن زارها.. قال لي إن اجمل مـا فيها ناسها.. وغنـاؤها.. إن الغناء في البحرين فيـه شجن.. فيه أنين.. أمـا الاسواق فـلا تحدث عنها.. ففيهـا عبق التـاريخ وسطوتـه.. إلى جانب شطـارة التاجر البحريني وسعة أفقه.

قلت له يـومها.. أمـا من شهادة خبرة أحملهـا وأنا ذاهب الى هناك؟.. فضحـك ملء فيه وقال.. الصحفي لا يحتاج الى شهادة خبرة.. إنه ليـس محاسبا أو «باشكاتبا».. وعلى كل ـ قال لي ـ ثم راح يجمع مؤلفاته حينذاك والتي بلغ عددها نحو ١٢ مؤلفا وكتب على كل منها اهداء له معنى.. ثم دفع بها إليّ.. وقال هذه الشهادة خبرة يا مولانا.. ويا مولانا هذه لازمة من لوازم أنيس منصور حتى الآن تعلمها في صالون العقاد.. وردها عن العقاد نفسه.

ومنذ سنـوات زارنا أنيس منصور.. وفـور هبوطـه مطار البحرين قـال لي.. أريد منك أمرين.. قلت «حـاضرين» يا استاذ فقـال: اسمع الغناء البحريني.. وأزور الاسـواق.. وقد كان له مـا أراد.. وفي هذه الزيارة ايضا صحبتـه في جولة بالأسـواق لكن الوقت لم يسعفه فيما يبدو كي يستمع إلى الغناء في البحرين.

السجن المؤبد

أحسب ان الانسان أسير زمانه ومكانه.. سجين طبعه.. وهو سجن مؤبد لا فكاك منه، ولا سبيل للخلاص من زنزانته.. فالزنزانة هو أنت.. نفسك. طباعك.. سمات شخصيتك ما هو مخلوق معك منها، وما هو مكتسب.. والنفس لعمري هي اقسى زنزانة.. وأضيق سجن وإن رحبت جدرانه.. واتسع ميدانه.. فالجدران فكرك.. عاداتك.. تقاليدك.. قيمك.. حسك.. قدراتك الشعورية.. إمكانياتك العقلية مجاري وجدانك.. دفين ذكرياتك.. واقع علاقاتك.. هي جدران أكثر صلابة من الحديد وأعظم متانة من القرميد.. وأشد قساوة من جلمود الصخر؛ لأنها نحتت من صخر الحياة وتلونت بلونها.. وركبت بتركيباتها.. ورحم الله اديبنا الكبير توفيق الحكيم عندما كتب كتابه سجن العمر. استعرض خلاله باسلوبه الشيق حدود هذا السجن وتناول بسخرية معهودة قضبانه وحيطانه وجدرانه منذ طفولته وصباه حتى شبابه ورجولته ونضجه.. كانت أول جدران هذا السجن هي طباع والده.. وبيت الأسرة.. وعادات والدته، والتقاليد السائدة.. والأوامر الصارمة في المدرسة وعذاب يلقاه على يد بعض مدرسيه.. ودفعه إلى دراسة القانون.. والسفر إلى باريس.. وتوزعت نفسه واهتماماته بين حبه للأدب والمسرح والفكر والفن، وبين دراسته للقانون.

لقد حاول ان يكسر هذه القيود جميعاً في حياته.. ومن بداياته عندما تعلق بعوالم الفرح وأحب عيشتهم في كتابه عوالم الفرح.. وحاول ثانية كسر جدران بعض ما أحاط به وبعمره من قيم وتقاليد ليتواءم؛ مع حياة العصر في باريس.. وفي القاهرة، ايضا، وسجل ذلك كله في كتابه عصفور من الشرق.. وعاش التناقض نفسه في مجتمعه في كتابه يوميات نائب في الأرياف.. وسجل عبر حواراته محاولات عدة لاختراق سجنه الأبدي في العديد من كتبه ومؤلفاته.

والواقع أننا كلنا نعيش تجربة الحكيم على مستويات مختلفة كل منا يعيش سجن عمره.. هو السجين والسجان.. قضبان سجنه الحياة من حوله، والحياة داخله من مشاعر

وأفكار وعـادات وسمات للشخصية تلازمه فـلا يفتك عنها ابدا.. وعنها لا يحيد حتى لو أراد.. هو سجين معتقـده.. فكره.. مسـوح شخصيته.. وذلك هـو الحكم المؤ بد بـالسجن المؤبد.. نعيشه مرغمين.. الجدران من حولنا نصنعها بأنفسنا حينا، وتصنع لنا أحيانا ولا أمل في الإفراج حتى ولو كـان الإفراج الصحي.. فالصحة والمرض أيضا من مكـونات هذا السجن.. من مفـردات قضبانـه.. من العلامـات المميزة لـه.. والسمات التي تطبع السجن الذي يعيشـه كل منا بطـابعه، ولطـالما تأملت حياتي وحيـاة الآخرين فإذا نحـن جميعا في السجن سـواء وإن اختلف طعم الـزنزانـة.. وتبـاينت طبيعـة السجان.. فنحن السجنـاء والسجانون.. ونحن الظالمون والمظلومون. ومفتاح الزنزانة ليس في أيدينا ولا أيدي غيرنا.. إنه بيد القـدر.. فهل نسترد حريتنا؟ ومتى، وكيف؟.. وما هو العالم الـذي سندلف إليه إذا صدر لنا أو علينا حكم بالإفراج من ذلك السجن؟.. الله وحده أعلم.

فارس.. إلى العصور الوسطى

أعلم.. ان مسار التاريخ الانساني في منعطفاته الهامة، ودوراته المتتابعة لا تحكمه فقط مجرد قوانين لا محيد عنها إنما يتدخل ـــ أحياناً ـ رجال وفرسان يتسمون بالشموخ ومناحي العظمة والقدرة، فيعجلون بهذه الدورات ويسرعون بدورانها، فالتاريخ ليس كيانا ماديا فقط يحكم الشعوب بقوانين صارمة إنما هو كيان متدفق بالحيوية.. كيان من لحم ودم وأعصاب يضفي عليه عطاء وفيض عبقرية بعض عظماء الرجال.. والقادة.

ولا يجب ان نتصور أن عظماء الرجال هم الأقوياء. فهناك فرق بين الرجل العظيم والرجل القوي، فعظماء الرجال ليسوا هم الأقوياء، هتلر كان قوياً ونابليون وموسوليني وجنكيز خان كذلك لكنهم لا يعدون بأية مقاييس من العظماء.

فالعظمة شيء والقوة شي آخر، ومعايير العظمة هي الحكمة والحب وسيلان العاطفة الانسانية، وبهذه المعايير كان محمد رسول الله صلى الله عليه، وسلم أعظم العظماء بشهادة موثقة من غير المسلمين، ولاننا نضرب مثلاً لا نقيس عليه ولا يجب علينا ذلك فإن تولستوى الكاتب الروسي العبقري الذي عايش القياصرة وكان من أسرة إقطاعية عظيمة الثراء يدخل في عداد العظماء؛ لأنه كان متعاطفاً مع ملايين الفلاحين فطرح جاهه وغناه جانباً، وجلس يصنع احذية بيديه للفلاحين الحفاة، وكذلك كان دستوفيسكي الذي أوصى الإنسان بأن يعيش في حالة حب دائمة مع الطبيعة.. اشجارها بل وحشائش ارضها، وأبو العلاء المعري الذي قال:

سر إن اسطعت في الهواء رويداً لا اختيالا على رفات العباد

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي سال دمعه.. وتبللت لحيته من أجل امراة جاعت في عصره.. ويهودي بات يتسول فأعطاه من بيت المال.. وفي مضرب أمثال العظمة عمر بن عبدالعزيز الخليفة الراشد الزاهد.. وغيرهم.. وغيرهم من فرسان البشرية وصناع التاريخ الذين أضفوا على البشرية من نبل سلوكهم وفيض مشاعرهم ورقة عواطفهم ما أدخلهم التاريخ فحكموه وسيروه.. وأسرعوا من دوران عجلته ودوراته من أجل إعلان قيم الحق والخير والجمال.

إن نماذج من هـؤلاء المتميزين من البشر تبرز أمـام ناظـرينا في كل عصر. وإذا كنـا قد تعودنا أن نطلق ـ خطأ ـ صفة الفرسان الحقة على فرسان العصور الوسطى ربما لأن هذه العصـور ميـزهـا الجور، وسحق انسـانيـة الانسـان، ومحاكم التفتيش والجهل وسفك الدماء.. ربما.

وربما لأنها كـانت فترات مـدلهمـة الظـلام في تاريخ البشريـة، فجـاء الفـرسـان بنبل محتـدهم، وعظيم عواطفهم الإنسـانية عـلامـات ضوء في ديـاجير ذلك الظلام الـدامس.. وأصبحوا منارات عبْر مسيرة الانسانية كلها.

ورغم ذلك فإن سمات الفرسان هذه بكل تلك المفاهيم من نبل وشجاعة وعاطفة جياشة تحتضن الانسانية كلها مازالت تطل بـرأسها في كل عصر من العصـور.. الوسطى منها بل والحديث ايضا. بل إن هذا العطاء الفرساني ـــ إذا صح هذا التعبير ـ يتبدى شامخا عندما ترتد البشرية بسلوكها العـام في هذا العصر والأوان إلى سمات العصور الوسطى.. سلوكاً وحشيـاً.. قتلا وسفك دمـاء ودمـارا بالجملـة في كل مكان مـن هذا العـالم.. في البوسنـة والهرسك.. في الشاشـان، في فلسطين ولبنان والصـومال.. عنـدما تـرتد البشريـة إلى هذا المنحـدر الذي يطـاول العصور الـوسطى في وحشيتـه وسلوكيـاتـه لابد وان يظهـر من الفرسـان من يتولـون عملية الإنقاذ، ويقـودون بنبلهم وشجاعتهم وحبهم للحيـاة ايضا شعـوبهم الى مجالي الحرية والكـرامـة الإنسانيـة، إذا كنـا نتابع بـالحزن الممض.. والألم اللاهب للمشاعر تلك المجازر التي أعـدها المجتمع الدولي في تنسيق عجيب لمسلمي البوسنة والهرسك.. فإذا المحصلة.. أشلاء ودموع وهتك للأعـراض.. وضحايا بالجملة في مجزرة لم تشهدها حتى العصور الوسطى.. ولم يعشها حتى المؤمنون أيام الاخدود.. والكافرون على ما يفعلون بهم شهود ووسط هذا الظلام المدلهـم في بشاعته.. المرّوع في آثاره ونتائجه نرقب بدموع الحزن والأسى هذه المأساة المروعة.. ولا نفعل شيئاً.. وسط ذلك كله يتطاول امامنا شامخاً بقـامته.. بشجاعته.. بحكمته ونبل سلوكـه ذلك الزعيم البوسني الرائع علي عزت بيجوفتش زعيم مسلمي البوسنة والهرسك.

شخصية فذة.. صـامدة.. شجاعة تواجـه تآمر المجتمع الدولي كلـه على شعبه بثبات.. بجدارة.. بفكر مستنير.. بـإنسانية ترفض ممـارسات العصور الوسطى وتـدعو إلى قيام مجتمع يقوم على الحب، واحترام حقوق الآخرين.

علي عزت بيجوفيتش.. تأملوه معي جيداً في مواقفه وبطولاته وصبره وإصراره وثباته وشجاعته، لقد حاول الصرب إرغامـه على توقيع وثيقة للتسليم بهوية البوسنة والهرسك

لهم خلال فترة اعتقاله اوائل مايو عام ١٩٩٢، لقد كان الرجل واضحا عندما قال: انه يعرف انهم سوف يعدمونه.. إلا أنه يفضل أن يعدم وهو يردد كلمات الاستقلال.

«إن شعبنا المسلم يناضل ويكافح ويموت من أجل إثبات حريته»..

وعندما تسلم جائزة الملك فيصل قال: «ما يحدث في بلادي مثال حي على ما يمكن ان يسببه العدوان الغاشم واللا مبالاة بمعاناة الآخرين من تخريب للحياة على الأرض».

وقال الرجل في كتابه «الاسلام بين الشرق والغرب» إن الفشل الذي اصاب الايديولوجيات الكبرى فى العالم إنما يرجع إلى نظرتها إلى الإنسان والحياة نظرة احادية الجانب هي نظرة شطرت العالم إلى شطرين متصادمين هي المادية الملحدة والكاثولوكية المغرقة في تعصبها.

إن ثنائية المادة والروح والأرض والسماء لم يحلها ببساطة سوى الاسلام فالإنسان اساساً عنصر روحي، وليس عنصرا بيولوجيا. الإنسان منا لا يشرب أو كسوجيناً ولا ايدروجينا بل يشرب الماء.

علي عزت.. لو تعلمون فارس بازغ بارع في عصرنا هو ليس فارساً من العصور الوسطى، بل هو فارس الى منطق العصور الوسطى الذي نعيشه في هذا العصر (ولد عام ١٩٢٥ وتعلم في مدارس سراييفو والتحق بجامعاتها، وحصل على درجات في القانون والآداب والعلوم، ثم عمل مستشاراً قانونياً، وتفرغ للكتابة والبحث حتى حكم عليه عام ١٩٤٩ بالسجن لمدة ٥ سنوات، وصدرت له عدة مؤلفات منها «الإسلام بين الشرق والغرب» وكتاب «مشاكل النهضة الإسلامية» وكتاب «البيان الإسلامي» الذي قدم إلى المحاكمة بسببه!!.

وبعد تفكك الاتحاد اليوغسلافي أنشأ علي عزت حزب العمل الديمقراطي وأصبح رئيساً لجمهورية البوسنة والهرسك ابتداء من نوفمبر ١٩٩٠ واستطاع أن يقود شعبه وسط بحور العداء، ومختلف الانواء، وعواصف التآمر الدولي بثبات وإيمان يحسد عليه ويسجل له في سجل التاريخ الحديث كفارس مسلم أفرزته محنة المسلمين لمواجهة طوفان من ممارسات العصور الوسطى في عصرنا الحديث ضد مسلمي البوسنة والهرسك.

كرة القدم..
لعبة الندم.. والدم

عشقت لعبة كرة القدم منذ أن انتبه وعيي على الحياة.. وكان للعشق أساسه وأسبابه.. وهو التعلق بنجم أو نجوم بعينها سطعت في سماوات كرة القدم العربية والمصرية.. وتركز التعلق بهذه النجوم في لمسات أقدامها وحساسية توزيعاتها الكروية.. وقمة الحرفنة التي عشقناها والفناها في الأربعينيات والخمسينات من هذا القرن.. تذهب الكرة وكأنها معلقة بأقدام عبدالكريم صقر.. أبو حباجه الضظوي، الجندي، مكاوي.. و.. غيرهم عربيا ودوليا.. واللستة طويلة.

لكن عندما اشتد الوعي ونما الوجدان.. تبلور هذا العشق في معنى آخر.. هو حب اللعبة الجماعية.. فالجماعة المكونة من أحد عشر لاعبا هي التي تصنع الفوز، أو تتسبب في الهزيمة وليس الفرد وحده.. فكانت لعبة القدم الحديثة هي أول عمل في وطننا العربي الحديث يعتمد على الجماعة أو «التيم وورك» كما يقولون.. فنحن قد تعودنا الفردية في كل أمر من أمور حياتنا.. في العمل.. في السياسة.. وغير السياسة ولأن الفردية تعكس الانانية.. ولأن التقدم البشري في الحال والاستقبال تصنعه الجماعات، ولم تعد تصنعه العبقريات الفردية فإنني عشقت لعبة كرة القدم.. لأنها لعبة الجماعة.

ولما نما العود الإنساني نما معه العقل وصحا النضج.. وبعد ان أدخلنا بمشقة في أتون الحياة والعمل مثلت كرة القدم بالنسبة لي ساعات أنسل فيها من هذا المعترك.. إلى معترك آخر يصنعه فريق كرة القدم.. معترك أنسى فيه كل شيء.. انخلع من الذات المشحونة بالتوتر.. بالعمل المتواصل.. ساعة أو بعض ساعة لأتابع بحماس لاهب تلك الأقدام التي تتناقل الكرات فيما بينها.. وما بين مراوغة.. ومصادمة.. وتعديات واعتداءات أنسى هذا العالم.. وكأنني استمع الى سيمفونية من سيمفونيات بتهوفن، أو تشايكوفسكي.. أو موزار.. تنقلنا بعيداً عن هذا العالم.. إلا أنها هذه سيمفونية تصنعها الأقدام وتعزفها الأبدان ويقودها مايسترو مطحون بين الجميع.. لاعبين ومشاهدين. هو الحكم.

وحتى وقت قريب جدا كنت اتعشق لعبة كرة القدم.. مشاهدة وليس مشاركة ولعبا ـ طبعا ـ رغم ما يعتور بعض المباريات من شغب متفرجين وتجاوزات اللاعبين.. قلت حتى وقت قريب.. كانت نهايته مساء الأحد الماضي.. كنت من عشاق كرة القدم بعدها انقلب هذا

العشق الى كراهية شـديدة.. فقد عرض التليفـزيون علينا خلال النشرة المسائيـة الرئيسية لقطـة ـ وهي بـالتأكيد لقطـة غير متعمدة ــ جاءت خـلال عرض الأخبـار.. اللقطة كـانت للرئيس الصربي النازي المتوحش، وهو يلعب مباراة «شوارعية» لكرة القدم مع أقرانه من جزاري وسفاحي الصرب.. كان هذا السفاح فرحا وجذلا خاصة بعد أن توصل الحلفاء إلى خطة يضمنـون له استمراره في حصـد رؤوس المسلمين.. كانت علامـات الشماتة والنصر تلوح في عينيه وهو يحرك الكـرة بين أقدامه.. في لامبالاة.. أما قسمات وجهه كـانت دموية كالعـادة.. متوهجـة بالشر والخبـث كما اعتدناهـا.. واقدامـه الشرسة تمرر الكـرات التي صورها إلى خيالي المتردي في أحضان الاحباط وكأنها جماجم المسلمين وهي تتناقلها أقدام الصرب.. مثخنة بـالجراح.. بالـدماء وتحولت هـذه اللعبة في نـاظري.. مـن الآن.. إلى لعبة الندم.. والدم.. ولم أعـد أحبها أبدا.. ولن احبها مـا حييت.. ندما على ما فـرطنا به من حق المسلمين علينا في البوسنة.

وببساطة شديدة جداً.. يجب ألا تشغلنا كرة القدم.. عن كرة الندم التي تلعب بضمائرنا ونحن نشاهد المباراة غير المتكافئة على أرض البوسنة.

ليالي حلوان
وأعياد الميلاد

كلما أوغلت البشرية في سيرها نحو الرشد والرشاد، أو قطعت طريقا الى بلوغ سن التمييز الانساني - لا القانوني - فإنها تكون مؤهلة لأن تتخطى هناك التعصبات القبلية، وكبوات التمزقات العرقية، وسوءات التميزات العنصرية، وإذا نظرنا حوالينا لأدركنا على الفور ان العالم الإنساني اليوم لم يصل بعد إلى مرحلة الرشد القانوني أو حتى الإنساني.. فعلى امتداد المعمورة تمارس كل سوءات المراهقة الإنسانية واللا إنسانية، وتنتهك أعراض القوانين الطبيعية التي بثتها فينا الفطرة ألزمتنا بها الأديان السماوية وحتى غير السماوية.

في الشرق.. وفي الغرب تمارس كبائر المذابح والاضطهادات باسم الدين تارة والانتماء الجنسي تارة أخرى أو العرقي في كثير من الاحيان، وما نشهده في مصر.. والجزائر.. وايرلندا والصومال وأمريكا.. وجنوب أفريقيا، والبوسنة وغيرها.. وغيرها.

نحن في مصر لم نكن نعرف أبدا الفرق بين مسلم وقبطي.. كلنا شركاء في مصر.. وأبناء لها.. البيت الواحد سكانه المتجاورون مسلمين وأقباط، حاربوا من أجل إجلاء المحتل معا، وماتوا معا وفرحوا معا أيضا، تزوجنا منهم وعايشناهم، الأقباط يشاركون المسلمين اعيادهم والمسلمون كذلك. أعز الصداقات كانت تعقد بين المسلم والقبطي، أما أشكال النزاع بين أبناء الوطن الواحد باسم الدين فلم تكن موجودة.. ولا مشروعة وارتفع شعار الدين لله، والوطن للجميع حتى حسبنا أننا قد بلغنا فعلا سن الرشد الانساني حتى جاءت الطامة الكبرى، ومارست فئة تدعى الإسلام أسوأ الممارسات محاولة بث الفتنة بين أقباط مصر ومسلميها.

والملاحظ على امتداد تاريخ مصر الاجتماعي والسياسي ان نعرات التفرقة الطائفية بين مسلمين وأقباط لم تكن لتظهر إلا عند وجود فراغ سياسي، أما في ظل الديموقراطية فالقبطي والمسلم سواء في الانتماء للفكرة.. للبلد.. للحزب.

ويبدو أن مثل هذه النعرات السوداء كانت تطفو على سطح الحياة الاجتماعية في مصر من آن لآخر بفعل فاعل، لكنها كانت دائماً نعرات طارئة حتى أن امير الشعراء احمد شوقي عالج هذا الموضوع في قصائده منذ عام ١٩١٠ عندما قال:

الحق أبلج كـالصبـاح لنـاظـر | لـو ان قـومـا حكمـوا الأحـلامـا
أعهـدتنـا والقبـط إلا أمـة | لـلأرض واحـدة تـروم مـرامـا
نُعلي تعـاليـم المسيـح لأجلهـم | ويقـرون لأجلنـا الاسـلامـا
الـدين للـديـان جل جـلالـه | لـو شـاء ربـك وحـد الأقـوامـا

إلى إن قال:

هـذي ربـوعكم وتلك ربـوعنـا | متقـابلين نعـالـج الأيـامـا
هـذي قبـوركم وتلـك قبـورنـا | متجـاورين جماجما وعظـامـا
فبحـرمـة الموتى وواجـب حقهم | عيشـوا كما يقضي الجوار كـرامـا

وينقلنـا شوقي إلى قصيـدة أخـرى يفهم منها أن هنـاك نعـرات بدأت تتعـالى فى سماء الصفاء الوطني في مصر، قال:

تعـالـوا عسى نطـوي الجفـاء وعهـده | وننبـذ أسبـاب الشقـاق نـواحيـا
ألم تك (مصر) مهـدنـا ثم لحدنـا | وبينهما كـانـت لكل مغـانيـا
ألم تك مـن قبل (المسيـح بن مـريم) | و (مـوسى) و (طه) تعبـد النيل جاريـا
فهـلا تسـاقينـا على حبـه الهوى | وهـلا فـديناه ضغـانـا ووادیـا
فـلا يثنكـم عن ذمـة قتـل (بطـرس) | فقـدمـا عـرفنا القتل في النـاس فـاشيـا

ومن أجمل ما قـرأت في الشوقيات إشارة إلى احتفـال رأس السنة الميلادية ومشـاركة المسلمين والأقبـاط معـا في شراء الهدايا، تلـك القصيدة عن حلـوان (منطقـة في ضـواحي القاهرة) والأطفال يلعبون معا بالعرائس واللعب في أعياد المسيحيين الأقباط، قال:

صغـار بحلـوان تستبشر | ورؤيتهـا الفـرح الأكبر
تهز اللـواء بعيـد المسيـح | وتحييـه من حيث لا تشعـر
فهـذا بلعبتـه يـزدهـي | وهـذا بحلتـه يفخـر

وبعد استطراد في وصف مجموعة الأطفال ولعبهم يقول:

ومـن عجـب فهـم المسلمـون | أو المسلمـون هـم الأكثـر
فـلاسفـة كلهم فى اتفـاق | كما اتفـق الآل والمعشر
ديسمبر شعبـان عنـدالجميـع | وشعبـان للكـل ديسمبر
ولألفـة غير صـوت شجـي | كـروض بـلابلـه تصفـر

ولا يـــــزدري بـــــالفقير الغنـي ولا ينكـــــر الأبيـض الأسمــــر
فيـــاليت شعـــري أضل الصغـــار أم العقـل عنهـم، يـــــؤثـــر
ســـــؤال أقـــدمــــه للكبـــار لعـل الكبـــار بـــــه أخبر

وهكـذا عكس شوقي بعـض هنات عـاشهـا شعب مصر تطفو الفتنـة الطـائفية حينـا وتختفي.. أحيانا عنـدما يعود الرشـد السياسي والإنساني إلى الوجـدان الوطني.. فياليت شعري اترتـد البشرية إلى طفولتها.. وعبثهـا وعدم تمييزها من جـديد، وإلا فما تفسير ما يحدث في المعمـورة الآن من عــذابـات وأحــزان يسببهـا العنف الـدينـي أو العـرقي أو العنصري؟.. ألم تطـو رسائل السماء كل هـذه الأحقاد؟.. وألم تك رسـالة محمـد عبداللـه خاتمة الرسالات وأكملها إيذانا بأن البشرية قد بلغت رشدها؟.. لا ندري.. ولا نجد تفسيرا لما يجري.

الصيد الصحفي بين
هامور الأخبار والشعري

يبدو أن علاقتنـا بالبحر الذي يعانقنا من كل اتجاه فيما يشبـه الطوق قد أضفت الشيء الكثير من ملامحها على مهنتنـا ـ الصحافة ـ فإذا نحن ـ خاصة المعنيين بـالأخبار منا ـ كالصيادين.. هم يبحثون عن الهامـور والشعري والصافي، ونحن نبحث عن الأخبار، هم يلقـون بالقـراقير ويثبتون الحظـور.. ويلقـون الشباك والسنـانير أملاً في الحصـول على هامورة هنا، أو سمكـة شعري هناك، أو كميات من الربيان تختفـي في مياه عميقة الغور.. ونحن أيضاً نلقـي بشباكنا وقـراقيرنا وحظـورنا في كل مكـان.. ورغم كل ما نـدعيه من عبقرية في محاولة اصطياد الأخبار على اختلافها، هامورها وصغيرها، فإننا لا نكاد ندرك الذي سوف نخرج به من حصيلة في نهاية النهار أو حتى الليل.

منا من لـه خبرة في اصطياد الهوامير.. والهوامير في لغتنا الصحفية الأخبـار «العودة» التي تصنع المانشيتـات، أما الأخبار من نـوع الشعري أو حتى الكنعـد فهذه قـد تكون في متناول اليد حيناً، وفي أحيان أخرى يعز الصيـد تماماً.. وتخرج شباكنا خالية اللهم إلا من بعض حصى الأخبار، وبقايـا نشاطات صغيرة هنا أو هناك، وقد يظل الـواحد منا يترقب الخبر الهامور.. يلقي شبـاكه ويدس الطعم لـه.. لكن الرياح قـد لا تكون مواتيـة ويطول الانتظار أسـابيع أوقد يشيح البحر بـوجهه عنا، ويصبح ارتيـاد موجه صعبـا وخطرا.. وتنقضي الأيـام.. ولا هـامـور واحـد في سـوق الأخبـار الـذي يطلب المزيـد في كل يـوم.. وبإلحاح..

الصياد المدرب يعرف طريقه جيدا، لكنه أحيانا ما تخطىء قدمه أو اذنه أو عينه صيده، فيحاول ان يصنع هـو الخبر.. فيتحول الى صيـاد وصيد.. يبحـر الى مياه عميقـة الغور.. بعيدة المسافـة.. مخاطرا دون سابق مواعيـد.. لأنه يعرف ان ترتيب مـواعيد مع المصادر ذات الوزن كثيرا ما تخيب بالاعتذار.. بالانشغال، أو بعوائق سكرتارية، أو إدارات مكتبية

بيروقراطية.

وهناك مصـــادر لا بد لك من اقتحامهـا اقتحاماً.. وأنت «وحظك» كما أن هنـاك مصـادر تعتـذر لك بأن لا أخبـار هنـاك، والسبب انشغالهم بترتيـب أوضاع المؤسســة أو اعـادة هيكلتها الوظيفية مع ديوان الموظفين مثلا، وعندمـا يعتذر المصدر هكذا لا يدرك هو ان ما ذكـره هو خبر بكل مقـاييس العمل الصحفي لكنـه لا يدري، فيمنحك الخيط الـذي تسير وراءه وهو لا يعلم.

فبعض المصادر تمر الأخبار من تحت عينيها وبين يـديها لكنها لا تدرك قيمتها لأنها لا تتمتع بالضرورة بالحس الصحفي.. وتلك مهنتنا نحن.

وفي بحور الأخبـار ومحيطاتها هناك مصادر لا تمنحك الخبر إلا اذا استخـدمت معها اسلوبا استفـزازيا.. كأن تواجهها بمعلـومة مغلوطة عن مـؤسساتها أو وزارتها فتبادر هذه المصادر بالنفي.. وتضيف مؤكـدة أن عكس ذلك هو الصحيح.. وهذا النفي أو التأكيد يصنع لك خبراً، ويلقي في شباكك نوعاً من الشعري بل وأحياناً الهامور.

ولعل أصعب رحلات الصيـد الصحفي تكون في المؤتمرات الصحفية والمفتـوحة، فعلى عكس ما يتـوقع الجميع، فإن هذه الأخبار والتصريحات تكون متـاحة لجميع الصحفيين، فلا انفـراد إذن.. والواجب هنـا يحتم عليك الخروج بجديـد دائماً، وحتى تحقق ذلك عليك الانتظار حتى انتهاء المؤتمر الصحفي، ثم متابعة صانع المؤتمر بسؤال جانبي تحصل على اجابته وحدك.

أذكـر أن الصحفي الكبير مصطفى أمين اوصى محرراً يغطي مؤتمرا صحفيـا لوزيـر الصناعة في عهـدعبدالناصر بأن يسأل الوزير في نهاية المؤتمر عن نـوع قماش بذلته.. هل هو مصري أم مستـورد؟.. ولأن حديث الـوزير دار في مـؤتمره الصحفي حول الصنـاعة المصرية والانتاج فإن إجـابة الوزير على أيـة حال ستشكل خبرا جديدا، فإذا كـان يرتدي قماشا مستوردا كان الخبر ذا مغزى معين والعكس أيضـاً صحيح إذ سيبرهن بإجابته انه يشجع الصناعة المصرية.

أما في بحور السياسة فإن الصيد الصحفي صعب وشائك لا مجال فيه لوضع شباك أو سنانير أو حظور، وقد نصحونا بألا نظهر قلما أو ورقة أو مسجلا إذا أردنا طرح سؤال على سفير أو وزير أو زعيم.. عليك أن توجه السؤال بشكل عابر ثم تحتفظ في ذاكراتك بالإجابة لتسرع بعد ذلك بتدوينها لأن المصادر السياسية تجفل من القلم والورق والتسجيل، وتتحفظ معك جدا. أو قد لا تجيب عن أي استفسار إذا ما شعرت بانك تسجل ما تقول.. فليكن حديثك عابرا أو ليبدو كذلك.. واعتمد على ذاكرتك فقط إذ يمكن لشبكة ذاكرتك أن تستقبل الهوامير الكبار.

هكذا علمتنا مهنة الصحافة، وهو ما علمتنا إياه مهنة الصيد.. صيد السمك، فأنت تخرج من الصباح الباكر مبحرا في كل اتجاه.. تلقي شباكك.. وتمد حظورك.. وتعد سنانيرك.. ولا تكاد تعرف ما إذا كان رزقك وفيرا أو قليلا مع نهاية الرحلة.. الرحلة الصعبة في بحار الصحافة وصناعة الخبر.

ثرثرة
سكرتيرات!

الحديث عن النساء قد يكون مثيراً بصفة عامة.. جاداً كان أم هزلاً.. أي نساء!

وهو يختلف بالتأكيد عن الحديث معهن.. الوضع مختلف؟!

تتباين فيه المشاعر.. وتدق الأحاسيس أو ترق.. ربما تتلاشى أيضاً.. لكن يبقى الوضع مختلفاً.

قال فيهن الشعراء والفلاسفة والمفكرون.. ما قالوا.

مثلما قال عنهن رجال الدين والدنيا.. لكن يبقى الوضع مختلفا إذا كان الحديث هو حديث النساء أنفسهن.. هنا يكون الوضع خاصاً جداً.. له مذاق خاص.. ونكهة مميزة.. خاصة إذا لم يكن بينهن رجل.. فتظهر المشاعر على حقيقتها.. (لا زواء) ولا رواء.. ولا رياء أو تزلف..

ولأن الرجل محور حياة المرأة عموماً فلا بد ان يكون حديث النساء محوره الرجل بصورة أو بأخرى.. نقمة عليه.. حباً فيه.. حسداً منه.. خوفا عليه.. ربما!! أو خوفاً منه.. محتمل!!

ومهما أظهرت المرأة من مشاعر.. وما اشتكته من متاعب في وجود الرجل فهي لا تظهر سوى أقل القليل.. وما تبطنه دائماً اكثر!

فيها حياء ممزوج بدهاء.. وصدقت امرأة عزيز مصر عندما عرضت عليهن يوسف عليه السلام، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن من فرط الدهشة والانبهار بعد ان كن قد قطعن «فروتها» كما يقولون.. ثم قلن حاشى لله.. ما هذا بشراً.

وقد دبرت لي الظروف فرصة لأستمع إليهن.. كنت انتظر مقابلة مسئول.. وكان موقعي الى جوار غرفة السكرتيرات.. وهذه الغرفة تتربع على عرشها واحدة لكن هناك دائما أكثر من واحدة.. أما إذا اجتمعت فيها الصديقات والزائرات تحولت حجرة السكرتيرات إلى «حرملك» بلغة الاتراك.. أما أصحاب المعاملات وطلاب المقابلات فهم في حجرة أخرى للانتظار، وبينما أنا جالس تناهى إلى مسامعي همس تسرب من حجرة السكرتيرات.. ثم تحول الهمس إلى صوت مسموع.. تسلل إلى أذني المرهفتين في رفق.. فأذنا الصحفي عادة ما تسبق عينيه.. وتسابق قلمه..

ولم يكن هناك حل آخـر سوى أن أسمع.. ثم تحول السمع إلى تسمع.. فـاستماع جيد، وبحس سمعي المرهف قالت احدهن في حدة ظاهرة ونبرة غاضبة: أختي.. الأزواج أنانيون بطبعهم.. يمارسون منطق «السي سيد» لكن بصورة عصرية.

ويش يعني؟ أجابت إحداهن في تساؤل.

أقولـك.. الزوج يأتي من عملـه معي.. أنا أعمل.. وهـو يعمل ونكون في البيت في سـاعة واحدة.. فيسرع إلى تبـديل ثيابه وأخذ حمامـه.. ويستلقي على عرش سريره.. في حجـرته المكيفة ولا يسأل عني.. أمـا أنا فمطلوب مني.. وأنـا في غاية الإرهـاق.. الهرولة إلى المطبخ لإعداد الطعـام.. والعناية بـالأطفال الصغار والكبـار، وأظل أقطع الردهـات ما بين المطبخ والمائدة وحجرة الاطفال.. بينما «حضرته» مستغرق في نوم هادىء هانىء.. ولا يسأل!

صوت احـداهن تناهى إلى مسمعي وهـي تقـول في تنهيدة حارة: ظلمنـا أنفسنا عنـدما طلبنـا المساواة بـالرجل.. وظلمتنـا الحيـاة عندمـا أجبرتنا على الخروج للعمل.. وظلمنـا الأزواج عندما اعتبروا أن خروجنا للعمل مشروط بإذنهم.. وأنهم قد أذنوا.. وقالوا لنا نقن بعض مـا نذوق.. لـذلك فإنهم ليسوا على استعـداد لتحمل ولو جـزء يسير من مسئوليـة المعاونة في أداء بعض الواجبات المنزلية.. على الأقـل مجرد مساعدة.. معاونة.. والأجر عند الله!

ضحكة خفيفة سمعتها مقـرونة بالبسملة والحوقلة.. الحمد للـه. أنا أوفر منكن حظا.. وأحسن حالا.. فزوجي يبادر إلى مساعـدتي في تحمل بعض الأعباء خاصة في الظهيرة عند العـودة من العمل.. لكنـــه رغم ذلك يظل يقـول لي بنظـراتـــه.. ليس إلا.. «تشـوفين أنـا أساعدك»؟!

وأمام نظـراته لا أجـد أمامي سـوى تحمل مزيـد من الأعباء.. أذاكـر للأولاد.. احضر حاجياتهم من عند البراد.. أراجع المدرسة.. ألبي كافة الطلبات! منتهى الإرهاق!

ما دمنا قد قررنا وقبلنـا الخروج إلى العمل فعلينا تحمل مسئولية ذلك.. فالزوج سمح لنا عند الـزواج بالخروج إلى العمل لكن ذلك كان مشروطا عـرفا وواقعا بالتـزامنا الكامل بمسئوليات البيت والأولاد.. وإلا كان علينا الاكتنفـاء بأداء واجباتنا البيتية دون الخروج للعمل.

صرخت من قبلها واحدة.. وهل مهمتنا في هذه الحيـاة مجرد الإنجاب والطهو.. ورعاية المحروسين من أبناء وأزواج؟

ودار صخب في حجـرة السكرتيرات ضـاعت في ضبـابيـاته المعـاني، واحتجبت بعض

الكلمات عن أذني.. وبت شغوفا إلى الاستماع إلى بقية الحوار.. لكن كلمات حسـامة قاطعة حسمت الموضوع عندما قالت أخرى.

إن خروج المرأة للعمل حق.. وهو ليس مرهونا أو مشروطا بموافقة الزوج، أو مشروطا بشروطه بصرف النظر عن ضغوط الحاجة الاقتصادية أو تبعات الحياة.. بل حتى لو كان الرزق وفيرا والحال (عال).. إنه جزء من كيان المرأة.

إذن علينا في هذه الحالـة تحمل مسئولياتنا بـلا ملل أو كلل.. فنحن لن نجبر الزوج على المشاركة في عمليـات الكنس والمسح ونظافة البيت وغسيل الصحـون.. ويمكن الاستعانة بالخادمة والمربية والسائق..

خرجت ضحكة عالية ساخرة.. خرمت أذني المرهفتين..

قالت: فلم كان هذا الغالب.. ووجع القلب؟ لماذا تخرج الزوجة إلى العمل؟ إذا كان دخلها سـوف يذهب إلى السـائق والخادمـة والمربيـة.. عليها تـوفير كل ذلك.. ولتقعـد في البيت أحسن.. لتقوم بدور المربية والسائق والطباخ..

سـاندتها كلمات أخـرى.. بـالعكس.. إنها ستوفـر على نفسـهـا ما تصرفـه على اللبس والشياكـة ومصاريف الحيـاكة والكوافير فضـلا عن توفيرها مضـايقات بعض الـزملاء والرؤساء وتقلبات مزاجاتهم..

احذري.. يا.. أن تعودي بنا إلى عصر الحريم!!

أي عصر حـريم رحم الله والـديك؟ انت في بيتك تمارسين دورك.. وليس مطلوبـا منك مجرد إنتظار حضور «سي السيد»!.

عنـد ذلك سكتت النساء عن الكـلام غير المباح.. فقـد قطع حديثهن استـدعاء المسئـول إحداهن لتسمح لي بالمثول بين يديه.. ومثلت!

بكائيات الألم
والنـــــدم

عشت ليلة (مضنية) حقا مع آلام وأحزان البوسنة والهرسك، ليلة لم تُفتح فيها سوى قواميس العذاب والمعاناة التي عشناها نحن العرب على مدى قرون طويلة، ففي ليلة عشاء الخير التي نظمتها جمعيـة الإصلاح افتتاحـا لأسبوع مناصرة شعب البـوسنة والهرسك المسلم جاءت الكلمات تقطـر ألماً، وتنزف دماً، وتفيض حـزناً وكأننا نسترجع كل مـآسينا التي استقرت دمـوعا في مـآقينا منذ ضيـاع الاندلس، واستـلاب أرض الاسكندرون ومن بعدهـا أرض فلسطين وأراض عربيـة أخرى. وعنـدما اعتلى المسرح الأخ البـوسني خليل بوشكار ألهب فينا الحماس، واكتملت فصول البكائية التراجيـدية بأناشيد الجوقة المسلمة بقيادة«أبـو راتب» والتي جاءت أشبه ما تكـون برثاء شعب ووداع أمـة دالت حضارتها، وذوت آمالها، وانزوت الى خـارج التاريخ.. تنتظر.. وتنتظر ذلك الفـارس المجهول الموعود الذي يمكن ان يمد لها يد العون؛ كي تطفو مـرة أخرى على سطح حياة هذا القرن الذي كاد ان ينقضي تمهيداً لأن تتوكأ على نفسها في محاولة للسير عل طريق قرن آت.

كلمات دامعة وراء كلمات ينشدها أبو راتب.

من أرض البحـــرين دعـــانـــا قلـب ينبـض بـــــــــالإيمان
يـــدعـــونـــا أن لبـــوا الآنـــا جـــرح الاخـــوة في البلقـــان

وتسكت الجوقة لتبدأ من جديد أناشيد رثاء في سراييفو:

سراييفـــو بـــــلا عيــــد تنـــوح ودمعهـــا جـــاري
دم في الأرض مسكـــــــــــوب وطفـل جـــائع عـــــاري

سـراييفـو.. سـراييفـو

أناشيـد.. ومزادات.. صور للبيع.. وتـاريخ للبيع، ولوحـات.. وأسماء.. وتبرعات اهل الخير.. وحث على ممارسة تجارة لن تبور.. السلعـة معروضة، والثمن عشرة أمثالها.. بل عشرات.. وكـلام كثير، وخطب أشبه بـالمرثيات والبكـاء على أطـلال أمة.. وليست أطـلال البوسنة وحدها.. بكاء على فلسطين.. والأندلس.. وانصهرنا جميعا في بوتقة الألم والندم..

الألم بما هو حال، والندم على ما فات.. ورحت أتذكر في هذه اللحظات ذكريات الصبا البعيد فيما قبل الوعي بقليل، أو عند حافته تماما.. عشت نفس المظاهر، ونفس تلك التظاهرات البكائية الحماسية في القاهرة.. في مدارسها وجامعاتها ومساجدها ومنتدياتها.. عشت كل ذلك وقد أفلتت فلسطين من يدنا.. كانت المناحات على أشدها قبل دخول الجيوش العربية وتطورها في فلسطين في ١٥ مايو ٤٨.

كانت المناحات عربية، والبكائيات إسلامية من أجل ضياع القدس والأقصى وفلسطين العربية.. تندد.. فقط تندد بشراذم الصهيونية المزعومة.. وبالجيوش العربية المهزومة.. كان هذا دأبنا ومازال.. نكتفي بالبكاء والتشنج والعواطف المتأججة بينما آلاف المسلمين والعرب يذبحون في فلسطين ودير ياسين والصبحة والخليل وحيفا ويافا.

كانت التظاهرات المتشحة بالسواد.. وصور الشهداء.. عبدالقادر الحسيني - احمد عبدالعزيز.. وغيرهما تتصدر كل مكان.. وكان هذا هو كل ما كان مشفوعا بالشجب الرسمي والإدانة.. وكفى الله المؤمنين القتال والطعن بالنبال.. فالجهاد بالمال أولا ثم بالنفس.. والمال وفير.. والأمة مقبلة على عصر النفط.. ولا بأس من الجود ببعض المال.. هذا افضل من الجود بالعيال والرجال..

وانطلق صوت عبدالوهاب يغني ألما لفلسطين.. التي تجاوز الظالمون فيها المدى فحق الجهاد وحق الفداء، واستوجب الأمر سحب السيف من غمده فليس له بعد أن يغمدا.. وتبارى الشعراء في القول الساخن الساحر.

هو الحق يحشد أجناده ... ويعتد للموقف الفاصل
فصفوا الكتائب آساده ... ودكوا به دولة الباطل

و.. وماذا..

عيد الاضاحي للعروبة عيد ... إن زال من كل الوجود يهود
إن اليهود عناصر شريرة ... إجرامهم بين الورى مشهود

واستل العرب أقوالهم إلى افواههم من غمد اللسان وسحر البيان.. قد حان وقت النزال والطعان باللسان الذي يشجب والفعل الذي لا يؤثر.

.. وتتوالى الصور.. وتتكرر المشاهد.. دخول الجيوش العربية أرض فلسطين.. والترقب.. والهدنة والضحكة الكبرى، ومقتل الوسيط الدولي «كونت فولك برنادو» على

أيدي الصهاينة.. وتضيع فلسطين ونبكي.. وننظم المظاهرات.. ونقيم المؤتمرات ونتبادل المراثي.. ونبكي ومازلنا الى الآن نبكي.. وامتد البكاء على فلسطين إلى بكاء على البوسنة والهرسك.. والصومال وشعبها.. بكائيات في بكائيات.. وبعد أن جهزنا اللسان يحلو الكلام من أجل نصرة شعب البوسنة والهرسك.. وتتكرر نفس المشاهد، وتتوالى وستتوالى.. وتضيع البوسنة والهرسك وسط تدويل آلام المسلمين والتآمر عليهم.. وسنظل - كدأبنا دوما - نقيم المهرجانات.. ونبكي ونرتل الأناشيد، ونطلق المرثيات.. وندفع بعض المال من اجل ان نجهز نعشاً آخر بعد نعش فلسطين والاندلس.. والبقية تأتي.. ولست أدري أين المواقع الأخرى التي سوف تزحف اليها وعليها مآسينا.. لتظل الدموع في ماقينا.. دموع عجز وضعف نسلمها الى أولادنا وأحفادنا ونوصيهم خيرا بالا يتوانوا عن اقامة المهرجانات واطلاق الأناشيد والتفنن في المراثي ونحن نراوح مواقعنا وأماكننا فوق الكراسي.. كراسي العجز عن النضال من أجل استرداد السليب من الأرض والعرض، واستعادة اشراقة الوجه العربي.. وكل مرثية وبكائية والعرب بخير!!!!

الذين علمونا
العلم والحياة

كلما حان موعد دخول المدارس عدت بذاكرتي القهقري لأتذكر هذه الحكاية، وهي حكاية تبين لنا كيف كان اساتذتنا ومدرسونا آباء لنا، ومعلمين للحياة، يشدون من الأزر كي نواجه المصاعب، ويوضحون لنا الأمر؛ كيلا تطغى سحابات الجهل على عقولنا، ويستلهمون العبرة لنا من دقائق الحياة وتفصيلاتها كلما ران شك على القلوب، أو اعتصرتنا الخطوب.

كان ذلك في منتصف الاربعينات.. وكنا تلاميذ صغارا فيما يعرف بالتعليم الإلزامي الأولى، وهو ما قبل الابتدائي واثناء درس الدين والقرآن الكريم كان مدرسنا الذي يدرس لنا القرآن والدين والحساب والعلوم ويحكي لنا الحكايات ـ على نمط مدرس الفصل الآن ـ اسمه العطار أفندي.. كان الرجل قصيرا.. حليقا.. وجيها يرتدي الطربوش.. وصاحب خط جميل جدا.. يكتب بالطباشير على السبورة آيات من القرآن.. ويتفنن في الكتابة بخط الرقعة.. وفي هذه «الحصة» التي صادفت ذلك اليوم الذي سأحكي حكايته كتب آيات من سورة الواقعة.. وفجأة ونحن مشدودون الى شرحه بعد خطه الجميل احمرت السماء.. وبدأت الدنيا تظلم رويدا.. رويدا في «عز الظهيرة» حتى تحولت إلى ظلام دامس.. تناهت فيه إلى مسامعنا شهقات بكاء المعلمين في الصفوف المجاورة، وأصوات هلع تصدر عن التلاميذ الصغار.. وقال الجميع إنها القيامة.. بل إنها الواقعة.. وقد وقعت.

ووسط هذا الجو المدلهم.. والصراخ والهم.. جاء صوت العطار أفندي الذي لم نعد نراه.. مطمئنا.. موحيا بالثقة يدعونا إلى تلاوة ما نحفظ من القرآن.. وانصعنا إليه طبعا، خوفا وطمعا.. حتى انجلت تلك الغمة التي سادت مصر كلها.. وعاودنا الهدوء.. فقال لنا الاستاذ المعلم: لقد أزاح الله هذه الغمة ببركة ما قرأتموه من قرآن كريم وذكر حكيم.. وكان هذا هو الدرس الأول الذي ظل لاصقا بأذهاننا حتى الآن.

وعلى هذا النهج تعلمنا العلم والحياة والدين على أيدي أساتذة لنا في الإلزامي والإبتدائي والإعدادي والثانوي حتى الجامعة، وهؤلاء الاساتذة أسرونا بفضلهم لأنهم منحونا وبإخلاص فيض علمهم، وخالص حكمتهم في الحياة.. اعتبرونا أبناء لهم وتصرفوا معنا على هذا الأساس.. ومن خلال علمهم وسلوكياتهم اكتسبوا حبنا واحترامنا

وتقديرنـا حتى إننا إذا كنا نلقاهم في طريق ننـزوي إلى جانب منه ـ لا خوفـا أو رهبة ـ بل احتراما واعترافا بفضلهم وعلمهم.. إنهم ملائكة يحلقون.. لا بشر يمشون..

وكلما منحـونـا علمهم.. وفيض حكمتهـم.. زاد فضلهم علينـا.. فـلا نكن لهم سـوى الاحترام.. والتبجيل والتقدير.

أول من علمني الكلمـة.. الزعبلاوي.. «أفنـدي»، غناهـا لنا وأنشدهـا في الفصل ونحن صغار.. «كـورتي كورتي».. ما أحـلاها.. ما أبهاهـا.. كورتي تعلـو.. حتى السقف.. وأنا أعدو.. وأخي خلفي من يلقفها.. كان السابق».

وعلى يديه أيضاً تعلمنا الحب الخالص للناس جميعا، ولا أنسى زكي أفندي أو بابا زكي كما كان يحب ان نسميه.. كان يعلمنا الانجليزية في الابتدائي.. فإذا أجاد أحدنا.. اخرج من جيبه القرش.. وقال هذا من بابا زكي.. ويظل يوزع علينا القروش من آن إلى آن حافزا على الإجادة والتفوق. أما استاذنـا في اللغة العربية بالمدرسة الثانويـة فلا ننساه.. الأستاذ علي المقطّف «وهو درعمي» أي خريج كلية دار العلوم.. إن هذا الرجل الذي ما ان أهبط القاهرة إلى الآن حتى أسعى إلى زيـارته، فقـد علمنا اللغة كفن جميـل.. كان يهدينا الشعـر لنجمل حياتنا.. ومنه وعلى يـديه تعلمنا الخطابة، وحفظ مقامـات الحريري وبوردة البوصيري.. أما خلاصة مـا تعلمناه منه ايضا فهو الإباء والحرص على الكرامـة الانسانية مهما كانت الرغائب والرغبات والمغريات، أذكر أن من كان يلجأ من التلاميذ إلى الدروس الخصوصية هـو التلميـذ الفـاشل.. أو «الخائب» أو الـذي هـو دون المستـوى.. ولم تكـن الـدروس الخصوصية شائعة كما هي شائعة الآن بل كانت تتم في مجموعات داخل المدارس.

وبشكل تطوعي من قبل بعض الاساتذة الـذين يمنحون من وقتهم للتلاميذ الضعاف، ولقد طلب مني زميل صديق في المدرسة أن اتوسط له لدى استاذ اللغة العربية كي يمنحه من وقته سـاعة كل اسبوع كدرس خاص في اللغـة العربية. ونظرا لما كـانت لي من حظوة لدى استاذي علي المقطف فإنني توسلت إليه مرارا وهـو يرفض المبدأ ذاته ومن أساسه.. وتحت إلحاحي الشديد وافق.. لكن بـدون مقابل.. على الا يذكر هذا التلميذ لأحـد انه يأخذ درساً خاصاً.

وعلى نفس النهج من الإخلاص والترفع أذكر استاذي ابراهيم شقير.. وهو خريج كلية اللغة العربية بالأزهر، كان الرجل آية من آيات الإخلاص في العطاء والوفاء لمهنته يعطي بلا حدود.. ويطلب منا زيارته في منزله إذا أردنا معرفة المزيد.. كلنا أبناؤه.

أما في الجامعة فقد كـانت لنا وقفات ووقفات في مدرجات كلية الحقـوق أساتذة تعلمنا

منهم شموخ الكرامة.. وعلو قيمة العلم. اذكر منهم استاذي الدكتور اسماعيل غانم الذي كان يطاول الدكتور عبدالرزاق السنهوري في علمه، ويعتبره فقهاء القانون خليفة له.. كانت له معه معارضات فقهية قانونية في القانون المدني بالذات بالنسبة لكتابه «الوسيط».. كان هذا الرجل يفني نفسه داخل المدرجات.

ولأول مرة أرى استاذا في كلية الحقوق يستخدم السبورة والطباشير لشرح أحكام قانون الإيجارات.. ومصادر الالتزامات رشحته القيادة السياسية وزيرا في الستينات.. وتولى وزارة العلاقات الثقافية في عهد جمال عبدالناصر لمدة شهرين فقط.. بعدها طلب من عبدالناصر إعفاءه من المنصب قائلا له.. انني خلقت فقط لأكون أستاذا بالجامعة.

وحتى وفاته لم يقتن سيارة أو فيلا.. بل كنت أراه قادما من شقته بالمعادي راكبا باص النقل العام إلى ميدان التحرير ليواصل رحلته إلى كلية الحقوق بجامعة عين شمس عند بدايات مصر الجديدة ونهايات العباسية.

.. و.. وحياتنا الدراسية والمدرسية حافلة بالأفذاذ من المعلمين الذين علمونا العلم والحياة بإخلاص وتجرد فاستحقوا احترامنا واحترام الجميع.. ورحم الله من انتقل منهم إلى جوار ربه وبارك في حياة البقية الباقية من هذا الرعيل.. وللحديث صلة.

العرب بين جلد
الذات ونقد الذات

هذا الذي تعيشه أمتنا العربية من تمزق وخطوب تصل الى حد الكوارث ليس الآن فقط بل وعلى امتداد تاريخها كيف نفسره؟ ولا اقول كيف نبرره هل هي ظواهر عارضة أم طبائع نافذة تمسك بمخالبها وتنشب اظافرها في الكيان التاريخي والسياسي والجغرافي لهذه الأمة، لتكون معا صورة الواقع العربي بحيث لا ننظر الى هذه الأزمات.. والصراعات على اعتبار انها عوارض - وملامح خارجة عن إطار الصورة العامة سرعان ما تظهر لتختفي وتتبدى بعد ذلك الصورة في ملمحها العام؟

إن محاولة فهم الواقع العربي الراهن لابد وأن يتم في إطار المسار التاريخي الطويل للأمة العربية وضمن واقعها الجغرافي والبشري كصحار شاسعة ممتدة منبسطة، بداوة وحضارة هجرات وتجمعات، حكم وسياسة، وسياسة حكم في إطار المفهوم العربي للدولة أو حتى خارج هذا الإطار.

من أجل البحث عن الجذور، وأساسها الواحد.. القادر أو الواهي. حتى الحضارة الإسلامية - وهي حضارة عظيمة ومبدعة.. مازالت تعاني من فقر دم سياسي، ومن يستقرىء تجارب التاريخ السياسي العربي من الخلافة وحتى الآن عبر الصراعات السياسية لابد وأن يدرك ذلك.

إن واقع المكان ومسار الزمان لابد وأن يحكي واقع الحال في الماضي والحاضر والمآل ايضا.

المطلوب إذن نقد الواقع العربي في مساره الطويل بحثاً عن جذور هذه الأزمات التي عاشها أجدادنا، وعشناها ونعيشها حتى الآن.. فلا حدث أو أمر ولا تطور هو منقطع عن جذوره.. المهم إن نوالي البحث عن هذه الجذور برؤية نقدية موضوعية تتجاوز جلد الذات والبكاء على أطلال مضت ونثر العبرات وسكب الدموع الى نقد الذات بموضوعية شديدة تحلل التاريخ.. والجغرافيا، تبحث عن الزمان والمكان.

ولقد استخلصت هذه المعاني من فصول كتاب قيم صدر حديثا للمفكر البحريني الدكتور محمد جابر الانصاري تحت عنوان «تكوين العربي السياسي ومغزى الدولة القطرية» مدخل إلى إعادة فهم الواقع العربي.

لقد خاض بنا المؤلف ببراعة وفي موضوعية شديدة طبقات التكوين السياسي والجغرافي والتاريخي العربي عبر مساره الطويل في محاولة إلى لفت انتباه الوعي العربي إلى أن الأزمات السياسية المتلاحقة التي يعانيها العرب ليست وليدة الحاضر الراهن وحده، وليست نتاج لحظاتها الآنية المنعزلة، وإنما هي أعراض لتراكم واقع موضوعي طويل الأمد تداخلت فيه عوامل المكان والزمان والتكوين الجمعي أي بكلمة أخرى عوامل الجغرافيا والتاريخ والتركيبة المجتمعية العامة المتوارثة الممتدة إلى عمق الحاضر المعاش.

لقد رصد الأنصاري عوامل الصراع بين البداوة والحضارة، واضمحلال فكرة الدولة، ثم غموضها أو عدم قبولها.

قال ابن خلدون في مقدمته التي شخص فيها سرعة تساقط الدول في الفضاء العربي الإسلامي، ومدى عجز الحواضر ومناطق العمران العربية عن حكم نفسها بنفسها وتوفير الدفاع الذاتي عن وجودها بحيث كانت ــ والقول لابن خلدون ـ «عيالا على غيرها في المدافعة والممانعة» كما قال: ان من عوائد العرب الخروج عن ربقة الحكم، وعدم الانقياد للسياسة.. فهم متنافسون في الرئاسة.. وقلّ ان يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه.. وقلما تجتمع أهواؤهم فتصبح الأحوال كأنها فوضى دون حكم.

يقول الانصاري ان التضاريس السياسية الظاهرة التي يتنازعون حولها ما هي إلا انعكاسات ونتوءات لطبقات جيولوجية مشتركة في العمق مكانا جغرافيا وزمانا تاريخيا ومسارا سياسيا فيما نسميه بخصوصية عربية، أو خصوصية الأمة العربية وهي ليست خصوصية امتياز وافتخار كما نتوهم.. بل هي خصوصية مثقلة.. خصوصية امتحان واختيار.

وبالطبع فإننا لن نستطيع هنا إدراك كل ما استعرضه الأنصاري من أفكار استخرجها من الواقع العربي المكاني والزماني والسياسي.. فهو عندما يتعرض إلى الصراع بين البداوة والحضارة على امتداد تاريخ الأمة العربية يقف بنا.. امام القطيعة المكانية التي تتمثل في دور الفراغات والفواصل والحواجز الصحراوية الشاسعة الممتدة بين معظم الأقطار العربية حتى تقطيع وتجزئة المنطقة العربية عمرانيا ومكانيا وبالتالي مجتمعيا وسكانيا.

بالإضافة إلى قطيعة المكان ولدت الطبيعة الصحراوية بموجاتها التصحرية المتعاقبة واحتياجاتها الرعوية الدورية المتتالية قطيعة اخرى في الزمان وذلك بتقطيع مجرى التراكم والتطور الحضاري والسياسي في التاريخ العربي بموجات التصحر والجفاف المتعاقبة التي دفنت مدنا وحضارات ودولا باكملها تحت الرمال عصرا بعد آخر وحتى في المجالات التي

خضع فيها العرب لدولة ذات سلطة مـركزية فإنهم خلال الألف سنة الأخيرة من تاريخهم ومنذ انتهـاء الدور العربي في قيـادة الدولة الإسـلامية لم يشـاركوا في حكم هذه الـدولة، وإدارتها نظرا لاحتكار العناصر الرعوية الآسيوية الوافدة السطة الكاملة فيها.

نعم.. إن الوطن العربي وحدة متصلة بـامتداده وانبساطه الصحراوي، وأن الصحراء هي وسيلة تواصله وتوحده ولكنها ـ كما تبين ـ عامل قطيعة وتجزؤ في الوقت ذاته.

وصحيح أيضاً أن الوطن العربي يمثل انخفاضا جغرافيا، سهلا منبسطا ومفتوحا أمام قـوى الجوار، وقوى العـالم الخارجي من هضبـة الأناضـول التركيـة إلى هضبة فـارس الإيـرانية. إلى هضبـة الحبشـة الاثيـوبية، لكن من غير الصحيح أن الـوطن العـربي تحده وتحميه حـواجز طبيعية منيعة كما قيل ويقـال، إن الحواجز الطبيعية المنيعـة هي لصالح الآخـرين المحيطين به، ولسـت لصالحه.. وكمهنـدسي علم طبقـات الأرض الجيولـوجيين يطوف بنـا الانصاري بفكره المستنير عبر طبقات الـواقع العربي الممتد بجـذوره في الواقع المكاني والزماني والسياسي..

وهي رؤية نحسب أنها غاية في الأهمية..

وللحديث بقية.

اللغة العربية
وعود على بدء

كنا جلوساً في مجلس، حظ القرآن الكريم فيه هو الأوفى قراءة وترتيلا، كان الجمع خليطاً من الثقافات والاهتمامات.. منا الجامعي، ومن بيننا العامل وآخر يحمل الدكتوراه.. وخريج من الأزهر.. وعجوز بسيط متواضع التعليم لم يحظ بقدر معقول أو مقبول منه.. ورحنا نتناوب قراءة أجزاء القرآن فيما يسمى «بالخاتمة» التي عادة ما نقرؤها جميعا فنأتي على أجزاء القرآن الثلاثين كلها في جلسة واحدة لا تمتد أكثر من ساعة، إلا أن مثل هذه الجلسات كانت تحمل لنا مفاجآت بعضها مضحك والآخر مفجع.. خاصة إذا ما أمسك خريج الجامعة أو أحد طلبتها المصحف بين يديه ليتلو آيات من قصار السور أو حتى من طوالها، فإذا به يخرج بالمعنى واللفظ عن المألوف والمعروف، ويجور على قواعد سيبوية.. ثم يجترىء اجتراء على التشكيلات والضوابط فتأتي القراءة مسخاً في التلاوة.. واللفظ.. فإذا المعنى غير المعنى وخاصة عند فواتح بعض السور وعند خواتم بعضها الآخر، ونكتشف أن حظ شبابنا ـ حتى المتعلم منهم ـ ضئيل جداً من اللغة الأم.. اما عن الاخطاء النحوية والإملائية في الكتابة.. حتى كتابة طلبات التوظف فلا تحدث، فهي فضيحة الفضائح مفعمة بالعدوان الآثم على اللغة.. نحوها.. وهجائها..

ونتعجب من امر هذا الجيل الذي فرّط في لغته وعروبة لسانه.. الا أننا نلتمس له العذر رغم ذلك فالمسئولية لا تقع عليه وحده وإنما تقع على مدارسنا ومعاهدنا التي مازالت على إصرارها العجيب في تعليم اللغة العربية تعليما مجردا من الواقع شاردا عن الحياة ممعنا في البعد عنها، وكأن اللغة وتركيباتها وألفاظها هي مجرد رموز مجردة لا علاقة لها بالحياة ولا وظيفة لها فيها، مجرد أبيات من الشعر المهجور تدرس وألفاظ وتراكيب تنقش في أذهان الطلاب، وقطع أدبية دراسة طواها الزمان والمكان أيضا. فإذا الطالب مقطوع الصلة بلغته الأم حتى من قبل أن ينهي شهادته الثانوية فإذا ما التحق بالجامعة في تخصصاتها

المتباينة كان غريبا عليها تماما كما وجدنا، وكما لمسنا.. وكما عرفنا، على الرغم من أن التمكن من اللغة قراءة وتعبيرا وكتابة من شأنه التأثير إيجابيا على مستوى استيعاب الدارس في شتى جوانبه، فالطالب الذي يجيد التعبير عما في ذهنه من معلومات بصورة سليمة ولغة غير سقيمة يقترب من مراتب التفوق ويتدرج في معالي الرفعة؛ لذلك فإننا اذا ما تتبعنا سير عظمائنا وقادتنا في الثقافة والفكر والعلوم والطب لابد وأن ندرك ان بداياتهم كانت في الكُتّاب بل ومع حفظ أجزاء من القرآن الكريم.. ولن نعدد هنا هذه الأسماء، فهي ليست ظاهرة نرصدها بل قاعدة لابد وأن نسير عليها.. لنعلم أبناءنا ـ كما كنا في السابق ـ القرآن وليحفظوه على ألسنتهم ليشكل مخار ألفاظهم.. ويهذب أسلوب نطقهم.. ويعلمهم الكتابة والحكمة والصبر على حفظ السور بدقة متناهية تصل إلى حد التقديس، فلا مجال للخطأ.. ولا مجال للّحن.. ولا منطق يقبل النسيان أو يضع لفظة مكان لفظه أو حتى تناسي مجرد همزة.. وفتحة.. أو ضمة.

وأذكر والدي رحمه الله كان لا يكتفي بما نتعلمه في المدرسة من علوم دينية ودنيوية بل حرص على استقدام مدرس معمم بالمنزل يقوم على تحفظينا ـ إخوتي وأنا ـ أجزاء من القرآن الكريم، تصحبه عصاه، «الخيزرانة» التي عادة ما كانت تمتد لتداعب الأيدي والأرجل مداعبات خشنة قاسية إذا ما تهاونا في الحفظ أو ترددنا في إجادة الترتيل ولم نحفظ للألفاظ مخارجها المضبوطة..

من هنا كان لابد لنا من العودة إلى بدء أو على البدء كما قالوا وفي البدء كانت الكلمة.. والكلمة هي آيات الله.. ونحن لا ندعو إلى تحويل المدارس إلى نظام الكتاتيب الذي مضى لكننا نطالب بترشيد مناهج اللغة العربية، والعناية بتدريسها وليكن محورها القرآن الكريم منذ نعومة الأظافر وحتى نهاية الدراسة الجامعية، فلا نقف بتدريس اللغة العربية عند الشهادة الثانوية، ونقطع الصلات كلها باللغة في كليات الجامعة خاصة الكليات العلمية منها.

ولقد تابعت بتفاؤل محفوف بالحذر ندوة إثراء المنهج الموحد في اللغة العربية لمراحل

التعليم العـام في دول مجلس التعاون، والتى نظم لها مكتب التربيـة العربي لـدول الخليج العربية.

ولعل ما يبعث التفاؤل فينا أن بعض المسئولين أدركوا كنه المشكلة، وطبيعة محنتنا مع اللغة العربيـة. فقد أكد مدير مركـز البحوث التربوية أن اللغة العربيـة اصبحت غريبة على ألسنة كثير من أبنائنا، وهذه حقيقة، وأنه من الضروري الاهتمام بدروس النحو والصرف، والتركيز على القراءة والاستماع والتعبير والكتابة، وتلك حقيقة أخرى.. ومع هذه الحقائق ذكرت الندوة حقائق أخرى كثيرة مست لب المشكلة.. ويبقى الحل في العودة الى المنهج من جديد ومنهج تعليم اللغة العربية يجب أن يكـون القرآن الكريم حفظا وحسن تلاوة.. لكن كيف يتم ذلك؟ وكيف يكون المنهج؟ فتلك مسألة لابد وأن يـدور حولها الفنيون بإخلاص المؤمنين، وصبر العاشقين للغة الأم.. ورحم اللـه الشاعر وهيب دوس عندمـا تغنى باللغة العربية حبا وعشقا فقال:

لا تلمنـي في هـــــواهــــا   ليـس يـــرضيني ســــواهـــا
لسـت وحــــدي أفتـــديها   كلنـــا اليـــوم فـــداهـــا

الأب المعلم
ودوره المفقود

حتى نحفظ لنفوسنا هدوءها.. ولأعصابنا راحتها.. ولعقولنا رتابتها.. وليشخوختنا وقارها فلا تفقد توازنها، أو تهن كرامتها عندما يهن العظم ويشتعل الرأس شيباً.

وحتى نصون أموالنا التي جمعناها طوال العمر فلا يمسسها التبديد أو التخريب.. حتى نحفظ لأنفسنا ولغيرنا ذلك كله علينا أن نمارس دورنا الحق في تعليم أبنائنا وتربيتهم حيث يختلط في العصر التعليم مع التربية اختلاط تفاعل وتضافر.. وذلك يبدأ من البيت أولا.. فالأب المعلم هو الأول دائما ويأتي دوره قبل دور المعلم بالمدرسة.. بل إن دور معلم المدرسة يتراجع نسبيا في الأهمية عن دور الأب المعلم.. وكلما تراجع دور الأب المعلم تراجع بالتالي دور المعلم في المدرسة.. ولعل ما نشهده الآن من تراجعات في أدوار المعلمين والمعلمات بالمدارس.. سواء أكان دورا تعليميا أم تربويا إنما هو مظهر من مظاهر قصور دور الآباء المعلمين.. إذ يبقى دورهم الذي يتوجب عليهم أداؤه في البيت هو الدور الأهم.. فعندما نتعلم كيف نؤدي دورنا في التربية والتعليم نحو أبنائنا وبناتنا بالمنازل تصبح مهمة المدارس أكثر يسرا.. وأفعل تأثيرا فتعود للمدرس هيبته.. وللعلم وقاره وتأثيره.

وإذا كان الأولون قد افلحوا في تربية أبنائهم جيلا بعد جيل.. علموهم الأدب قبل العلم.. وأرضعوهم سلوكيات الحياة، وأصول التربية قبل دخولهم المدارس فأخرجوا لنا رعيلا تلو رعيل قاد أمتنا في مجالات الفكر والعلوم المختلفة.. نقول إذا كانوا قد فعلوا ذلك.. ونجحوا فإننا على ما يبدو قد أخفقنا فيما نجحوا فيه وتهنا في متاهات حقول التربية الحديثة التي تموج حدائقها في كثير من الأحيان بزهور برية، ونباتات شيطانية وسلوكيات أحادية تتفرق ما بين الانعزال في الذات وتضخيمها وبين تقوقع كافة الأفعال والأحداث فيها.. وفيها وحدها دون أدنى اعتبار للآخرين بمن فيهم الآباء والأمهات.. حتى أصبحت هذه سمة جيل بأكمله أقلق حاله المربين وعلماء النفس، فرفعوا من أوروبا

وأمريكـا الشرق لافتات تطالب بإعـادة النظر في أسـاليب التربية الحديثة أمـلا في الا يرهق الأبناء آباءهم طغيانا وطيشا وعقوقـا.. ولم يعد مستغربا أن نسمع أن ابنا تعدى على أبيه أو أمه.. أو على من هو أكبر منه سنا، وكأني استرجع في هذا العصر آيات القرآن الكريم ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم﴾ (سورة التغابن الآية ١٤).

وإذا مـا استرجعنا كيف كـان الآبـاء والأجداد يعلمـون ويربـون ويـؤدبون أبنـاءهم وحفدتهم لمسنا العجب ولادركنا لم كـان الكبير يحظى باحترام الصغير.. وكيف كان المعلم مبجـلا.. والأب مصـانـا، والأم تعشعش في القلـوب.. والعلم مقـدسـا وصـلات الـرحم موصـولة.. والتباهي بالعلم والثقـافة لا بالمال و«الهيـافة» وهو الأساس.. «أوصـانا أمير المؤمنين عمر بن الخطـاب بأن نعلم أولادنا الرمايـة والسباحة.. ولنأمـرهم كي يثبوا على الخيل وثباً.. وهذا يعني تربيتهم على الرياضة والعسكرية منذ الصغر.

ولقـد عجبت أيما عجب عندمـا اطلعت على كتـابات الغـزالي في «الاحيـاء» عن رياضـة الصبيان وطريقة تربيتهم.

قال الإمام الغزالي «إن الطريقة في ريـاضـة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها.. والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جـوهرة نفيسة سـاذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه.

ويستطـرد الغزالي نـاصحا ومـوجها بـألا نعود الصبي التنعم ولا يحبب إليـه الزينـة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبهـا إذا كبر فيهلك هلاك الأبد بل ينبغي ان نراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال».

ويدعونا إمامنا الغزالي بأن نحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التنعيم والرفاهية، ولبس الثيـاب الفاخرة.. ثم يشغـل في المكتب فيتعلم القرآن، وأحـاديث الأخبار وحكـايات الأبرار وأحـوالهم؛ لينغرس في نفسه حب الصالحين، ويحفظ من الأشعـار التي ليس فيها ذكر العشق وأهله.

يمنع الصبي من أن ينـام نهارا فإنـه يـورث الكسل، ولا يمنع منـه ليـلا، ولكنـه يمنع

الفرش الوطيئة؛ حتى تتصلب أعضاؤه، ولا يسمن بدنه فلا يصبر عن التنعيم بل يتعود على الخشونة في المفرش والملبس والمطعم.

وتأملوا هذا التوجيه الحكيم الذي يقول به الغزالي بمنع الصبي من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه، أو بشيء من مطاعمه وملابسه أو لعبه وذواته، بل يعود التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم.

ليعلم ان الرفعة في الإعطاء لا في الأخذ، وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة، فإن كان من أولاد الفقراء فيعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة.. وبالجملة يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما.

وفي استطراد جميل يوضح لنا الغزالي أصول تربية الطفل، فيؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب المكتب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه في التعلم دائماً يميت قلبه، ويبطل ذكاءه، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه.. وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبي.. وأن ينظر اليهم بعين الجلالة والتعظيم وأن يترك اللعب بين ايديهم.

رحم الله الامام الغزالي وأمثاله من المربين المؤدبين ورحمنا بعدهم بعد أن ضعنا أو كدنا، فاضعنا أجيالا بعد أن فرطنا في واجبات التأديب والتربية والتعليم.

لم الهلع..
لم القلق؟

في مقال سبق. قلنا فيم الهلع وبيننا أسبابه، وهو مرض يصيب البعض، وقد تم الاتفاق بين علماء النفس على هـذا المصطلح «مـرض الهلع» تعبيرا عن منـاخ نفسي خـاص يـداهم البعض سواء أكانوا مرضى حقا أم حتى صوّر لهم وهمهم أنهم مرضى.

والهلع لو عرفتم هو افراز لشعور بـالقلق.. والقلق هنا شديد محض.. وهو قلق مرضي فإذا كان من طبيعـة الإنسان القلق.. أو لنقل إنه طبيعـة انسانية فهو لا يكـون كذلك الا اذا كان قلقا إيجابيا دافعا للعمل.. لتنشيط الأمل.. ولم يكن قلقا سلبيا معوقا.. أو محبطا.

ويمثل القلق الايجابي المطلوب حكايتك عندما تـريد ان تقذف بكرة أو بحجر إلى الأمام بعيـدا فإنك تمسك الكرة بقبضـة يدك مـادا ذراعك إلى الخلف قليـلا حتى تدفع الكـرة إلى المسافة التي تريد.. فإذا مـا مددت ذراعك إلى الخلف كثيرا واكثر من اللازم فانك ستخفق وستسقط الكرة تحت قدميك.. وهذا شأن القلـق السلبي المعوق.. وهو القلق الذي زاد عن حده.

ومن ألوان القلق التي تمر ببعض منا أو لنقل بأكثرنا في عنف وسطوة ما يسميه علماء النفس والاجتماع بقلق الموت.. وهـذا القلق رغم سطوتـه لم تقترب منـه أو تعالجه علميـا أدبيـات علم النفس العربي الاقتراب الكـافي، بل ربما أنها لم تقترب منه إلا على استحيـاء.. ربما لهيمنة عقيدية أو دينية رغم وجوده بيننا ومعنـا بدرجات متفاوته.. ولقد خرج عالم مصري أخيرا بمؤلف هام جـدا عن قلق الموت، العالم هو الدكتـور احمد محمد عبدالخالق، لقد اقترب هـذا العالم من هذا القلق مفسرا.. معـرفا.. مجريا تجارب ميدانيـة تطبيقية على طلاب الجامعـات والمدارس.. وفي المجتمعات العـربية، وحدد عينـات قاس عليهـا أو قاس لـديها الإحساس بـذلك القلق في المجتمع المصري والمجتمع السعـودي والمجتمع اللبنـاني وغيرها من المجتمعات.. قام بقياس هذا القلق ودرجاته بين الرجال والنساء، وبين الصغار والكبار فجاءت دراسته غنية ومثيرة.. مبينا ارتباط هذا النوع من القلق بالجنس.. بالسن.. بالمهنة، بالتدين.

يقول المؤلف بعد مدخل إيماني ديني: لقد برزت فكرة هذا الكتاب إبان وجودي بباريس في بيروت وتأثري بالأحداث الغامضة للحرب الاهلية التي دارت رحاها هناك.

ومـــا الحرب إلا مـــا علمتـم وذقتهم   ومـــا هـــو عنهـا بـــالحديث المرجم

إذن من الطبيعي جدا في هـذا المكان غير الآمن أن يفكر الإنسان غالبـا في الموت أكثر من تفكيره في الحياة.

ولأن معظم الناس ينفـرون من الموت بل من الحديث عنه وهـو ما أطلق الله سبحـانه وتعالى عليه في محكم كتابه «مصيبة الموت».

فـــــالموت آخـــــر علـــــة يعتلهـــــا البـــــدن العليل

ويطوف بنا المؤلف في تعريفات للقلق بصفة عامة، السوي منه والعصابي بدءا من قلق الامتحان وصولا الى قلق الموت ومـرورا بقلق الجنس والقلق الاجتماعي.. وعند قلق الموت توقف الكاتب عند تعريفات معينة لم أرتح إلى تعـريف منها أنه - أي قلق الموت - استجابة انفعالية تتضمن مشـاعر ذاتية من عدم السرور والانشغـال المعتمد على تأمل أو توقع أي مظهر من المظاهر العديدة المرتبطة بالموت.

ومن المهم أن نعرف مثـلا أنه من المسلمات الأساسية في دراسـة الموت.. النظر اليه على أنه أمر نقيضي أو متنـاقض، إنه قوة تدميريـة إبداعية معا، فـالإنسان يخاف الموت ويقلق منه، وهذا الخوف أو القلق يحرك كثيرا من سلوك الإنسان بشكل مباشر أو غير مباشر.

وقدم لنا المؤلف قلق الموت عبر عينات عربية مصرية سعودية ولبنانية مستحضرا فكرة الموت في مفهومه في الثقافة المصرية، والعقـائد الجنازية في مصر القديمة، والحزن والحداد في مصر الحديثـة، والاحتفـالات المسرفـة المتصلـة بـالموتى، والحزن العميق في مـواجهـة المصريين للموت وسيكـولوجية الحزن والبكـاء لدى المصريين.. مبينـا في نفس الوقت قلق الموت، في ضوء الفكـر الإسلامي، فـالإنسان المسلم مطمئن إلى مصيره بعـد الموت ومن ثم فإن عدم اكتراثـه به كثيرا فالموت بـالنسبة للمؤمن ولادة جديـدة «الناس نيام فإذا مـاتوا انتبهوا».

وفي ضوء ذلك توصل الباحث إلى قلق الموت لدى المصريين في دراسة على طلاب الكليات المختلفة بالجامعات المصرية ٦٧٣ طالبا و٧٧٠ طالبة.

كما أجرى دراسة على عينة من طلاب جامعـة الملك سعود ودراسة أخرى على عينة من الطلاب اللبنـانيين متوسلا إلى ذلك بمقاييـس علمية واحدة ومحددة وفقا لمقيـاس تمبلر.. وقد ظهرت من خلال الـدراسة فروق بين العينات العربية الثـلاث وفقاً للفروق الجنسية. فالنسبـة للطلبة الـذكور حصل اللبنـانيون على أقل متوسـط وحصل المصريون على أعلى متوسط بينما حصلـت الطالبات المصريـات واللبنانيـات على المتوسط نفســه. ومن خلال

الدراسة اتضح أن المصريين أعلى متـوسطا في قلق الموت نتيجة للمكانـة البارزة للموت في الحضـارة المصرية، والعـادات والتماسك العائلي، بينما اتضح أن السعـوديين لهم مركـز وسط في قلق الموت. وقد أرجع البـاحث ذلك إلى اعتبارات اقتصادية وعقيـدية والقرب من الشريعة الإسلامية السمحة.

اتضح أيضا أن اللبنـانيين أقل متوسط في قلق الموت خـاصة مع مناخ الحرب والـدمار والقتل والتعـود على رؤية الـدم.. المهم أنـه قـد تنوعت أسبـاب قلق الموت في كل عينـة من العينات العـربية الثلاث.. وبقي الارتبـاط بالعقيـدة هو الأساس لانخفـاض متوسط قلق الموت، الارتباط بالله وتسليم المصير له عامل مهم جدا في انخفاض مستوى ذلك النوع من القلق، ويبقى القول إن هذه الدراسة العربية الأولى جاءت غنية جدا بنتائجها ومقاييسها إذ تنوعت شرائحها بين ارتباط مستوى القلق بالعمر، بالجنس، بالمهنة، بالوضع الاقتصادي، وبغير ذلك من العوامل التي لا مجال هنا لإيرادها.

ولنا عودة لمن يهمه الأمر.. وكلنا مهتم بذلك الأمر.

حتى يتحول
الضعف إلى قوة

كما يتفجر الماء من الحجر الصلد.. ومثلما تسبق ألقَ الصباح ونورَه المشرق عتمةُ الليل البهيم، وكما يتبدى الشيء بأضـداده حيث يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي.. فلا نعرف النور والضياء إلا إذا عشنا الظلام الـدامس، ولا نقدر الراحة حق قدرها الا بعد طول تعب ونصب ومعـاناة، والمرض يعقبه الشفـاء ويتلوه، فاذا النفس صافيـة، والجسد معاف، والصحة بادية كتاج على الرؤوس.

وبقدر ما نعيش لحظات ضعف المرض بقدر ما نستشعر جوانب قوة يتفجر بها داخلنا وحولنـا، فإذا الضعف قوة و الوهن سلطـان آسر.. بل كاسر.. يكسر حدة المعانـاة.. وفراغ الوحدة.. فإذا هي تتحول إلى تأمل عميق في الذات لم يكن متـاحا في ظروف الحياة العادية.. لهوها وعملها.. جدها وهزلها.

ولقد يعجب القارىء عنـدما أصف الضعف بالقوة.. واذا كـان البعض يعتقد أن المرض حالة من حالات الضعف الإنساني فأنا معهم.. ولست معهم.. معهم في أن ما يعتور الجسم الإنســاني من خلل وما تطـرأ عليـه من علل تترك الجسد سقيماً.. إلا أن منطق التحـدي.. والتصدي.. والإحســاس بأن كل شيء فيما عدا اللـه الواحد الأحـد إلى زوال.. كل الأنام إلى ذهاب.. وأن مـا دون ذلك لعب ولهو وزينة وتفاخر مـؤقت مربوط وجودا وعـدما بسني العمر.. وهذا الشعور لابد وأن يحيطك ويلفك لفا عبر لحظات تأمل عميقة.. يكفلها لك هدوء نفس.. وثبـات سكينة.. لا يـؤتـاهما إلا من لم يسمح بعلل الجسم والجســد أن تتسلل إلى دائرة النفس واليقين المطمئن.

لقد تعودت دائما أن أستمد من المرض قوة لا أستشعرهـا وأنا سليم معافى.. قوة نابعة من الداخل.. تتسلل إلى وجداني كله يقينا وأملا وزهـدا تفرزها لحظات.. بل ساعات تأمل إلى الداخل.. أركن فيهـا إلى نفسي.. أصـارحها.. أداعبها.. أكـاشفها.. أعاتبهـا أتلمس ينابيع القوة فيها.. وهي كثيرة.. فإذا الوجود كله يتفجـر بالأمل.. بالصفاء.. بالهدوء.. وهو ليس هدوء الإستسلام لآلام السقام.. انما هو هدوء من يعلو فـوق كل هذا ويدرك كلمة المعاناة كفـرد وإنسان ضمن المجمـوع الإنساني البشري.. يجري عليـه ما يجرى على النـاس من عوامل ضعف ووهن.. المهم أن يحول ضعفه الى قوة.

أذكـر أن أصابتني وأنـا في التـاسعة من عمـري حمى رومـاتيـزمية ألجمت مفـاصل جسدي.. يديّ وقدميّ.. ومنعني الأطباء من الحركة، تماما لمدة تزيد على العام.. كنت أمضي وقتي نـائما على السرير لا أتحرك.. وأزدرد أنـواعاً معينـة من الطعـام بأمر الأطبـاء حتى زهدت الطعـام والسرير.. ورغبت في اللعب مع رفاق الصبا الصغـار.. لكن ذلك كله لم يتح لي.. أحـاطني خـوف الأهل، ورعايـة الأب وحـدب الأم ،وتحولت حجـرتي الى سجن دون قضبان.. ولم يكن أمـامي سوى أن اسـافر بفكري ممتطيـاً عقلي إلى جزر بعيـدة وممالك بـديعة، مجنحـة بالخيـال عبر واحات الفكـر.. وسـاحـات النبل الإنساني البـديع.. أرسم لوحات.. وأشيد ممالـك فاضلة مزهرة بالحب والأمل.. وقد غذى لـدي هذا الخيال ما كان يزودني بـه والدي رحمه الله من قصص وكتب مختلف ألـوانها وفكرها.. ومذاقهـا.. كان حـريصـا على ألا أتحرك، وكانت وسيلتـه هي الكتب.. يقـرأ لي سـاعـات.. ويتركني أتأمل ساعات.. ويدفع إليّ مع الشيكولاته القصة والكتـاب وعندما بُلّت من مرضي بعد نحو عام عُدت إلى الالتحـاق بالمدرسـة من جديد.. ورصيـدي من اللغة والقـراءة في الأدب والشعر والتاريخ لا بأس بـه أمكنني أن أسحب منه حيثما أريـد وحتى التحاقي بـالجامعة وعملي بالصحافة وامتهاني مهنة القلم.. صناعة الألم.. والمعاناة.

وإذا كنت أدعي انني أتلمس من ضعف المرض قوة تنفجر في داخلي فإن ذلك الشعور ما كنت أوتاه لولا يقيني الثـابت بأنه لا مدعاة للقلق من المرض.. وأن مـواجهته بيقين ثابت.. وجنان راسخ هـو أفضل الحلول وأكثرهـا واقعية. ولقد اطلعت مـؤخرا على تقريـر تعده منظمة الصحة العالمية لإصداره في يناير القادم عن مرض يسمى بمرض «الهلع» فقد تزايد الاعتقاد وعلى نطاق واســع خلال الفترة الأخيرة في أعلى المستويات الطبية العـالمية بأن من ٣٣٪ الى ٥٠٪ من الذين يتجهون إلى أطباء القلب لإنقاذهم من معـاناة إصابتهم بالقصور في الشرايين التـاجية هم في الحقيقيـة مصـابون دون أن يـدروا بما يسمى في الطب النفسي بمرض «الهلع» لكنهم فقـط خدعوا في أعـراض عديـدة انتابتهم تتماثل تمامـا مع أعراض مرض القلب منها صعوبة التنفس، وزيادة ضربات القلب، والإحساس بالاختناق والدوار، وعدم الإتزان والإغماء وارتجاف اليدين والتنميل والسخونة والشعور بآلام في الصدر مع التصبب عرقا.. وعن عـلاج كل هذه الأمراض بغير أدنى حاجة إلى إجراء جـراحات دقيقية لتغيير صمامات أو شرايين القلب أكد الدكتور أحمد عكاشة أمين عام الجمعية العالمية للطب النفسي أنه ممكن وميسور بـالطريق الكيميائي والسلوكي الذي حقق بـه نتائج مشـجعة في علاج ٩٠ حالـة هلع وقد ألقى الدكتور عكـاشة محاضرة حول هذا الجانب في كـوبنهاجن

مؤخرا.

يقول الدكتور في تحديده العلمي لكافة ما يتعلق بمرض الهلع.. إن نوبات الهلع تظهر دون أية مسببات وتأتي مصحوبة بتخوف شديد من إقتراب الموت وقد يؤدي الخوف الشديد إلى إجتناب الأماكن التي حدثت فيها هذه النوبات.

وعادة ما يبدأ مرض الهلع من العشرينات من العمر وينتشر بنسبة ٢ إلى ٥٪ من مجموع الشعب ويصيب النساء أكثر من الرجال.

بالطبع لم يقل لنا د. عكاشة سر إصابة النساء بهذا «الهلع» أكثر من الرجال.. وإن كان السبب معروفا.. المهم قبل هذا وبعده أن الكتاب الذي تعده الصحة العالمية لإصداره عن مرض الهلع في يناير القادم يضم ١٢٠ حالة ويكتبه خمسة من أساتذة الطب النفسي من المانيا وفرنسا وانجلترا وسويسرا ومصر.. الكتاب سيصدر بسبع لغات بينها اللغة العربية.

وإلى أن يصدر هذا الكتاب لا داعي للقلق.. لا داعي للهلع ولتكن لنا من مناعة النفس ما نصد به توعكات الجسد وآلامه.

الأم..
الصورة والمعنى

لم يبق لي من الأم أو الأحتفال بعيدها وبها سوى خيط رفيع جدا يشدني إلى الماضي البعيد.. يعلقني ببرواز صورة باهتة قد أضناها الزمان، وبعد بها المكان فأخفاها بين الحنايات وفي الضلوع تبرز برأسها.. حينا بعد حين من بين دموع العين ووجع القلب.. وذكريات حب مجرد لا يجود بمثله الزمان.. صورة لا تراها العين.. مجرد طيف عابر.. بعيد بعيد.. أحاول أن أجتليها فلا أكاد أستطيع.

طيف يعيدني إلى الذكرى.. والذكرى قد إنطوت مع الوعي الصغير جداً.. وعي لا يكاد يطاول ثلاث سنوات أو اكثر قليلا.. شهورا أو أياما.

الذكرى مجرد طيف أبيض كضوء النهار في بدايات طلوعه.. ثوب أبيض يرتديه جسم نحيل ليس بالقصير ولا بالطويل.. تراه بين هذا وذاك.. أما الوجه فغائب الملامح.. والتضاريس.

ويدي الصغيرة تمسك بتلابيب هذا الثوب الأبيض، وقطعة من السميط «المحلى بالسمسم في يدي الأخرى وتتحرك اليد مع ذلك الثوب الأبيض أينما تحرك.. تتمسك به.. تعض عليه وتنتقل معه وبه ـ وكأنه عكاز الحياة ـ في حجرات المنزل الكبير وأرجائه.. حتى تجد الهدوء والدفء فيه وعنده لدى النوم.

الطيف يملأ حياتي ـ أو كان ـ طيف ملائكي حنون الخطو والحركة والاهتزازة..

أذكره مرة عندما أهتز هلعا وخوفا عندما ضرب زلزال قديم القاهرة.. وفزع الناس.. لكنني لم أعرف الفزع عندما تحسست ذلك الثوب الأبيض فوجدته إلى جانبي وقد نحى يدي الصغيرة، وأمسك بجسدي كله في محاولة للفرار بي بعيدا إلى أسفل الدرج في محاولة للهرب من الزلزال.

هذا ما أذكره عن ذلك الطيف الأبيض.. وبعد ذلك لا شيء.. لم أجد هذا الطيف الجميل إلى جانبي.. أمسكت يداي الهواء.. وسقطت قطعة السميط من قبضتي ومعها كل معاني الحنان والحدب والحب..

وكلما كبر الوعي أحاول أن أتذكر الملامح.. ملاح ذلك الطيف فلا أستطيع.. فمن عادات قومي وقتها أن تصوير المرأة أمر مرفوض فضلا عن أنه غير محبوب حتى من بعض النساء ومنهن أمي.. كنت كلما أحاول ان أستعيد ملامح ذلك الطيف الملائكي أسأل إخوتي الأكبر سنا لكن الصورة لا تكون دقيقة أبداً.. قالوا لي إذا أردت رؤيتها فعليك بزيارة القريبة «فلانة» ففيها كبير شبه من الطيف الغالي.. وفعلت.. إلا أن الشكل لا يجسد المعنى.. والمعنى كبير.. عظيم.. يفتقده كل من إفتقد أمه في الصغر.. أو حتى في الكبر.. لذلك فإن بدايات الأحتفال بعيد الأم شكلت مناسبة صعبة لمن فقدوا أمهاتهم حتى عدلوا أخيرا عن ذلك وسموه بعيد الأسرة أو يوم الأسرة.. وقد أفلحوا في إحتواء جروح الكثيرين.. ونجحوا في تجسيد أعظم المعاني التي تحتضنها الأسرة ومحورها الأم.

ولأن الأمومة معنى عظيم.. إنني دائماً أحاول تجاوز الطيف.. الشكل إلى المعنى.. ولقد كتبت في طفولتي عدة خواطر عن الأم.. وأبياتا من الشعر ضمنتها هذا المعنى الذي رأيته والذي أراه.. قلت:

قوموا فحيوا الأمهات واروا جميل الذكريات
حيوا عقيلات البيوت فهن أصل المكرمات

وفي بدايات الاحتفال بعيد الأم كتبت مقالا في جريدة الشعب عند بدايات صدورها بينت فيه من هي الأم التي تستحق التكريم في هذا العيد؟.. وذكرت أنها تلك التي تهتم بتربية أطفالها وترعى زوجها.. ترتق له ثوبه.. وتحفظ له ماله.. وتعاونه على أعباء الحياة.. تشاركه العمل بجد.. وليس بمجرد مظهرية.. فإذا خرجت للعمل.. خرجت من أجل بيتها.. وأولادها.. كي تضمن حياة أفضل.. ومناخا معيشيا أنسب لنفسها ولأطفالها.. إنها الأم التي لايفضل بيتها شيء.. بيتها أهم عندها من الكوافير والخياطة والاختلاف إلى المنتديات أو الجلوس مع شلة الأنس النسائية، صباحية الجلسة أم مسائية.

زدت على ذلك فبينت أهمية الأم في حياتنا.. وكيف أن الطفل في حضن الأم يجد نفسه وذاته وشخصيته.. حتى إن بعض الدول الاسكندنافية تؤخر سن دخول الأطفال للمدارس كي يستقروا أطول فترة في أحضان أمهاتهم.. وبينت كيف أن فقد الأم في الصغر يرهف الحس فيرق ويدق وتلتقط ذبذباته أعمق أحاسيس الآخرين في محاولة لتعويض

الحنان الذي افتقد، ليضفي على من حوله روعة العطاء وكرم العاطفة وسخاء الإحساس.

وليس من قبيل الصدفة أن رسولنا صلى الله عليه وسلم قد فقد أباه وهو لم يزل في بطن أمه، ثم فقد أمه في المهد صغيرا لينشأ يتيما.. قد أرهف حسه، ورق قلبه، واستقام وجدانه فامتلأ عاطفة.. لقد اصطنعه الله لنفسه وبنفسه كي يحمل الرسالة ويتسع قلبه ليضم في حناياه وبوجدانه الحساس كل آلام الفقراء والمساكين واليتامى والمظلومين.

﴿ألم يجدك يتيما فآوى، ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى، فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر﴾.

و.. لم أنل
الشهادة في محراب
صاحبة الجلالة

نقلته إلينـا الفضائيـة المصرية منـذ أيام على شـاشتها، فجـاءت صورتـه مختلفة عما عهدناه، وكان صوته متراجعا مثل صورتـه فانطوى مع ما شاهدناه، ليس المكان فقط بل والزمـان أيضا، ورحنا نسترجع استاذنـا «المعلم» مصطفى أمين في ذاكرتنا وذكريـاتنا.. وجهه المتألق.. وضحكته الصافية وعباراته المتدفقة ذكاء وحيوية.. ذلك كان أستاذنا الذي كان.. والذي سيظل كائنا ما كان مهما تغير المكان وعدا عليه الزمان.. فيه نجد نبرة الماضي بكل حلاوته وأصـالته، وعنده نرتكن على جدار خبرة لا تذوي أبـدا.. أشفقت على استاذنا وهو يتحـدث بصوت متهـدج.. متراجع.. مهتز.. وهو يـريد أن يمسك بـه ويعدّل حـاله.. ومقاله.. لكنه ــ رغم ذلك ــ لم يفقد أبدا حلاوة الفكرة ولمعة الذكـرى.. وسخرية العبارة، وحسن الإشارة.. وكل لبيب بالإشارة يفهم.

وحديث مصطفى أمين معنا الذين عملنا معه، ونحن في حضن الشباب الأول كان عبارة عن إشارات.. رموز تلغرافية قصيرة جدا.. لكنهـا كانت تؤدي الغرض.. وهذا شأنه دائما في الحديث.. وفي الكتابـة اسلوب تلغرافي قصيـر.. مثير.. مـرح.. يبتعد بك في الخبر عن اللت والعجن.. وفي المقالة عن المقامة..

تعلمنا منه الكثير.. ومازلنا نتعلم.. وسنظل.. إنـه مدرسة للصحافة وللحياة.. ولإدارة المعاملات مع الناس.

كان يلتقي بنا نحـن محرري «أخبار اليوم» كل يوم جمعة ظهـرا لنستمع إليه ونسمع منه دروسـا في الصحافة وفنـونها.. كتابة وتحريرا.. خبرا ومقـالا.. أما في «آخر سـاعة» فكانـت لنا معه لقـاءات متعددة حـافلة بـالذكـريات، مفعمـة بالـدروس والعبر.. بالـحب والصفاء والإخاء أيضا.

في عام ٥٨ التحقت محررا تحت التمرين بمجلة «آخر ساعة» كنت ما أزال أحبو.. أصعد الدرج الصحفي درجة.. درجة.. كطفل لين العظام ضعيـف القوام لا تستطيع قدماه حمله في هذا الخضم الصعـب الزاخر بـالعمالقة الأفـذاذ.. وكان ذلك التـاريخ مناسبـا لاحتفال مجلتي «آخر ساعة» بيوبيلها الفضي.. وقرر استاذنا مصطفى امين الاحتفال بهذه المناسبة

واصدار عـدد خاص يتم توزيعـه على الناس.. وعلى حضور الأحتفـال الكبير الذي أقيم في نادي «أخبار اليوم».. واعترف أنني رحت أعصر ذهنـي.. وأهرش رأسي بحثا عن فكرة تليق بالمقام.. ولم ينقذني من هذه الورطة سوى ابتسامة مشجعة من مصطفى أمين.. كنت أقل من قـزم بالنسبـة إليه.. وطـرح على فكـرة من خلال حكـاية رواهـا على مسمعي.. كيف تأسست «آخر سـاعـة» وأين كان مقرها الأول.. والثاني والثـالث قبل أن تستقر في مكانها الغالي بمبنى مؤسسة «أخبار اليوم».. وبعـد أن حكى الحكاية وروى الرواية قال لي اذهب إلى هذه الأماكن.. وصورها واعقد لقاءات مع هؤلاء الناس.. البواب.. والساعي.. وصاحب المنزل.. وفعلت.. وعندما كتبت التحقيق وضع على رأسه العنـوان التالي «آخر ساعة عزّلت ٣ مرات» وكان مقالا طريفا جدا.

ومع اتصال عملي بالصحافة تعددت لقاءاتي بالأستاذ مصطفى أمين.. الذي فتح امامي باب ليلـة القدرة مـرة لا أنساها.. وكنت لم أزل محـررا متـواريا خجـولا تحت التمرين لا تربطني بـ «آخر سـاعة» سوى بعض مساهمات متواضعة في التحرير.. ولم أزل أذكر ذلك اليوم الذي دعاني فيه إلى حضور الأجتماع الأسبـوعي «لآخر ساعة».. وكان يصادف كل ثـلاثاء من كل اسبـوع.. وحضرت.. دلفتإلى القـاعة الكبيرة في الطـابق السـابع من مبنى «أخبار اليوم» دخلت كفأر مذعور.. لآخذ مكاني حول الطاولة البيضاوية وكتفاي تلامس الكـاتب الكبير أحمد الصاوي محمـد.. والاستـاذ الباهـر أحمد بهاء الـدين.. وغيرهما من عتاولة الصحـافة. جليل البنداري.. محمد تبارك.. صلاح الجلال.. صـلاح هلال.. فتحية بهيج.

وأصابني دوار الحيرة والارتبـاك.. والشعور بالدونيـة وسط هذا الجمع الكبير.. لكن الرجل شجعني بحـديثه، وتواصل معي بابتسـامته حتى انتظمت دقات قلبي من جـديد، ورحت أتابع ذلك الاجتماع الفـريد الذي ترأسه مصطفى أمين يقلـب صفحات المجلة التي تصدر صبـاح اليوم التالي الأربعـاء.. ويأخذ أصوات الحاضرين حـول أفضل التحقيقات وأحسن المقالات ويقرر المكـافأة للمحرر ثم يبدي رأسه الشخصي في تحقيق آخـر يرشحه كأفضل تحقيق، ويمنح صـاحبه مكافأة فـورية من جيبه الشخصي. بعـدها يلقي أمـامنا بتوقعاتـه عن التحقيقات والموضوعات التي سـوف تسبقنا إليها المجلة المنافسـة بعد غد «وكـانت هـي مجلـة المصـور» ثم يطلب منـا.. من كل واحـد فينـا أن يتقـدم بأفكـاره واقتراحاتـه.. ورحت أترقب لاهثا حتى أصابنـي الدور والدوار أيضاً من هـول المفاجأة.. فانعقـد لساني.. وتجمدت الأفكار التي كنت قـد أعددتها في مخيلتي.. وتحول كل شيء إلى

سراب.. وهنا تجلت سمات هذه الشخصية العملاقة.. الحنونة.. المعلمة.. الصافية.. احتضنني الرجل بكلماته، وشجعني بحديثه.. حتى انحلت عقدة اللسان.. وعرضت اقتراحي المتواضع الذي استجمعت له وفيه كل شجاعتي.. وطموحي أيضاً.. كانت الفكرة أن أسعى إلى مقابلة أحد عتاة المطاريد في جبال أسيوط، وكان يدعى مصطفى هاشم.. وضحك مصطفى أمين قائلا: لو حاولت مقابلته كصحفي فسيقتلك.. ثم أردف موضحا ومبلورا الاقتراح.. كيف أنفذ الفكرة بمنأى عن أجهزة الشرطة والأمن، وكيف أتسلل إلى هذا الرجل في عرينه فوق جبل يمتد من صعيد مصر إلى البحر الأحمر.. وأستحسن أن ادعي أنني طالب في الجامعة أعد دراسة حول المطاريد.. وبعد أن شارك الجميع في بلورة هذه الفكرة الجريئة بادرني مصطفى أمين قائلا: إذا نجحت في تنفيذ هذه الخطة فسوف اصدر قرارا فوريا بتعيينك.. أما إذا لا قدر الله - وتعرضت للقتل فسوف ننشر صورتك ومكتوبا تحتها وفوقها.. شهيد الصحافة.

وقد كان.. ولم يقدر لي ان اكون شهيد الصحافة.. فقد أوفد معي استاذي مصطفى أمين احد المصورين المحترفين من مدينة أسيوط نفسها - وقتها لم تكن قد تحولت إلى محافظة بعد - وقد ساعدني هذا المصور في الوصول إلى أحد المطاريد العتاة.. وتلك حكاية أخرى.. تتلوها حكايات خاصة وان نبوءة أستاذي مصطفى أمين لم تتحقق ولم أنل الشهادة في محراب صاحبة الجلالة.

من مذكرات شاهد
على عصره

أحسب أنني عايشت البحرين وهي تتمطى متعافيـة منطلقة من شرنقتها فراشة تسبح في مسارات الاستقلال مع بـدايات السبعينات.. كنت ـ ومازلت ـ شـاهد عصره. أو شاهد ذلك العصر.. عصر الانطلاق.

ولأنه لابـد من هذه الشهادة الآن.. ونحن نحتفل بـالعيد الوطني المجيد وعيـد جلوس صـاحب السمو أمير البـلاد المفدى.. فكلما مـرت الأيام وأستعـدنا الاحتفـالات بأعيادنـا الوطنية استرجعت الذكرى.. الرؤى.. والرؤية.. ولست أدعى أنها رؤية محايدة تماماً.. بل لن تكون!! إنها رؤيـة منحازة مغلفة بـالحب.. بالود.. بحسن العشرة وحلـو المعشر كل ما أدريـه أنها رؤية فيهـا من الصـدق أكثره.. ومـن الود أكبره.. رؤيـة تنطلق من الماضي إلى الحاضر عبر وقفات.. وتأملات حافلة بالمقارنات.. بدأت من بداية السبعينات عندما أقلتني الطـائرة التابعـة لطيران الشرق الأوسط من القـاهـرة عبر بيروت الرائعـة إلى البحـرين.. وقتهـا.. وفي أول رحلـة لي إلى البحـرين كـان معي على نفس الطـائرة الصـديق الاستـاذ مصطفى كمال سفير البحرين حـاليا بالقـاهرة.. وعضو البعثة الـدبلوماسيـة في السفارة وقتها.

انتهزت فـرصة وجودي إلى جانبـه في الطائرة فرحت أمطره أسئلـة عن البحرين.. تلك الجزيرة الوادعة في قلب الخليج العربي والتي لا تصلهـا إلا بالطائرة أو الباخرة.. فلم تكن الصورة عن البحرين واضحة.. تماما لا في ذهني أو في عيناي.. عرفتها شعرا جاد به يراع شاعرنا الشيخ أحمد محمد آل خليفة تحت عنوان إلى أجنبية:

هتفت بي.. أنت يـا شاعـر من أي قبيل؟ — ثم أصغت لي فاطفى حسنهـا الطاغي غليلي
قلت إني من بـــلاد كفـرت بـــالمستحيل — من ربي البحرين دار المجـد والعز الأثيل
من بـلاد الـــدر والبترول والظل الظليل — أنا مـن قوم أذلوا البحـر والريـح المهول
هـذي يـا بنـت أوروبـا ديـاري وقبيلي — فـــانتشت مـزهـــوة ثم ولت في ذهـــول

والقصيدة طويلـة ورقيقة ومعبرة.. عرفت من خلالها بعض مـلامح عن البحرين. كما اقتربت من البحرين نثرا عبر كتابات عديدة.. لكنني لم أكن قد رأيتها رؤى العين.

وفي غمرة تساؤلاتي أراحتني ابتسامة عريضة جاد بها الصديق مصطفى كمال.. ثم جاءت كلماته تطمئنني.. قال ـ وكنا في مطار بيروت ـ انها ساعة أو بعض ساعة وترى بنفسك كل شيء.

وعندما حطت عجلات الطائرة على أرض مطار البحرين القديم كان أول المستقبلين الصديق الزميل صاحب الكلمات «المتوحشة» الاستاذ إبراهيم بشمي، والزميل سكرتير تحرير مجلة الأضواء وقتها الاستاذ فكري توفيق، وزميل آخر من لبنان العزيز هو الاستاذ نهاد قصب.

أحاطتني هذه المجموعة بحبها إلى حيث أقمت ثم انطلقت مع البحرين.. ناسا ومرافق.. حياة.. ومعان.

والذي يود المقارنة الآن بين ما كان وما هو كائن الآن لابد ألن يصاب بدهشة.. ولا بد وأن يغفر فاه.. وتمتد عيناه إلى بعيد حيث الأماكن غير الأماكن.. والطرق غير الطرق.. ما كان بحرا اصبح يابسة.. وما كان قفرا غدا يضج بالحياة والحيوية ورغم ذلك فإن الذي لم يمسه التغير هو الإنسان إنه هو هو.. برقة معشره.. واستنارة رأيه.. وتحضر سلوكه.

كانت البحرين تغلق أسواقها.. ومحالها من السادسة.. حتى البرادات الصغيرة كانت موصدة الأبواب مساء باستثناء مخابز الخبز البلدي.. أما الفنادق فلم تكن بهذه الكثرة.. كما هي الآن بين كل فندق وفندق فندق.. إنما كانت تعد على أصابع اليد الواحدة.. فندق الخليج.. فندق دلمون.. فندق البحرين.. وعدة فنادق صغيرة جدا.

الطرق والشوارع الحالية لم تكن موجودة.. لم يكن شارع الفاتح قد شق في البحر ولا شارع الملك فيصل.. المنطقة الدبلوماسية كانت مجرد حلم يجول بأفكار المسئولين والمخططين.

أذكر انني ـــ خلال عملي ـ كنت ألتقي بالشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة ـ أطال الله عمره ـــ وكان وقتها رئيسا للهيئة البلدية المركزية قبل توليه وزارة العدل والشئون الإسلامية. وأمام مجموعة من الخرائط يحدثني مشيرا إلى مواقع معينة على الخريطة يحدد عليها مناطق ستقوم، وعمرانا سميتد، كنت أتصورها أحلاما يجود بها خيال المخططين.. وتداعب أحلام المسئولين.

كان الشيخ عبدالله بن خالد يحدثني على الخريطة عن منطقة دبلوماسية ستقام هناك.. بنايات.. وزارات.. وطريق سيمتد.. وشوارع دائرية وأخرى داخلية.. كنت أسمع.. وأعجب وأحلم وأذكر أنني كتبت مقالا تحت عنوان «المخططون في الأرض» وقلت إنهم

عرافو المستقبل وقارئو الطالع.. يرسمون خطوط وخطوات المستقبل، ويحسبون حسابها عمرانا وتعميرا إنهم يضعون لك ملامح صورة البجرين المستقبل.

وقد عشت السنوات الطوال في البحرين لأرى طالعها وهو يتحقق وحاضرها يتجدد.. ومستقبلها يبرق في الأفق القريب والبعيد في صورة تجاوزت خيال المخططين، واستبقت حتى أحلام المسئولين.. وأنعشت قلوب وعقول المحبين.. كل المحبين للبحرين.

ولأنني عصره.. أو شاهد لعصر التطور الذي عاشته وتعيشه البحرين فيما يشبه الطفرة.. فان رؤاي تربط دائما بين الماضي والحاضر في جد وود وانفعال بخطوط وخطوات التطور الذي شهدته بل وعشته على كل صعيد مع البحرين.

امتداد عمراني مثير.. طرق.. بنايات.. مرافق.. خدمات.. حركة سياحية نشطة.. مجموعات بنكية من كل نوع.. إعلام منفتح على العالم إذاعة «وتليفزيون» يعملان على مدى ٢٤ ساعة بعد أن كانت اذاعة البحرين في السابق تعمل فترات محدودة، في البداية لم نكن نشاهد التليفزيون وعندما بدأ البث كان هزيلا على يد إحدى الشركات.. ثم تبدل الوضع.. تطور كل شيء.. تغيرت الصورة.. التليفزيون يعمل على عدة قنوات ويستقبل قنوات أخرى على مدى ٢٤ ساعة.

.. الصورة تغيرت.. تبدلت.. أصبحت البحرين شبه جزيرة بعد أن إمتدت إليها اليابسة عبر جسر الملك فهد..

الصورة شهدنا بداياتها مع بدايات شبابنا.. ومازالت ملامحها تتغير.. تتبدل.. تتكامل.. بينما نحن نطوي العمر.. نودع الشباب وتبقى البحرين شابة أبدا لا يصبها الهرم ولا تعدو عليها الأيام.. فلا تزيدها السنون إلا جمالا وإشراقا وإكتمالا في ظل قادتها الأمناء عليها.. الأوفياء لها تحت مظلة الحب والإخاء.

وفي رعاية صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة درة البحرين الغالية وأميرها المفدى.

وهم.. على ما يفعلون بالمؤمنين شهود!!

في الذهن الصغيرة الغض تحتشد المعلومات، وتنقش الذكريات، وتظل طوال العمر باقية لا تبارحه وإن ظننا غير ذلك.

يكبر الذهن ويهرم معه الفؤاد، وينمو الجسد لكن ما في القلب في القلب، وما في العقل يظل في العقل وإن غيبته أحداث الأحداث.. وغطته ذكريات جديدة ومتجددة ينمو بعضها فوق بعض.. وكل منا يتذكر أحداث الطفولة ومعالمها أولا يتذكرها.. لكن إذا ما ضغط الزمان وتلاحقت أحداثه على جانب معين من الذهن.. كان كمن مسه إشعاع من كهرباء الذكريات.. تماما مثلما تضغط على زر الكمبيوتر فإذا الشاشة.. شاشة الذهن مضيئة وضاءة مسترجعة أدق الأحداث والمعالم والمعارف عبر شريط سريع واضح المعالم والمعلومات.. وكل ذلك لا يستغرق لحظة أو لحظات.

ومع رجع الذكرى أذكر عندما كنت لم أزل طفلا صغيرا.. بل وفي أول عهدي بالمدرسة الإلزامية - وكانوا يسمونها الأولية - ان دخل علينا الصف شارحاً ومعلما أحد طلاب معهد التربية ضمن برنامجه في التربية العملية التي هي جواز مرور ليصبح معلماً إلزامياً.

كان شابا وسيما يتأجج وطنية في وقت كان شباب مصر كلها شعلة من حماس ونضال ضد الاستعمار الانجليزي لمصر والسودان اللذين كانا شعبا واحد ومازالا.

كانت السمة السائدة وقتها بين الشباب المصري أن يضع الشباب صور القلوب فوق قلوبهم مكتوبا عليها.. تحيا وحدة وادي النيل.. الجلاء بالدماء.

كان الشباب فخورا وهو يرفع هذا الشعار، وينادي به وكان معلمنا الوافدعلينا لفترة واحدا من بين هؤلاء الشباب.. شرح لنا درسا في الدين.. إلا إنه حول درس الدين إلى دروس في الوطنية.. كان يحكي لنا كيف يقاوم شباب مصر الاستعمار ولم ينس خلال حكاياته الوطنية أن يربط بين الإيمان بالوطن والإيمان بالله وتعرض لآيات من سورة

البروج وكأنه يفصلها على الواقع الذي تعيشه مجتمعاتنا العربية والاسلامية تفصيلا وكلها كانت ترزح تحت نير الاستعمار. ربط المعلم بين ما روته الآيات عن اضطهاد المؤمنين وتعذيبهم في سالف الأزمان وبين ما كان يحدث للعرب والمسلمين آنذاك على ايدي المستعمرين.

توقف المعلم ـ حياه الله وأبقاه إذا كان لم يزل حيا ـ عند آيات مؤثرة من سورة البروج.. تقول الآيات.

«قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، اذهم عليها قُعُود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد» صدق الله العظيم.

وظل معلمنا وصاحبنا ينقلنا ويتنقل بنا بين آيات الاضطهاد والقهر التي مارسها الطغاة، وبين صبر واسبتسال المستشهدين من المؤمنين الذين لقوا مصرعهم حرقاً داخل أخدود من نار حفَرَه لهم أعداء عقيدتهم والقوهم بداخله أحياء، ثم تلذذوا بمرآهم وهم يستشهدون معلنين توحيدهم مؤكدين إيمانهم بالله.

قدم لنا المعلم صورة دقيقة التفاصيل عما يتعرض له المناضلون من أجل عقيدتهم وأوطانهم أياً كان زمانهم ومكانهم، واستطاع بذلك ـ هذا المعلم الفاضل ـ أن يغرس في اذهاننا وآذاننا هذه اللوحة المعبرة.. إلا أننا ظننا مع توالي السنين والأيام والحقب ان الذهن قد ابتلع هذه الصورة فنسيها.. وعندما ضغط الزمان من جديد بأحداثه علينا هذه الأيام على جانب من جوانب الذهن.. انتعشت الذاكرة فعاودتنا الذكرى.. وكأنها حية ـ ابنة اليوم ـ لم تمت.. ولم تغيب في تلافيف المخ.

فمنذ أيام قليلة.. وقليلة جدا سمعنا في حومة أخبار المجازر البشرية التي يعيشها عالم اليوم ونحن ندلف سريعا الى القرن الواحد والعشرين أن حفنة من مجرمي الكروات أحرقوا قرية مسلمة بكاملها.. أبادوها ومن فيها، ومن يدب عليها حرقاً حتى أنه لم يتبق من سكانها البالغ عددهم أكثر من ٢٦٠٠ نسمة سوى ٦٠ فقط خرجوا ونجوا من المحرقة مشوهين مقهورين مغلوبين مرعوبين مرتعدين.. بينما الأمم المتحدة مازالت تفكر في اتخاذ

إجراء.. وتتردد أمام منح المعونات والإغاثات لمسلمي البوسنة.. وإلى سكان هذه القرية المنكوبة بالحريق.

واعترف هنا أنني لم ارتعد فرقاً، ولم يصل قلبي إلى حنجرتي إلا عند سماعي تفاصيل هذه المذبحة.. المحرقة لقد ضغطت الأحداث بعنف على ذهني فأضاءت شاشة الكمبيوتر العقلي وتجلت عليها آيات سورة البروج.. كانت الصورة في الآية. وفي شرح معلمنا منذ أكثر من أربعين عاما متقابلة تماما مع ما حدث في هذه القرية المسلمة: «.. أخدود النار محفور معد.. القرية كلها تحولت إلى أخدود من نار.. والكروات عليه قاعدون ويغذون النار نارا كلما خف لهيبها فإذا بها وقد اشتعل أوراها وعلا زفيرها.. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهودونحن معهم بكل أسف.

انهم ما نقموا على أهل هذه القرية ولاسكان البوسنة إلا لأنهم آمنوا بالله العزيز الحميد.

إن العصر شاهد عليهم.. ونحن على ما يفعلون بالمؤمنين شهود... التماثل واضح بين صورة من الماضي أوردتها سورة البروج في القرآن الكريم وصورة في الحاضر رسمتها دماء المسلمين في مذابح البوسنة. وإذا كان يعذر الأمم المتحدة وسكرتيرها والداعمين لها موقفها وموقفهم كشهود على ما يحدث من جرائم، فلا يحركون ساكنا.. فما هو عذرنا نحن؟!!!

احذر أن يتبخر
رصيد صحتك أو مالك

عندما يمتد بك العمر قليـلا أو كثيرا في هذا العصر.. احذر أن يصيب الوهَن حيويتك، أو يـذوي رصيـدك في بنك الصحة والعـافيـة، أو حتى في بنك الأمـوال والأعمال.. وإلا ذبلت الابتسامة على شفتيك.. وانزوى بدنك مع إنزواء روحك عن دنيا أعز الناس.. حتى لو كان هـؤلاء هم الأبنـاء فلـذات الأكبـاد.. ففي هـــذا العصر عليك أن تحتفظ بصحتك.. بمالك.. بحيويتك لتشتري بهم جميعا الضحكة على شفتي الأبن أو الأبنة.. الأخ أو الأخت.. القريب والحبيب. وإلا فان عليك أن تنتظر طويلا حتى يزورك أحد، وتتمنى كثيرا أن ترى ابنا ولدا أو بنتا.. فالكل قد تشاغل عنك لأنك لم تعـد تهمه.. مالك لم يعد متاحا.. وصحتك اصبحت متاعا زائلا.. أما علتك مع الزمان.. بحكم تقدم العمر، وتكاثر سنواته، فأصبحت عبئا ليس عليك وحدك وانما على الآخرين.

وأنت عنـدما يتقـدم بك السن.. تتضـاءل احتياجـاتك.. وتتقلص طمـوحاتك.. ويكـاد ينحصر ذلك الطموح وتلك الاحتياجات في أمر واحد.. هـو أن ترى بسمة صادقة على شفاه من تحب.. ونظرة.. ولـو خاطفـة من الأبن الذي كبر.. والبنت التي أصبحـت تهتم بنفسها وبيتها وزوجها.. وعنـدما يعز كل ذلك.. تطلبه فلا تجده خاصـة بعد أن يجف رصيدك في دنيا الحياة ودنيا المال.. ولا يبقى منك أو معك سوى أقل القليل لذلك فان الإسلام والقرآن أوصى الإنسان بـوالديه ولم يـوص الآباء بالأبناء.. وخـاصة عند الكبر.. «إمـا يبلغن عند الكبر أحـدهما أو كلاهما.. فـلا تقل لهما أف ولا تنهرهما».. وتـردف الآيـة قائلـة.. «فإن جـاهـداك على أن تشرك بي مـا ليس لك بـه علم فـلا تطعهما.. ثم.. ورغم ذلك يـوصيك.. «وصاحبهما في الدنيـا معروفا» ولأننا عند الكبر.. وعند تقـدم السن لا نطلب سوى إزجاء

العـاطفة وارواء ظمأ الحب.. وصلـة الرحم.. فإن القـرآن ركز على هـذه المعاني في دعـائه الأبناء لـرعاية الآباء عنـد الكبر.. «لا تقل لهما أف ولا تنهرهما» فالمسألـة كلها تتصل أولا واخيرا بالمعاملة الحسنة والملاطفة الإنسانية بكبار السن.

من هنا كان حضاريا جدا ذلك السلـوك الذي تسعى إليه الإنسانية من خلال منظماتها ومؤسساتها للـدعوة إلى رعاية المسنين وحمايتهم، ومحاولـة زرع البسمة على شفاههم.. والثقة في قلوبهم.. والأمل في نفـوسهم.. ورغم ذلك فإن انتشار مؤسسـات رعاية المسنين تعكس في الواقع جـانبا آخر من المأسـاة الماثلة التي نعيشها نحن، ويعيشها الغـرب أيضا خاصة مع انفراط عقد الأسر الكبيرة، ودخولنا عصر الأسرة النووية.

نقول إن انتشـار هذه المؤسسات والدعـوات تعكس غياب ذلك الإحساس الـذاتي لدى الأبناء الاقربين بالمسنين من الآباء وذوي الرحم.. فرغم أن انتشار هذه المؤسسات وبيوت العجزة والمسنين، وعقـد المؤتمرات والندوات لـرعايتهم، والاحتفـاء بهم، بل وإشغالهم في اعمال ومهن منتجة يمثل ظاهرة حضارية وشعورا إنسانيا نبيلا إلا أنه يؤكد لنا من جانب آخـر اننا نعيش مأسـاة مـاثلة يتخلى فيهـا الأبن عن الأب عنـد الكبر.. عندمـا يهن العظم ويشتعل الرأس شيبا.. ويعـود السن بالانسان إلى القهقري.. مصداقا لقـوله تعالى: «ومن نعمره ننكسه في الخلق افلا يعقلون».

حيث يكون الإنســان في حاجة إلى مـزيد من الرعايـة والعناية والحدب واشـاعة الأمل والبسمة في النفـس.. وعندمـا تعتصره هذه الحاجـة وتستبد بـه لا يكاد يجدهـا إلا لماما.. تعطف الابن تعطفا مشفوعا بالمن والأذى.

ولكم عايشنـا وشاهـدنا.. وسمعنـا.. أبناء يتخلـون عن آبائهم وأمهـاتهم عند الكبر.. يتركـونهم للـوحـدة والفـراغ والوهن، أو يلقـون بهم في أحـد المستشفيـات والمصحـات النفسيـة.. ويظل هؤلاء الآبـاء والأمهـات يتجرعـون شظف الـوحـدة، ومرارة القسـاوة

والجحود، ويحسب هؤلاء الأبناء ـ اللأبناء اكثر من البنات ـ أنهم قد القوا عن كاهلهم عبئا ثقيلا.. وهما رذيلا.. وألما ممُضا يعوقهم عن ممارسة ملذات حياتهم هم وذويهم وأبنائهم، ولو علموا أن الأيام لهم بـالمرصـاد.. ومثلما فعلوا سيفعل بهم «وكل سلف دين» كما يقول مثل عـامي.. «فالسن يتقـدم بهم، والصحة تتخلى عنهم.. وأمـوالهم مصيرها إلى الأبنـاء.. والأبناء لن يرحموهـم.. ولن يجودوا عليهم ـ إلا فيما ندر ـ ولـو بنظرة حانية، أو ابتسامة صادقة. أو زيارة متأنية ليست متعجلة.

لـذلك فـالمطلـوب الآن وليس بعد الآن.. وقبـل الخوض في فلسفات تعـرف بـالمسنين، وكيفيـة رعايتهم، وإيـوائهم وتشغيلهم واشغالهم هـو تكاتف أجهـزة الإعلام الفكـري والثقافي والصحافي والديني من أجل إعادة زرع بذرة الحب والتواد والتراحم وتوقير الأب والأم في نفـوس الأبناء.. ليتـم ذلك منذ نعـومـة الأظـافر.. وقبل معـرفـة شكل الحروف والأرقام.. ولتستمر هذه التوعية الشاملة المتكاملة من المهد إلى اللحد.

ودعني أحكي في النهاية هذه الحكاية لنتدبر معناها:

كان الابن يعيش مع زوجتـه، ومعهما والده الطاعـن في السن، وضاقت الزوجـة بالأب فأوعزت إلى زوجهـا التخلص من والده بأي صـورة من الصور، وبعد أخـذ ورد. وتـهديد ووعيد انصاع الزوج لكلام الزوجـة.. وحمل والده الذي تحول كتلة من عظام في صندوق وصعـد به إلى الجبـل آملا التخلص منـه.. وسألـه الأب إلى أين يـا ولدي؟ فـاجـاب الأبن لنستروح معا قليلا بعض النسمات الطيبـات.. وأدرك الأب المغزى.. وفي منطقة أعلى الجبل صاح الأب آمرا الأبن بالتوقف.. قائلا ـ يكفيك يا ولدي جهدا.. ألق بي من هذا المنحدر فهو نفس المكان الذي ألقيت منه جدك الراحل!!!

أبيات
في حكمة الحياة

كلما تحزبت الأمور وهصرتني الحياة بعجلتها الدائرة التي لا تتوقف أبدا لذت بالشعر قراءة وإنشادا طلبا للحكمة، ونشدانا لتجديد الحياة بعد أن أجدب أديمها وجف رحيقها.. وأصفر عودها.

ومن أفواه الشعراء.. ومن فيض قرائحهم.. تتوهج ينابيع الحكمة. وتتكشف مغاليق الحياة وأسرارها التي لا نفهمها أو التي لم نفهمها بعد.

يجود يراعهم بالقول الحسن واللفظ الكاشف للمعنى البعيد والقريب، ويهتز وجدانهم بفيض من المشاعر لا يغيض لها معين.. فهي دائما ما تسبر أغوارا، وتكشف اسرارا.. وتهتك استارا.

ولقد صدق من قال.. أنتم الناس أيها الشعراء لذلك فانني كلما أقف أمام بيت جميل من الشعر ابتداء من المتنبي وصولا إلى شوقي إلى من هو قبلهم أو جاء بعدهم سجدت لهذا البيت سجود المحب للحكمة.. الطالب لها، المقدر لرعشة المشاعر وابتسامات تجود بها الحياة.

ولقد استوقفني ابو القاسم الشابي طويلا امام ابياته الرائعة ابتداء من ابياته.

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام كالبدر كالصباح الجديد

وانتهاء بأبياته التي يخاطب فيها شعبه ناعيا فيه صمته وسلبيته إبان الاحتلال الفرنسي.

أنت روح غبية تقضي الحياة في ليل ملس
ليتني كنت يا شعبي حطابا فاهوى على الجذوع بفاس

ثم نراه يقول في حوار له مع الارض مستنطقا حكمة الحياة.. حكمة الاستمرار، حكمة النضال والتحدي.

وقالت لي الأرض لما سألت يا أم هل تكرهين البشر
ابارك في الناس اهل الطموح ومن يستلذ ركوب الخطر
وأكره من لا يماشي الزمان ويقنع بالعيش عيش الحجر

هـو الكـون حـيّ يحب الحيـاة ويحتقـر الميت مهما كبر

فـلا الافـق يحضـن ميـت الطيـور ولا النحل يلثم ميت الـزهـر

ولـولا أمـومـة قلبـي الـرؤوم لما ضمت الميت تلك الحفـر

فـويل لمن لم تشقـه الحيـاة مـن لعنـة العـدم المنتصر

أما في محراب المتنبي فلا تملك إلا أن تتبتل أمام قوله:

ان ملكت الشعـوب فـابغ رضـاهـا ففيهـا عـزمـة وفيهـا مضـاء

يحسب المالكـون ان سيسـودون وان لـن يـسؤيـد الضعفـاء

والليـالي جـوائر مثلما جـاروا وللـدهـر مثلهـم اهـواء

***

يـولد السيـد المتـوج غضا قد طهرتـه في مهـدهـا النعماء

فإذا مـا الملقـون تـولـوه تـولى طبـاعـه الخيـلاء

فـإذا ابيـض الهديـل غـراب وإذا أبلـج الصبـاح مسـاء

ومن المتنبي نطير مع شاعر آخر سبر بمشاعره أغوار المرأة قال يخاطب حسناء:

خـدعـوهـا بقـولهم حسنـاء والغـواني يغـرهن الثنـاء

أتـراهـا تنـاسب اسمـي لما كثـرت في غـرامهـا الاسماء

واترقب قول الشاعر فتحي سعيد عند أداء هذا الحوار مع ليلاه.

اسبلت هـدبها وقـالـت تملى لا وحسنـي ومن سجـى بـك ليـلا

مـادلالا اردت لكـن جمالا.. أنـا ليلى فهل تـرى أنـا ليلى

أنـا من ابـدعتنـي أنـامل وفنـون جـل مـن أبـدع الجمال وجلى

لست تمثـال المؤلـه لكـن أنـا أنثى فـلا تكـن لي مـولى

فـلا تـؤلـه بي التراب والا أتعـالى فـلا تـؤلـه وإلا

وفي ساعات الوحشة والوحدة في المنفى قـادني شوقي بأبياته السواحر والتي جسدت معنى الغـربة والأغتراب فى المنفـى فى مقابلـة عبقـرية بينـه وبين حمامـة الأيك التي قص جناحها.

يـا نـائح الطلح أشبـاه عـوادينـا نشجى لـواديك أم نأسى لـوادينـا

مـاذا تقص علينـا غير أن يـدا قصت جنـاحك جـالت في حـواشينـا

كل رمتـه النـوى رِيشَ الفـراق لنـا سهماً وسـل عليـك البين سكينـا
فإن يك الجنـس يـا إبنَ الطلـح فـرقنـا إن المصـائب يجمعـن المصـابينـا

وكلما أوغلنا السير في الحيـاة عبر مدارج الطفـولة، فالشبـاب فالكهـولة والشيخـوخة توقفنـا مليا بحب شديـد عند حكمة الشعـر والشعراء في ابيـات ناصعات بـاهرات المعنى والخبرة والسمو النبيل.

ومـا ينبيك عن خلـق الليـالي كمن فقـد الأحبـة والصحـابا
ومن يغتر بـالـدنيـا فـإني لبست بها فأبليت الثيـابـا
جنيت بـروضهـا وردا وشـوكـاً وذقت بكـاسهـا شهـدا وصـابا
فلـم أر غير حكـم اللـه حكما ولم أر دون بـاب اللـه بـابـا

لكم أدركنا الآن كم أبلينا من ثيـاب الحياة حتى عركناها وعرفنـاها فازددنا بها خبرة.. فكانت الخبرة عـاصما لنا من الإقبال المهرول عليها المتبتـل في حبها. المرتمي في أحضانها.. الخادعة.. الذاهبة.

أمر بالانسحاب

الانسحاب من هذه الحياة ليس من الضروري أن يكون انسحاب جسد.. بل إنه قبل أن يصبح انسحاب جسد نواريه الثري.. فهو انسحاب روح وعاطفة ومعنى وشعور.. ونحن نستشعر ذلك بعمق عندما يتقدم بنا العمر، وتمتد بنا الأيام ونتجاوز أجيالنا إلى أجيال بعدنا، وندرك ذلك بوضوح ونحن نرقب أجيالا جديدةأاخرى من حولنا.. أجيالا نتعايش معها.. أجيالا تأتي وأخرى تنسحب في هدوء أو في ضجيج لكنها في النهاية تنسحب.

مؤشر واحد كاف لأن يشعرك بأنك جيل مضى، وعفى عليه الزمان عندما تجلس إلى أبنائك لتسمع الراديو أو المسجل.. أو لتشاهد التليفزيون والفيديو ستجد أنك في واد وهم في واد آخر.

أنت مثلا تطرب لسماع صوت أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب - رحمهما الله - وتستمتع بصوت محمد قنديل، محمد رشدي، عبدالغني السيد.. بل ربما مازال يسعدك صوت نجاة الصغيرة التي لم تعد صغيرة.

أما من حولك من أبناء وبنات فإنهم لا يطيقون سماع هذه الأصوات.. بل إنهم يتلمسون قيامك من مكانك - ولو لقضاء حاجة - ليسارعوا بوضع شريط في المسجل.. أغان راقصة سريعة الايقاع.. فجة المعاني.. فإذا أنت وسط موسيقى صاخبة.. وأصوات المطربين لا تسمح أذنك بسماعهم.. وساعتها تدرك أن المكان لم يعد مكانك وكذلك الزمان.

وإذا قلبت في المكتبة تبحث عن كتاب لتقرأه أو معلومة تضيفها إلى معلوماتك وجدت الذين حولك قد انفضوا عنك وراحوا يبحثون عن شيء آخر قد يجدوه في فيلم فيديو.. أفلام صراخ وهستيريا/ رعب.. جنس.. عنف.

الكتاب لم يعد له مكان هنا.. الكل يبحث عن المعرفة السهلة.. لقد استبدله جيل صاعد وبازغ - وللأسف - بالفيديو والكاسيت ومباريات الكرة وخلافه.. وخلافه هذا كثير.

ساعتها تدرك أنك في غير مكانك.. وأنك تنسحب تلقائيا من هذا الزمان الذي لم يعد

زمانك.. وذلك المكـان الذي لم يعد مكانك.. وكأنك نبتـة شيطانية بريـة لا جذور لها وسط هذا الكم الهائل من الحشـائش.

وإذا نفضت عن كاهلك كل هذه المشاعر والمعـاني، وأردت زيارة قريب أو صديق حالت دونك ودون تحقيق ذلك عدة اعتبارات لم تكن موجودة أو معروفة.

فالأجدى لهذا الصـديق الآن بدلا من أن يقضي ساعة أو بعض سـاعة معك.. أن ينشغل بعمل يدر عليـه عائدا ماديا فيما بعـد ساعات العمل.. ولتـذهب إلى الجحيم الجذوة المتقدة للعمل التطوعي والخدمة العامة، ولا مكان ـ مثل زمان ـ لجلسات الخلان، وساعات الصفا والوفـا.. الكل يركض وراء مطـالبه الماديـة أما المعنـويات.. والعواطـف.. والتآلف ودفء العاطفة والاسرة والصـداقة.. و.. إلى آخره كل ذلك كاد أن يصبح في خبر كـان.. وهنا تراك تترحم على أيام زمان.. وتحس أن المكان ليس مكانك وكذلك الزمان.

وأنك ـــ أردت أو لم ترد ـــ فإن منطق تـوالي الأجيـال وتتابعهـا قـد أصدر إليك أمـرا بالإنسحاب.. وحتـى لو عاندت الزمـان وأوامره. وأمسكت بتلابيب المكان تـريد أن تبقى فيه. والزمان تـريد أن تستبقيه فإنك لابد وأن تشعر بأن قـرار الإنسحاب قد صدر.. وأن معركتك مع الحياة قد انتهت.

ومن يتطلع إلى أرذل العمر فإنه في الـواقع يتطلع إلى الغربة والوحشة والـوحدة في عالم لم يعد عالمه.. ومكان ليس مكانه وزمان تخطاه فلم يعديملكه.. وليعلم انه قد صدر إليه أمر بالانسحاب!!

وانكسرت قيثارة
النغم الحلو
واللحن الخالد بموت عبدالوهاب

و.. وانكسرت قيثارة النغم الحلو.. واللحن الخالد وانزوى وهج الإبداع المتميز المتفرد عن سموات حياتنا.. وأصبح محمد عبدالوهاب رائعة حياتنا ونوارة أجيالنا وأجيال قادمة بعد أجيالنا ذكريات نغم... نغم حلـو تشنف آذاننا.. وتداعب وجداننا كل حين.. بعد الآن.. بعد الحين.. بل ومنذ الحين الـذي أدار فيه عبدالوهاب لنا ظهـره ومضى إلى عالم الخلود.. ليحلق من جديـد في سموات عالية الـذرى تختلط فيها عبقريات زمـانه بعبقريات بـداياته ونـهاياته... التـي توقعناها وما تمنينـاها سنظل نحن الجيل الذي عـاش أحلى أنغام محمد عبدالوهاب نتغنى به شخصية فذة.. عملاقة.. رائعة المعنى.. عظيمة القدر.

سنظل نغني لـه ومعـه مـا حيينـا ونـردد أعمالـه الخالـدات... الكـرنك.. الجنـدول.. كيلوبـاترا.. النهر الخالد.. جبل التـوباد.. جارة الوادي.. دمشق.. الـوطن الأكبر.. محلاها عيشة الفلاح.. مين زيك عندي يا خضرة.. مجنون ليلى.. بافكر في اللي ناسيني.. هان الود..

سنظل نغني معه وله مـادامت فينا عروق تنبض بحب الفن الجميل الأصيل.. وستظل أجيال معنا وبعدنا تغنى لعبدالوهاب.. وتتأمل أعماله وإبداعاته القديمة والحديثة وتتذكر كيف طـور هذا العمـلاق موسيقـانـا العربيـة.. وأدخل عليها في نسق جميل غير شـاذ أو مضطرب بعض الآلات الغربية التي أضحت جزءا من موسيقانا.

ستذكر للنهر الخالـد ـ عبدالوهاب ـ كيف ادخل الديـالوج الذكى في الموسيقى والأغنية العربية في أفلامه وروائعه التي مازالت ماثلة للأذن تداعبها لحنا.. ونغما وإبداعا وفنا.

إن «محمد عبدالوهاب» ـ كما هو بحق ـ موسيقار الأجيال غنى للقديم.. وغنى للحديث، بل إنه قد لف القديم من اللحن والنغم بغلالة خفيفة شفافة صافية الأداء لم تحجب عظمته أو اصالته وقدمته في نفس الوقت في ثوب جديد.. وحلة يرتديها أبناء العصر.

عالج القديم بأسلوب حديث من النغم الحلو، واللحن المبدع فنقل جيل الثلاثينات بأكمله نقلة استمع فيها إلى روائعه.. يا نوال فين عيونك.. جفنه علم الغزل.. فيك تلاعبني عشرة كوتشينه.. ثم شد جيل الأربعينات إلى النيل نجاشي.. ما أحلاها عيشة الفلاح.. العلم... وقفز به وبنا إلى الحلم الرائع في كيلوباترا، والجندول والكرنك.. وعلى عتبات الخمسينات أبى إلا أن يساير جديد العصر.. والعصر الجديد.. بافكر في اللى ناسيني.. تراعيني قيراط.. وخلال ذلك كانت له وقفات عند الوطنيات لا ننساها.. دمشق.. السودان.. فلسطين.. الوطن الأكبر ثم قفز قفزات مرحة اللحن والأداء.. إلى هان الود.. وداعب كثيرا من المطربين والمطربات بألحانه التي اعتبرت بالنسبة للجميع ميلادا فنيا جديدا وفي آخريات حياته.. عشنا معه نغم النهاية.. المتجددة الحيوية.. من غير ليه..

ومن غير ليه.. فقد مات محمد عبدالوهاب.. ومن غير ليه سيظل خالدا خلود شوامخ مصر وثوابتها.. من أهرامات وقلاع وتراث.. ونهر خالد.. ألم يكن عبدالوهاب هو النهر الخالد.. وسيظل هكذا دائما؟.. رحمه الله.

قال له صاحبه وهو يحاوره (٣)

دوننا ودون النفس المطمئنة حيوات وحيوات
أما بيننا وبين النفس اللوامة فمسافات ومسافات

قلت لزعيم مسلمي الهند.. ما الحكمة إذن من موت وحياة وموت ثم حياة وهكذا في سلسلة متصلة متلاحقة قد تمتد أجيا لا؟ قال الرجل في تواضع العلماء.. وحكمة الفلاسفة.. وتودد المتصوفين أوتحسب ان الله غافل عما نفعل أو عما فعلنا؟..

أونعرف من القرآن عن النفس اللوامة.. والنفس المطمئنة.. وأنواع أخرى من النفس كالنفس الأمارة وغيرها... والنفس المطمئنة هي التي ترجع إلى الله راضية مرضية: إنها النفس التي مرت عبر مراحل مختلفة وكأنها تمر بمصفاة لتشف.. وترق وترقى في كل مرحلة لتصل في النهاية إلى درجة من الصفاء الوجداني الذي يؤهلها لأن تذوب في تيار الخلود النقي الشفاف..

أوتعتقد أننا في النهاية.. في نهاية المطاف نكتسب صفة الخلود.. وهي صفة من صفات الله سبحانه وتعالى دون أن نمر بهذه المراحل.. ننقي ونتنقى عبر هذه المصفاة لنذوب في الكيان الأعظم حيث الكل واحد.. نهر الخلود المتجدد خلودا.. البداية والنهاية.. المصب والمنبع.

اما الشهداء والصديقون والأنبياء فليسوا بحاجة إلى أن يمروا بهذه المراحل من المعاناة.. من اليأس.. القنوط من العذاب.. من الشقاء.. انهم يقطعون المراحل دفعة واحدة.. ليصلوا دوما ودائما.. إلى شاطىء الهدوء المطمئن.. إلى النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية.

لذلك فإن الله سبحانه وتعالى أقسم بالنفس اللوامة وأقسم بالنفس المطمئنة لأنها درجات عليا من النفس الإنسانية ولقد جاء القرآن ليذكرنا بذلك.. عندما قال.. «كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا».

«كل نفس بما كسبت رهينة».. «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها»..

قلت إذن نحن نثاب ونعاقب في دنيانا.. في حيواتنا عبر هذه المراحل ثم نرد إلى ربنا فيقضي بيننا قال.. نعم إننا نرد دائماً إلى ربنا في كل حياة من هذه الحيوات.. نرد إليه من البداية وإلى النهاية... نرد اليه ونحن نعلم ما فعلنا.. «كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا».

قلت فيم البعث والنشور.. فيم الثواب والعقاب.. قال الرجل.. إنه لبعث مستمر عبر هذه الحيوات وحساب دائم.. نطهر من خلاله.. لنشف ونرق.. كي نكون مؤهلين للذوبان في الكيان الأعظم من كلمته كنا وإليه نعود.. وإلى الله مرجعنا.. إن الحساب الأكبر والأعظم في الحياة الأخرى.. «وللآخرة خير لك من الأولى.. ولسوف يعطيك ربك فترضى».

إن الله خلقنا أنفسا لنعبده طوعا أو كرها.. والعبادة عمل.. حياة.. إصلاح للكون وتعمير له.. وبقدر ما نعبده حقا بقدر ما تختصر حيواتنا.. نقطع المسافة بسرعة أكبر نحو الخلود الأعظم.

إنك ترى إنسانا يولد منذ ولادته في شقاء مقيم، وعذاب دائم، وقد لا تدرك له سببا، ولا تعرف له تفسيرا.. لكنك حتما ستعرف سر ذلك إذا ما آمنت بأن النفس الإنسانية لا تحيا حياة واحدة إنما ترد فتحاسب.. وترد لتصفى وتنقي وتطهر.. ثم ترد إلى خالقها في النهاية لتذوب في الكيان الأعظم، ولنتأمل بعض الناس عشنا معهم وعاشوا معنا فإذا هم يحملون بين جوانحهم نفوسا مطمئنة.. تبدو عليهم آثار النعيم وجوههم نضره.. حياتهم رغدة وإن كانوا ليسوا أثرياء أو أغنياء بمفهومنا المعاصر.. يعيشون بيننا.. ثم يودعوننا وينسلون منا.. من بيننا في هدوء ورفق، «ولم يتركوا فينا سوى الأثر الطيب.. والعمل الصالح».. إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه.. «فسبحان الله عما يصفون».

وهكذا يا صديقي نمر ـ نحن أنفسنا ـ بحيوات عدة، ونتقلب بين النعيم والشقاء.. نمر بالمصفاة عبر مراحل هذه الحيوات لننقلب في النهاية إلى ربنا.. وبقدر ما خلصنا بأرواحنا وتخلصنا من آثامنا.. بقدر ما نرسو على مرفأ الإيمان الهادئ المطمئن.

ما بال النسوة ثائرات!!

ما بال النسوة ثائرات.. أقصد ما بال الثائرات الخمس من النسوة. هل هن حقا ثائرات؟ وفيم كانت ثورتهن التي أعلن عنها من خلال قلم صديقنا لطفي نصر الذي تخلص بدوره وببراعة من قضية التصدي لهن خوفا وطمعا فسحب أراءه السابقة، ووضعني وصديقي عبدالرحمن فلاح وحدنا في مواجهة قذائفهن الناعمة التي هي بالتأكيد ما إرتعدت له فرائص زميلنا الغالي أحمد عبدالغني فكان أن كتب ما كتب مستشهدا بالتاريخ والجغرافيا والطب، ومدافعا عما أعتبره حقوق المرأة التاريخية، أو التي أصبحت تاريخية، دفاعا تحسده عليه حواء نفسها..

والآن وبعد أن أمن كل من الرجلين الزميلين جانب المرأة وافلتا ـ كما تصورا ـــ من قبضة مخالبها هل لنا أن نتساءل فيم كانت ثورتهن؟ هل كانت ثورة على الرجل لمجرد أنه رجل؟ أم أنها ثورة على أنفسهن ودعوة حبيسة تريد أن تنطلق للانفلات من قيود الطبيعة التي تطوقهن؟ أم تراها هي ثورة من أجل أنفسهن؟

بكل المقاييس المتاحة فإنها ليست ثورة.. فالثورة في مفهومها العلمي هي تحريك الإرادة بالتغيير وللتغيير من أجل التقدم إلى الأمام.. لكن الدعوة التي حملها رأى الغاضبات الخمس لم تكن أكثر من تململ أو أقل إنه التمرد والعصيان. وإذا جاز لنا أن نسميه ـ عفوا ـ بالتحرك فانه حركة إلى الوراء.. إلى الخلف وليس إلى الأمام.. لماذا؟

إن المرأة عندما تريد وتسعى إلى المساواة المطلقة بالرجل هي ظالمة لنفسها.. مخالفة لطبيعة تكوينها.. رغم كل ما قالته وساقته من حجج تريد أن تؤكد بها تلك المساواة، بل وعلى الرغم مما إستشهد به زميلنا الأستاذ أحمد عبدالغني من نماذج في التاريخ.. تاريخ المرأة التي حكمت وقادت أو اخترعت، فإن ما ساقه زميلنا الصديق من حجج وما ضربه من أمثلة انما اكد به القاعدة العامة واستثناءاتها لا أكثر من ذلك ولا أدنى، فالنساء

البارزات على مدى التـاريخ البشري القديم أو المعاصر لسن سـوى استثناءات محفورة في ذاكرتنـا.. بل ولأنها كذلـك فأنها دائما ما تلح على خـواطرنا لنضرب بها المثـل الذي يجافي القاعدة العامة، ويخرج عليها.

حتى كليوباترا وغيرها من الملكات المتـوجات وغير المتوجات اللاتى لعبن دورا بارزا في تـاريخ بعض الشعـوب والأمم لم يمارسن تلك الأدوار وهن نسـاء وإنما مارسنهـا وهن نساء مسترجـلات أى أنهن تشبهن بالرجـال في الصلابـة، والصرامة، وبززن الـرجال في الحيلة والـدهاء حتى يصلن إلى مـا وصلن إليه.. ورغم ذلك تبقى القـاعدة العـامة سـارية ومطبقة تؤكدها شواهدالتاريخ البشري على مر العصـور.. فهى لم تتـحول أبدا إلى استثناء.. والا فقـولوا لي من هي المرأة التي تفـوقت كشـاعرة على المتبني أو شـوقي.. وهل قدم لنـا التاريخ من فـاقت في علمها البرت انشتين، أو خرجت لنـا اديبة على مستوى تـولستوى أو انطوان تشيكـوف وغير هؤلاء.. وأولئك من العبـاقرة والافـذاذ؟ بل فتشوا لنـا في التاريخ المعاصر عن طبيبـة جراحـة فاقت على إبـراهيم باشـا نابغـة الطب العربي المصري. أو على المستوى العالمي من فاقت النابهين النابغين في عالم الجراحة.

وحتى في المجـالات التي يمكن للمـرأة بطبيعتها أن تتفـوق فيهـا كطب أمراض النســاء مثلا.. هـل سمعتم عن امرأة طبقت شهـرتها الآفاق مثل كثير من الـرجال في هـذا الفرع.. وقس على ذلك ميادين أخرى وفنونا متعـددة.. لكن ليس معنى ذلك اننا ندعو المرأة للعودة إلى البيت والتقـوقع فيـه.. فـالإسـلام والشرع لم يمنع المرأة من الخروج إلى العمل كما ان منطق الحياة المعـاصرة الأقتصادي والأجتماعي يدعوهـا للخروج والعمل.. فقط ما أكـدنا عليه هـو دور المرأة كأم ومدرسة للحيـاة.. ومنبع لا ينضب لتربية الأجيـال وراء الأجيال وأعتقد أن هذه مهمة صعبة تحتاج إلى كل جهد المرأة وإخلاصها.. وهي بالتأكيد تدرك ذلك اذن فلم نأت بجديد يغضب المرأة منا، ويدعوها إلى الثورة علينا.. إننا دعّوناها إلى الاهتمام

برسالتها الأساسية أولا وقبل كل شيء فإذا كـان خروجها إلى العمل يتعارض مع رسالتها الأساسية كـان الأولى بها أن تتفرغ لمهمتها الأولى والطبيعية، دورهـا كأم... كزوجة. وإذا كانـت المرأة قد أكدت نجـاحها وكفـاءتها في بعض الأعمال التي تحتـاج إلى الصبر والأناة كـالضرب على الآلة الكـاتبة وبعض الأعمال الـدقيقة فـلا شك أن تربيـة الأطفال وتأديـة رسالتها كأم وزوجة تحتاج إلى الصبر كله والأناة كلها مما لا يملكه الرجل ولا يقدر عليه.. ونحن نعترف بذلك، فالمرأة مؤهلة بطبيعتها لـرسالة عظمى.. ودعوتها للتمسك بدورها في أداء هذه الرسالة ليس من قبيل الخطأ الذي لا يغتفر، أو القسوة المدعاة كما أنه يا صديقتنا الرقيقة لا يعكس إفلاسا فكريا يدعونا إلى ملء فراغ الصفحات.

إننا عندما إعترضنا على دعوة المرأة وسعيها إلى المســاواة المطلقة بالرجل كنا أبر بها من نفسها، وأرق منهـا عليها، بل وأخلص منها في الـدعوة إلى رفع الظلم عنها وعـدم تحميلها عبئا تنـوء به ولا تستطيع أن تقـوم به إلا إذا تخلت عن أحـد أمرين، أما العمـل وإما البيت ورسالتهـا كأم وزوجة. ورغم ذلك فاننـا ندعو اللـه للمرأة التوفيق كلـه والقدرة في نفس الوقت على المواءمة بين عملها ومتطلبات حيـاتها وبيتها.. أيتها الثائرات.. إنها دعوة إلى البر بكن.. والرفق بكن..وبهن.. بالزوجة والأم والابنة.. فهل من مجيب!!

■■■

قالوا في المثل:

«إن الشعوب لا تحقق ما تطمح إليه وإنما تحقق ما تستحقه»..

المسافة بين الرّجْل والعقل !!

المسافة بين الرجل والعقل قصيرة جدا .. بـل لنقل كما يقولون إنها «فركة كعب» ولأن الرجل أمر مادي محسوس وملموس، والعقـل ـ ليس المخ ـ جوهر ومعنى يدخل في نطاق اللامحسـوس.. واللاملمـوس.. هو أمر معنـوي.. لأن ذلك كذلك، فإن المسألـة تحتاج إلى تفسير قد نجـده عند الرياضيين .. وحتما سنجـد لدى الأطباء الذين ينصحـون الاصحاء وبعض المرضى بريـاضة المشي.. فالمشي مفيد للصحـة .. ورياضة من لا رياضـة له .. أي لـذلك الذي لايمارس نـوعـا من الريـاضة.. وهـو منصـوح به لمرضى القلب والسكـر.. وأصحاب الوزن الثقيل .

وإذا كان الريـاضيون والأطباء ينصحون بـالسير معتدا «مارش» كما يقولـون في لغة العسكر.. أي تحريك الرجلين مع القدمين في خطوات منتظمة نشطة كل يوم ساعة أو بعض ســاعة فإن المفكـرين والفلاسفـة أيضا ينصحـون بالمشي أو بـرياضـة المشي.. وقد كـان الفيلسوف العظيم أرسطـو يحاور تلامذتــه وهو يمشي ذهابا وإيـابا ولذلك سمي أتبـاعه ومدرسته بمدرسة المشائين.

ولقد أثار تأملي هذا بحث قيم لأستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة البحرين وعميد سابق لكليـة الآداب هو الأستـاذ الـدكتور عفت الشرقـاوي. أكـد البحث والبـاحث أنه في نـادي العباقرة الرياضي يصبح المشي رياضة الفلاسفة.

يقول الـدكتور الشرقـاوي إن المؤرخين في تاريخ الفلسفـة يعرفـون مدرســة فلسفية مشهورة هي مدرســة المشائين. والمعنى الأصلي لهذه الكلمة في اليونانية القـديمة هو المشي المسقوف وهو جزء من المكان الذي أعد لأرسطو وتلاميذه في الجزء الشرقي من مدينة أثينا في مكان يعرف «بالليوتيوم». وقد سميت هذه المدرسة بالمدرسة المشائية نسبة إلى أرسطو في التعليم بها، والتي كانت تعتمـد على المشي، فقد كـان أرسطو يلقي دروسه على تـلاميذه وهو يمشي معهم جيئة وذهابا. ويناقش معهم قضـاياه الفلسفية. وقد كانت هذه المدرسة تحت رعاية المقـدونيين، ثم تحولت إلى مؤسسة علمية كبيرة تقوم فيهـا طريقة التعليم على المشي بصفة خاصة. حيث كانت المحاضرات تلقى فيها بطريقة منتظمة على هذا النحو. وظل أرسطو يتابع تعاليمه بين تلاميذه إلى ماقبل وفاته بمدة قصيرة .

ولأن الفلسفـة قـائمة على التأمل، وإعمال العقل والـوجـدان في أعقـد قضايـا الكـون

والوجـود فلابـد وأن هناك علاقـة مابين المشي وبين التأمل والتفكـر وكما يقول الـدكتور الشرقاوي فإن المشي ليس رياضة الفلاسفـة وحدهم كما يفهم من المصطلح السابق بل إنه رياضة كل المفكرين والمبدعين على الاطلاق.

ولأنه ليس في مقـدور كاتب هذه السطـور أن يكتشف تعليلا منطقيا للعـلاقة بين فعل بدني خالص، هو المشي وبين فعل عقلي خالص هو الفلسفة .. فإن الباحث يقول إعتمادا على «الاستقراء» فان كثيرا من الكتـاب العالميين كانوا يمارسون ريـاضة المشي، نعرف منهم في عالمنا العربي أديبنـا العظيم نجيب محفوظ والعقاد وتوفيق الحكيم ويحيى حقي وغيرهم. وفي آثار تشارلز ديكنز مايدل على أنه كان يمارس رياضة المشي وكذلك فعلت مدام بوفاري وبرتـراند راسل، فهل المشي من شأنه أن يـزيد من الهام عقولنا أم الامـر كما يقول بعض الاطباء إن المشي يزيد من عمليات التمثيل الحيوية بالمخ فيعمل هذا على نشاط الخيال وحدة الذكاء ؟ ربما..

هل ممارسة رياضة المشي في الهواء الطلق تجعل الجسم أكثر قدرة على حمل الاكسجين وأفضل استخـداما لهذا الاكسجين الـذي يصل إلى المخ الذي يعتمـد اعتمادا تامـا على هذا الاكسجين للقيام بـواجبه على أكمل وجه ممكن ؟ وهـل يعني ذلك أن هناك علاقـة ايجابية بين الاكسجين والعبقرية البشرية» ؟ .

أسئلة كثيرة يطرحها علينـا العالم الفيلسوف د. عفت الشرقاوي حتى لنتمنى أن نقضي العمر مشيا.. وأن نكتب أيضا ونحن نمشي مثلما نفكر لنمشي ونمشي لنفكر .

وعلى رأي الـدكتور الشرقـاوي.. هل تكون ريـاضة المشي هي حقـا المفتاح الحضـاري الجديد لنهضتنا ؟ ربما .. وللحديث بقية .

هؤلاء علمونا كيف نقرأ القرآن ونسمعه

عندما تحف بأرواحنــا، وتداعب قلوبنا.. وتدغــدغ وجداننا الذكرى العظيمــة للرسول العظيم محمد صلى الله عليه، ونسلم قياد نفوسنا لآيــات من القرآن الكريم الذي ترنمت به شفاه منــذ أكثر من ١٤٠٠ عامــا.. وراحت من بعده بــلايين.. بلايين الشفاه تترنم بــآيات بينات حتى الآن.. ففي تــرنمها سماع.. وفي سماعها إصغــاء.. وفي الإصغائها إليهــا بكاء.. وفي بكائها معنى.. والمعنى أن من يرد ان يسمع الله .. وأن يكلمه الله .. فليقرأ القرآن، ومن يرد أن يكلم الله فعليه بالصلاة.

وفي قاهرة الألف مئذنة لابد وأن تشدك إليها بالإيمان والتأمل والقرآن مساجد وأماكن وأصوات تتلــو القرآن تــرتيلا بصوت فيــه ملاحــة أو قوة أداء وحسن أحكــام للتلاوة في بدايات الآيات ونهاياتها.. في فواتح السور وخواتيمها .

ومن الأصــوات التي أسعى إليهــا دائما وأحن في الماضي وحتى في الحاضر إليها صــوت المرحوم الشيخ محمد رفعت، ذلك الصوت الذي يتلو القرآن في شجن يلونه حزن، ويجمله صدق التأثــر بالمعنى خــاصة وهو يتلــو آيات من سورة مــريم أو الكهف، ولا أدعي انني حضرت تلاوتــه للقرآن أيــام كان يؤديها خــاشعا في مسجد السلطــان الحنفي بالقــاهرة، ولكنني أدعي أنني كلما سمعتــه استشعرت كل هــذه المعاني وغيرها رغــم ان التسجيلات التي تم تسجيلهــا لهذا الرجل ليست بــالكثيرة كما انها ليست بنقاء تسجيلات اليــوم ومع ذلك فان هــذا القارىء العظيم كــان يستحوذ على الآذان ويدغــدغ الوجــدان، فيمس أوتار القلوب الصلدة.. حتى قيل فيما قيل إن إذاعة لندن وإذاعة الشرق الأدني كانتا تداومان على اذاعة تسجيلاته وترتيلاته، إبــان الحرب العالمية الثانية وأن كثيرا من غير المسلمين أدمنوا سماعه وتأثروا بتلاوته ومنهم من أسلم بعد أن غزا قلوبهم بعد أسماعهم فدمعت القلوب قبل الأعين تأثرا .

لم يكن المرحوم الشيخ محمــد رفعت يسعى وراء المادة أو المال، فقد كان يعتبر تــرتيله للقرآن رحمة من الله له لايتفق على أجر مقابل ذلــك سواء كانت التلاوة في مأتم أم مناسبة من المناسبات .

ثاني الأصوات التي أسرتني جدا صوت الراحل المرحوم الشيخ مصطفى إسماعيل لانه

رحمه الله صاحب صوت منضبط جميل متعدد الطبقات، عرفناه في الأربعينات ونحن صغار، وكان ذلك عندما يقام سرادق كل رمضان لقراءة القرآن في ميدان عابدين عند القصر الملكي حيث تبدأ السهرات الرمضانية بعد صلاة التراويح وتمتد بتلاوة القرآن حتى وقت السحور، إستمعنا إلى الشيخ مصطفى إسماعيل في شبابه، كان صوته قويا متمكنا، جميلا ومنغما.. حلوا عريضا يعرف ـ في دقة ـ مواطن الوقف والضبط في كل آية. وإلى جواره كان يجلس ويتلو القرآن بالتناوب معه شيخ منشدي التواشيح الدينية وأفضل من أنشدها حتى الآن المرحوم الشيخ طه الفشني.

وكنت عندما أريد أن أعيش كيانا روحيا متكاملا فلابد من الذهاب في كل جمعة إلى مسجد السيدة زينب رضي الله عنها حيث نستمع إلى تلاوة رزينة معطرة بصوت جهوري عريض معجز النبضات قوي الوقفات هو صوت المرحوم الشيخ عبدالفتاح الشعشاعي.

أما الشيخ الراحل المرحوم عبدالباسط عبدالصمد صاحب الصوت المديد، فقد عرفت وعشت بداياته وهو لم يزل قادما من صعيد مصر.. شابا صغيرا متورد الوجه.. كان ينتهز فرصة تجمع الناس في المسجد الزينبي بمناسبة مولد السيدة زينب ليتلو القرآن الكريم في نفس مديد ينتزع به إعجاب آلاف الحاضرين والمصلين.. ومن هذا الموقع انتشرت شهرته، ـ في بداياته ـ يقرأ فاتحة القرآن الكريم ويصلها بقصار السور في نفس واحد.. يعيد ويزيد مستعرضا عضلات صوته وامتداد نَفَسه..

لم يكن صوته في فخامة وحلاوة صوت مصطفى اسماعيل أو في فخامة ورزانة الشيخ الشعشاعي .. لكن صوته كان مميزا ومتميزا بالنفس الطويل الذي ساعده عليه شبابه وتكوينه الجسمي .. رحمه الله.

ولعلني لا أنسى أبدا ذلك الصوت المتمكن المنغم الذي كان يبثه في آذاننا المرحوم الشيخ علي محمود خاصة وهو يتلو آيات سورة القيامة : «لا أقسم بيوم القيامة. ولا أقسم بالنفس اللوامة».

كان صوته رحيما رخيما حنونا منغما فهو صاحب فن ولحن.. وعلى يديه تتلمذ عدد من الملحنين في ضرب العود وأداء الجمل الموسيقية. فمن تحت عباءته الأزهرية خرج جيل من الفنانين.

رحم الله هذا الرعيل من القراء.. ومن أتى بعدهم ممن لم نذكرهم في هذا المقام.. لقد شدونا إلى القرآن وسماعه وقراءته بحسن أدائهم وجميل صوتهم.. وصدق إيمانهم.

السلام المفروض ..
ممن وعلى من ؟

هل لأن الصلح مطلوب أم لأنه مفروض توصل الفلسطينيون إسرائيل إلى إعلان المبادىء وتبادل الأعتراف .. ثم عشنا هذه الضجة الإعلامية.. والبهرجة الدعائية.. والبهجة الأمريكية والمساندة الأوروبية و«اللعلعة» العربية وفيضا من الحماسة الخليجية.

هل كان ذلك كله لأن الصلح مطلوب.. أم مفروض؟ وفرق كبير بين ماهو مطلوب وماهو مفروض .

فالمطلوب تتكافأ فيه الإرادات.. وتتوافق الآراء وتتوازن القوى.

أما ما هو مفروض فإنه عادة مايعكس خللا هنا أو هناك.. سواء أكان الخلل ظاهراً أم مستترا وقد يقول قائل ببساطة شديدة إن الخلل في الميزان العربي.. تماما مثله في المزاج العربي .. بمعنى أن العرب الآن في أدق مراحل ضعفهم وتمزقهم.. إنهم يتحرقون إلى الإمساك بأي شيء والتوصل إلى اتفاق بعد أن استحالت الحرب وانتفضت اللاءات الثلاث التي أسفرت عنها هزيمة ٦٧ في مؤتمر قمة الخرطوم. من جانب آخر فإن موازين القوى العالمية ومتغيراتها رغم كل شيء مازالت في صالح إسرائيل.

قد يقول قائل ذلك وأكثر منه.. ومعه الحق.. لكن على الجانب الآخر.. ومن خلال نظرة بعيدة عن المجاملة والمجادلة.. تستشرف آفاق المستقبل لابد وأن تدرك أن ـ الصلح وليس السلام ـ أيضا مفروض على إسرائيل .. يفرضه الواقع والتاريخ والمنطق.. فإن إسرائيل إلى الأبد لن تدوم.. هكذا يقول منطق التاريخ ومنطق الطبيعة ومنطة الأشياء أيضا .

فإسرائيل تعيش الآن وستعيش في المستقبل وسط متغيرات دولية وإجتماعية وديمغرافية وسط بحيرة من العرب.. ستظل كجزيرة معزولة ولابد أن يغطيها الماء عند أي حركة جزر دولية أو اقتصادية، ثم ـ وهذا مهم ـ فإن الشعب الفلسطيني بتكويناته وجذوره وطاقاته البشرية هو في البداية وفي النهاية شعب حي لايموت. أما على الصعيد الأيديولوجي البحت والمصلحي المؤكد فإن حركة التاريخ تسير على المدى البعيد في غير صالح إسرائيل.. وحكام إسرائيل، وحكماؤها يدركون ذلك أو لعلهم أدركوه.

وإذا كانوا في الماضي قد استدرجوا يهود العالم بمصيدة العقيدة وأرض الميعاد و.. و..

وتميز الجنس اليهـودي.. ونقاء دمائه فـانهم كانوا يـدركون أن هذه المصيـدة لن تصمد طويلا مع تطور الحياة الإنسـانيـة عبر القرون الآتية واتجاهها إلى العلمانية.. عصر ثورات في العلم والتكنولوجيـا التي لابد وأن تحطم الأصنام الغيبية.. والعقيـدية التي لاسند لها.. خاصة وأن أوهام الديانة اليهودية التي جعلوها معبرا إلى أرض فلسطين بدأت تتهاوى.

ومن يفتش في مكـونات العقليـة اليهوديـة لابـد وأن يدرك أن الصهيـونية هـي فكـرة سياسية عنصريـة قائمة عليها لذلك أدرك كثير من يهود العـالم أن قيام إسرائيل خطر على اليهـودية نفسهـا كديـانة. ولعلني مـازلت أذكر إبـان اهتماماتي الصحفيـة والدراسيـة والثقافية بالصهيونية واسرائيل ان ناقشت استاذنا الدكتور فؤاد زكريا الذي كان يدرس لنا تاريخ اليهودية في العالم واتفقنـا معا على أن قيام اسرائيل هو خطر في المدى البعيد على اليهودية نفسها.

ولقد ســاعدتني هـذه الأفكار على تدبير لقـاء ثري بين رئيس المجلس اليهـودي العالمي «المربيرجر» وبين بعض المفكـرين والمثقفين في منظمة التحرير الفلسطينيـة، وأدرنا حوارا متميـزا نشرناه في مجلـة آخر سـاعة أكـد فيـه رئيس المجلس اليهودي العـالمي بالحجـة والبرهـان خطر وجـود اسرائيل على اليهوديـة كديـانة وعلى اليهـودي كإنسان. ونـادى «المربيرجر» بضرورة تعايش اليهود والفلسطينيين من مسلمين ومسيحيين في وطن واحد وكان يؤيـد بشدة قيام الدولـة الديمقراطية التي دعت إليهـا حركة فتح في فترة من فترات النضال الفلسطيني المتوهج أواخر الستينات .

والآن .. يبدو أن اسرائيل بدأت في إستيعاب حركة التاريخ، ولذلك قررت أن تتعامل معه بوعي وواقعية، مادة بصرها إلى بعيد مستشرفـة تحديات المستقبل.. مدركة أبعاده .. لذلك يمكن القول باطمئنـان إن حركة التاريخ ومتغيراتـه جعلت السلام أو الصلح بين إسرائيل والفلسطينيين مفروضا على إسرائيل ومفروضا أيضا على الفلسطينيين والعرب.

وهو صلح لم يفـرضه الامريكان أو غيرهم.. بل فـرضته حركة التاريخ .. كـل مافعله الآخرون.. هو من قبيل العـوامل المساعدة.. وليست الرئيسية المحـركة لاتجاهات الصراع الموجهة له نحو الحرب.. أو نحو السلام.

حكايتنا..
والعفاريت

فجأة وبدون مناسبة اشتعل المنزل.. وتحرك الأثاث ولم يعرف أحد من الذي أشعل النار أو الذي حرك الأثاث.. وقالوا «عفريت» وتفلسف آخرون فقالوا إنه الجن.. وتناقل الناس القصص والأساطير منذ أيام في البحرين.. ولم يكن ذلك بجديد على بني البشر، فطالما سمعنا وحكى لنا الأجداد والجدات حكايات أمنا الغولة.. والمارد والعفريت الذي تحسب خطواته بألف خطوة، وتمتد ذراعه إلى آلاف الأميال.

والواقعة التي تناقلها الناس هنا منذ أيام لها ذيول كثيرة، وسوابق عفاريتية سمعنا بها، وانتشرت رواياتها بيننا في القاهرة.. وجاءت من لندن وسمعنا عن جمعيات للأرواح في أمريكا.. وقال البعض الآخر ليس فقط بإستحضار الأرواح بل قالوا بتجسيدها.

.. وكله.. كلام في كلام.. وعادة ما يتم ذلك كله في الظلام.. من إستحضار الأرواح إلى رؤية العفاريت.. ولست أدري لماذا لا تظهر العفاريت ـ إذا كانت تظهر — إلا في الأماكن الخربة والمظلمة والموحشة التي لا تسمع فيها حساً ولا خبرا.. وكان العفاريت ـ والعياذ بالله ـ هي التي تخاف منا ولسنا نحن الذين نخاف منها.. وإلا فبالله قولوا لنا لماذا لم يظهر عفريت في وسط الأسواق.. أو عند باب البحرين مثلا.. أو لماذا لم نر عفريتا يصول ويجول بعفرتته وسط ميدان العتبة أو السيدة زينب أو ميدان التحرير في القاهرة؟

ولأن الوهم سيطر علينا وكذلك منطق الغيبيات، فإننا تصورنا وهما أو أوهاما.. وتسللت إلى عقول بعضنا حكايات وأساطير رغم أن منطق الدين نفسه يناقض ذلك.. ويؤكد منطق العقل والعلم..

فعندما قال عفريت من الجن للنبي سليمان إنه مستعد لإحضار عرش بلقيس قبل أن يقوم من مقامه قال صاحب العلم.. «أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك».. فجاء منطق العلم.. والعقل أعظم من منطق العفاريت.. وأطال الله عمر كاتبنا الكبير نجيب محفوظ عندما أشار في روايته الفريدة «أولاد حارتنا» إلى «عرفه» الذي سيأتي آخر الزمان ليؤكد منطق العلم.. بل إن اسمه جاء مشتقا من المعرفة والعلم.. فكان عرفه الذي قهر الغيبيات والأساطير.

ومن غريب الأمر وعجيبه أن نخبة من المثقفين والعارفين وأصحاب المراكز الثقيلة

عاشوا في متاهات الأرواح والجان حتى إنهم عقـدوا لها الجلسات، وأطلقوا حولها البخور وأظلموا الحجرات، وأسـدلوا الستائر السود... انطلقت حنـاجر من يسمونهم بـالوسطاء مقلدة أصـوات رجال ونسـاء وأطفال.. وكلها ـــ كما زعموا ـــ أرواح جاءت للـزيارة من العالم الآخـر وكأن الأرواح مسألة «هـايفه» وليس لها قـدسيتها، ويمكن استحضـارها وقتما نريد.

وأذكـر أيـام كنت أعمل بـالصحـافـة في القـاهـرة، أن أصـدر وكيل وزارة الشئـون الاجتماعية وقتهـا وكان الأستاذ الفـاضل أحمد أنور قـرارا بإغلاق مقر جمعيـة الأهرام الروحيـة التي كان يرأسهـا الدكتور علي عبـدالجليل راضي عميد كلية العلـوم ويندرج في عضويتها مستشارون ومحامون وقضاة منهم الـدكتور ضياء الدين صالح نائب رئيس مجلس الدولة في مصر والذي عمل خبيرا دستوريا في البحرين لفترة طويلة.

وقامت الضجة الكبرى، ورفعت الجمعيـة قضية على محافظة القاهـرة، وترافع في هذه القضية أمام مجلس الدولة، وأمام دائرة الدكتـور ضياء الدين صالح، المحامي عبدالحليم رمضـان.. وصـال الرجـل وجال وخرج حكم الدكتور ضياء صالـح ببطلان قرار الإغلاق متضمنا إعادة فتح الجمعية وممارستها عملها.

ومن مضحكـات الأمور انني نشرت هـذا الحكم في آخر سـاعة، واستطـردت شارحـا حيثياته ثم أدرت حوارا حول الأرواح التي هي مـن أمر ربي.. ودعاني المحامي عبدالحليم رمضـان إلى جلسة روحيـة في منزله قامت فيهـا السيدة الفاضلة زوجتـه بدور الوسيط.. وسمعنـا من خلال صـوتها الذي تحول إلى صـوت طفل روح ابنهـا الذي تـوفي صغيرا.. وعشنا ساعة أو بعض ساعة في ظلام.. ودموع.. وأصوات تقلد الأطفال.. وكان معنا فقيه القانـون الدستـوري الدكتـور عثمان خليل ـ رحمه اللـه ـ وآخـرون من الصفوة الـذين تحولوا إلى «جوقة» من المصدقين لما يسمعون ويرون من أوهام.

وقانا الله شر الوهم والأوهام.. وعفاريت هذه الأيام من الجن والإنس.. فالعفاريت منا وبيننا.. وقـد جاء في كتاب الله «قـال عفريت من الجن» أما عفاريت الإنس فنحن نعـرفها جيدا.. وجيدا جدا.. وجعل الله كلامنا خفيفا عليهم.. وعليهن.. عفاريت و«عفريتات».

ذنوب لاتسقط بالحج

لأن الحج إلى بيت الله الحرام.. دعوة من اللــه لابد وأن نلبيها ولو مــرة في العمر.. فإننا ازاء هذه الدعــوة الكريمة التي ييسرها الله بشتى السبل نقــول للداعي الكريم.. لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك..

ولأننا قبلنا هذه الــدعوة.. فليس من حقنا مناقشة الداعي فيما دعــانا إليه إنما نسلم له بالأمر كله.. نؤدي له المناسك كلها.. كما أوجبها فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج .

نطوف حــول الكعبة.. نسعى بين الصفا والمروة.. نتــوجه إلى منى.. ونقــدم القرابين.. ونصعد جبل عرفات .. ومنها إلى المزدلفة .. ومن هناك إلى منى.. ثم نرجم ابليس.. بحجارة معدودة وفي أيام وأوقات محسوبة..

نذبح الفدية.. ونقدم الأضحيــة .. نكبر ونهلل ثم نطوف.. ونتحلل من الاحرام.. ونشد رحــالنا إلى المدينــة بعد ذلك أو نعــود إلى أوطاننــا المهم أننا نــؤدي المناسك في رحلــة الحج بخشوع تام.. وخضوع مستمر نحاول قــدر الإمكان أن نتجرد تماما ونحن نطوف حول الكعبة حتى لانكاد نراهــا.. ونحن نهرول ونسعى بين الصفا والمروة.. وعند رجم ابليس.. رمز الشر في نفــوسنا وفي مبيتنا بخيــام منى.. و .. الطقوس والمناسك كثيرة لكننــا نؤديها حتى ولو لم يفهم البعض حكمتهــا أو مراميهــا آملا وطمعا في رضى اللــه.. في رحمته التي وسعت كل شيء.

ولقد جمعتني جلسة مع بعض الحجــاج الذين نووا الذهاب للحج هــذا العام.. وساقت المناقشات الأحاديث عن الحج المبرور الذى يعود بعده الحاج كما ولدته أمه .

ولقد اختلفت مع البعض حول هذا المعنى.. فالحج وفقا لأرجح التفسيرات لايسقط كل ذنوب العصاة.. هنــاك ذنوب يسقطها الحج وأخرى لاتسقط بــالحج. وفي أرجح التفاسير التي قرأتها وسمعت بها للمــرحوم العالم الفقيــه الشيخ محمود شلتوت أن الــذنوب التي يسقطها الحج تلك التي تتصل بعــلاقة الإنسان بربه .. ذنــوب تتصل بتقصير الإنسان في حقوق الله عليه كالصلاة والزكــاة والصوم وما إلى ذلك. فهذه الذنوب يسقطها الحج لأنك لبيت نداء ربــك وقلت لبيك اللهم لبيك.. ففتح لك باب رحمتــه... باب طاعتــك إياه وتلبيتك دعاءه، أما الذنوب التى تتصل بحقوق الناس عليك كأن تكون قد اعتديت على عرض مسلم، أو سرقت ماله، أو شهدت زورا ضــده، أو أكلت أموال اليتامى، أو قتلت نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض.. هذه الذنوب المتعلقة بحقوق الآخرين.. والتي سببت ضررا لهم لاتسقط

بالحج وانما بالتـوبة النصوح.. ويمكن إعتبار الحج إعلانـا منك للتوبة أمام اللـه سبحانه وتعالى، فإذا أصررت على التوبة كانت توبتك نصوحـا غفر الله لك بعد ذلك.. فالله يغفر لك ذنوبك بتوبتك وليس بحجك ..

لـذلك يجب ألا يتصور البعض أن ذهـابـه إلى حج بيت اللـه الحرام سوف يسقط عنـه الذنوب التي إرتكبها في حق الناس إنما يجب أن يعلم أن إذعـانه لله سبحانه وتعالى وأداءه فريضة الحج إنما يسقط عنه ذنوبه التي مست حقوقا متصلة بالله سبحانه وتعالى.. وهو قد دعاه فلما لبـاه غفر له هذه الـذنوب.. أما مايتصـل بحقوق الناس فمرجعـه إلى التوبة.. والتوبـة لها شروط.. ولها قواعد.. تسبقهـا النية.. ويـؤكدها العـزم وتحافظ عليها إرادة الإستمرار في طاعة الله وعدم ارتكاب الذنوب أو العودة إليها.

ليكن الحج إعلان توبة وإنابة.. فيتعدل سلوكنـا بعد الحج بعد أن أسقط الله عنا ذنوبا مست حقوقه سبحانه تعالى علينا فليبـدأ كل حاج ذاهب الى الحج أو قادم منه رحلة التوبة من الآن.. فليس بـالحج وحده يغفـر الله.. إنـه هو الغفـور الرحيم.. وسعت رحمتـه كل شيء.. وقد قال تعالى «قل لعبادي الـذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله.. إن الله يغفر الذنوب جميعا».

ومعنى الإسراف هنـا.. الإسراف في العبـادة طمعـا في المغفـرة من الـذنـوب أو معنى الإسراف في الذنوب وبالمعنيين يطمئننا الله ويدعـونا إلى عدم القنوط فإن مغفرته ورحمته سبقت عذابه .

حكايتي
مع حافظ ابراهيم
وعادل إمام

لست أدري إن كان من حسن حظي أو من سوئه أن اقترن اسمي ثم اسم أبي باثنين من مشاهير مصر والعالم العربي هما شاعر النيل حافظ ابراهيم، والكوميديان عادل أمام فكلما ذهبت بحكم مهنتي أو اتصالاتي لزيارة مسئول في موقع ما توقفت قليلا أو كثيرا عند سكرتيره أو سكرتيرته.. وما إن أنطلق اسمي، وأتلفظ به حتى تقابلني ابتسامة ما أحيانا تكون غامضة.. وأحيانا أخرى تتجاوز الابتسامة إلى مايشبه الضحك.. وفي أحيان ترتسم الابتسامة على وجه جاد صارم.. وفي كل الأحوال لايختلف الوضع.. فتعصرني المفاجأة عصرا .. وتأخذني أخذا عندما يطالعني السكرتير أو تطالعني السكرتيرة ـ على حسب الأحوال .. وفي كثير من الأحوال.. ثم تضع اليد على الديكتافون، أو يمسك صديقنا السكرتير بسماعة التليفون ليخاطب المسئول قائلا.. حافظ إبراهيم بالخارج، ويريد رؤيتك.. وبسرعة اتدخل مصححا الوضع قائلا .. ياصديقي أنا حافظ إمام ولست «حافظ ابراهيم» ، صحيح أن كلينا ينتمي إلى النيل .. وحافظ إبراهيم شاعر النيل قد مات ـ رحمه الله ـ أما أنا فمازلت حيا أرزق.. والحمد لله .. ويعتذر السكرتير .. مصححا الوضع للمسئول.. قائلا.. آسف إنه حافظ إمام.. شافعا ذلك كله بكلمات إعتذار مهذبة.

أما معظم السكرتيرات فيبدو أن صورة النجم الكوميدي متمثلة دائما في مخيلتهن.. فما ان أطلب لقاءا مع مسئول.. إذا بها ـــ وعلى الفور دون أدنى تفاهم بل وبلا مقدمات ـ تقول للمسئول...عادل إمام في الانتظار.. ويسقط في يدي.. لم أشتغل بالتمثيل قط.. لا كوميدي ولا تراجيدي لسبب بسيط هو أنني لست «عادل إمام» بل أنا حافظ إمام

الصحفي بأخبار الخليج.. صحيح أن كلينا ممثل.. هو ممثل مشهور على المسرح أما أنا فأمثل الصحيفة.. لكن تمثيلا عن تمثيل يفترق، وعلى الفور تبتلع السكرتيرة ابتسامتها.. وأحيانا تتسع دائرة هذه الابتسامة مع الموقف الجديد مقدمة اعتذاراتها.. سامحني يا أستاذ.. إنه تشابه أسماء.

ولقد عشت مع هذه المواقف كثيرا ومازلت أعيش ذلك لأن قدري أن يتشابه اسمي واسم والدي مع اسمين مشهورين في عالم الشعر والتمثيل.. وأحمد الله أن هذا التشابه لم يكن مع اسمين شهيرين في عوالم أخرى غير الشعر والتمثيل.. فالشعر والتمثيل أرحم.. وأرحب.. وعواقب الانتماء إليهما أقل خطرا وأكثر انسجاما مع عالم الصحافة الذي نعيش.. لكنه القدر أراد لي أن «انحشر» بين هذين النجمين الشهيرين.. وكما قال علماء مجمع اللغة العربية عن «الساندويتش» في تعريب وتعريف لغوي له فأسموه «شاطر ومشطور وبينهما طازج».

فإنني أحسبني بين حافظ إبراهيم وعادل إمام كممثل مشهور ومشهور وبينهما حافظ لقد أحالتني شهرة حافظ إبراهيم وعادل إمام إلى «ساندويتش» تتسلى بي السكرتيرات الفاتنات وغير الفاتنات تماما مثلما أهفو على خاطر بعض الكسرتيرين والمسئولين.. وما أنا بشاعر، وما أنا بممثل وإن كنت أتمنى أن أكون كذلك.. إذ يبدو إن ذلك كان ويكون افضل.. فما رأيكم دام فضلكم.

صاروخ انطلق
من البحرين إلى كيب كنيدي

في حياتنا نلتقـي بأناس تظل ذكراهم محفورة في عقـولنا، مطبوعة في وجـداننا، تروح وتجيء الذكـرى، يخفت وميضها حيناً.. ثم يتـوهج أحيانـاً أخرى لكنها لا تخبـو أبداً أو تذوي ذبالتها.

وفي البحرين التقيت به صبياً يافعاً.. ناجحاً متفوقاً.. طموحاً يحتل الصدارة بين تلاميذ صفه في مـدرسة الهداية الخليفية.. كـان اللقاء منـذ أكثر من ٢٠ عـاماً.. ربما ٢٣ عـاماً بالتحديـد ساعتها التقيت بطارق عبدالغفـار.. فتى خجولاً.. ذكياً يشده طمـوحه إلى بعيد جداً. ولأنه حصل على معـدل ٩٩٪ في العلوم والرياضيات، وكان تـرتيبه الأول على طلاب الصف الثاني في البحرين كلهـا تم إختياره ليمثل شباب البحرين في رحلـة صاروخية إلى قاعـدة كيب كنيدي بالولايـات المتحدة الأمريكيـة ضمن مجموعة مماثلـة من أنبغ شباب العالم.. صـواريخ من انجلترا واسبانيا وفـرنسا ومصر.. اجتمعـوا معاً ليشاهـدوا عملية إطـلاق الصاروخ الجبـار ابوللـو ١٧ من قاعـدتـه بولايـة فلوريـدا بالـولايات المتحـدة الامريكية.

قلت لطـارق عبدالغفار (١٦ سنـة وقتهـا) إنها رحلـة فـريدة بـلا شك.. وتميـز غير مسبوق..

أجاب الصـاروخ البشري.. نعم هي رحلة فـريدة، وحظ عظيـم أتيح لي عرفت خـلاله عشرات من شباب العـالم، وكونت صداقات معهـم.. شاهدت حديقـة والت ديزني وزرت معالم أكبر دولة صناعية متقدمة في العالم.. وناطحات السحاب.

طارق وراءه سر.. هو تفـوقه الدائم فهو الأول دائماً في جميع مـراحل التعليم ومنذ أن التحق بالمدرسة الابتدائية. والسبب كما قال هو الجهد المستمر، ومراجعة الدروس بشكل يومي.. وأولاً وأخيراً الأعتماد على الله.

فالفـرق بين شخص وآخر هــو كيف يستثمر كـل منا وقتـه.. إن مهنتنا هي الـدراسة ونحن طلاب علم، ولا يجب أن يشغلنا شيء عن ذلك.

أجمل ما تقرأ يا طارق: قال عبقـرية عمر، ودعاء الكروان وبعض الكتب العلمية. وقبل هذا كله كتاب الله القرآن الكريم.. مثلك الأعلى بين العلماء؟ سألت وقال طارق السير اسحق نيوتن الـذي أسس قواعد علم الريـاضيات ثم لا ننسى البرت اينشتاين صاحب النظـرية النسبية والعقلية الجبارة.

أمنية طارق منذ أكثر من ٢٠ سنـة كانت: أن أحصل على الدكتوراه.. أن أصبح دكتورا في الطب.. في العلوم.. وأنا متفائل بالمستقبل.

كـان ذلك منذ ٢٠ عـاماً.. وفي اللقـاء الثاني منـذ أيـام التقيت بالـدكتور طـارق أحمد عبدالغفار أستاذ مسـاعد بكلية الطب جامعة الخليج العربي.. تصافحنـا.. تذكرنا.. التقت أعيننا معـاً.. بعد أن تحققت الأمنيـة الغالية لطـارق... لمحت في عينيه نفس الـذكاء.. نفس الطموح وهو يرتدي معطفه الأبيض وينطلق في ردهات كلية الطب.. وهو يحاضر تلاميذه.. يشعل في كل واحد منهم الأمل والطمـوح.. بذكائه.. بسلـوكه.. بما جسده من أمـان.. وما حققه من معان..

دكتور طـارق مازل يتذكـر أيام كيب كنيدي ومازال على صلـة بأصدقاء الـرحلة من شباب العـالم.. مازال يتـذكر صـديقه العـالم المصري والطبيب الأسباني.. وعـالم الذرة البريطـاني.. فمن كيب كنيدي انطلقت صـواريخ بشرية لمعت في سماوات كثيرة من بلـدان العالم.. ومن بينها صاروخ انطلق من البحرين اسمه طـارق عبدالغفار.. أو الدكتور طارق عبدالغفار.

الحب وحده
في بتلكو

رحم الله الـراحلة أم كلثوم.. فقـد غنت للحب وحده.. وقالت بـالحب وحده أنت ضنى عنية.. ولم تكن تعـرف المرحومة ثـومة أنها كانـت بذلك تغني لشركة بتلكـو والمسئولين فيها.. وكأنها رحمها الله كـانت تشق غياهب الغيب ببصـيرتها الفنية.. فراحت تغني للحب وحده وتقول بـالحب وحده. فالمسئولون في بتلكـو عندما أصدروا قرارهم الفـريد بحظر زواج الموظفين بالموظفات في بتلكو إنما إتخذوا قرارهم هـذا بمشروعية كاملة ضد الشرعية الاجتماعية.. إنهم رفضـوا بقرارهم هذا أن تنتهي العـلاقات العاطفية وغير العـاطفية بين العاملين والعاملات في بتلكو نهاية شرعية أو مشروعـة بالزواج وارتضوها أو أرادوها أن تظل علاقات عاطفية معلقة فهـذا ـ في رأيهم ـ أفضل وأنفع للعمل ولهم.. وإن كنا لا ندري قيم النفع والفائدة في ذلك.

إن إقدام زميل على الـزواج من زميلته في العمل ـــ أي عمل ـ سيتم عبر شبكة عـلاقات سبقت ذلك الإقدام من قبله.. علاقات ملاحظة.. لا ملاحقة.. ثم رصد للسلوك.. فاعجاب.. فإشـارة انتباه و... و... ثم ينتهي كل ذلك بـأن يتقدم الفتى إلى الفتـاة بملء فيه وبكـامل عزمه وإرادته الحرة، أو تلك التي قهرها الحب، فلم تعد حـرة للزواج منها طالبا يدها مـن اهلهـا وذويهـا.. ونـصل إلى النهايـة السعيدة التـي اعتدناها في الأفلام العـربية «ودقي يا مزيكة».

ولأن بتلكـو لا تعترف بهذه الرابطـة القدسيـة.. ولا تشجع قيامهـا بين العاملين فيهـا

والعاملات من الموظفين والموظفات فإنها تفضلها علاقة معلقة لا زواج قبلها أو بعدها، وإلا تعرض من يقدم على هذه المغامرة للمساءلة الإدارية.. ولتودع الزوجة العمل.. إذا كان الزوجان يعملان معا في بتلكو.. وكأن الشركة تطبق المثل الشعري القائل فإما الزواج وإما الردي.. وكلا الأمرين مر في حلوق العاملين في بتلكو، وإن كانوا لا يستطيعون الهتاف به حتى ولو عبر هواتف بتلكو.

إن قرار الحظر على الزواج في بتلكو هو قرار لا يحتاج فقط إلى تفسير قانوني أو تشريعي أو لائحي أو إداري.. انما هو في حاجة إلى تفسير نفسي فضلا عن تحليل نفسي للذين اصدروه وتابعوه وتشددوا فيه.

وإذا كانت إدارة العمل بوزارة العمل أو المسئولون بالوزارة قد وافقوا ضمنا على هذا القرار أو باركوه شفاهة لا كتابة فإن الوزارة تكون شريكة في إستصدار هذا القرار اللامنطقي الذي يصادر أبسط الحقوق الشخصية المشروعة للإنسان.

وإذا كانت تجري الآن المشاورات والمباحثات بين بتلكو والجهات المسئولة من أجل إحتواء هذا القرار وإلغائه فإننا نأمل ألا يصدر بعد ذلك قرار معاكس يحث العاملين والعاملات على الزواج وإلا تعرضوا للعقاب.. حتى لا تواجه الشركة حمى الزواج بين الموظفين والموظفات.. ووقانا الله شرا قرارات بتلكو.. و.. و.. وفواتيرها أيضا.

حكايتنا
مع التليفزيون

لأن الصيف قد أقبل ومعــه بل وقبله الحر والقيظ وشلالات العرق التي لا تنجـو منها أبداننا ومـلابسنا ونفوسنا أيضــا، ولأن معنى إقبال الحر يعني بالمقابل مـوسم العطلات والإجـازات للتـلاميـذ والتلميذات.. الطلبـة والطـالبـات.. المدرسين والمدرسـات ومحبي الإجـازات من الموظفين والموظفات، ولأن ذلك كـذلك فإنه في هــذا الموسم بالـذات يزدهـر التليفزيون، وتنشط برامجه وقنواته، وتمتد سهراته، ويتجمل مذيعوه ومقدمات برامجه ويتسم مذيعوه بالقدر الواجب من الوسامــة.. فهذا هو قدرهم.. وتلك مواصفاتهم.. فلابد وأن يكون المذيــع ومقدم البرامج التليفــزيوني وسيما وكذلـك لابد للمذيعـة من أن تتحلى بقدر من الجمال والإناقة.. وتلك مواصفات مطلـوبة في جميع تليفزيونات العالم.. ولو لم توجـد هذه المواصفات، أو لم تطبق لصعقتنا مفــاجآت لم نحسب لها حسابـا.. ولم ندرك مضارها إذا فاجأنـا على الشاشة الصغيرة مثلا مقدم برامج أو مذيع هربت منـه الوسامة فأطل علينا وقــد إتسعت جبهته وزحفت لتلتقي «بقفــاه» واحتلت أرنبة أنفه نظـارة طبية غليظة القــوام.. زجاجها مثل «كعب كوب سميـك» وتصوروا ماذا يكون عليـه الوضـع أو حدث لكم ذلك أيها المشاهدون.

دعكم من هــذا كلــه.. ووقــاكم اللــه شره.. المهم ولأننــي مثل الجميع بل أفـوقهم حبـا للتليفزيون فإننـي أترقب برامجه بكرة وأصيلا.. وأستجمع في ذهني فيض مفاجآت وعدنا بها وزير إعلامنا السابق النشط السيد طارق عبدالرحمن المؤيد فقد أعلن ـ وإن لم يفصح ـ ان الأيام القادمة سوف تشهد مفاجآت بـرامجية تليفزيونية، بينما ألمحت الدكتورة هالة العمران إلى ذلك أيضــا وأكدت أن هــذه المفاجآت لا يـدخل ضمنها التغطيـة التليفزيـونية الإذاعية الشاملة لبرامج ومباريات كأس العالم.

ولأن التليفزيـون حبى فإنني قد تورطت في هــذا الحب من البداية.. أقصد بـداية البث التليفزيـوني في مصر مع بدايـة الستينات وكنت قــد تخرجت لتوي في حقـوق عين شمس ومعي في نفس الدفعة الصديقان المخرج اللامع يحيى العلمي والوجه التليفزيوني الراحل عبـدالرحمن علي.. وداعبتنـا أحلامنـا التليفزيـونية والنجـومية معـاً فتوجهنـا إلى مبنى ماسبيرو للتقدم إلى امتحان قبول مذيعين ومقدمي بـرامج جدد.. ذهبنا وكان الوحيد فينا الذي يتمتع بوجه تليفزيو ني مناسب هــو الراحل عبدالرحمن علي أما أنا والصديق يحيى

فلم يكن لنا حـظ في هذا الوجـه الوسيم، فكـلانا تمتد جبهتـه العريضـة لتصل إلى قفاه.. وتحتل أرنبة أنفه النظارة «إياهـا» ورغم ذلك كان يحدونا الأمل في أن نطل على ناس مصر عبر شاشة تليفزيون الستينات نحكي لهم ونروي الأخبار وما شابه ذلك.. وبالطبع دخلنا الامتحان وكأننا لم ندخل!!.. بل إننا خرجنا منـه.. خرجت أنا من باب التليفزيون لأستقر واستمر في بلاط صاحبة الجلالة.. أمـا صديقي يحيى العلمي فقد دخل إلى التليفزيون من الباب الخلفـي.. فقد كانـت له صلة قـرابة بـالكاتب الكبير محمـد حسنين هيكل.. والتحق مخرجا بـالبرامج الثقافيـة.. ومن خلال هذه البرامـج لمعت موهبته وتعـددت نشاطـاته.. وتوهجت في مسلسل رأفت الهجان وغيره من المسلسلات.

ورغم ذلك فإن الله سلم ورحم جمهور المشاهدين من طلعتنـا البهية التليفزيونية وإلا لوقع ما لا يحمد عقباه.. فالمخرج عادة ـ تليفـزيونيا كان أم حتى سينمائياً ـ لا مكان له في الصورة المشاهدة.. وكذلك الصحفي قد يكتسب نجـوميته وتُذاع شهرته من قلمه، وليس من صورتـه وشكله.. ولقـد أدركت مؤخـرا عندمـا. . .طالعت وجـوه مقدمي ومقـدمات ومذيعي ومذيعات تليفزيونات البحرين وفضائياته كم كان الله رحيما بالمشاهدين عندما قدر فلطف أن نخرج أنا ويحيى العلمي من باب التليفـزيون ولا ندخله أبداً اللهم إلا لنظهر على شاشتـه الوردية لـدقائق محدودة وفي منـاسبات لا تتكرر كثيرا مـرة كل عام.. وعلى سبيل المجاملة لنا طبعا.. وليس لجمهور المشاهدين.

سي السيد.. هل يأخذ إجازة وضع؟!!

سي السيد.. شخصية نجيب محفوظ بين القصرين ذلك الرجل الذي كان يكشر عن انيابه.. «يشخط وينطر» أصبحت في خبر كان.. ليس هذا فقط وإنما تحولت إلى شخصية رجل مذعور.. مقهور حولته الحياة الحديثة جدا إلى قزم.. يغسل الصحون ويحضر الطعام.. وربما يأخذ إجازة وضع أيضا إذا لزم الأمر.. وقد يكون ذلك لزوم ما يلزم في عصرنا هذا.

وأرجوك أيها القارئ ألا يذهب فكرك بعيدا فمقامات الرجال مازالت محفوظة كمقامات الحريري مجرد تاريخ في دواليب التاريخ الذي كان أيام زمان عندما كان منطق ونهج أسلوب «سي السيد» هو السائد في البيت الشرقي ليس ذلك فقط بل كانت هناك ملامح لهذا النهج في فترة ما في البيت الغربي أيضا - لكن على خفيف — وبشيء من مرونة التكيف مع نمو المجتمعات الغربية واتجاهها إلى عصر الصناعة.. ثم التكنولوجيا.. والذرة - آسف أقصد عصر الزوجة - ..!!

أن الذي فرض نهج «السي السيد» في حياتنا لفترة ما.. كانت أوضاع اقتصادية قد سادت مجتمعاتنا العربية والإسلامية وتداخلت معها بعض مفاهيم - خاطئة - للتراث.

فالرجل هو القيم.. الحاكم بأمره. وهو بحكم هذه القوامة يخرج للعمل.. والمرأة لا تعمل.. وهي قعيدة البيت. وإذا عملت فهي بأمر الرجل وتحت إمرته ومظلته.. وحمايته وهيمنته أيضا.

والمرأة تحت ذلك الإرهاب الاقتصادي والاجتماعي فرضت عليها الطاعة فلا مكان لها خارج البيت.. فإذا طردت منه لسبب أو لآخر طردت - ليس من رحمة الزوج فقط - بل طردت من رحمة المجتمع كله.

الآن خرجت الزوجة.. الأم.. الاخت إلى العمل وعلى نطاق واسع.. نافست الرجل في التزاحم على الوظيفة.. أصبحت مثلها مثله صاحبة دخل.. وحول وطول وعلاقات اجتماعية متفرعة... هو - الزوج — وهي الزوجة يعودان إلى البيت معا بعد إرهاق العمل.. اللقمة غير جاهزة.. الأولاد عند الجيران أو في يد مربية أمينة أو حتى غير أمينة، أما الشقة أو البيت فالحال غير مرض.. وأصبح المطلوب منهما معا أن يتقاسما تحمل الأعباء.. الزوج يدخل المطبخ ليغسل الصحون ويكفي الزوجة رعاية الأبناء.. وتنتهز المرأة الفرصة

وتزداد أعباء الـرجل بحكم ضعف المرأة الحقيقي أو المفتعل.. وكلما إزداد ضعفهابالحمل والولادة.. ورعايـة الأبناء زادت أعباء الرجل ـ المسكين ــ فهو المطالب بأن يعمل في الخاج والداخل.. أن يتحمـل كافة الأعبـاء وحده.. هـذا حدث.. وهـو حادث ليس في مجتمعـاتنا وحدها بل وفي المجتمعـات الغربية أيضـا.. بل وبصـورة اكبر.. فمازالت مجتمعاتنا تختلط فيها الصـورة.. صورة الحديث بالقديم.. فـالمرأة تعمل ـ هذا صحيح ـ لكنهـا قد تجد بين يـديها الحواشي والجدات وبعضـا من الخالات والأخوات وغيرهـن من أقربـاء الـزوج أو الـزوجة.. وهـؤلاء يتحملن بعض العبء عن الـزوج المقهـور.. المذعـور فيكون أقل ذعـرا خاصة في حالات الوضع والولادة والمرض.. إن عمل المرأة أصبـح مرضا بالنسبة للرجل ويزداد هـذا المرض في حالات الوضـع.. ويتحـول المرض هنا إلى كـارثة حتى إن كثيرا من الرجال في المجتمعات الغـربية أصبحوا يطالبون بإجازة وضع مدفـوعة الأجر وأصحاب الأعمال لا يملكوى سوى التفكير قبل التسليم بهذه المطالب.

إن أمهات اليـوم يجدن أنفسهن جزءا مـن جيل «السندويش» مـرهقات مـوزعات بين والديهن وأطفالهن.. والأتجاه الآن في العالم المعاصر يسير نحو مشاركة الرجال للنساء في تحمل مسئوليات أكثر في البيت.

كشفت دراسة في نيويورك أنه ما بين عامي ١٩٧٧ و١٩٨٩ زادت نسبة الرجال الذين أبلغوا عن حدوث تعارض بين عملهم وبين التـزامات الأسرة من ١٢ إلى ٧٢٪ وهي حالات تخلق مشاكل لأصحاب العمل خاصة ذلك التغيب المزمن للأزواج عن العمل.. لوحظ تغيب الأزواج.. وليس الزوجات!! فقـد ثبت من دراسة أجريت في كندا أنه خـلال الأشهر الستة الماضيـة تغيب حوالي نصـف الذين شملتهم الـدراسـة عن العمل يـوما واحـدا على الاقل لأسباب أسرية.

وقـد تبنت دول كثيرة مسألـة تطـويـر البيـت بحثـا عن تحقيق الانسجـام بين العمل والأسرة خلال العقد الماضي فيما يتعلق بفترة إجازة رعـاية الطفل الصغير لأي من الأبوين فور انتهاء إجازة الولادة..!!

يوضح تقرير آخـر أيضاً عددا من المسائل الجوهرية الأخـرى للأبوين العاملين كحق طلب إجازة لرعاية مريض من أحد الأسرة سواء من الأولاد أم من الأقارب.

وهكذا حولت الحياة الحديثة السي السيد إلى سيد سي.. مجرد رمز.. رمز.. مثل س، ص في لوغاريتمات وجبر الحياة.. والجبر على الله.. ولا حول ولا قـوة إلا با لله.. ووداعا يا سي السيد.

إسكندرية.. ليه!!

و.. عدت من اجازتي السنوية إلى قواعدي سالما وقد كنت أتصورها إجازة طويلة.. لكنها مرت كومضة.. مجرد ومضة.. متوهجة حينا وخابية أحيانا أخرى، كأنها لمح البصر أو أقل قليلا.. وكأن ما أعددناه بالأمس القريب لهذه الإجازة قد مضى وانقضى البارحة فقط بل وكأن الطائرة لم تكد تحط بعجلاتها على أرض مصر حتى انطلقت بنا عائدة مرة أخرى الى البحرين.

والإجازة السنوية الصيفية بالنسبة لي ترتبط دائما بالأسكندرية ذلك الثغر الجميل الرائع الذي شهد ذكريات الطفولة والشباب بل وما بعد الشباب في مرحلة لا نريد - حتى الآن - أن نسميها باسمها الصحيح خوفا وطمعا!! فما إن اضع قدمي في القاهرة كل إجازة حتى أعد العدة للطيران إلى الأسكندرية في محاولة شبه مستحيلة للإستجمام.. والراحة، واستعادة الذكريات التي مضت وانقضت.

وللاسكندرية معي - خاصة في شهر يوليو من كل عام - ذكريات لا تغيض أبدا.. تمتد من الطفولة وحتى الآن!!

ففي نهاية الأربعينيات - لا بد وأنني كنت صغيرا بالطبع - داعبت أذناي كثيرا كلمات عن الأسكندرية وشواطئها وبحرها.. وجمالها وأولاد الذوات والباشوات الذين يقصدونها شهور الصيف كاملة.. وانتقال الحكومة برمتها إلى «بولكلي».. و.. و.. أشياء كثيرة.

كنت أمني نفسي بزيارتها.. ورحت اتحين الفرصة كي أرفع أمنيتي هذه إلى والدي - رحمه الله - وأتوسل إلى ذلك بشتى الوسائل والسبل المضحكة.. من رجاءات وشفاعات ومداعبات.. ومن هذه الوسائل أنني كتبت - في هذه السن الصغيرة جدا - كلمات ساذجة حبا في الاسكندرية جاء فيها «هزني الشوق إليك يا اسكندرية، من حبي فيكي باستحمى في طشت ميه ورملك الاصفر الجميل عندي دورة الميا».

وامتدت الضحكات في فم والدى حتى ملأت شدقيه، وفجرت الدموع من عينيه.. وتقرر السفر للاصطياف في الأسكندرية رغم كل التكاليف والأعباء التي لم يكن يقدر عليها سوى ميسورى الحال.. وكان ذلك عام ١٩٥٠. وأصبحت عادة الاصطياف في الاسكندرية كل يوليو عادة تتكرر كل عام.. وكانت الاسكندرية في تلك الأيام الخوال أكثر جمالا ونظافة وإمتاعاً.

وفي يوليو عام ٥٢ داهمتنا الثورة.. وفوجئنا صباح ٢٣ يوليو بطوابير الدبابات وهي تزحف على طريق «الكورنيش» إلى قصر المنتزه.. صفقنا كما لم نصفق من قبل تهليلا وتكبيرا لهذا الحدث الجلل الذي غير وجه الحياة في مصر المحروسة.. هرعنا إلى ميدان المنشية وميدان سعد زغلول لنشاهد اللواء محمد نجيب في لباسه العسكري وهو يمتطي سيارة جيب عسكرية ملوحا بيديه السمراوين للجماهير المحتشدة.

وفي يوم ٢٦ يوليو من نفس العام شهدنا في حي رأس التين رحيل الملك السابق عن مصر على يخته المحروسة... كانت الفرحة غامرة، والناس توزع الشربات.. عرقسوق.. خروب.. عنابي.. مجانا إبتهاجا بهذه اللحظات التاريخية.

أما في ثاني أيام خروج الملك من مصر ـ يوم ٢٧ يوليو ـ فقد فتحت الثورة أبواب قصر المنتزه أمام الشعب. دخلت مع إخوتي إلى القصر غداة رحيل فاروق.. كان القصر مازال يحمل عبق الملكية.. والعز.

الحدائق باهرة نظيفة جدا تزينها الزهور المختلفة الأشكال والأجناس والألوان.. وترتع في حدائقها الفسيحة جماعات من الغزلان.. والمها في حرية تامة.

وعبر الجسور والسدود القائمة على صفحة مياه البحر المتوسط التي تتدافع أمواجها مخلفة الزبد رحنا نتأمل.. كان الجو رحبا.. والقصر فسيحا لم تشوه منظر حدائقه بعد هذه الكتل الأسمنتية التي نراها الآن عندزيارتك لقصر المنتزه.. من فنادق وكازينوهات وكبائن.. وغيرها.

أما داخل غرف القصر فقد كانت عند دخولنا إليها وقتها مازالت عبقة بأنفاس الملكية.. كل شيء كان على حالة لم يمس بعد.. الملابس.. الأدوات.. المجوهرات.. أدوات الأستعمال الخاصة!!

وفي هذا العام زرت قصر المنتزه.. ورحت استرجع ذكريات وصور ٤٢ عاما مضت.. ورغم كل المشاعر المتباينة التي تنتابني دائما عند كل زيارة، فمازلت أغبط نفسي على أن القدر أتاح لي عيش أخلد اللحظات.. لحظات تفجر ثورة ٢٣ يوليو وأحداث إخراج الملك من مصر.. هناك.. وفي الأسكندرية ما بين رأس التين والمنتزه وستظل الاسكندرية بالنسبة لي هي ذلك التاريخ البعيد.. الماضي.. والذكريات الحلوة.. وأيام الاستجمام في الحاضر عند كل إجازة.

خذ مني قلبي
خذ مني كلبي!!

زمان.. وما أقرب ذلك الزمان.. كانت تستهويني أغنية لمطربة من جيل مضى وانقضى هي فايدة كامل، الأغنية يقول مطلعها:

خد مني قلبي.. خذ مني روحي

وبس إوعد.. في يوم يا روحي

خد مني قلبي خد

وتظل المطربة تردد المقطع الأخير، وتؤكده مرارا وتكرارا.. خد مني قلبي خد.. خد مني روحي خد.. ويبدو أنها كانت صادقة إذ أتى صوتها مبحوحا مبللا بالدموع، ومع هذه الأغنية تسللت إلى مسامعي أيضا أغنية المطرب الذي ضاع من بين أيدينا بسرعة كمال حسني «لو سلمتك قلبي واديتك مفتاحه» وكنت أسمع وأتسمع هذه الأغنيات المثقلات بعواطف المحبين الأوفياء الذين بلغ بهم ثراء العواطف مبلغه حتى أنهم أبدوا استعدادهم التام لدفع عيونهم وبذل أرواحهم.. وتقديم قلوبهم وعمرهم وأكبادهم على «صواني» من ذهب وعقيق وزمرد إلى محبيهم ـ آسف أقصد أحبائهم ـ إرضاء لهم.. أو لهن.. وتلمسا لنظرة من عيون نجلاء أو حوراء أو حتى ـ يارب ـ عمشاء ـ «فالقرد في عين أمه غزال» كما يقولون.

المهم أن هذا ليس هو بيت القصيد.. إنما عندما أسمع هذه الأغنيات وأمثالها أصاب بنوبة سرحان وتوهان طويلة أمام هذا الوفاء الأصيل والحب الجميل.. ثم أتوقف عند أوصاف الجمال والجلال لأولاد الحلال من ذوات القد العال.. العال الذي استأهل من الحبيب أن يدلله كل هذا التدليل حتى إنه يضع روحه ونفسه بين يديه «أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعه» ولا يخفى أن الفداء هنا يعني الحب حتى الانتحار أو الانتحار من أجل

من تحب.

كنت أسمع ذلك كله تـائها مع النغمة والمعنى، ولم أكن أحسب أن هذه العـواطف الثقال يمكن أن توزن بالمال وتستعصى حتى على السؤال!! الا عندمـا صدمتني ملاحظة «جورج أبونـا» عالم وطبيب زراعـة الأعضاء حيث أكد لي «شـاعرا» بالإحبـاط الشديـد أن العقبة الأساسيـة أمام تطور علـوم زراعة الأعضاء وتحقيق المنشـود هو قلة الأعضـاء البشرية المتوافـرة سواء التـي يتبرع بها أصحابها من الأحيـاء أو لما بعد الموت.. وأن في هـذا العالم طـابورا طـويلا يضم آلاف المرضى الـذين ينتظـرون الفرج آملين أن يـرق عليهم البعض بعضو.. عين.. كلى.. كبد وغير ذلك من الأعضاء الغالية جدا.

عند هـذه الملاحظة انتبهت من حالة التـوهان والسرحان.. وأدركت أن مـا سمعناه من أغـان مختلفـة مختنقة بـالعبرات.. ومضمخـة بعطـور الوفـاء الخالص والتي ينشـدهـا المنشدون.. ويصوغها الشعراء في الحبيب والمحبوبة.. مـا هي إلا «شوية» عواطف فارغة.. وكلمات يضحك بها المحبـون على «ذقـون» بعضـهم البعض.. فالقـول والإنشـاد لا يكلف فلسا، و«أبـو بلاش كتر منه» ولا بأس من بعـض الدموع.. والآهات المختنقـة.. وكفى الله المحبين شر التبرع بالأعضـاء.. فالبكاء أحسن في أدويـة الخطوب.. حيث تظل حيـاة إنسان معلقـة على الحصول على كليـة أو كبد أو بنكـريـاس أو رئة وما إلى ذلك.. ثم لا يكـاد يجد الإنسان هذا متوافرا حتى لو أنفق على ذلك كنوز الدنيا.. لو كان يملك.

من هنا ـ والعهـدة على جورج أبونا ـ فكر العلماء على ما يبـدو في خلق جسور لعواطف من نوع آخر بين الإنسـان والحيوان فأجروا التجارب.. ومازالوا.. على القـردة والخنازير والكلاب لـلاستفادة من أعضـائها وزراعتهـا في الإنسان.. إن قبل.. أقصـد إن قبل جسم الإنسان.

بالتـالي فإننا نتوقع أن نسمع في المستقبل أغنيـة تقول خد مني كلبي.. خـد مني قردي

خد.

ولن نسمع أغنية تقـول بعد الآن يا بعـد كبدي.. بل ستقول المطـربة أو المطرب يـابعد كلبي.. بل إنني أتوقع عندما يصل بنا الحال إلى هذا المآل أن يظهر بيننا مطربون من القردة والخنازيـر والكلاب في محاولـة لدغـدغة عـواطفنا بما لـديهم من أعضاء غاليـة يمكن أن تسـاعدنـا على إستمرار الحيـاة.. ولا «حوجـة» لـذلك الذي يقطع نيـاط قلوبنـا ليل نهار بعواطفه الثقال وبيدي مجرد الأستعداد لأعطاء الروح.. والقلب وتسليم مفاتيحه.

لن يكون بعيدا أن نرى الكلب أو الكلبة وهي تهز ذيلهـا وتواصل نباحها وتمر من أمام بيت المحبين فتفتح لها الأبواب وتقـدم اليها أطباق اللحم والعظم والثـريد تحية لمقـدمها.. واحتفاء بها.. بل من الممكن أن يحلف صاحب البيت برأس «أبوه» وأهله ومحبيه على الكلبة أن تدخل.. و«تستريح عند بيت الحلو حبتين» لا أن «تهدي» فقط كما تقول الأغنية.

بل إنه لن يكـون غريبا على الكثيرين منا أن يـزاولوا تربية النسانيس والقـردة بدلا من الكناري والعصفـايـر والبلابل الصداحـة.. فان همهمات الشامبانـزي ونباح الكلاب ربما تطرب الأذن اكثـر وتكون أدعى للتحليق في سماوات الخيـالات المجنحة فعلاقـة العواطف بيننا وبين هذه الفصائل ربما كانت أكثر صـدقا وأقرب إلى أن يجسدها الواقع.. ولن نقف عند مجرد ترديـد الكلمات وترجيع آهات خد مني قلبي خـد.. خد مني روحي خد.. والعلم عند الله في الحال والمآل.. وصبحكم الله بالخير.

للسلام والحرية
الكل في واحد

من أجل السلام والحرية لابد وأن تأتلف الديانات وتلتقي المذاهب والعقائد والنحل، فمهما اختلفت الديانات والعقائد فانما هي تختلف في الوسائل والسبل إلى معرفة الله والايمان به، لكنها تلتقي عنده هو.. جل وعلا.. إنه القوة القاهرة الحكيمة العاقلة المسيطرة على هذا العالم ولأنه كذلك فلابد من التقرب إليه زلفى خوفا أو طمعا.

والتقرب إلى الله قد يكون مباشرا دون حاجز أو حائل أو من وراء حجاب ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾.

وقد يكون في المحاولة للوصول إلى الله من خلال وسيلة أو وسيط.. أو عبر طقوس معينة، لكن الوضع لا يختلف وحتى الذين عبدوا الأصنام في الماضي أو حتى في الحاضر هم لم يعبدوها لذاتها وإنما اتخذوها إلى الله قربى.. ووسيلة.. ومع الزمن اختلطت الوسيلة بالغاية النبيلة.. وابتعدت الخطى عن الطريق الصحيح، كما أن الذين يعبدون النار وغيرها انما هم في واقعهم يعبدون الله ويجلّونه من خلال النار كقوة تقربهم إليه وتصلهم به سبحانه وتعالى، كذلك أن من يسجد أمام هيكل أو أيقونة هو يفعل ذات الفعل ويسعى نفس المسعى ويبقى الهدف الأول والأخير.. وتبقى الغاية النبيلة هي الوصول إلى الله.

ومن غير المسلمين من يرون المسلم وهو يصلي ويسجدويركع في العراء.. أو داخل مسجدمن أربعة جدران فيحسبه يخاطب الهواء.. ولا يتصور أن أحدا يمكن أن يخاطب المطلق أو يسعى إلى الله دون وسيلة ما من الوسائل.. بينما المسلم يكون قد وصل بعبادته وبعقيدته إلى قمة التجرد.. وإلى أرقى صور التجريد.. فلا حاجز بينه وبين خالقه ولا حجاب من بشر أو صنم أو هيكل أو مذبح أو أيقونة.. وتلك قمة الرقي في العبادة تماما مثلما أن الرمز والتجريد هما قمة العمل الفني الدرامي والتشكيلي وغيرهما من صنوف العمل الفني.

ولأن هدف كل الديانات والعقائد واحد.. هو الله الواحد والوصول إليه في انعطافته على البشر وعطفه عليهم.. ولان الله هو الحق.. العدل.. الخير.. الجمال.. الكمال.. فإن السعي إليه لابد وأن يكون هو السعي نفسه نحو كل هذه القيم.

وفي إطار تأكيد معاني السلام والحرية على هذه الأرض تصدر جامعة يامبريج في المانيا قريبا كتابا ضخما بالألمانية جمعت له مؤلفين من مختلف العقائد والديانات والثقافات والحضارات.

الهدف من الكتاب التأكيد على أن هذه العقائد والثقافات والحضارات تسهم جميعها ـ بشكل أو بآخر ـ في نشر معاني السلام والحرية على هذه الأرض.

سيساهم في هذا الكتاب مؤلفون أكاديميون ومفكرون من دول وديانات وثقافات مختلفة.. من الهند وألمانيا وأفريقيا.. من البحرين، منهم المسلم والمسيحي، الهندوكي والبوذي وقد وقع اختيار الجامعة على الدكتورة ابتهاج العالي الاستاذ المساعد بكلية إدارة الأعمال بجامعة البحرين للمساهمة في الكتاب بورقة تدور حول الأحدية (التوحيد) كطريق الى الحرية والسلام، فما الذي قالته الدكتورة ابتهاج في هذه الورقة؟

تناقش الورقة الدعامة الرئيسية للممارسات في العقيدة الإسلامية، ألا وهي الأحدية (أحدية الموجد للكون)، كما توضح الورقة كيفية مساهمة هذه الدعامة في نشر مبادىء الحرية والسلام ذات الصيغة الشمولية الإنسانية.

فتتميز جميع أساسيات المبادىء والممارسات الإسلامية بصبغة أحدية، والتي تشير إلى أحدية الموجد للكون ذي العلم الكامل والحضور الدائم والتصرف المطلق.

ومن أهم المبادىء الإسلامية المبنية على هذه الدعامة الأحدية هي عقيدة التوحيد.. فالتوحيد كمبدأ وعقيدة إسلامية يعني الإيمان التام بوجود الخالق المطلق والذي يكون مصدرا لجميع الموجودات، مما يعني أن تكون جميع الموجودات انعكاسات وإشارات لوجود الموجد المطلق «الخالق».

وبناء على هذا الإيمان بوجود الموجد المطلق «الخالق» تكون جميع الموجودات قد خلقت

بطريقـة تكاملية شموليـة ولا وجود لإمكانيـة وجود الموجودات المتضادة. وعليـه تكون مصادر المعرفة التي تم التوصل إليها عبر الحضارة الإنسانية والمعلومات المتولدة من تلك المصادر والأساليب المختلفة لتوليد نفس المعرفة متكاملة وشمولية.

وبناء على مبدأ وجـود واحد للكون وعدم امكـانية التناقض فيم بين ما هـو موجود من الموجودات، يعـزز الإسلام أحد مبـادئه الرئيسية ألا وهو مبـدأ التسامح. هذا المبـدأ النافي لتواجد أو السماح بتواجد المواقف والآراء ذات الصيغـة العصبية، المؤدية إلى عدم التوافق والتناسق، ومنتهيـة إلى خلق الحروب المدمرة والـلا انسانيـة، فالأحـدية مصـدر وخالق للسلام على مستـوى عام وكذلك بقبـول الأختلافات والأسـاسيات الفكريـة للممارسات المختلفة، وعلى مستوى خاص وذلك بالوصول بالفرد إلى حالة سلمية مع ذاته.

وبالتالي يعزز مبدأ أحدية الموجد «الخالق» وما يترتب عليه من عقيدة التوحيد إلى تعميم ونشر أساسيات الحرية المتمشية مع القوانين الالهية. هذه القوانين الالهية القائمة على مبدأ المساواة النظرية والعملية فيما يختص بحقوق ومسئوليات الأفراد ومجتمعاتهم.

«لا يهاب الغد من حارب الأمس»!!

تعودت أن أقرأ من الشعر كثيره.. وأن أسمع وأستمع اليه اكثر، وكلما أعجبني بيت من الشعر ركعت أمــامه حبا وتقديــرا يكاد أن يصل إلى حد التقــديس خاصة إذا كان صــادقا فيضرب بصدقه وحلو لفظه على أوتار القلب ليعزف أجمل معزوفة في الوجود.. لأن الشعر هو غنــاء البشر.. شدوه.. إنه كشدو البــلابل.. وزقزقة العصــافير في رياض الأرض وبين الورود والأزهاير.

ومن فرط حبي للشعر. . وللشعراء.. حــرصت منذ صباي على أن أجمع مختارات مما اقرأ أو أسمع من الشعــر في قصاصات بين دفتــي ما نسميه الآن« البــوم الصور».. حتى اجتمع لي عدد كبير من تلك «الالبومــات» الزاخرة بأشعار عربيــة وأخرى أجنبية مترجمة وكلها أشعار تفيض رقة وعذوبة.. أرجع إليها بين الفينة والأخرى، في لحظات التأمل.. وفي لحظات التوتر والمعاناة أيضا.

وكثير من الأصدقــاء غنوا لنا بالشعــر معنى.. لا نظما.. غنوا حكمة وفلسفــة.. فمسوا شغاف النفس والقلب ورقم تبــاين التخصصات من محامين وأطباء.. وتجار فــانهم غنوا لنا شعرا قمة في الموهبة وقيمة في الأداء وحكمة في المعني. وصدقوا عندما قالوا في انفسهم «انتم الناس أيها الشعــراء».. ونحن أيضا نصدقهم القــول عندما نقــول ذلك، فهم الأوفر عــاطفة.. والأدق حســا.. والأغنى حبــا. ومنــذ أيام كــان وقع المفــاجاة عليّ كبيرا وعظيما ومغبطــا أيضا طفــر فيه الــدمع من عيني.. وتفجــرت شآبيبــه من نفسي سعادة وحبــورا وحفاوة بمعرفــة شاعر من البحرين.. هو لم يكتب الشعــر بالعربية بل كتبه بــالانجليزية ورغم تمكنه من عربيتــه وعروبته وإسلامه؛ فإن شعره تجاوز المحليــة فورا ولأول وهلة عندما صدر في أمريكا أول ديوان شعر له منذ أيام تحت عنوان «التشبث بوميض».

كان الديوان مفاجأة لي.. ذلك الديوان صــدر مؤخرا للدكتور رياض حمزة نائب رئيس جــامعة الخليج العــربي.. هــو لم يكن مفاجــأة في وحدي بل مفــاجأة لــلأوساط الأدبيــة والثقافية، لقد شكل صدور هذا الديــوان حدثا لم يكن في الحسبان المحلي لأنه اعتبر نقلة في تاريخ الشعــر والادب في البحرين. فقــد صدر الديــوان بالانجليزيــة في الولايــات المتحدة الأمريكية ليؤرخ صدور أول ديوان بالانجليزية لأديب بحريني.

ولكم كنت أود أن اقدم للقارىء ترجمة لقصائد هــذا الديوان أو بعض منها إلا أنني من

المؤمنين بأن الشعر لا يترجم وإنما يقرأ بلغة الأم فهو عند الترجمة يفقد كثيرا من موسيقاه وتراكيبه اللغوية وأساليبه البلاغية. ورغم ذلك دعنا نقف عند بعض القصائد تحت عنوان جديلة:

.. كبرت أيامك.. وازدادت نجوم سمائك
وضحكوا عليك يوم ابتعدت
فالمشي لا يبعد كثيرا.. قالوا لكنك ابتعدت
بعت أيام الماضي.. ومن الحاضر اشتريت
والذكرى خمر معتقة.. لكنك سكبت الخمر
ومن الماء شربت
لقد كبرت أيامك.. ولم يعد عمرك يعد بكلتا اليدين
فابعد..
لا يهاب الغد من حارب الأمس

وعلى هذا الوميض الشعري دارت قصائده رقة لفظ.. وعذوبة معنى.. الفيضان.. الغروب.. الزواج.. وهكذا.. وقد جاء في تعقيب الناشر على الديوان بأن شعر الدكتور حمزة يعطي القارىء مخيلة واسعة تعكس ديوانا يجمع العديد من القصائد الثرية بأحاسيسها ومعانيها.. فهو شعر ذكي.. أما الشاعر فهو شاعر متمرس يجيد اصطحاب القارىء معه مثيرا فيه العديد من الأحاسيس والمشاعر، وقد تعدد أسلوبه فتارة تغلب عليه النزعة الرومانسية وأخرى التأملية وثالثة مشوبة برحلات الذات، ولم يخل بعضها من السريالية، إنه جمع كل ذلك في جمال وفطنة في التناول مما سيجعلك تعود إلى قراءته مرة.. ومرات.

الجدير بالذكر أن هذا الديوان الذي صدر في كتاب مسجل بمكتبه الكونجرس الامريكي.. قد صمم غلافه الفنان الامريكي بوب باركت.

أما المؤلف ـ حياة الله ـ الصديق الدكتور رياض حمزة فهو أستاذ في الكيمياء الحيوية حصل على الدكتوراه عام ٨٤ من جامعة هيوستن ولما يتجاوز عمره ٢٥ عاما. وقد أسعدني حظي أن التقيت به فتصادقنا منذ عام ٨٠ خلال زياراته للبحرين إبان إعداده للدكتوراه وكنت أول من كتب عن رسالته.. كما كنت من القلائل الذين اقتربوا من شاعريته، ورقة نفسه، ونبل عواطفه فأدركت لفوري أنني أمام عالم يحمل روح شاعر أو شاعر حالم تحت جلد عالم.. وقلت أنتم الناس أيها الشعراء.

اليمن.. ذكرياته وعذابـــاته

كلما أهاجـت خواطـرنا الأحداث المؤلمة في اليمـن جنوبه وشمالـه كلما أهاج ذلـك فينا الذكريات بحلوها ومرهـا.. فذكريات اليمن والذكريات عن اليمن شريط متصل لا ينتهي، وبالنسبة لي شخصيا فإن الصلات موصولة بيني وبين اليمن منذ أواسط الخمسينات أو حتى ما قبلها.

فعندما كنت في بـداية المرحلة الثانويـة بمدرسة الابراهيمية ـــ وهي من أعرق مدارس مصر ـ فـوجئت ونحن منتظمون في الصف الـدراسي بمساعد المديـر يدخل علينـا وفي يده شـاب قصير القامـة.. مفتـول الشارب.. حيي النظـرات متردد الخطأ.. وعـرفنا الـزميل عبدالكريم الإرياني.

وتـوطدت الصلـة بيني وبين عبدالكريم لتتحـول إلى صـداقة عميقـة الجذور لم تكن لتسمح لأحدنا أن يفترق عن الآخر.. وقد ساهمت في توطيد هذه الصلاة عدة أسباب أولها حكايتـه مع حكم الائمة وكيـف تمكن من الهروب من اليمن متخفيا بعـد أن أطال شـاربه ولحيته سعيـا وراء طلب العلم في مصر.. فقـد كان من الطمـوح ومن الذكـاء بما لا يجعله قانعاً بالمكوث حيث هو «خاصـة وأن طلب العلم بالخارج كان يعتبر من الممنوعات في عهد الأئمة باليمن.. فالعلم في الكتاتيب فقط!!

أما ثاني الأسباب فمرجعه إلى شدة وحـدة المنافسة بيني وبينه في دروس اللغة العربية وإلقاء الشعر والخطابة.

وقد كان ذا موهبة واضحة في كل ذلك محيطا بتاريخ اليمن والتاريخ السياسي للمنطقة حتى إنـه بزنـا جميعا في كل ذلك وزاد عليـه استنـارته الـوطنية، وتـوجهاتـه القوميـة.. واستطاع عبدالكريم الإيارني خلال فترة وجيزة استيعاب الدروس والتفوق فيها رغم أن

بداياته العلمية والتحصيلية جاءت من الصفر أو ما دونه.

وتصادقنا فلم نكن لنفترق أبدا هو وأنا في بيوت الطلاب اليمنيين الموزعة بين حيّ المنيل وحيّ الدقي أو في بيتي.. ومن خلاله تعرفت على عدد من أقطاب السياسة اليمنية أمثال محسن العيمي وعمه القاضي عبدالرحمن الارياني والدكتور محمد علي الشهاري وغيرهم.

ومن خلال الرؤية العربية الواضحة للصديق عبدالكريم الارياني أمكنني أن أطل على الحركات القومية العربية التي كانت تصطرع في القاهرة وتجد لها فيها متنفّسا وحيوية على عهد الرئيس الراحل جمال عبدالناصر.

كنا نلتقي في بيت الكويت الزاخر بالفكر والثقافة؛ لنستمع إلى محاضرات «الحكم دروزه» في القومية العربية، وكلمات ساطع الحصري، ونقيم مخيمات فوق تلال المقطم لنتغنى بالقومية العربية، ونهتف للوحدة.. نذوب وجدا وحبا فيها.

كان ذلك النشاط يقلق بال حكومة الأئمة في اليمن وطالبت الحكومة بإبعاد عبدالكريم الارياني.. فتم نقله من القاهرة إلى مدرسة طنطا الثانوية.. وبعد حصولنا على الشهادة الثانوية ذهبت أنا إلى الحقوق والتحق هو بالزراعة لمدة عام واحد ابتعثته بعدها حكومة الثورة اليمنية إلى امريكا حيث أكمل دراسته وحصل على الدكتوراه في الزراعة؛ ليصبح خبيرا لمنظمة الأغذية والزراعة في صنعاء، ثم مديرا للجامعة ووزيرا للتخطيط ثم وزيرا للخارجية ورئيسا للوزراء بعد ذلك، وظل يتدرج في المناصب السياسية وانقطعت الأسباب بيني وبين الدكتور عبدالكريم الارياني خلال تلك الفترة التي امتدت اكثر من ١٥ عاما اللهم إلا من عدة رسائل وتحيات شفهية أبعثها اليه أو أتلقاها منه عبر الآخرين ممن تربطنا معهم صداقات مشتركة.. ثم قيض لنا اللقاء مرة أخرى على أرض البحرين عندما جاء على رأس وفد رسمي، وكانت مفاجأة حية عميقة الأثر تعلق بعنقي، وتعلقت بعنقه، وتجددت الصلات الحميمة العميقة مرة أخرى حتى الآن.

وإذا كانت الذكريات يقود بعضها إلى البعض فإن حركة التحرر الوطني والنضال من أجل استقلال جنوب اليمن هي الأخرى لها أيضا وقفات.. فقد تقاسمت النضال ضد الاحتلال الانجليزي لعدن جبهتان.. الجبهة القومية لتحرير اليمن بقيادة قحطان الشعبي ورفاقه، وجبهة تحرير جنوب اليمن بقيادة المناضل عبدالقوى مكاوي، ورغم ان قيادتي الجبهتين كانتا تعملان من القاهرة إلا أن الزعيم عبدالناصر كان يساند جبهة التحرير بقيادة مكاوي التي استطاعت كوادرها في المكلا وردفان وغيرهما أن تقلق بال الانجليز وتسيطر على أماكن شاسعة من اليمن الجنوبي. وعندما قررت بريطانيا الرحيل قامت بتسليم السلطة إلى كوادر الجبهة القومية وليس إلى جبهة التحرير.. وتولت الجبهة القومية الحكم في عدن حتى الآن عبر كوادرها ومن خلال عمليات تصفية جسدية والباقي معروف.. أما الذي لا يعرفه البعض فهو أن هذا الوجود القوي والقيادي للجبهتين في القاهرة أتاح لي شخصيا معرفة بعض القيادات البارزة فيهما عن قرب جدا.. قحطان الشعبي.. فيصل الشعبي رحمهما الله.. فيصل كان يدرس بكلية التجارة في جامعة عين شمس وعلى مقهى «ريش» كنا نلتقي قحطان.. فيصل وأنا أما عبدالقوي مكاوي فقد كان مهتما بإصدار صحيفته التي سجلت مجريات النضال العسكري والسياسي في الجنوب.. وكانت لنا مساهمات فيها ودارت الأيام ورحل عن حياتنا من رحل.. وتفرق الصحاب.. ورفاق النضال.. وبدأ الصراع من جديد.. إيذانا بتغير ملامح الصورة في اليمن الذى نرجو أن يظل سعيداً.

(الامتحـــان)

و.. وها نحن نقترب من أيام رمضان.. أو هي التي تقترب منا.. فالأيام هي التي تطوينا ولسنا نحن الذين نطويها.. هي تطوينا بالخير أو بالشر فتنة.. وخير الأيام هي التي تطوينا بخيرها.. وخيرها شهور العبادة، وعلى قمتها أيام رمضان.. حيث تخلص النفس للعبادة.. وترقى وتـرق بها أيضا فتجتاز نفق الترهـات والهنات.. اللمم منهـا وغير اللمم والمعاصي أيضـا.. نطوي صفحة لنفتح صفحة أخرى مـن صفحات حياتنا.. أيام وسنين تمضي.. وقد علمتنا الأيام والسنون أن الإنسان في امتحـان دائم.. مستمر.. ولأن الامتحان هو الابتلاء أو نـوع من الابتـلاء فإن الإنسـان في ابتلاء مستمـر «أيحسب الإنسـان أن يترك سـدى» (القيامة).

ولأن الامتحان دائم ومستمر فإن الابتلاء أيضا كـذلك... وهو امتحان يتضمن أسئلة مبـاشرة وأخرى غير مبـاشرة.. أو حتى خادعـة قد تعيهـا العقول أو لا تعيهـا.. إلا أنها في النهاية تخضع لها النواصي، وتخشع القلوب رغم أنه قد تحار في فهمها الألباب.. وتتوه عن حكمتها الأفهـام.. وترزح تحت وطـأتها الأيام.. بين غنى وفقـر.. سعادة وشقـاء.. صحة ومرض.. اطمئنان وقلق.. وفي كل فتنـة.. والفتنة ابتلاء بالخير أو بـالشر «ولنبلوكم بالشر والخير فتنة» (الانبياء) آية ٣٥.

فلا يجب أن نغتر بـالصحة أو بالمال.. بـالصبا والجمال أو حتى بالعيـال.. فلا نستعلي بالمنصب أو الجاه كما لا نضيق بالمرض أو الفقر أو الجوع.. لنتأمل المسيرة كاملة.. خيرها وشرهـا.. ثم نتطلع إلى المحصلة النهـائية.. لنعـرف هل نحن ضمن قوائم النـاجحين أم في سجل الراسبين الضالين وهذه لعمري قمة النجاح أو الفشل.. البقاء.. الوجود أو العدم.

ومع مرور الأيام والليالي.. بين إقبال وإدبـار لا يجب أن ننسى أننا في امتحان مستمر.. وابتلاء عظيم.. ندريه أو لا ندريه.. نغفل عنـه أو نعيه «لقد خلقنا الإنسان في كبد.. أيحسب

أن لن يقدر عليه أحد».

الامتحان قائم.. دائم عندما ننعم وعندما نعاني ويصيبنا الهم والحزن، عندما نعيش أيام الصحة.. وأيام المرض.. فلا كثرة المال وعظمة الجاه ورفعة المناصب في موازين الامتحان والابتلاء تعني السعادة والنجاح، ولا المرض والضعف والجوع والفقر يعني الرسوب في امتحان الحياة وما بعدهما هذا على صعيد الشعوب والأفراد.

«ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا اصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون» صدقه الله العظيم (البقرة).

لنتوقف تماما أمام هذه الآيات.. فالخوف هو الحرب.. ضياع الأمان.. الجوع أمره معروف سواء مس الأبدان أم الأرواح.. ونقص الأموال تدخل تحته الأزمات الأقتصادية.. ونقص الخيرات وجدب الأرض.. وكل ذلك نوع من الأبتلاء.. لذك فإن مجالدته، والصبر عليه مطلوب مفروض.. وبشر الصابرين.. والصبر على ذلك بمقاومته واقتلاع الخير من تحت رماده الأسود.. بالحكمة.. بالعمل.. بالأمل.

ولأن الأبتلاء يكون بالخير والشر أيضا بالنعمة والنقمة فانه مطلوب منا أن نتدبر معاني الحياة وعميق حكمتها فلا نأخذ مظاهرها.. ولا نطمئن إلى خيرها الدائم ولا إلى ألمها الممض.

«فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه.. فيقول «ربي أكرمن» وأما إذا ما إبتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن».

فالابتلاء بالنعمة يجب أن ندركه ونفهمه وكذلك الابتلاء بالنقمة فإذا ما أصابنا الخير والثراء.. أو الصحة والجاه فلا يجب أن نغتر.. فهذا نوع من الابتلاء.. وتطويع هذا الابتلاء وقبوله نوع من الشكر لله.. يقول ربي أكرمن.. فلينفق الأثرياء من أموالهم.. وليحقق

القادرون أنواعا من التكافل الاجتماعي.. «خذ مـن أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها» تطهرهم من.. أدران الإسراف والإتلاف وتزكي أرواحهم.. وتخفف من غلواء أحقاد الذين لا يملكون.. فيسود السلام الاجتماعي.. ويتجذر الأمن.. فيتأكد العدل.

إن من يبتلى بالنعمة فيشكر ولا يستعلي لن يكون شأنه أبدا شأن الذي دخل جنته وهو ظالم لنفسه قال لا أظن أن تبيد هذه أبدا ولن يكون شأنه شأن قارون الذي قال عن كنوزه التي تنـوء بحمل مفاتيحهـا العصبة أولـو القـوة.. إنما أوتيته على علم عنـدي.. ولم يكن شاكرا منفقا خيرا... فخسف الله به وبداره الأرض.. فهو لم يرجع ما هو فيه من فضل إلى الله إنما أرجعه إلى نفسه.. إلى مواهبه.. إلى قدراته.

إنه وأمثاله مـن الراسبين في امتحان الحياة رسوبا ولا رسـوب بعده أيضا ولا نجاح.. فلو أدركنا معنى أننـا نعيش في امتحان مستمر وابتلاء قائم دائم لوعينـا أسئلة الامتحان ومقـرراته.. ولعلمنـا أن الخير والشر فتنة.. وأن المال.. والصحـة.. والحياة.. والسطـوة.. والقوة.. والأمن والأمان كل ذلك محسوب علينا كما أنه محسوب في موازين الابتلاء الفقر والجوع والخوف والمعاناة.

فلنع أسئلـة الامتحان جيدا.. بخيرهـا وشرها في سجـل الحياة.. لأنها مزروعـة في طي حكمتها «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا».

الذي قاله
علماء المسلمين
فى الحشيشة وشرب القهوة

قلنا ان علماء المسلمين منـذ قرون بعيـدة أعملوا عقولهم فـاجتهدوا فيما فـاجأتهم به تطورات الحياة مـن تفصيلات اجتماعية ومعامـلات مالية ومقتضيات تشريعيـة خاصة عندما أعوزهم النص من الكتاب أو الحديث المتواتر فتناقشوا وتواصلوا واتصلوا في أنحاء المعمـورة ثم أجمعـوا الـرأي وأخـذوا بـه وعنـدمـا أعـوزهم الاجماع لجأوا إلى القيـاس والاستدلال والاستصحاب والمصالح المرسلة فيما يخص مجتمع المسلمين ومن يعيشون بين ظهرانيهم. ونلاحظ أنهم عندما استخدمـوا أدوات التشريع التي أشرنا إليها إنما كانوا يُعملون عقـولهم ويمعنون ببصـائرهـم في جوهـرالأشياء والأمـور ليخرجـوا الجديد من الأحكام والتشريعات وليعالجوا قضايا النـاس قدر استطاعتهم .. يخطئون أو يصيبون .. ولهم الأجر على كل حال .. وها نحن قد امتدت بنـا القرون بعدهم ولنا عقول مثل عقولهم صقلتها الحضـارة، ودربها العلم ومحضتها الثقافـة لكننا ـــ رغم ذلك ـ ما زلنـا سجناء اجتهادات الآخـرين منذ قرون لم نزد عليهـا إلا قليلا رغم أننا قطعنـا شأوا من الحضارة كبيرا ، دلائل ذلك كثيرة .. ودليل هذا ما عرضناه سريعا فى أسبوع مضى عن ـ وليس من ـ كتاب نصيحة الاخوان باجتناب الدخان للامام الشيخ ابراهيم اللقاني المتوفى فى مصر عام ١٦٣١ اى منذ نحو ما يزيد على ٣٠٠ سنة . وهو الكتاب الذى حققه الدكتور أحمد محمود إبراهيم آل محمود أستاذ مساعد اللغة العربيـة والدراسات الإسلامية بجامعة البحرين . ورغم أن كثيراً من اجتهـادات المرحوم الشيخ اللقاني قـد لا تتفق أحيانـا مع العقل والنقل حاليـا إلا أنها ـ فى وقتهـا ـ مثلت اجتهـاد علماء من المسلمين استساغهـا العقل والمنطق فى زمنهم .

إلا أنه من الأمـور المبهرة حقـا أن الكتاب تعرض إلى رأي فقهـاء المسلمين فى الحشيشة وحكم بيع المخدرات وتناول اللبن الحامض بل امتد الرأى إلى حكم شرب القهوة واختلاف الناس حـولها ومتى يحرم شرب القهوة فعلا.. وهى مسـائل تدخل فى صميم ممـارستنا اليومية والحياتية أننا بصرف النظر عن حظ الرأى الفقهى الذى دار حولها من الصواب أو الخطأ .. الغرابة أو الطرافة فاننا ـ فى هذا العصر ـ ما زلنا بحاجة إلى مزيد من اعمال العقل فى مثل هذه الأمور .

مثلا أورد الكتاب ما قاله الفقهاء فى الحشيشة .. فقد اختلف المتأخرون على قولين . هل هى من المسكرات أو المفسـدات مع اتفاقهم على المنع من أكلها ، وقد اختـار القرافي أنها من المخدرات وقال « لأني لم أرهم يميلون إلى القتـال والنصرة بل عليهم الذلة والمسكنة وربما عرض لهم البكاء» . واختـار المنوفي أنها من المسكرات قال « لأن من يتعاطاهـا يبيع أمواله لأجلها فلولا ما فيها من الطرب لما فعل ذلك ، لأننا لا نجد أحدا يبيع داره ليأكل بها سكرا » .. والكلام فى ذلك كثير قـال به الفقهـاء ما قـد نتندر به، ومـا قد نستملحـه ونستسيغه أو نقتنع بـه . مما لا مجال هنا لنشره . اللهـم إلا ما ذكره المؤلـف من أقوال نـادرة على لسان القرافي فى الحشيشة ، وهى أقوال ثلاثة ، الفرق بين أن تحمس فتكون نجسة وفيها الحد أو لا تحمس فلا حد ولا نجاسة ثم اختار القرافي أنه لا حد فيها وإنما فيها التعزير الزاجر عن الملابسة بل قال ولا تبطل الصلاة بحملها، ثـم ذكر أن الأفيون من المفسدات ومن صلى به أو بالبنج لم تفسد صلاته إجماعا وكذا غيره من سائر المفسدات .

ويصل بنا الكتـاب فى فصل خامس إلى بيان حكـم بيع المخدرات، وهل يجوز بيع شىء من الأفيـون والبنج والجوزة وسـائر المعـاجين المغيبـة للعقل ، ويقـول فى شرط بيع المخـدرات.. الحق في المسألة مـا ذكره بعض المتأخـرين من أن الظاهـر جواز بيعهـا لمن لا يستعمل منهـا القـدر المغيب للعقل ، ويؤمن منـه أن يبيعـه من لا يستعمل ذلك أخـذا من

مسألة بيع الدرهم المغشوش لمن يكسره أو يبقيه ولا يغش به.

أما فى القهوة وشربها ففيها اختلاف لا ائتلاف . فقد اختلف الناس فيها فمن غال فيه يرى أن شربها قربه ومن غال يرى انه منكر كالخمر ، والحق ـ والقول للقاني ـ أنه فى ذاته لا أسكار فيه وانما فيه تنشيط للنفس، وتحصل بالمداومة عليه ضراوة تؤثر فى البدن عند تركه، ويحصل له انشراح باستعماله غير أنه تعرض له الحرمة لأمور منها ، ويستطرد الكتاب ذاكرا أسباب تحريم شرب القهوة . من هذه الأسباب أنهم يجتمعون عليها ويديرونها كما يديرون الخمر ، ويصفقون وينشدون أشعارا من كلام القوم فيها الغزل وذكر المحبة وذكر الخمر وشربها ونحو ذلك فيسري إلى النفس التشبه بأصحاب الخمر خصوصا من كان يتعاطى مثل ذلك فيحرم حينئذ شربها ، ومنها أن بعض من يبيعها يخلطهابشيء من المفسدات كالحشيشة ونحوها على ما قيل فيحرم شربها لذلك أيضا .

وهكذا نرجع إلى أفكار الأولين واجتهاداتهم وأحكامهم فيوافقنا بعضها ونرفض الآخر منها ونحن فى هذا وذاك مطالبون على ضوء العصر أن نجتهد مستخدمين أدوات العقل والنقل لنفتح للقادمين من الأبناء والحفدة أبوابا جديدة للاجتهاد .

حكاية هذا الرجل

استمتعت مثلما استمتع غيري بمحاضرة الشيخ صالح عبدالله كامل رئيس مجموعة شركات وبنوك دله والبركة العالمية التي ألقاها مؤخرا في بيت القرآن عن الزكاة، وبصرف النظر عما أثاره الشيخ صالح من حديث جديد ومتجدد عن حصص الزكاة، وتنوع مصادرها ومصارفها الدقيقة التي تفي بحاجات واحتياجات المسلمين حتى لا تدع منهم ذا حاجة أو من يستحق زكاة.

وبصرف النظر عن دقة الشارع وحكمته في فرض الزكاة على المسلمين للفقراء والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفي الرقاب وأبناء السبيل.. وهي مصارف ثمانية عددها الشارع الحكيم بما يقطع دابر الحاجة، ويوفر أقصى طاقة للإنتاجية ويربي الصدقات.. يثري السياحة (ابن السبيل) و.. وبصرف النظر عن هذا كله.. وكله صحيح مما أدهش الشرق والغرب معاً حتى أن مستوى البنك المركزي السوفيتي السالف الذكر طلب من الشيخ صالح دراسة حول الاقتصاد الإسلامي.. وعماده الزكاة.. وألح في طلب هذه الدراسة فأجيب إلى طلبه.

أقول بعد هذا الاستطراد.. انه بصرف النظر عما جادت به قريحة الشيخ صالح وتجربته العملية فإنني توقفت أمام حكاية هذا الرجل.. وهي حكاية نجاح فريدة يمكن أن نضعها نموذجا أمامنا..

إن هذا الرجل الاقتصادي المحنك طلق وظيفته الحكومية بوزارة المالية السعودية لينطلق عبر رحلة الألف ميل بادئا بأول خطوة.. والخطوة الأولى بدأت بما يقارب ١٠٠ ألف دينار.. وكما ترى المبلغ ليس كبيرا.. لكن الإرادة والتصميم كانتا أكبر.. انطلق الرجل مستجمعا إرادته بوحي من أحكام الاقتصاد الإسلامي الذي يرفض الربا.. وقطع رحلته خلال أقل من عشرين سنة ليصبح الآن مالكا ومتحكما في عشرات الشركات المنتشرة في انحاء العالم ويمسك بين أصابعه خيوط عمل عدة بنوك إسلامية تقبع على رأسها مؤسسة البركة، ويعمل تحت يديه آلاف الموظفين والعاملين ثم هو الآن يدير مالية ضخمة عملاقة.. قفزت من ١٠٠ ألف دينار حتى تجاوزت أكثر من ثمانية بلايين دولار.

إنها قصة نجاح فذة رواها في سطور الشيخ محمد عبده يماني وزير الإعلام الأسبق في المملكة العربية السعودية في تقديمه للمحاضر.

إنها قصة رددها أمامنا الشيخ يماني بعد أن حكاها الزمان عبر السنين قليلة مسجلة

كفاح رجل وحكمة عصامي عرف طريقه جيدا وحدد هدفه وحاول ـ جهده ـ كما ذكر أن يطبق أحكام الشارع فيما يتعلق بتنمية المال الإسلامي عبر مفاهيم اقتصادية إسلامية غير شائعة في هذا العصر، ثم جاء ليعرض تجربته ـ بمنتهى التواضع ـ مستلهما إياها من ممارسته لأفكار وأحكام الزكاة في الإسلام مستهديا بمنطق القرآن.. «يمحق الله الربا ويربي الصدقات» مؤكدا أن الزكاة مجرد سهم بسيط من أسهم الاقتصاد الإسلامي الذي مازال بكرا في نهجه ودقته. ولكم تمنينا على الشيخ صالح كامل أن يتطرق إلى موضوع الربا والفوائد بمنطقه المستنير الذي يستثير تفكيرنا ويداعب أحلامنا المتواضعة في الأخذ بمنهجية اقتصادية وسطية ترفض الاستغلال وتمنع التضخم المالي والإداري وتوسع على المقتر والمعسر، وتوفر سبل الرعاية للسائحين (أبناء السبيل) إذا واجهتهم وهم بعيدون عن أوطانهم ساعة ضيق أو كدر. فهي تضمن لهم العودة إلى أوطانهم في رعاية ذلك المجتمع الذي يعطي كل ذي حق حقه من صناديق الزكاة الإسلامية.

والأغرب من ذلك إن هذا النهج يقدر أيضا حاجة المؤسسات الإسلامية وطاقتها من العمالة الإدارية فلا يتضخم الجهاز الإداري إلا في حدود محددة بما لا يصيبه بالتخمة «والعاملين عليها».

لقد تابعت محاضرة الاقتصادي الشيخ صالح عبدالله كامل بشغف إلا أنني تابعت رحلته في عالم الاقتصاد والمال بشغف اكبر ناقلا إياها إلى القراء.. وإلى الشباب منهم بصفة خاصة آملا أن يجدوا فيها وعندها ما يفيدهم في رحلة الحياة، وليشحذوا إراداتهم.. وليحددوا هدفهم وطريقهم لينطلقوا بعد ذلك عبر شعاب الحياة ودروبها مسلحين بايمانهم بالله وبأنفسهم وإذا كنت أعرض هنا هذه الحكاية ودلالاتها فليس مطمحي بالطبع أن يصبح كل شبابنا أو نصبح نحن والذين نحب مليارديرات.. فقط أدعو الجميع أن يختطوا نهجا قويما واضحا بدأب وإصرار.. والنتيجة هي النجاح بكل تأكيد.

رمضان وبيت القرآن

جلست جلسة رمضانية روحية وفكرية في بيت القرآن.. وهي جلسات تعودناها من بيت القرآن، وتعودناها في بيت القرآن كل رمضان.. كان فارس الجلسة عالم التاريخ الاستاذ الدكتور أحمد شلبي الذي أمتعنا بحديث متصل غني بالمعاني والإيحاءات والدلالات عن الحضارة الإسلامية وتأثيراتها في الحضارة الغربية، حضارة أصيلة وأخرى تجريبية.. ولأن الحديث فيه تكرار من القول معاد فإنني رحت أتلمس الجديد من إيماءات فكرية، وإيحاءات تاريخية، ووقفات متأملة قادنا إليها ذلك العالم الجليل الذي أشبع هذا الموضوع بحثا وتأليفا في عشرة مجلدات زاخرة عامرة بالمعاني التي تؤكد أن شمس العرب والإسلام قد أشرقت على الغرب فأضاءت ما حوله وحولته إلى حضارة غالبة تطل على حضارتنا الغاربة.

جلست أتأمل المحاضرة والمحاضر. وأرقب الحضور وعلى رأسهم وزير العدل والشئون الإسلامية ولفيف من المدعوين، وأمامي قطعة غالية من كسوة الكعبة المشرفة معلقة أمامنا ومنشورة داخل قلوبنا في نفس الوقت..

وبين المحاضر والمحاضرة.. وأستار من الكعبة.. والحضور.. رحت أرقب الداعي الكريم الذي وقف وراء هذا الصرح الشامخ. بيت القرآن.. أتأمل الدكتور عبداللطيف كانو الذي حلم طويلا.. واجتهد أكثر.. وبادر بشجاعة العمل وحماس المؤمنين حتى أقام هذا الصرح الثقافي الإنساني الإسلامي الغالي على أرض البحرين.

وأدعي أنني عشت مع الصديق الدكتور عبداللطيف كانو بداية الفكرة.. فكرة بيت القرآن، فعندما حضرت إلى البحرين قبل نيف وعشرين عاما كانت يد الدكتور عبداللطيف كانو من أولى الأيادي التي صافحتها يدي.. ومع المصافحة والسلام.. كانت الصداقة الفريدة.. ودعاني الدكتور إلى زيارته في منزله العامر.. وهناك رأيت عجبا.. أطلعني – حياه الله – على مكتبة قرآنية منتقاة.. نسخ قرآنية نادرة، وتراث إسلامي فريد، ولوحات ومخطوطات اختارتها عين فنان واقتنتها يد إنسان حريص على التراث الإسلامي الغالي.

كانت تلح على الرجل فكرة الاستفادة بهذه المكتبة، وقرر ودبر.. وألهمه الله سبحانه وتعالى إنشاء هذا الصرح الإسلامي الثقافي العظيم.. ولتكن نواته هذه المكتبة القرآنية الغالية التي ضم إليها مخطوطات ونوادر جمعها من كل أنحاء العالم.. من مصر ومن تركيا واسبانيا.. من الشرق والغرب..

وتابعته وهو يعيش حلمه بدأب وإصرار المؤمنين ويجمع حوله آخرين آزروه وعضدوه بإخلاص الأصدقاء.. ووفاء المخلصين.

كانت المبادرة منه فيها شجاعة وإخلاص.. ودأب وحرص وإصرار لا يلين أبدا، كنت اعجب منه وله وهو يسعى إلى جمع التبرعات من كل شخص يعرفه أو لا يعرفه ويسعد بما يجمع من تبرعات مهما قلت قيمتها أو زادت بل - فيما أعلم - فإنه كان يسعد بعدة فلوس قليلة يجود بها أطفال صغار.. وتلاميذ بالمدارس أكثر من سعادته بالألوف والملايين.

كان - حفظه الله - هو الداعي لهذا المشروع، وهو رجل الإعلام الذي يدعو إليه الصحف والمحافل والمحاضرات والندوات.. كان إلحاحه عجيبا في الدعوة إلى تجسيد هذا الحلم.. لا يكل ولا يمل.. يضاعف جهده ليل نهار.. يقوم بالأسفار داعيا ومبشرا ببيت القرآن.. يجمع نوادره، ونسخه.. ومخطوطاته.. وكل ما كتب عنه في القديم والحديث.

ورحت أحاول أن أجد تفسيرا لهذا الإصرار العجيب والجهد الذي لا يقدر عليه سوى أولي العزم والحسم.. كان بادي الإرهاق من فرط طموحه الذي تجسد في إخراج هذا المشروع النبيل إلى حيز الوجود.. وعندما إلتقيته بعد افتتاح هذا الصرح وبعد أن تحول الحلم إلى حقيقة.. قلت له.. لقد اختارك الله وسخر إمكانياتك.. وإخلاصك.. ودأبك العجيب من أجل إقامة هذا الصرح الإسلامي الثقافي الشامخ الذي أصبح مزارا لكل من يزور البحرين، ومنارة للعلم والثقافة.. فهنيئاً لك باختيار الله لك وتسخيره إياك كي تتم على يديك إقامة هذا المعْلَم الذي أصبح يميز البحرين بين دول المنطقة والعالم.

والله أعلم حيث يضع ثقته فيمن يشاء ويمنح حبه لمن يريد من عباده كي يؤدوا رسالته.. ويرفعوا رايته بصورة أو بأخرى.. وتلك مشيئة الله.. وما شاء فعل.. وما فعله كان خيرا للناس جميعا.. فتحية للدكتور كانو.

في نظرية الآجال
للزميل مصطفى كمال

وضعنا الـزميل مصطفى كمال أمام معادلـة زمنية دقيقة صعبـة حيث جعل للزمن في حياتنا أبعـادا ثلاثة طولا وعرضا وسمكـا. فبدلا من أن نقول إننا نعيش حياتنـا بالطول والعرض أي بكل مـا لها وما عليها ومـا فيها.. نسعى إليهـا سعيا.. نعبّ منها عبـأ، إذ بنا نقولـ وفقـا للنظريـة الثلاثية الـزمانيـة لزميلنا مصطفـى ـ إننا نعيش حيـاتنا بـالطول والعرض والسَّمْك ـــ بالسبب المشددة والميم السـاكنة ـ حتى لا يتصور أحـد أن المقصود بذلك مـا هو منسوب إلى الأحياء المائيـة من أسماك وغيرها نأكلها لحما طريـا، فالسُمك في عرف هذه النظرية بعد قياسي آخر مع الطول والعرض.

المهم إننا اكتشفنـا لأول مرة على يـد زميلنا الفاضـل نظرية الأبعـاد الثلاثيـة للزمن.. فدخلنا بذلك إلى عالم آخر يزيد عمرنـا عمرا جديدا هو ما بين الطول والعرض.. عمر يقاس بالسَّمْـك.. وأحسب أن زميلنا يقصـد فالسَّمْك في الـوقت والزمـان، العمق.. ويدعـونا إلى العيش بعمق.. وإلى إعادة حساباتنا الزمنية.. فنحسب أعمارنا بهذا المقياس الجديد الفريد المثلث الأبعـاد مخترقين بذلك أبعـاد الزمـن المعتاد، متـوافقين مع رؤية البرت اينشتـاين النسبية.. مولعين بها، مفسرين إياها على ضوء زمني باهر متعدد المقاييس والمفاهيم.

وأعتقد أن زميلنا الفاضل قد وضع أسسـاً لنظريـة جديدة للزمان وبقي عليه أن يجتهد ونجتهد معه لوضع نظرية أخرى للمكان.. نظرية تخترقه إلى ما وراءه حيث ندري كنهه أو لا ندري.

فكلما إبتعدنا عن المكان تغير مفهوم الزمـان.. وتغيرت المسافات والمساحات.. وهذا ما أكدتـه لنا رحـلات الفضاء عنـد خروجهـا من إطار جـاذبية الأرض إلى عـالم لا متناه في الفضاء.

واعترف أن نظرية ثلاثيـة أبعاد الزمان قد هزت خـاطري، ورجرجت ذهني ثم داعبت فكري، فإذا به يشتط بعيدا في محاولة جادة للإمســاك بالنظرية النسبية في الزمان والمكان معا أو نظرية نسبية الزمان والمكان.

فنحن إذا ما قسنـا أعمارنا طولا ثم قارنـاها بأعمار الأجداد وأجداد الأجـداد القدامى لكان القياس في غير صالحنا.. كانوا هـم المعمرين .. أو كانت أعمارهم أطول تتجاوز ما بعد

المائة عـام في المتـوسط، في حين أن متـوسط الأعمار في أفضل البلـدان الآن نمـوا وتـرفـا لاتتجاوز ٦٠ عاما.

أما إذا مـا قسنا أعمارنا عرضـا وسُمكا وفقا للنظريـة« المصطفوية الكمالية» الثـلاثية الأبعاد الـزمانيـة، فإن المقارنـة ستكون حتما لصالحنـا إذا ما اعتمـدنا مقيـاس العرض والسّمك وأدركنا ان معنى ذلك أن نعيش أيامنا أيضا بعمق.. برحابة، بقدرة عالية وسريعة على الانجاز.. بل إننـا حتى إذا ما قسنا عمرنـا بما نحققه من إنجازات عاديـة ـ الآن ـ على الصعيد الفـردي وإنجازات جماعية على الصعيـد العام.. نقـول إن هذه المقاييس الثـلاثية والثنائية ستكون لصالحنا.. وستؤكد لنا أننا نعيش أعمارا أطول.

خذ مثلا على ذلك.. عندمـا أبحر كريستوفر كولمبس إلى شواطىء اكتشافـاته في أمريكا الشمالية أمضى في رحلتـه هذه شهورا بل تعـدت الرحلة السنين، ونحن الآن إذا مـا أردنا التوجـه إلى أمريكـا من أول الدنيـا ـ إذا كـانت أمريكـا هـي آخرهـا ـ فلن يستغـرق الأمر بالطائرة سوى أقل من عشرين ساعة وبالباخرة أياما معدودات.

وبالقياس النسبي الزمني تكون الشـهور الطوال تعادل بمنطق الزمان أقل من يوم من أيامنا هذه.

كذلك فإن من كان يريد الحج إلى بيت اللـه الحرام قادما من الشرق العربي أو الافريقي فإنه كان يمضي فوق راحلته شهورا ليصل إلى مبتغـاه وهو الآن يقطع الرحلة بالطائرة في ساعتين وبـالسيارة في يـومين وبالباخـرة في ثلاثة.. وبـالمقياس النسبي تكـون الشـهور الطويلـة معادلة في زمـانها ووقتها السـاعتين، والآن.. على إمتداد عمرك ــ طال أم قصر ـ يمكنك زيارة أمريكا، وأقـاصي الشرق وربوع الغرب في رحلة شاملة كـاملة قد لا تستغرق سوى أسبوع واحد أو أكثر قليلا.. وهـي نفس الـرحلة التي كنت تنفق فيها عمرك كله قبل أن تقضيها في سالف الزمان.

وبمنطق القيـاس الزمني النسبي فإن من يعش اليـوم ٦٠ عـاما فإنـه ينجز فيهـا من الأعمال اليوميـة والرحلات ما يفـوق خيال من كان يعيش في الماضي أكثر من مـائة عام أو مائتي عـام.. وهكذا ندرك جوهـر نظرية الأبعاد الثـلاثية للزمان التي اتحفنـا بها الزميل الصديق مصطفى كمال، فنـدرك أن للزمن طولا وعرضـا وسمكا.. ونحن بمنطق السمك والعمق والعـرض نعيش عمرا أطـول.. ولعل زميلنـا وصديقنـا حيـاه الله وبيـاه أصبح بإمكانه الآن أن يدرك عمره الحقيقي وعمرنا الذي لم نعترف به حتى الآن.

إنه عصر الإنسان الآلي

يبدو أن إنسان العصر – وهو يخطو إلى عصر قادم وقرن آت أوشك أن يدق بابه ويسبر أغواره سوف يتحول أتوماتيكيا الى مجرد انسان آلي.. أنه ـ بالطبع لن يصبح إنسانا كالروبوت من حديد وصفيح إنما سيظل إنسانا من شحم ولحم وعظام ودماء لكنه رغم ذلك سيتحول إلى آلة أو يكون رهين الآلة تفعل فيه فعلها.. وتلون حياته وسلوكياته.. معيشته وحتى عواطفه هي الأخرى ستدخل تلك الآلة الرهيبة المسماة بالكمبيوتر، وما يتفرع عنها أو ما يتولد منها من آليات وآلات ممغنطة أو غير ممغنطة.. مبرمجة تنظم حياته ومعيشته مما قد يقلب حياته جحيما مقيما، ويجعله يتحسر على ماضي زمانه وسالف أوانه.

وبوادر نشوء وتطور ذلك الإنسان الآلي بدأت فعلا وإذا كان داروين في نظرية النشوء والأرتقاء قد أفادنا ـ أفاده الله ـ إن الإنسان أصله قرد فإن داروين آخر عصريا سيقول لنا ان الإنسان الآلي أصله كان في يوم من أيام نهايات القرن العشرين من لحم ودم وشحم.

الإنسان الآن بدأت حياته تسير بالبطاقات الممغنطة والمبرمجة في كل شيء.. بدأ يستغني عن النقود والشيكات، والمعدنيات والأوراق وإتجه سريعا إلى عصر البطاقات.. كل شيء اصبح يتم إنجازه بالبطاقة..

البطاقة تدخل الآلة فتقبض بها معاشك.. وبها تشتري أغراضك، وبالبطاقة تشتري إجازتك وراحتك وسفراتك وبها أيضا تحصل على رخصة قيادة السيارة، وتذكرة الطائرة.. والحافلة بل إن الخدمات الصحية تمتد إليك عبر البطاقة أيضا.

إذ يكفي وجود رقمك الشخصي على هذه البطاقة حتى تقضي حاجاتك، وتلبي رغباتك.. ببساطة فقد تحولت أنت الإنسان إلى رقم في بطاقة.

وقد طلعت علينا شئون الكهرباء والماء أخيرا بأفكار جريئة تقوم على محاسبة

المستهلكين للمياه والكهرباء قبل أن يستهلكوا.. فهي تحاسبهم عن إستهلاك لم يتم.. لكنه سيتم مستقبلا.. تبيع لهم المياه والكهرباء وتأخذ الثمن بالبطاقة.

وتقوم هذه الأفكار على نفس فكرة المكالمات الدولية الهاتفية بواسطة البطاقات الممغنطة أو الاليكترونية، إلا أن هذه البطاقات بدلا من أن تعطي اذنك الصوت القادم من أنحاء الدنيا سوف تمنحك الضوء وتمدك بالمياه.. ببساطة إنها سوف تمنحك النور والمياه حتى آخر فلس معك.

إنك سوف تدفع مقدما لحساب الكهرباء والماء إستهلاكك لمدة أيام أو أسابيع أو شهور.. وبعدها وقبلها لن تستغني عن هذه البطاقة السحرية بل يمكنك إستخدامها مثل الفيزا والأمريكان اكسبريس في شراء حاجياتك ودفع مستحقاتك، وفواتير حساباتك، بل وحلاقة ذقنك وشعرك وكيّ ملابسك أيضا.

أما إذا أردت السفر فبإمكانك سحب البطاقة من العداد والسفر على الحساب أيضا.. أما عند السفر فلن تجد إدارة شئون المستهلكين مشكلة في قطع التيار الكهربائي ووقف ينابيع المياه عنك.. فالمسألة ستتم تدريجيا.

ودعك من البطاقات والحسابات.. ومن المستفيد.. المستهلك أم الحكومة..؟ فكل هذه امور سيثبتها الواقع العملي التطبيقي إذا أراد الله لهذا المشروع أن يرى النور.. المهم في كل هذا وذاك أن الإنسان بدأ يتحول إلى مجرد حسابات وأرقام.. هو شخصيا سوف يتحول إن عاجلا أو آجلا إلى رقم في بطاقة لا يستطيع أن يتحرك بدونها.. وقد إحتار الفلاسفة المعاصرون أمام هذا التطور المادي الساحق.. حتى إنهم باتوا ينظرون بعين الريبة إلى حال العالم سنة ٢٠٠٠ وما بعدها.. عندما يتحول كل شيء.. كل شخص إلى رقم في بطاقة.. بل ربما سيتم إختيار الزوج أو الزوجة بالبطاقة.. سوف يتدخل الكمبيوتر في حياتنا الشخصية.. فما عليك إلا إن تضبط رقمك على نظام المعلومات ثم تدخل نفسك ـــ آسف

أقصد بطاقتك ــ إلى الكمبيوتر فإذا كنت تطلب بنت الحلال فسوف تظهر لك مواصفاتها على الشاشة، والعكس صحيح مع إبن الحلال.. إن العروس سوف تختاره هي أيضا كمبيوتريا.

وبالطبع فإن كلا من العروسين لن يختار في الآخر العواطف والأخلاق والمودة والحسب والنسب والعائلة والأصل.. إنما سيختار الطول والعرض والشعر الأسود أو الأصفر والعينين الحضراوين أو الزرقاوين أو حتى الحمراوين ستتدخل النسب المادية البحتة في الأختيار.. فالعروس التي تكسب والعريس الذي يكسب هو الذي يمتلك الأرصدة في البنوك ـ آسف أقصد من يمتلك أكبر عدد من البطاقات الاليكترونية.. ببساطة ستحسب الأمور بمعايير الربح والخسارة.. المادية فقط.. لا بحساب الاخلاق والمودة.. والعشرة الدائمة.. إذن سيتحول الإنسان إلى مجرد إنسان آلي.. هو آلة.. لكن من لحم ودم وشحم وعظام. يتحرك كالربوت.. بلا عواطف بلا مشاعر.. بلا مواقف.. سيختفي ذلك الإنسان الذي ترضيه الكلمة الحلوة. وتشده الابتسامة الساحرة.. وتغنيه العاطفة الجياشة.. فكل هذه المعاني لا مكان لها في البطاقة المغنطة.. إنه عصر الإنسان الآلي.

ولعل هذا ما يقلق بال فلاسفة القرن العشرين بل والحادي والعشرين.. إنهم إزاء ذلك التطور المادي الجارف الذي لا يتواكب معه بنفس القدر تطور روحي.. وهم يتوقعون في النهاية.. النهاية.. عندما يدمر الإنسان نفسه ويحرق بطاقاته.

ديموس .. كم من الخطايا ترتكب باسمك

ديموس .. ايها المسكين .. دومـا أنت مغلوب على أمرك .. مشكوك في قـدرك وقدرتك .. بإسمك ترتكب كل الخطايا والآثـام .. وأنت لا حول لك ولا قوة .. اللعبة كبيرة.. وأصولها غير ثابتـة .. أنت محـــورها وليس هـدفها .. فالهدف ليس أنت .. ولست بـه المقصود .. لا ناقة لك ولا جمـــل فيه .. بل أنت الجمل الذي يمتطيه الجميع .. الدجالـون .. والمهرجون ، والمدعون ..

بـاسمك يتشدق المتشـدقـون .. ويـداجي المداجون ويتملق المتملقـون .. بل ويتـوسل المتوسلـون وباسمك أيضا تذرف الـدموع بحارا وأنهارا، وتمتهن الكرامـات .. وتتهاوى الرقاب .. رقاب العباد..

وديمـوس هذا الـذي تعرفـونه أو لا تعـرفـونه هـو مناط اللعبـة كلها .. لعبـة تسمى الديمقراطيـة .. ورأي الأغلبية سواء مورست هـذه اللعبة في الشرق أم في الغرب.. تبقى من البداية وفي النهاية لعبة.

هي لعبة أجيـدت صناعتها في الغـرب .. ومازالت على بداوتها في الشرق . لكن الـوسيلة واحدة .. والهدف واحد .. والنتيجة لا قيمة لها دائما .. وهي في النهاية ضحك أو ضحكات على «ذقن» وديمـوس الـذي بلغ من العمـر أرذلـه .. ومن الصبر أعظمـه .. ومن الحكمـة منتهاها .. ومن العجز غايته..

في القديم على أيـام اليونان الاغريق أسموا الـديمقراطية ديموس كـراتس .. وهي لفظة يونانية قديمة معناها حكم الشعب .. فالشعب هو ديموس .. والحكم يعني كراتس.

ويموس كـراتس لا تعنى هنا كما حـاول أن يصور جهل البعض بأنها كـراس تحويرا لكلمة كـراتس.. فهي بهذا الفهم والتصور قد تـوحي بأنها لعبة الكـراسي دخولا إلى منطق الـلامعقول عنـد فنان العبث المسرحي والـلامعقـول يوجين أونسكـو في مسرحيته لعبـة الكراسي.

وديموس كـراتس عند اليونان كـان معناها إذن حكم الشعب لكن ديموس الـذي عنوه وقتها تمثل طبقة السادة وليس العبيد أي أن حكـم الشعب هو حكم السادة، وتطور الأمر إلى منطق آخـر في عهـود أخرى، ففـي العصور الإقطـاعيـة كـان ديموس يمثلـه السـادة

الإقطاعيـون، وفي العصور الوسطى تقمص ديمـوس رجال الدين أو تقمص رجـال الدين ديموس، أما على عهد الثورة الصناعية فإنقلبت الآية وكان ديموس يمثله أصحاب المصانع والمصالح، وعنـدما تقدمت القـوى الرأسماليـة .. كان ديموس هـو الرأسمالي .. أراد ذلك ديموس أم لم يرد تصور ذلك او لم يتصور.

فديموس تختفي وراءه دائما قوى معينة حتى في أعتى الديمقـراطيات عراقة وتقدما .. فإن رأس المال والإحتكارات وراء لعبـة الديمقراطيـة دائما .. والإنتخابات على كل طـريقة وبكل وسيلة وواجهة تتقدم ديموس ولا تقدمه .. بل ولا تمثله.

ورغم أن ديمـوس يتـوهم ذلك .. تبقى الحقيقـة واضحة .. بل وواحـدة.. إن ديمـوس كراتس سقطت منذ البـداية .. وسقطت في النهاية في الدول الـرأسمالية والاشتراكية والتي تحاول أن تكون بين بين.

إن لعبة الأمم مازالت ماثلة .. وهـي فعلا لعبة تحدد مصائر الشعوب إلا من رحم ربي منها .. ووضعهـا على طريق التراحم ومنطق الأسرة الواحدة .. وليس على طـريق التزاحم على المنصب والجاه .. ان ديموس وقتهـا يبقى هو الأسرة .. الراعي والرعيـة .. هو الهدف والغاية والوسيلة .. وأحسبني بالشاعر يقول:

إن ملكت النفـــوس فـــابغ رضـــاهـــا ففيهـــا عـــزمـــة وفيهـــا مضـــاء
يحسب الظـــالمون أن سيســـودون وأن لـن يـــؤيـــد الضعفـــاء
والليـــالي جـــوائر مثلما جـــاروا وللـــدهـــر مثلهـم أهـــواء

شاي وقهوة
على حساب المرشح

مازالت ذكريات التاريخ الذى أهمله التاريخ تترى واحدة تلو الأخرى، والذاكرة تنتعش بأفكار تروح هنا وهناك مع بدايات وعــي لم يفقد، وأمل لم يؤد خاصة مع قيام ثورة ٥٢ في مصر.

كانت الأحــلام وردية في تعـديل مسار الديمقـراطية على يد الطبقـة الثوريـة الجديدة الفتية.. وكـان الاستعمار مازال جاثما، ٨٠ ألف جنـدي بريطـاني يمرحون في مـدن قناة السويس الثلاث، وكان لابد من تنظيم الشعب.. الشعب كله في هيئـة للتحرير «يا عم ياالله نسير في موكب التحـرير»، وتكونت هذه الهيئـة التي اعتلاها ضباط شبـان من الصفوف الثـانية لثـوار يوليـوالصاغ (الـرائد) أحمد عبدالـلـه طعيمة، والصــاغ (وحيد رمضــان) وغيرهما.. وفجأة أصبحنا كلنا أعضاء في هيئة التحـرير.. وعاء استوعب كل شعب مصر.. لكن دون انضباط حزبي حقيقي.. جميعنا يحمل بطاقة عضــوية في هيئة التحرير، ويردد شعاراتها عفويا أو تقليديا..

والمضحك في الأمر أن هذه الهيئة ضمت في أعطافهـا فلول الإخوان المسلمين والوفديين والذيـن لا انتماء لهم سوى تحقيق مصــالح خاصــة.. امتيازات وقتية.. وانكشفـت هيئة التحريـر عند أول بوادر للصراع على السلطة.. وعنـد أول اختلاف في الرأي حول اتفـاقية الجلاء مع الانجليز.. ثم ولت غير مأسوف عليها. بعدها كان لابد من هيكل آخر من هياكل التنظيم السيـاسي، يجمع في بـوتقتـه الجميع في اتحاد قـومي.. وتأسس الاتحاد القـومي كتنظيم واحد شامل تتسع قـاعدته للشعب كله من أجل الإصــلاح السياسي والاقتصادي والزراعي أيضـا.. وأجريت أول انتخابات للاتحاد القومي على مستوى القطر كله.. قسمت البلاد إلى دوائر، الدائرة الواحـدة تضم ملايين مثل دائرة السيدة زينب التي تضم الدرب الاحمر والقلعة والحلمية، ودائرة شبرا والساحل.

وتصارع المرشحون على عضويـة اللجان القومية الرئيسية لـلاتحاد القومي، وكانت نظـرتنا نحن الشبـاب الى هذا التنظيم الـذي فقـد أول مقومـات التنظيم وهو الانضبـاط الحزبي وفتح أبوابه أمام الجميع هكذا.

كانت نظرتنا أن هناك قوى تقليدية سوف تثب بخبرتها الانتخابية وبصلاتها إلى مواقع قيادة هذا الاتحاد الوليد، واتفقنا أن نتقدم نحن لترشيح أنفسنا حتى نعدل المسار من الداخل ونحول الاتحاد القومي إلى حقيقة مشرقة تقود تحالف الشعب كله نحو التغيير المطلوب اجتماعيا وسياسيا تمهيدا لإرساء أسس ديمقراطية أكثر تقدما بعد اجتياز مرحلة البناء الثوري.. هكذا فهمنا أو أفهمونا.. وهكذا صورت لنا أحلامنا الشابة. وتوزعنا نحن شباب الجامعات على عدة دوائر كان نصيبي منها دائرة السيدة زينب.. وكنت لم أزل طالبا فى كلية الحقوق، وأعمل صحفيا متدربا هاويا.. وأعترف أن هذه التجربة كانت من أخصب تجارب حياتي وأكثرها عمقا، فعلى سني الصغيرة، وخبرتي المتواضعة خضت الغمار مع «عتاولة» السياسيين القدامى والمحدثين وبعض العسكريين من رجال الثورة صف ثان وثالث ورابع.

كان معنا حسن عباس زكي الاقتصادي المخضرم، ونوال عامر التي ظلت عضوا بمجلس الشعب حتى توفيت أخيرا.. وغيرهما.

رميت بكتبي جانبا.. وودعت كليتي ودراستي.. وأفرغت نفسي للانتخابات، كنت أدخر من مصروفي ومكافآتي من العمل الصحفي في أخبار اليوم، وهي مكافأة ضئيلة كي أطبع المنشورات وأصرف على جولاتي الانتخابية التي خسرتني «الجلد والسقط» كما يقول المثل المصري الدارج.

فمن مضحكات الأمور أن المرشح إذا تجول في دائرته الانتخابية كان عليه أن يخالط الناس في المقاهي والأندية والناس تحتسي القهوة والشاي والمرطبات من جيب المرشح.. ولا بأس أيضا من توزيع علب سجائر أو «فرط السجائر» على حسب المستوى. فإذا عرفنا أن عدد المرشحين لدائرة السيدة زينب وحدها تجاوز ٤٠٠ مرشح ومرشحة لأدركنا ثقل التبعة.. وعظم المسئولية.. خاصة وأن من بين هؤلاء الأثرياء والقادرين الذين يصرفون ببذخ، ويقيمون السرادقات.. منهم من كان صاحب محل فراشة «سيد نصار» ومنهم صاحب مصانع الموبيليات، ومنهم الاقتصادي المخضرم مثل حسن عباس زكي، ومنهم الصاغ (الرائد) يحيى داود، ومنهم الصحفي الغلبان.. مثلي ومثل الاستاذ لطفي واكد.

واختلطت عليّ أمور الانتخابات فأكلتْ وقتي وجهدي وقليل مالي ما بين السيدة وسنقر والحنفي وقلعة الكبش، وقبل الانتخابات بيوم.. أي ليلة الانتخابات دفعت الحكومة بقائمة مرشحيها نجح كل من فيها.. وكان نصيبنا الفشل رغم كل ما رفعناه من شعارات ثورية

وشبابية وصحفية، ورغم كل ما نادينا به من رغبة في التغيير، بل ورغم أننا ليلة الانتخابات تصدينا لقائمة الحكومة، وكان معي الاستاذ لطفي واكد الصحفي.. وأشبعنا هذه القائمة نعوتا تدور ما بين العمالة وإلغاء إرادة الشعب. وأذكر أنني وسط هذا الخضم.. فزت بحوالي ١٢ ألف صوت.. وهو رقم لا يساوي شيئا في دائرة كبيرة مثل دائرة السيدة زينب.. وكانت تجربة في حياتي.. بل تجربة حياتي التي لم أكررها ولن أكررها.. رغم كل ما أبانته لي من خفايا لعبة السياسة والديمقراطية والانتخابات.. وهي لعبة تمارس كثيرا وعلى كل المستويات.

نحن ممثلون.. للصحافة!!

الصحفي يمثل صحيفته.. وهو بذلك يعتبر ممثلا للصحافة.. لكن هل الصحافة في حاجة إلى ممثل بكل المعايير والمفاهيم.. بمعنى أننا نمثل الصحافة ونمثل لها أيضا.. فالمسألة لا تخلو من تمثيل على أية حال.

فالصحفي في أحيان كثيرة قد يلجأ إلى التمثيل لاقتناص الخبر.. ليس ذلك فقط بل إنه أحيانا يمثل ليصنع الخبر.. وصناعة الخبر فكرة.. والصحافة أساسها الفكرة.

ليس في الخبر وحده.. إنما في التحقيق والاستطلاع وغير ذلك من فنون العمل الصحفي.

فإذا وجد الصحفي الخبر سعَى إلى اقتناصه وإذا لم يجده صنعه.. إبتكره.. يطرح الفكرة على الناس أو على المسئول فيحول التعليق الذي يدور حولها إلى خبر.. والخبر إلى تحقيق.

وبقدر ما تلمع الأفكار في ذهن الصحفي بقدر ما يكون موهوبا. أعرف صحفيين يعتبرون ملوكا للأخبار وآخرين ملوكا للتحقيق الصحفي.. كان يسميهم الصحفي الرائد الكبير الأستاذ مصطفى أمين أولئك الذين يصنعون من «الفسيخ شربات».

أذكر أن الأستاذ مصطفى أمين فكر في تعلق الناس ببعض الأضرحة الصغيرة المنتشرة في قرى مصر، ويطلقون عليها الأسماء، ويلبسونها الكرامات، ويجمعون لها النذور دون أن يكون لهذا الضريح أو ذاك أي أثر واقعي أو تاريخي.. وفكر الرجل وابتعث بعض المحررين إلى منطقة خالية في القرى القريبة من منطقة الأهرامات بمصر.. وعكف هؤلاء المحررون على بناء ضريح صغير.. أطلقوا حوله البخور وبعد إطلاق البخور أطلقوا اشاعات في القرية عن كرامات صاحب الضريح.

وبسرعة انتشر الخبر.. وتحول الضريح إلى مزار للدعوات واكتساب البركات وكانت المفاجأة الصحفية المنشورة في «آخر ساعة».

مفاجأة أخرى شاركت فيها شخصيا.. حين كنت أرافق المرحوم الأديب يوسف السباعي أيام أن كان وزيرا للثقافة في مصر في زيارة أحد معارض الفن التجريدي.. ووقف رحمه الله أمام إحدى اللوحات.. متسائلا عن معنى اللوحة.. وكيف يراها.. هل مقلوبة أم هكذا قصد صاحبها بهذه الخطوط التي لا تعني شيئا.

أوحت إليّ هذه الزيارة بإعداد تحقيق مثير.. وعرضت الفكرة على أستاذنا مصطفى

أمين فطورها لي، وشجعني على تنفيذها.. واختار صورة من مجلة «لايف» الأمريكية تمثل رسوما «مجرد شخطبة» قام بها قردان أخذنا الصورة وأعددناها ولصقنا عليها صورة بيكاسو رائد الفن التجريدي وكتبنا عليها بالانجليزي ان بيكاسو يعود إلى الفن التجريدي، أعدت الصورة وكأنها قادمة ضمن الخدمات الصحفية عن طريق إحدى وكالات الأنباء.

أخذت الصورة ووضعتها بشكل مهمل في ثنايا جريدة.. وانطلقت مع مصور «آخر ساعة» أدور وألف على رواد الفن التجريدي من عمالقة الفنانين المصريين.. أذكر منهم الفنان رمسيس يونان، صلاح طاهر.. وأسماء أخرى كثيرة، تعمدت أن أدير نقاشا مع كل منهم عن الفن التجريدي وأصوله.. ثم أتعرف على لوحاته.. وعند مغادرتي الفنان بعد اللقاء أعرض عليه بشكل غير متعمد الصورة التي معي.. قائلا إن بيكاسو بعد أن كان قد اتخذ موقفا من الفن التجريدي قرر العودة إليه.. وأطلع الفنان على اللوحة «القردية» التي أحملها في ثنايا الجريدة.. وأستمع إلى تعليقه.. وانطلت الحيلة على أكثرهم عدا الفنان صلاح طاهر.. بينما راح الآخرون يشيدون باللوحة.. بعضهم قال إنها تمثل المرحلة الرابعة من مراحل الفن التجريدي، وأشار آخر إلى روعة روائع بيكاسو، بينما وقف أحدهم وكان أستاذا بكلية الفنون الجميلة يشرح لطلبته آخر إنتاج بيكاسو في مرحلته البرتقالية، والتقطنا الصور تلو الصور.. ثم كتبنا تحقيقا تحت عنوان.. لماذا لا تتعامل الدولة مع القرود مباشرة.. وكشفنا الحقيقية التي صدمت الجميع.. حتى أن الدولة قررت منع بعض كبار هؤلاء الفنانين من تمثيل مصر في معرض دولي كان سيقام في ألمانيا.

بالطبع تلقينا التهديدات.. ومع التهديدات نشرت مقالات غاضبة في صحف أخرى بأقلام الفنانين المخدوعين.. صبوا جام غضبهم على مصطفى أمين أولا.. بينما نظم التليفزيون عدة حلقات ونقاشات حول فن القرود.. لكنني في النهاية قبضت المكافأة.. وكانت أعظم مكافأة ذلك النجاح الكبير الذي حققه هذا الموضوع.. ألم أقل لكم إن في الصحافة جزءا من التمثيل ونحن نمثل الصحافة.. ونمثل لها كذلك!!

(بكره النكد بكره)

يحكى أن رجلا.. ولابـد وأن يكون زوجا.. قـد عودته زوجته على الشجـار و«النقار» حتى أحالت حيـاته جحيما.. نكد في نكـد. فلما عدم الحيلـة والوسيلة في عـلاجها، ووقف شجـارهـا.. وقطع دابـر نكـدهـا عقـد معهـا اتفـاق جنتلمان.. وجنتل ومين أي امـرأة بالانجليـزية(Woman) على أن يسير نكدهـا أو نكدهما على سطـر ويترك سطرا أى أن تنكد عليه يومـا ثم تتركه لوجه الله يوما آخـر.. وسرى الاتفاق بينهما على أحسن ما يكون النكـد.. يوم جـد وضحك ولعب.. ويوم نكـد. والتـزمت الزوجـة بهذه الوتيرة الجديـدة أسبوعا.. ولكنها لم تصمد..

وفي اليوم السابق على يوم النكد أسرع الزو ج فـرحا إلى بيت الزوجية منتعشا آملا في ساعـات راحة بال بعيـدا عن النكد العضال، وكثرة الـزعل فوجد زوجتـه على غير العادة ضاحكة السن.. بـاسمة الثغر. بلإنها استكمالا للمفـاجأة راحت تغني وتنشد في انتظاره بصبر فارغ، وصوت صارخ أقرب الى الوجد منه إلى الغناء.. كانت تغني وكأنها في انتظار الغـد الساحـر الآسر وهي تقول.. بكـره النكـد بكره.. بكـره.. بكره النكـد.. راحت تنظم الكلمات على نفس نمط أغنية أم كلثوم.. بكره السفر بكره.

واسقط في يد الـزوج إذ وجد أنه لا مفـر من النكد.. فلم يجد حلا سـوى أن يسخر من مأزقه، ويلوذ بوحدته.. ويفلسف واقعه. وهكـذا كان ومازال شأننا وشأن شعوبنا التي تعيش حياتها نكدا في نكد في الداخل والخارج على الصعيد العام والشخصي.. بين وجد عام ووجد شخصي تفلسف الواقع المر، وتسخر منه.. فإذا هو من حيث لا تدرى نكد تعايشـه.. ولابد أن تتقبله وكلما جمعتني ليلة السهرة مع صديق العمل سيد زهرة رحت أفرغ أمامه معاناتي في سخرية لاذعة تأخذ شكل الفكرة والطرفة والفكاهة، بل والقفشة أحيانا.

أفلسف الواقع الخاص وأطرق من خلاله الواقع العام بدءا من فلسفة الوجود والعدم.. ومأزق الحياة ومأزق العمل وصولا إلى الهزل والضحك وحتى كرة القدم.. وينساق معي زهرة الشباب فيما أنا منساق إليه مرغم أخاك لا بطل.. فكلانا بطل السهرة حتى الفجر لا ثالث لنا سوى الزميل رجب عبدالعزيز المنكب على تأملاته وترجماته وتليفزيونه الصغير الأسير.

حتى إن صديقنا سيـد زهر ة عادة ما يقـول لي مازحا.. الليلة ليلـة النكد.. فما الرأي؟ يسـألني.. وأوافقه الرأي وكأنني مثل الزوجة النكـدية أترقب ليلة الخميس من كل اسبوع

لأردد واقع حالي ومعاناتي في أغنية بكره النكد بكره.

فواقع الأمة العربية وأحوالها عجب في عجب ونكد في نكد. نكد بالأمس ونكد اليوم ونكد غدا فقد طال عذابها وذبحت كرامتها من العراق إلى الصومال متوقفة برهة أمام صدمة إسلامية في البوسنة والهرسك.. متعثرة حينا في السودان، متشحة بسواد الأرهاب في مصر والجزائر.. ملتصقة بواقع المعاناة الأقتصادية والنكدية، مترديـة في وهاد من التخلف.. فالنكد أصبح سمة من سماتها تماما مثلها مثل الزوجة النكدية التي دأبت على النكد وتآلفت معه، وغنت له كل ليلة طالنا فيها الفرح.. قليل من الفرح أو ترقبنا مزيدا من النكد.

ملاحظة أخيرة.. لعل هذه الخاطرة تليق بهوامش الصخب والغضب والأنفعال المغلف بسخرية الكتاب والكاتبات!!

الرحلة !!

طويلة هي الرحلة.. لكن ما أقصرها.. عذبة هي لكن ما أكثر معاناتها.. هي رحلة الحياة بالمعنى العام، والمعنى الشخصي والخاص.. رحلة يكتنفها الغموض، ويحوطها ضباب الألغاز التي لا تنهيها الأسئلة، ولا تحددها الأجوبة.

ولأنها كذلك فقد شغلت بال الفلاسفة والأدباء والروائيين تماما مثلما شغلت رجال الاجتماع والسياسة.. وعلى كل صعيد تناولها المتناولون، وتوقف أمامها بالحيرة الحائرون من المتأملين.. من المتفلسفين.. من بسطاء الناس.. ومن حكمائهم.. أكثرهم علما.. وأقلهم جهلا.

فالرحلة بكل المقاييس بائسة.. وهي أيضا يائسة والمتاهة محيرة.. نرنو إلى الهدف البعيد، وما نكاد نبلغه حتى ندرك أنه سراب أو قبض الريح.. ما كان منه، وما هو كائن، وما سيكون!!!

ولقد عالج الفلاسفة والرائيون هذه الرحلة في كتاباتهم.. سجلوا تصوراتهم وتأملاتهم أكثر مما سجلوا معتقداتهم.. بل ربما كانت تصوراتهم هي حقيقة معتقداتهم! لا ندري.. الله أعلم.

ولقد إحتار وحيرنا معه نجيب محفوظ في روايته أولاد حارتنا.. تناول الرحلة على صعيد فلسفي روائي.. أعطاها أكثر من بعد منذ الجبلاوي إلى عرفة مرورا برفاعة.. و.. وغيرهم من أولاد حياتنا.. وليس أولاد حارتنا.

وعبر نجيب محفوظ عن قلقه الذي لم يفصح عنه.. وكما قال لي الدكتور مصطفى محمود.. لقد عجبت لأديبنا ومن أديبنا نجيب محفوظ فهو رجل ملتزم جدا.. بل صارم الإلتزام بصلواته وتدينه وحياته، ومع ذلك جاءت روايته في بنيتها الفنية ومعالجاتها.. وموضوعها وشخوصها تتناقض تماما مع ذلك الإلتزام!! ربما كان ذلك قلقه الخفي!!

وإنني أعتقد مع مصطفى محمود أن نجيب محفوظ عبر في هذه الرواية من خلال إطارها الفلسفي عن قلقه الخاص والعام.. بل وقلقنا جميعا في بعض الأحيان وإن لم نفصح عنه.. حتى أن من يقرأ هذه الرواية متأملا متعمقا لابد وأن يفهم مراد نجيب محفوظ ورؤيته للحياة في مسارها ومعتقداتها حيث يقطع الصلة تماما بين الأنبياء وبين السماء. يصوغها صياغة فنية في ذكاء نادر.. وعبر صور وشخوص حية من لحم ودم يقف على قمتها عرفة في آخر الزمان.

أما على الصعيد الاجتماعي والسياسي فإننا نجد توفيق الحكيم وهو يصور الرحلة.. رحلة الحياة.. تصويرا واقعيا يميل فيه إلى الرمز. ويضفي عليه من فنه وسخريته الكثير.. وهذا ما نقرؤه في قصته التي نشرتها له جريدة الأهرام القاهرية منتصف الستينات.. القصة كانت بعنوان رحلة قطار.. وأعترف أن هذه القصة استوقفتني كثيرا جدا بكل ايحاءاتها وشخوصها ودلالاتها.

فالقطار منطلق إلى غايته يقوده السائق الضخم العريض المنكبين وإلى جانبه الوقاد الذي يمون القطار بالوقود، أما القطار فهو من ثلاث درجات.. درجة أولى وثانية وثالثة.

وعندما يختلف السائق مع الوقاد حول لون إشارة السيمافور.. السائق يقول إنها خضراء ولابد أن يستمر القطار في الانطلاق أما الوقاد فيحذره من الاستمرار لأن الإشارة كما يراها حمراء ولابد من التوقف والرمز واضح.. فالسائق هو القائد يريد الانطلاق أما الوقاد فهو المفكر الذي يريد التروي بما يُشعر الآخرين أنه معوق لانطلاقة القطار، أما القطار فهو المجتمع.. هو البلد بأسرها.

وعندما يحتدم النقاش يحتكم السائق والوقاد إلى ركاب القطار.. فما الذي حدث؟

ركاب الدرجة الأولى كل مشغول بنفسه ولا يهمه إذا ما انطلق القطار أو توقف، تحطم أو سلم.. وبين الدرجة الأولى والثانية توجد غانية جل همها اصطياد رجل أعمال يركب القطار.. أما رجل الأعمال فهمه الوحيد هو كيف يستولي على هذا القطار عندما يتحول بالاصطدام إلى خردة حديد.. كيف يستفيد منه، يبيعه ليثرى من ورائه.. أما مصير القطار فلا يهمه أبدا.

وتتوالى المفارقات في الدرجة الثالثة بين صخب وضجيج الركاب.. هذا يناقش كيفية اقناع الوقاد والسائق بوقف عجلات القطار والسير على الأقدام إلى السيمافور لتبين حقيقة إشارته، والبعض لا يلوي على شيء سوى قليل من الدروشة.. محاولا إقناع الجميع بأنه بالامكان اصطياد تذاكر من الهواء..ويجري التجربة.. يخرج ذراعه من الشباك مظهرا عشرات التذاكر أمام الناس.. الركاب الذين تلهيهم المشاهدة عن مصير القطار.. والقطار في خطر.. فإذا توقف وكان السيمافور أخضر فانه يكون معرضا لأن يصطدم به قطار آخر والعكس صحيح.. وأخيرا يتوقف القطار.. وينزل السائق والوقاد مهرولين إلى مكان السيمافور كي يتبينا لون الإشارة.. وفي الهناية لا يجدان السيمافور.. فقد كان وهما.. وتنتهي الرحلة.

تاريخ
أهمله التاريخ

ما لم يهمله التاريخ لابد وأن نحتفظ به! ليس في ذاكرتنا فقط، وإنما في ذاكرة الأوطان، فالتاريخ حسيب رقيب.. يرصد ويسجل ولا تتوه منه حتى التفاصيل الصغيرة.. ولقد مر عليّ زمان كنت أتابع فيه لحقب طويلة.. زاوية في مجلة «المصور» القاهرية يكتبها اسبوعيا الكاتب حبيب جاماتي تحت عنوان تاريخ «ما أهمله التاريخ»..

كانت زاوية فريدة ودسمة تسلط الأضواء على أحداث التاريخ القديم والحديث..

ورغم ذلك فإن هناك أحداثا يهملها التاريخ فعلا.. وقد تكون هذه الأحداث في حياة الأمم والشعوب، أو مجرد تفاصيل في حياة الأفراد.. إلا أن تسليط الضوء عليها تحت مجهر الذكريات كفيل أن يبين منها ما غمض، ويسبر غور ما إكتنفها من دلالات قد تسجل مرحلة في حياة أمة أو شعب.. وهذه التفاصيل رغم بساطتها وخصوصيتها في أكثر الأحيان تسجل حلقة من حلقات مسيرة التاريخ في حقبة من الحقب.

وأحسبني هنا أستعير المجهر، وأملك الذكريات ذات التفاصيل الصغيرة جدا والشخصية تماما.

كانت الأحزاب ـ يتصدرها حزب «الوفد» وأقطابه مصطفى النحاس، مكرم عبيد وعبدالسلام فهمي جمعة ـ وكانت الانتخابات وسقوط الوزارات.. وتدخل السراي والاحتلال.. وسماع خطبة العرش.. وطوابير الخيالة «السواري» تأخذ طريقها يوم افتتاح البرلمان إلى المبنى القابع حتى الآن في شارع سمي الآن بشارع مجلس الأمة.

جميع هذه الرؤى مازالت مرسومة ومحفورة في الذاكرة.. والذاكرة لم تخب بعد رغم

مـرور الأعوام والسنين.. كـانت مرحلـة الانتخابـات بالـذات يختلط فيها الجد بـالهزل وبالعبث.. وكنت أدرك ـ كما قالوا ـ أن مرشحي حـزب «الوفد» لابد أن ينجحوا.. وقالوا أيضا: لـو أن حزب «الـوفد» رشح حمارا فسـوف ينجح حتى لو كـان أمامـه في الدائرة نفسها جهابذة الفكر والعلم.

وقالـوا أيضا ـ وسمعت ذلك منهـم ـ إن القـــوى الرأسماليـــة كـانت تحرك مسار الانتخابات.. وأن بعض كبـار المرشحين كانوا يمنحون من يعطيهم صـوته ١٠ جنيهات مصرية ـ وهـذا مبلغ ضخم في تلك الحقبة ـ إلا أنهم يعطـون النـاخب نصف الورقة ذات العشرة جنيهات فإذا تأكد لهم أنه منحهم صوته أعطوه النصف الآخر .

وكانت الانتخابات تحكمها التحزبات والتعصبات العرقية وغير العرقية بل والطائفية.. هذا مرشح الصعايدة، وهذا مرشح فئة الجزارين.. أو السماكين.. وهكذا.

أذكر مـن بين طرائف الحوادث والـوقائع ومفارقـات ذلك العصر أن مـرشحا لحزب الـوفد في أحـد أحياء القـاهرة كـان اسمـه «حافظ شيحـا المحامي» فعمـد خصومـه في الانتخابات إلى التعـريض به.. وأطلقوا أنصـارهـم بالهتـاف: «تنتخبوا مين.. ياحمار ين».. ويجاوبهم صـوت الآخرين: شي.. حـا.. شي.. حا».. وهـذا نداء بلغـة «الحمارين» عندمـا يستحثـون الحمير على جر عـربـاتهم الخشبية ذات العجـلات التي كـانت تنطلق في ذلك الوقت.

أيضـا من النوادر أن مـرشحـا من حـزب يدعى «الحزب السعـدي» منـاهض لحزب «الوفد» كان اسمه «الـدكتور أبوالعزايم» وناهضه الوفديـون فأطلقوا أنصـارهـم ضده.. يهتفون: «تنتخبوا مين يـا بهائم (يا بهايم بالعامية المصريـة).. ويأتي صوتهم. ويهتفون جميعا: «أبو العزايم» وهكذا «تنتخبوا مين يا سماكين» فيقولون: «شبكة» تأييدا للمرشح

الوفدي أحمد شبكة المحامي..

أما معارك الانتخابات بين الصعايدة والجزارين فلا تحدث عنها، فقد كان يتزعم دائرة انتخابية في مصر مرشحان أحدهما صعيدي وهو تاجر أسماك ثري جداً ويدعى محمد بك عبدالرحمن محمد، والثاني معلم الجزارين ويدعى «الرواس» في منطقة «المدبح» بالقاهرة.. ودارت المعارك بالعصي في أيدي الصعايدة والسكاكين في أيدي الجزارين بين أنصار محمد بك عبدالرحمن وبين الرواس حبيب الناس.. ولقد شهدت بعيني دماء سالت.. ورؤوسا شجت «بالنبابيت» وهي تقول: «محمد بك.. الردل (أي الرجل) الدد (أي الجد) ابن الجد»، كما أثخنت هذه المعارك جراحا ينادي أصحابها «الرواس حبيب الناس».

و... وفي النهاية يدخل الجميع البرلمان بنصف العشرة جنيهات أو بالنبوت والسكين.

أما الوطنيون من المثقفين والصفوة فما كان لهم أن يخوضوا في هذا الخوض، ولم يكن أحد ليعرفهم، بل ولم يكن بإمكانهم أن يصلحوا لانتخابات العشرة جنيهات والعصي والسكين.. ولقد داوى جراحنا وجراح هؤلاء وجود مجلس سمي بمجلس الشيوخ.. ضم أفرادا من هذه الصفوة أفادت البلاد كثيرا.

وعندما كبر الوعي، واستقام العود مع قيام ثورة ١٩٥٢ بدأت مرحلة أخرى من الممارسة الديمقراطية مختلفة تماما عما سبق، وإن تشابهت معها على نحو آخر من سيطرة قوى أخرى ونفوذ أقوى.. وملامح تشي بأن الكل في واحد.. والواحد هو الحزب الواحد.. وتلك حكاية أخرى لي معها تجربة شخصية منذ هيئة التحرير، والاتحاد القومي، ثم الاتحاد الاشتراكي..

وللحديث صلة..

عصر الديناصورات

في الآفاق العلمية ومتابعتها الشائقة للزميل رجب عبدالعزيز قرأنا أن علماء الهندسية الجينية يمكنهم من خلال الخيال العلمي والواقع العملي أن يصلوا إلى درجة من التقدم تجعلهم يبعثون المخلوقات البائدة من الموت، بل إن العلماء أدركوا أنه من الممكن الحصول على مخلوق كامل إذا توافرت خلية واحدة تحتوي على صفاته الوراثية، وقد بذلت محاولات مؤخرا لإحياء بعض الحيوانات التي انقرضت من زمن قريب بل وربما بعيد مثل الديناصور بفرض وجود خلية كاملة متبقية من إحدى الديناصورات ظلت محفوظة هذه الحقبة الطويلة من الزمن.

وهكذا يتبدى لنا من واقع الخيال العلمي، أو من خلال الخيال الواقعي، أو حتى واقع الخيال. أن علماء الجينات قد استعدوا لفتح جديد، هو أنهم سيعيدون إلى دنيانا الديناصورات المنقرضة.

وإذا كنا قد طربنا بما توصل إليه علم علماء الجينات، وما جادت به قرائح خيالاتهم، فإن هدفنا لابد وأن يختلف عن هدفهم ورؤيتنا أيضا تختلف عن رؤيتهم، فليس أقصى ما نحلم به هو استعادة جنس الديناصورات إلى الحياة ، فهى لا نفع منها ولا مبرر لوجودها وإلا لأبقت عليها الطبيعة، وما لفظتها فلم تصمد للبقاء، ولم تتكيف مع الوجود فانقرضت اللهم إلا خلية أو ذرة منها بقيت رميما فى أعماق طبقات الأرض أو مختلطة بمسامها .. مما شجع علماء الجينات من خلال تجاربهم وخيالهم على التفكير في إعادة تخليقها .. ولعلنا نعجب من ذلك الاتجاه الذى إتجه إليه العلماء .. وكأننا ــ حسب رؤيتهم ـ بتنا فى حاجة إلى مزيد من الديناصورات .. أو كأن الديناصورات معنى ومفهوما وسلوكا وممارسة غير موجودة بيننا ، أو ليست تحت ثيابنا ترتع وتلعب .. تبتلع الثروات وتملأ كروشها بالمال الحرام .. وتجور على أقوات العباد بالنهب والسرقة .. بالعمولات .. بالرشاوى .. بتحليل الحرام .. وأكل السحت .

ولو علم هؤلاء العلماء أن الديناصورات موجودة بيننا فى كل مجتمعاتنا العربية .. تجوس خلال الديار .. تستحل حقوق الغير .. لو أدركوا ذلك لما فكروا فيما اتجهوا إليه .. ولعدلوا مسار تفكيرهم العلمى وخيالهم السقيم ولأدركوا اننا ،، وأنهم بحاجة إلى أن يبذلوا الجهد والعرق فى المعامل والمختبرات من أجل تطوير علم الهندسة الجينية (الوراثية) كى يخرجوا علينا بالانسان بالسوبرمان ليس من حيث الشكل ـ وقد نجحوا فى ذلك فعلا ـ

بل من حيث الصفات الوراثية النبيلة التى تنطوي على الشجـاعة والرأفة والرحمة والذكاء الخير ، والأمانـة ، وحب الناس ، هذا ما نـريده منه، وقـد قطعوا أشواطا على هـذا الطريق فتدخلوا للتحكم فى بعض الصفات الوراثية .. من حيث نوع المولود ولون شعره وعينيه .

ما نريده منهم أن يساعدونا على تطوير الصفات الانسانية فى عصر صدقت عليه مقولة أديوجين الكلبى عندما رآه الناس يسير فى وضح النهار وهو ممسك بمصباح مضيء يبحث ويفتش ـ فلما سألوه عمن يبحث .. قال أبحث عن انسان .

بقيت كلمة واحـدة أكدتها التجارب العلميـة والعملية فى علم الجينات (الـوراثية) وهـي كلمة تنطوى على حقيقة تصفع الملحدين على وجوهم .. وتردهم إلى صائب عقولهم .

الحقيقة أو الكلمة تقـول : إن أي مخلوق مات يمكن إعادتـه إذا بقيت منه خلية .. أو ذرة ولو على مدى آلاف بل ملايين السنين .

فإذا كان العلماء قادرين على ذلك .. فما بالكم بقدرة الله .. وقدرة الله فوق الشك والتهم .. وهو يبدىء الخلق ثم يعيده ..

« قال من يحى العظـام وهى رميم .. قل يحييها الـذى أنشأها أول مـرة وهو بكل خلق عليم » .

(لست ملاكا!!)

في الأربعينيات كان هذا اسم فيلم عربي قام ببطولته الراحل والموسيقار محمد عبدالوهاب.. أمتعنا فيه بروائع ألحانه وأغنياته وموسيقاه، إلا أن مضمون هذا الفيلم شدني إليه أكثر مما شدتني موسيقاه، ورغم أن الفيلم عالج الموضوع.. وهو موضوع هام بسطحية فلمية مضادة.. لكنه على أية حال جسد لمن أراد أن يفهم بديهية هي لبساطتها.. بل لبداهيتها غائبة عنا.. بعيدة عن فهمنا للأمور والحياة، وعلاقتنا بعضنا البعض.

البديهية تقول إن الإنسان يحمل في داخله نوازع الخير والشر معا.. وكما قال تعالى: «وهديناه النجدين» فهو قادر على ارتكاب الشر، يقع في الخطأ والخطيئة مثلما هو قادر على فعل الخيرات والحسنات ومد اليد البيضاء حاملة الأمل والعمل إلى كل من يطلبها ويرتجيها.. والإنسان في رحلته هذه يجاهد الشر ليقهره.. ومع ذلك.. وعلى الرغم منه يرتكب الخطأ.. ويقع في الخطيئة، ثم يجاهد أيضا ليتوب وينيب..ويعود إلى الخطأ من جديد.. مرة.. بعد مرة.. كل بني آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون.. فما لم يكن الخطأ لا تكون التوبة.. وما لم يكن الخطأ .. ما كان الإنسان إنسانا بل كان ملاكا.

إن فضيلة الإنسان التي يرتقي بها إلى ذرا بعيدة.. بعيدة جعلت المولى عز وجل يكرمه على العالمين تكمن في أمر واحد.. هو أنه يخطىء ويصيب.. يجاهد الشر سعيا إلى الخير.. إلى الحق.. والعدل والجمال أما الملاك فلا يسعه إلا أن يكون خيرًا.. هو لا يستطيع غير ذلك فلا فضل له في أنه خير دائماً.. إنه لا يقع في إطار النقطة الحرجة.. إنه لا يجاهد في نفسه نوازع الشر أو يمشي – حتى – على حدود الخطأ والخطيئة.. إنه ملاك.. لأنه خير بطبيعته وتكوينه.. بفطرته.. بخلقه وخلقه.. أما الإنسان فإنه ليس كذلك. إنه يحمل في داخله نوازعه التي تتقاسم سلوكه بين خير وشر.

في إمتحان دائم ومستمر إلى يوم الدين.. يسير كلاعب السيرك. فوق سلك مشدود دائما

ممسكا في يده بعصا الضمير التي تحفظ له توازنه، فلا يختل ويقع.. إنها عصاه التي تلهب ظهره.. تدفعه إلى الخير دفعا وإلى التوبة كلما أخطأ.. وهو كثيرا ما يخطىء.

ومن خلال مجاهدته للشر، وسعيه إلى الخير يتميز الإنسان كانسان، ويبقى له الفضل دائما في سلوك درب الجهاد المستمر الذي يسير فيه ويعيشه دائما.. إنه يحب ويكره.. يخطىء ويصيب، يهوى ويعشق حتى الثمالة.. ثم هو أيضا يتبتل في محراب التوحيد حتى الدروشة.. ويصفو بنفسه حتى التصوف.. إنه جامع لكل النقائض والنقائص في ذات الوقت.. منها تبرز عظمته.. وتتجلى إرادته، فيعظم قدره وتتناهى قدراته في الإبداع والعمل.. ويعظم حظه في الأمل ويتعاظم رجاؤه في التوبة والغفران.. إنه الإنسان.

وداعا...
محمد العزب موسى

و.. ومضى عنا محمد العـزب موسـى.. الزميل.. الكاتب.. المفكـر.. الأديب.. قال الرجل كلمته ومضى بعد ٥٧ عاما من العطاء الفكـري والعمل المضني في أروقة صاحبة الجلالة.. مضى عنـا.. وما أقسى الـرحيل.. الزميل الصـديق الـرفيق الرقيق الـذي زاملنا في رحلـة الصحافة في القاهرة.. وفي البحرين.. رافقنـا سنين طوالا أسهم خلالها إسهامات واعية في إصدار «أخبـار الخليج».. منذ الدقيقـة الأولى.. منذ الكلمـة الأولى.. من الحرف الأول الذي سطرته هذه الجريدة في صفحاتها الأولى وإصداراتها عام ١٩٧٦م.

كانت «أخبـار الخليج» حلمه الذي عمل لـه.. سعى إلى تجسيده.. وكان هو فـارسا من فرسان أحلامها.. أعطاها فيض عطائه.. وحصـاد فكره الذي تميز به، وطالعه قراء «أخبار الخليج» كل صباح على مدى ست سنوات متصلة..

لم يكن ذلك الذي كتبـه حصاد فكره فقط.. بل كـان حصاد شخصيته كلهـا.. إحساس مرهف.. دماثـة خلق.. استناره عقل، مشاعر إنسـانية فياضة.. رقة بيـان.. إشراقة عبارة وفنية معالجة على مستوى عال تشدك إليه شداً وتلقي بك في أحضان أفكاره النابشة بوعي المؤرخ وحس الأديب في أعماق التاريخ البشري عبر عصوره وصـوره.

لقد أعطى الفقيد محمـد العزب موسى الصحافـة خلاصة روحه وتألق عقلـه فزاملناه وزاملنا أخـا عزيـزا قاد العمل التنفيـذي «لأخبار الخليج» لفترة.. وهـي الفترة الصعبة في تاريخ أيـة صحيفة.. هي دائماً فترة البدايـات.. والبدايات دائما ما تكـون صعبة تأتي عبر مخاض عظيم، وآلام وأحلام وأفكار ورؤى وتصورات تأتي من هنا وهناك.. حتى يستقر الوليد وتعلن البشـارة.. ويخرج المولود إلى عالم النور.. مُسمعـا الدنيا صوتـه.. مناديا في البرية بالحق والعدل والحرية.. مؤديا أعظم وأسمى رسالة.. وهي رسالة الصحافة.. مهنة

القلم.. والألم.. والمعاناة.

لقد قضى محمد العزب موسى وهو في قمة عطائه.. متنوع الأداء في عالم الصحاف.. في «أخبار الخليج» ومجلات وصحف أخرى.. لم يسقط القلم من يده إلا في اللحظة الأخيرة عندما داهمه الموت، وانتزع القلم من يده الرقيقة.. ليصمت قلمه إلى الأبد ومع الصمت ينتهي الألم.. وتكون نهاية المعاناة..

وعندما نعى لنا الناعي الزميل الصديق محمد العزب موسى أصابنا وجوم الدهشة لفترة.. ثم استرجعنا إيماننا بالله.. فليس الموت في حد ذاته غريبا.. وقد يكون الغريب هو موت الرجل الغريب.. وقد كان محمد العزب موسى غريباً في عطائه المتنوع.. غريباً في إحساسه المرهف، عجيباً في أحلامه وطموحه.. لكنه القضاء عندما يحين لا راد له..

ونقول كما قال الشاعر:

تدفق دموعاً أو دما أو قوافيا مآتم أولى الناس بالحزن هاهيا

رحمك الله أيها الزميل الصديق الأستاذ محمد العزب موسى، وأفسح لك مثواك في جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

صـــورة
غير كاريكاتيرية

تعـود أن يرسم بعضنـا لبعض صوراً كـاريكـاتيرية نحـاول أن نضخم فيها مـلامح وميزات وصفات، وقد تبـدو هذه الصورة أحياناً.. بل وغالبـاً مضحكة.. وفي أحيان أخرى تأتي معبرة تعبيرا ذكيا ومجردا عن الواقع لا ضحك فيها ولا بكاء.

ولأنني لا أشجع كثيرا فن الكاريكـاتير لأسباب احتفظ بها لنفسي فانني أكـاد أن أكون من تابعـي المدرسة التأثيرية في الفن التشكيلي والـرسم ليس ذلك فحسب، بل وفي الكتـابة أيضـا.. فالميل إلى الواقعية هو مـذهبي فلا أحب تزييف الواقع على حساب الفن، كما لا أحب الفن الذي يزيف الواقع تحت شعارات عدة منها السريالية والتجريدية وغيرها.

ولقـد عودت قلمي وذهني على ذلك، بل إنني دربت خيـالي على الأخذ بـزمام الـواقع في الخيال دون جموح أو جنوح.. فأحاول أن أتخيل الـواقع، وأوظف الخيال للواقع.. والواقع للخيال.. وهذا منتهى الخيال وهو أيضا قمة الواقع.

وفي حياتي عرفت شخصيات عدة أثرت في تأثيرا عميقـا بعيد الأثر حاولت الكتابة عنها بتجرد فلم أستطع.. وحـاولت الأقتراب منها تصويـرا وتجسيدا فلم أتمكن.. فتركت نفسي على سجيتها لتعبر عن الذات والمكنون من المشاعر والمواقف والملامح والسمات.

من هذه الشخصيـات: فنان من أخمص القـدم إلى أم الرأس.. شخصية تجسـد تكامل الفنان في عالم مفرد، أو في مفرد عالم، ورغم ذلك فهو متعدد الجوانب.. متنوع الإبداع.. هو معماري فنان أو فنـان معماري.. يرسم تصميم البنـاية بـريشة فنـان؛ لأنه يفترض بأن الهندسة المعماريـة فن في المقام الأول.. فن يجمع بين الذوق والإحساس والمهـارة والدربة والخبرة والعلم. وبدون الفن لا يصبح المهندس مهندسا حتـى لو ألقى في جوفه العلم كله.. واطلع على مراجع الأولين والآخرين في علوم الهندسة المعمارية، وتقلبت أقدامه واهتماماته بين صالات العرض المعماري.. وسن قلمه من أجل أن تخط يمناه لوحات وتصاميم.

ولأنــه فنـان من ألفـه إلى يـائه كما يقـولـون فإن ريشتـه عنـدمـا تتـوقف عن وضع التصميمات الجميلة العبقرية فإنها لا تهدأ عن الإبداع.. لوحات.. ولوحات تنقل إلينا أعمق أحاسيسه ومشاعره حتى إنه أقام معـرضه الخاص للفنون التشكيلية فجاء آية الآيات في الروعـة.. والدقـة والرقة.. تنتقل بين لـوحاتـه كما تنتقل بين مجمع الأزهار.. وغـابة من

الورود.. لكل زهـرة لون وطعم.. ورائحـة.. وعبق يملأ الـدنيا رونقـا وجمالا ورائحة من أطيب الرياحين.

وهو في هذا وذاك يرسم ويصمم على همس الموسيقى التي تداعب الأذن بأروع الألحان الكلاسيكيـة والشرقية.. ودائما مـا تجده مع معشوقـه الوحيد مـوسيقار الأجيـال محمد عبدالوهاب.. وكأنه موحيه في الفن وبالفن للفن.

زرته فـوجدته يـرسم لوحاته.. الـريشة في يده تضع أدق وأرق الخطـوط.. والألوان.. وأذنه مليئة بالنغم الحلو.. كيلوبـاترا، الجندول، ليالي الشرق، الحبيب المجهول.. قالت.. و.. ويعيش عالمه كله فنا.. فإذا اقتربت منه وجدت كل هـذه الطاقات المتفجرة فناً.. تفيض رقة وحباً للناس وللآخـرين الأقربين منهم والأبعدين.. وكأنه صورة فنيـة خيرة للسوبرمان الذي لا يجود به هذا الزمان.

انه الصديق الفنان محمود أكبري.

زرته وأنا أجتاز محنة المرض.. وكان معي الصديق الأستاذ حسن المحري.. كنت خائفاً ملتاعا هلعا لما أمر به من محنة سبق له أن أجتازها بعون من الله..

ترك الـرجل ريشته.. وامتدت إليّ ابتسامتـه المطمئنة.. وجلسنا ساعـات في حديث مليء بالتجـارب «الإنسانية» وجـدت بعدها أن المحنـة يمكن أن تمر.. وأن ما حـدث ليس نهاية العالم ثم نقلني الرجل برقته إلى عالمه الفني الغنـي.. مع اللوحات والموسيقى والغناء الحالم المنغم أفضل تنغيم لأستاذنا عبدالوهـاب رحمه الله.. خرجت من عنده وقد غسلت نفسي.. وودعت هلعي، واستوثقت من نفسي لأنني وثقت تمامـا أن لله عبادا طهرهم اللـه بالحب.. وعطـرهم بـالفـن.. وسما بنفـوسهم إلى ذرى النقـاء والاطمئنـان فأشـاعـوا من حبهم واطمئنانهم وفنهم على الآخرين حبا ونقاء واطمئناناً.

هؤلاء علموني

الذين علمونا في الحياة أو علمونا الحياة كثيرون، فالدرس الأول مر بنا عبر الدهشة منذ نعومة أظافرنا صغارا فنقشناه أو نقشوه على عقولنا وأودعوه قلوبنا، ثم كتموه في سرائرنا فلا ينسى أبدا.. أبدا لا يخبو ضوؤه، أو تنطفىء ذبالته التي تنير النفس مدى الحياة، ولست هنا أسير على نهج كاتبنا الراحل الأسر سلامة موسى الذي كتب فيما كتب كتابا تحت عنوان «هؤلاء علموني» ذلك لأن دائرة العلم عنده، والتعليم لديه أوسع منا وأبعد انتشارا ولو كنا نذكر فيما نذكر من علمونا من آباء ومدرسين ومبدعين قريبين منا أو بعيدين؛ فإن سلامة موسى تتلمذ على يد فلاسفة العصرين القديم والحديث .. جلس أمام كتبهم.. شرع نوافذه عليهم فدلفت إليه رياح الأفكار والرأي.. سبر أغوار حكمتهم فجاءته طوعا.. حتى أن من يتصفح كتابه هذا المذكور تتفتح أمام عينيه آفاق متوهجة الفكر.. لامعة المعرفة.. مبهجة النفس والقلب.. لذلك كله فإنني لا أسمح لنفسي السير على نفس النهج الذي سار عليه سلامة موسى لأنني لا أقدر عليه.. ولا أستطيع له أو معه صبرا.. فلقد أستعير عنوان كتابه لأضع تحته تجربتي الأولى مع الصحافة.. كيف تعلمت وممن.. وعلى يد من تتلمذت بدءا من الكاتب الإسلامي المعروف محمد عبدالله السمان مرورا بأستاذ اللغة العربية الرائع الأستاذ علي المقطف، ثم وقوفا عند مصطفى أمين وعلي أمين وأحمد بهاء الدين ويوسف السباعي وأنيس منصور وصلاح هلال، صلاح حافظ، سعد كامل.. هؤلاء جميعا تتلمذت عليهم الصحافة والحياة.. فالحياة بالنسبة لي صحافة.. والصحافة حياتي شئت أم أبيت، ومع كل واحد من هؤلاء لي معه حكاية.. عبرة.. قصة بلورتها الأيام.. وما أطول الأيام في حكمة.. والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها نالها وارتشف منها.

كان أول من ارتشفت منه الحكمة الكاتب الإسلامي محمد عبدالله السمان.. كان مدرسا للغة العربية بمدرسة قصر الدوبارة الابتدائية.. كان يدفعنا دفعا إلى القراءة، ويوجهنا الى النافع منها.. حتى أنه كون جمعية للصحافة والخطابة كان هو رائدها.. وهو حاميها.. علمنا كيف تستقيم العبارة كتابة وإلقاء.. وعلى يديه تعلمت الخطابة.. وخططت أول سطور ذات معنى.. وذات قيمة.. ومن بعده كان أستاذي الذي أدين له بالفضل كله الأستاذ علي المقطف.. هذا الرجل لم يعلمني فقط كيف أحب الأدب.. وأرتشف الحكمة.. وأسعى إلى المعرفة سعياً وإنما علمني معنى الكبرياء والكرامة والصبر على الحق والدفاع

عنـه.. كان فنـانا.. يجيـد فنون الخط العـربي.. عميقا يعـرف كيف يسير معاني الأفكـار ويغوص في أعماقها بـاحثا عن الدرر واللآلىء.. كـرامته في جانب.. وحياتـه في جانب آخر.. وكان ذلك ما عـذبه كثيرا.. وأصابه بإحباطـات عدة.. لكنه كان راضيا؛ لأنـه كان شامخا.. معه قمت بتأليف أول سفـر لي يحوي أفكارا وأشعـارا ومواقف وكلمات مغلفة بـالحكمة.. وحكمة تحملها الكلمات جمعتها من هنا وهناك وأهديتهـا له فأرجعها إليّ ممهورة بتقديره الذي مازلت أحتفظ به حتى الآن وبعد هذا العمر الطويل.

كانت هـذه هي بدايات البـدايات التي دلفت منها إلى بـاب الصحافة أدقه وأنـا في السنة الأولى في الجامعة.. رحت أدق بـاب مجلة آخـر ساعـة على استيحاء.. لكن أحـداً لم يفتحه أمامي على مصراعيه كما تصـورت.. وجاهدت وجالدت، واستعنت بعـد الله بأناس بينهم وبين الصحافة وصال.. ومـوصول حبال، فانفرج الباب انفـراجة أمل دلفت منه.. وجلا.. كان أول من التقيت بـه في آخر ساعـة الأستاذ صلاح هـلال نائب رئيس التحريـر.. الذي قابلني بإبتسامة واثقة.. بينما راحت عيناه تطالعاني في نظرات خاطفة تحاول أن تستبطن مـا بـداخلي من رغبـة.. من أمل.. من مـــوهبـة.. من استعـداد.. سألني لماذا أتيت؟ ولماذا الصحافـة بالـذات هـي التي أحببت؟ وماهي أفكاري وتصـوراتي عن العمل الصحفي، ولا أشك للحظة أنني طرحت أفكارا ساذجة لموضوعـات تداولناها في الصحافة المدرسية.. كما انني لا أشك أيضا أن ابتسامة إشفاق علت شفتيـه الطيبتين وفي النهاية دفع إليّ بأعداد من الصحف اليومية الصادرة.. وقال لي اذهب إلى المكتبة.. واقرأ هذه الصحف.

أما لماذا أقرأها.. وكيف؟ فلم أكن أعرف ورغم ذلك فإنني فعلت وكان ذلك ايذانا بدخولي إلى معترك المهنة.. كيف؟ ذلك له حديث آخر.

عندما تبكي صاحبة الجلالة.. ونبكي معها

في عالم الصحافة نبكي طويلا، ونضحك كثيرا.. وبين البكاء والضحك قد يعتورنا القلق، أو يمتصنا الغضب، أو تعصف بنا رياح التغيير.. فالصحافة موّارة بالتغييرات.. حافلة بالمتغيرات.. سريعة الإيقاع.. تأبى عليك إلا أن تعيش إيقاعها وإلا تخلفت عنها حدثا وخبرا.. تعليقا وموضوعا، عرضا وتحليلا.. لذلك فإن الذي يدخل إليها من بابها قليل.. ومن يتسلق إليها عبر نوافذها وشرفاتها كثير.. والحيل إلى ذلك كثيرة.. والميول متعددة.. لذلك فان الصحفي وحده لا يبكي وإنما تبكي صاحبة الجلالة كثيرا وطويلا هي الاخرى.. وقطرات الدمع التي ذرفتها صاحبة الجلالة في المسلسل المشبوه، أو الفيلم المعروض ليست سوى النزر اليسير من أنهار دموع بللت بلاط صاحبة الجلالة كله عبر تاريخها.. البعيد.. وليلها الطويل.. إن لم يكن عرضًا في تاريخ الصحافة المصرية أو العربية بل ظاهرة.. أو قل تظاهرة استوقفتنا وتستوقفنا كثيرا.. وطويلا بكل جنوحها وجموحها.. وطموحها أيضاً.

ومن الصحافة تعلمنا.. ومنها وبها أيضا تألمنا منذ زهرة الشباب وحتى أرذل العمر.. لأن عمرنا كان ومايزال صحافة، وعلى رأي أديبنا توفيق الحكيم.. إننا قضينا في بلاطها زهرة العمر.. وراح العمر.. وذبلت الزهرة.. وبقيت الذكرى.. والذكرى تلوح بالدروس والعبر..

كيف كانت البداية؟.. ومتى؟.. والنهاية.. ما هي؟

البداية كانت صعبة.. لم تكن فوق أرض مفروشة بالورود والرياحين.

أذكر البداية في بدايات الدراسة الثانوية.. كان الطموح أكبر مما يجب؛ لأنه تجاوز حدود الإمكانيات. جربت الكتابة إلى الصحافة اليومية في الأهرام بتوقيع لم أرفق به مهنتي كطالب أو تلميذ بالثانوي.. كنت أبعث برسالتي مباشرة إلى رئيس التحرير الأستاذ احمد الصاوي محمد.. وأفاجأ بعد أيام بنشر ما كتبته بالكامل في مكان بارز.. وبتوقيع أكثر بروزا..

كانت الفرحة تغمرني.. وتهزني بالنشوة من هنا وهناك.

كان زملائي في المدرسة يغبطونني على ما أكتب وأنشر وأساتذتي يشجعونني حق

التشجيع.. حتى كانت أو جاءت الطامة الكبرى بالنسبة لي.. جاءت المحنة التي اعتصرت وجداني عصرا..

فقد سارع أحد الزملاء الخبثاء ـ حسداً منه ـ بإرسال خطاب إلى جريدة الأهرام باسم رئيس التحرير أبدى فيه إعجابه بما كتبه التلميذ حافظ إمام بمدرسة الابراهمية الثانوية.. ونشر الخطاب وتعليق المحرر عليه.. ومنذ ذلك اليوم.. ولأنني مازلت تلميذا.. لم تتفضل الصحيفة بنشر أي مادة أو مقال أو تعليق لي.

كانت هذه أول محنة لي مع الصحافة.. ومع الناس.. إلا أن هذه المحنة زادتني إصرارا على إمتهان الصحافة، والتفرغ لها والكتابة فيها محترفا لا هاويا.. فقد أيقنت أنني قادر على أن أكتب.. مستطيع أن أشق طريقي.. وفور التحاقي بكلية الحقوق عام ٥٦ وأنا مازلت في السنة الأولى رحت أطرق باب الصحافة.. بعنف حينا.. وبرفق أحيانا ومع الرفق والعنت لم تفتح لي الصحافة بابها سوى مواربا لأدلف إليها من خلال صحيفة صوت الجامعات التي كان يمولها الأستاذ مصطفى أمين لتغطي أخبار الجامعات. وجند لها عددا من هواة الصحافة طلاب المدارس والجامعات، ووضع على رأسها صحفيا شابا متيما بالصحافة هو الكاتب القاص المعروف حاليا الأستاذ محمد جلال احمد.. لكن التجربة لم يكتب لها النجاح.. وكان ذلك هو ثاني الإحباطات في حياتي مع الصحافة.

تمهلت قليلا.. ثم استعنت بالله، ومن بعده بوالدي، وبصديق له أخذ بيدي للعمل محررا تحت التمرين في مجلة آخر ساعة.. وتلك لها حكاية أخرى مع صاحبة الجلالة.

سنوات العمر
والبقية في حياتك

هذا العام كـاد يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو مأسوف عليـه بكل ما حفل به من خير وشر.. فهو بعض منا.. ونحن بعض منه..

كان إضافة إلى عمرنـا وانتهت، فأصبحت نقصا من أعمارنا ونحن لا ندري.. بل ونحن نحتفل بمروره.. نصفق له.. نطفيء شموعه.. ونرفع أعـلامه.. نرقص له طربا لا ألما.. ولو أردنا الحقيقية لما أحتفلنـا.. ولما طربنا أو صفقنا.. لكن ذلك هـو ما أعتدنا عليـه، وتوراثناه جيلا بعد جيل..

يأتي العام ويمضي.. ولا نكـاد ندري.. وكأن الأيـام حبات رمـال تنساب.. تتسرب من قبضة أيدينا، فإذا نحن في النهاية نقبض هواء.. ونضم الكف على الريح..

ولطـالما احتفلت مع المحتفلين بـانتهـاء عـــام وإقبـال آخـر.. ولم أكن أدري لم نحتفل ويحتفلون.. الا أنني في إحتفالي كل عام ببدايـة العام تكون لي خصوصيتي في هذا الأحتفال الذي يأتي في يوم مولدي.. أو يأتي يوم مولدي فيه.. فيكون الأحتفال مضاعفا تماما مثلما يكون الألم مضاعفا.

فالأيـام تمر.. تمر سريعا ويكر أمـام ناظري شريـط حياتي كله في لحظـة منذ أن كنت صغيرا في بدايات ادراكي للأمور والمسميـات والأشياء.. أرتدي البنطلون القصـير.. وأضع على رأسي طربـوشا أحمر بزر أسود حـاملا حقيبة كتبي فـوق ظهري وكأنها ذنب ووزر ينوء به كاهلي في رحلتي الذهاب والعودة من المدرسة.

يمر شريط الـذكريات ونحن نقف أمـام المدرس في الطابور الصبـاحي باسطين الأكف ليفتش على مدى نظافتنا الخارجية.. الأظافر والأحذية.. ومع التفتيش تنزل ضربات العصيّ الموجعة لتنبه على أهمية الاهتمام بالنظافة.

ويدور شريط الذكريات مع تبعات الدراسة والحياة، وما بعد التخرج والعمل.. والأمل..

والكفاح.. وتخطي العقبات.. وتقبل تكاليف الحياة وامتصاص خبرتها.. وكلما اقتربنا من الحياة، وأوغلنا في الرحلة أيامها وسنيّها كلما سبرنا غورها.. وكشفنا أمرها.. فإذا الغور غير سحيق.. بل ظاهر البداهة.. والتفاهة بل والتسطيح.. وإذا أمرها لا يعدو السراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.. لا أحد يبقى.. لا أحد يمتلك مالا.. ولا جاها.. لا عقارا.. ولا منزلا.. لا أحد سوى الله الأحد.. حيث يرث الله الأرض ومن عليها ونحن نتوهم أن كلاً منا يرث أباه وأمه في مال أو عقار أو منصب.. بينما لا أحد يرث أحدا.. فقط نورث بعضنا البعض أمراض القلب والسكر وتصلب الشرايين، بل وأحيانا «السرطان» والعياذ بالله.. ثم.. ثم ماذا؟

ندرك في النهاية.. ما لا ندركه من البداية.. أن هذه الدنيا لا تساوي جناح بعوضة.. ورغم ذلك نعيشها ونحياها لأنه لابد لنا أن نحياها. فقد كتبت علينا الحياة؛ لأنه قد كتب علينا الموت!! بل إن الطريق الوحيد إلى الموت هو الحياة.. وتلك ليست نظرة تشاؤمية بل هي نظرة واقعية .. منتهى الواقعية وتدعونا ـ على عكس ما يتصور الكثيرون ـ إلى أن نحيا هذه الحياة بكاملها .. بكل ما فيها نمتص رحيقها امتصاصا.. لا نترك قطرة واحدة من رحيق.. لكن ذلك يتطلب منا أن نكون مقتنعين بذلك مطمئنين له.. وبه.. لهذا فإن المطمئنين «بهيافة» الدنيا، وبأنها مصيرنا إلى الآخرة هم أكثر الناس اطمئنانا ومقدرة على الاستمتاع بالحياة، وارتشاف رحيقها الرطب الزلال قطرة قطرة دونما توتر أو تشنج أو قلق.. فالقدرة على إدارة طرفي المعادلة الصعبة «أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا» هي وحدها الكفيلة بأن توفر لك متعة الحياة في توازن وتوافق مع النفس والذات ومع الآخرين.

ويبقى صحيحا القول.. إن هذه الحياة هي معبرنا إلى غيرها.. وأن غيرها خير وأبقى لو علمنا.. أو ما نحاول علمه ومعرفته لايجعلنا نتفق كثيرا مع الشاعر كامل الشناوي عندما فلسف موت الحياة في الإنسان والناس بقوله:

إلى أين نمضي أيها الدهر بعدما نصير هباء لا ضجيج ولا صمت
إلى أين يمضي ومضنا وشبابنا إلى أين يمضي الومض والنبض والصوت

فنحن قد جئنا.. وسوف نذهب.. البداية غير معروفة، والنهاية أيضا.. وما عرفناه عنها أقل من القليل..

ويكفينا مع كل مطلع عام ونهاية آخر أن نغنـي.. حتى لو كان هذا الغناء ألما.. بل حتى لو كان الألم ممضاً.. المهم أن نغني كي نثبت لأنفسنا أننا نحيا.

وكأنني بالشاعر الرقيق مرسي جميل عزيز وهو يغني مذبوحا..

لم لا أحيا وظل الورد يحيا في الشفاه

ونشيد البلبل الشادي يغني للحياه

....

ان أردت السر فاسأل عنه أزهار الخميله

عمرها يوم.. وتقضي اليوم حتى منتهاه

نعم لم لا أحيا.. وقد مضى من العمر كثير.. والبقية غير معروفة.. والبقية في حياتك.

النبـــــوءة

كنت أركب الطائرة متجها إلى بلد الضباب.. وبينما نحـن فوق السحاب تختلج نفوسنا مع كل اختـلاجة واهتـزاز للطـائرة.. رحت أحاول قطـع الوقت بتصفح الجرائد تـارة أو الاستماع الى الـراديو تـارة أخرى.. لكن عينـاي ملتـا قراءة عنـاوين الصحف العربيـة، وضقت ذرعا بالأكـاذيب المكتوبة والمنشورة عن التضامن العـربي، والإخاء.. والاشقاء.. والأعداء الذين ما من صداقتهم بـد، وحال العراق.. والصومال وانفجار الملغمات في مصر والجزائر.. ومفـاوضـات غـزة وأريحا التي «طلعت» لها ريحة.. وهي ريحة خبيثـة خبث الصهيونيـة، وعندمـا حاولت أن أطالـع بعض الحقائق الاقتصاديـة والنفطية في ديـرتنا العربية كان الحال لا يسر عدوا ولا صهيونيا، أسف ولا حبيبا.

المهم.. أنني بعـد كل هـذا الملل وجـدت مهـربا منـه في افتعـال حـوار مع صـديقي في الطائرة..ملتُ على أذنـه، وهمست همسا مـوحيا.. وأنت أيضا تشـدك بلد الضبـاب؟! قال ضاحكـا: مِثلك تماما.. كلنا مـربوطون ببلاد الفـرنجة والعم سام.. نجتلي لـديهم قشور حضارتهم ونتعلق بأذيـالها ـ للعلم.. الحضارة أصبـح لها ذيل ـ وننتقل مـا بين الـربوع الخضراء.. والجلـود الملســاء البيضــاء، والعيـون الخضراء.. والشعـور الشقـراء.. نقطع اكسفوردجيئة وذهـابا دون غاية أو هدف.. نـدلف الى مارك سبنسر ولا بأس في الليل من خطوات إلى حي ســوهو.. تمامــا مثلما فعلنا ونفعل في بيجـال.. وعند ميـدان الأوبرا.. وفي ثنايا نيس، وأروقة وكاليه ودوفر.

أما هــارلي ستريت ومثيله الآخـر في المانيا.. واسبانيـا فنحن نذهب إليـه مرغمين.. ولا نطؤه إلا ونحن متهالكون بعد كل هذه الجولات والصولات.

قلت لصديق الطـائرة: لا تنس يا صـديقي أننا نقتبس من حضــارة الغرب الكثير.. من الطائرة إلى القاطـرة.. من الإبرة إلى الصاروخ كما قالوا ويقولـون.. انظر حواليك لترى أن كل ما حولك هو نتاج هذه الحضـارة..

ضحك صديقي.. وقال في كلمات ساخرة: معذرة.. معذرة.. يا أخي.. لا تنس أن العرب لم يتركوا للعالم شيئا إلا كانت لهم فيه وقفة.. وبدعة..

هم الذين قادوا الغر ب منذ البدايات خطوات إلى الأمام على أيام الرازي وابن رشد وابن سينا.. فهل نسينا؟

أننسى أنهم هم أول من حلقوا بأجنحة في الفضاء فسقطوا في القاع على أيام عباس بن فرناس؟

أمنت على كلمات صديقي موافقا.. وقلت بيني وبين نفسي «مشي حالك» لكنه ما إن أدرك ذلك حتى تجلت على معالمه آيات «الفشر» وراح يحلق في خيال خصب كمن تاه في تهويمات الدخان الأزرق، ثم فاجأني قائلا: ألم تسمع تلك النبوءة التي قالت إن العرب سوف يسودون الكرة الأرضية مع حلول القرن القادم الواحد والعشرين؟!

قلت دهشا: والله؟!

قال صحيح، وأقسم على ذلك بالطلاق وبالعتاق وبالدنيا المعلقمة المذاق!! وما علينا الآن سوى أن نجري القرعة، أينا يفوز بثروات هذه الأرض، أنختار أمريكا لاتساعها أم أوروبا لغناها بالفلوس والناس، أم نستعيد مجدنا فى أسبانيا من جديد.. ونمد بصرنا إلى أرض أوروبا الشرقية لنحولها إلى أوروبا العربية، أم ترى بعضنا سوف يسكن مدينة «كان» حيث تبسط الموائد، والبعض الآخر سيرى من الأجدى له الفلبين ودهاليز بانكوك.. سنمرح فى هذه الأرض، ولن تكون هناك حدود أو قيود.. فكلها أرض العرب والسلام..

قلت متعجبنا: أية نبوءة جادت بها قرائح الحشاشين هذه؟ قال الصديق وقد دمعت عيناه من الضحك: ومن الضحك ما يؤلم فعلا.. ثم وعدني أن يفسر لي هذه النبوءة عندما تحط عجلات الطائرة على أرض مطار هيثرو..

وعندما سمعت منه تفسير النبوءة تفجر الضحك من كل شراييني.. وعلمت حقا ان العرب سيسودون الأرض فى القرن القادم، والسبب بسيط وهو أن شعوب الغرب والعالم المتقدم ستكون قد تركت لنا هذه الأرض وغزت الفضاء وبنت فيه المدن والمركبات التى تسمح لهم بزيارة الأرض بين الحين والحين لمجرد إطلالة إشفاق علينا.

رجل الدين إذا تفنن
ورجل الفن إذا تدين

عنـدما يتـدين رجل الفن، ويتفنن رجل الدين يبلغ كـلاهما شـأوا بعيدا من الإبـداع في الإبداع والإقناع، والحياة في الفن والحياة مع النـاس في حاجة إلى فن دائما يجعل الوجدان سليما لا سقيما، والإحســاس مرهفـا لا مترفا أو بليـدا، والـوجدان السليم والإحســاس المرهف يقودان رجل الـدين والفن دئما إلى الإبداع في دعوتـه وعمله وسلوكياتـه، فيكون رجل الدين مقنعا في دعوته إلى الله، مبدعا في تقديم القدوة والمثل، كذلك الأمر مع رجل الفن عندما يتعبد ويتـدين فانه يصل إلى قمة الإبداع في فنه لأنه يكـون قمة الإخلاص والإتقان وهما عماده دائما إلى التفرد والتميـز والإبداع فلا يسف ولا يسعى إلى شيء سوى خـدمة الناس لـذلك فإن الدعـوة إلى الله فن.. وهي أحـوج ما تكـون إلى إحساس فنـان، وسلوك مبدع.. ويدخل تحت فن الدعوة كيفية الإقنـاع بالحسنى والموعظة الحسنة «ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك»، و«لكم دينكم ولي دين».

ولقد دعـا الله نبيه صلى الله عليـه وسلم إلى مجادلة الكافرين والمخـالفين والمعرضين بالتي هي احسن. ووصفـه بأنه كان بـالمؤمنين رؤوفا رحيما.. تلك الرحمة والـرأفة التي وأتت وجدانا حساسا مثل وجدان محمـد، بل إنها جاءت نبع ذلك الوجدان الحساس الذي لا يؤتاه سوى وجدان إنسان يجيد فن الدعوة إلى الله.

لذلك فان سلاح محمد صلى الله عليه وسلم كان الإقناع.. والقدوة ولم يكن أبدا السيف وادوات الفتك لأن رجل الدين والداعي إليه انما هو داع إلى قيم عليا ومثل نبيلة تتناقض في الأساس مع العنف.. وسفك الدماء.

حتى في الحر ب والقتال.. أوصى الإسلام بألا يقتل جيش المسلمين عجوزا ولا ضعيفا ولا امرأة أو صبيا، ولا يجتث شجـرة من جذورها أو حتى أصولها.. منتهـى الإنسانية.. منتهى الفن.. قمة الإحساس الإنساني والوجدان الحساس.

روي أن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل يخطب في الناس من فوق جذع شجرة في أول مسجد أقيم بالمدينة المنورة لعدة سنوات، وعنـدما بنوا لهذا المسجد منبرا متواضعا وقف فوقه رسول الله اول مرة ثم رنت عيناه إلى جذع الشجرة وبللت الدموع مآقيه وخديه لأن

هناك رابطة حميمة اتصلت بينه وبين جذع الشجرة.. يا.. ياللإحساس الإنساني النبيل.

وهكذا فإن الـدعوة إلى الله هي الأخـرى في حاجـة ـ كـي تنجح وتـؤتي ثمارهـا ـ إلى إحساس فنان فإذا تفنن رجل الدين امتلك وجدانا حساسا وإحساسا نبيلا لا يجعله يرفع سلاحا في وجـه من يخالف الرأي أو العقيدة.. بل يتفجر عاطفة نحـو الذين لم يهدهم الله حتى ولو عارضوه واذوه ـ اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون، اذهبوا فانتم الطلقاء.

ومن هنـا نـدرك أن ممـارسة «البلطجـة» والعنف.. والقتل وسفك الـدمـاء والصراخ والتعصب المقيت تحت شعار إعلاء كلمة الله ليست من الـدين، وليست من أساليب الدعوة الى الله.. بل هي نقيض لمنطق الديـن نفسه لأنه دين الإنسـانية.. إذا واتاه وجـدان حساس التقى معه واقتنع بـه.. ودعا إليـه.. في إخلاص المخلصين فالـدين دعوة أبنـاء حضارة لا لهدم حضارة وكما قال الشاعر:

ليس التدين عندهم
محض السجود والاقتراب
وتبتل الرهبان في ربع
من الدنيا خراب
الدين أسُّ حضارة
شماء عالية القباب

وإذا كان ذلك كذلك.. وهو كذلك.. فإننا ندعو إلى رفع لواء الفن في ممارسة الحياة.. وفي الدعوة إلى الله أيضا لا رفع لواء العنف.. فالدين يمج العنف.. والعنف نقيض الحياة..

والفن والاسلام ـ يـا أهـل الله ـ لا يولد إرهابـا أو إرهابيين كما يحاول العالم اليوم أن يصور أو أن يصـدر من أفكار وصـور يبتغي بها تشويـه وجه الإسـلام فيجعل من كل عنف أو إرهاب قرين الإسلام أو الوجه الآخر له والإسلام براء من كل ذلك هو نقيض ذلك وليس قرينا له.

بالمقـابل فانـه مطلوب من رجل الفن أن يتدين.. فإذا تـدين أبعدنـا عن الإسفاف ورخص التناول، وسما بنا إلى سماوات عـلا في نبل الهدف والغاية وسيلته فـن راق وعطاء للناس والمجتمع والحياة.

«جوقة المحبين»
«للبلبل الحزين»

زمان كان الراديو يحتل المنزل مختالا فخورا.. كان منار كل منزل ومزار أهله.. يوضع في مكان مخصص عال ليس بخفيض تقديراً وتعبيراً عن علو مكانته، ورفعة منزلته.. وإلى جواره يقف «الجرامافون» في تواضع نستمع إليه حيناً بعد حين.. أما الراديو فتجتمع حوله الأسرة .. تسمع.. وتسهر.. تتسامر وتستشعر الدفء المادي والمعنوي، وعلى أيامنا وهي ليست بالأيام البعيدة ـ كنا نعتمد على الراديو في كل شيء بدءا من حفلات كوكب الشرق أم كلثوم في أول خميس من كل شهر وحتى إذاعة المسرحيات وصولا إلى الأفلام العربية القديم منها والحديث.. وكان ذلك بتطلب من المذيع أن يتسلح بأكبر قدر ممكن من اللباقة واللياقة الإذاعية كي ينقل إلينا وصفا تفصيليا ـ ليس مملا ـ لأحداث الفيلم وشخوصه، يصف حتى ملابسهم وملابسهن في دقة متناهية، يضحك عنا ولنا عندما يرى مشاهد معينة، ويتأثر صوته وتغرقه الدموع إذا دعا إلى ذلك داع.

لذلك كان إختيار المذيعين في الإذاعة المصرية يخضع لمعايير دقيقة جداً لا تتدخل فيها الوساطة أو القرابة والمحاباة.. فالكل أمام الميكروفون سواء أو هكذا يجب أن يكونوا من شيخ المذيعين المرحوم عبدالوهاب يوسف حتى أصغر مذيع.

وأذكر بوعي كبير رغم سني الصغير أن أحد المذيعين المتازين كان يقدم البرامج والمنوعات.. بل والنشرات الإخبارية أيضاً.. ومن بين كل فقرة وأخرى كان ينسى نفسه.. ويطلق العنان «لدندناته» الموسيقية.. ثم تستغرقه موهبته الغنائية والموسيقية فيترنم بها في صوت خفيض.. إلا أنه يلاحظ.. وقد لاحظه المسئولون عن الإذاعة فعلا، ونصحوا المذيع الشاب الموهوب بأن طريقه للموسيقى والغناء أجدى له، وخرج المطرب سعد عبدالوهاب من الإذاعة إلى الغناء.. خرج منها مذيعاً وعاد إليها مطرباً.. وكان سعد عبدالوهاب محظوظاً مرتين.. مرة لأنه موهوب فعلا، ومرة ثانية لأنه ابن شقيق الراحل العظيم الموسيقار محمد عبدالوهاب.. ولم يكن سعد عبدالوهاب، وحده المحظوظ إنما كان جميع المطربين وقتها محظوظين لأنهم عاصروا محمد عبدالوهاب وتتلمذوا على يديه.

وعلى فكرة فإن الفنان سعد عبدالوهاب يزور البحرين التي أحبها فأحبته بين فترة وأخرى.. يغني وينشد أناشيدها الوطنية.. يجوب عدة بلدان عربية ويتوقف في الرياض

لكنه سرعان ما يعود مشدوداً بالحنين إلى البحرين.. وهو موجود بها حالياً.

وعندما أجلس مع الصديق سعد عبدالوهاب ومعنا صديقنا المشترك الكاتب الإسلامي عبدالرحمن فلاح يـدور حديثنا شئنا ذلك أم أبينا حول مـوسيقار الأجيال الراحل العظيم محمد عبدالوهاب أولاً لأنه عمه.. وثانياً لأنه «عمنا جميعاً.. وتاج رؤوسنا»!

ولأن محمد عبـدالوهاب ليس مصرياً فقط بل هـو عربي قبل كل شيء ورغم كل شيء.. تغني للعرب وأمجادهم.. وسجل أحاديثهم وأحداثهم من لبنان إلى المغرب مروراً بدمشق والعراق، فإن له محبين في كل بلد أو جزيرة أو زقاق ينطق بالعربية، ولقد عشقناه وعشقه غيرنـا؛ لأنه لم يكن مجرد مطـرب وإنما كـان فنـاناً يتـذوق النغم الجميل ويمنحنـا الفن الأصيل والكلمة الراقيـة.. والجملة اللبقة، يحدثنا بالفن غنـاء.. ويحكي لنا من الفن أدباً.. ومن الأدب فناً فأبدع في اللحن مثلما أبدع في اختيار الكلمات والقصائد.

ولقد جمعتني البحرين مع «جوقة» أو ما يشبه «الجوقة» من محبي هذا الكروان الذي كان حيرانـا وحيرنا معه غناء وحبـاً، وجداً وغزلاً، حماسـة ووطنية، حتى حط أخيراً على غصن الآخرة، وانتهت حيرته واحترنا ماذا نفعل بعده؟

«الجوقة» شملتني وشملت معي الصديق الفنان محمود أكبري والصديق حسن كمال الذي ما إن يذكـر أمامه محمد عبدالوهـاب حتى يخوض في حديث المعجب المفتون.. يحلل نغماته.. ويستوقفك عند ألحانه.. وتنهيداته مع العود..

ولا نذكر محمد عبدالوهاب حتى نذكر شـاعرنا الرقيق أحمد محمد آل خليفة.. وأبياته الصادقة التي ترنم فيها بعبدالوهاب حياً وميتاً.

ومن «جـوقة» محبي عبـدالوهـاب أذكـر المهندس رفيق والفنـان محمد عبـدالهادي، والدكتـور العتال.. وغيرهم من مصريين وبحرينيين ممـا جعلني أفكر وأتدبـر وأستمزج الآراء حول تشكيـل جمعية محبي عبـدالوهاب في البحـرين، وقد هلـل الكثيرون للفكرة.. وبقي أن تروج الفكرة، وتجيء الـذكرى لنعلن مولد هذه الجمعيـة التي حشد لها المحبون ما لديهم من أشرطة نادرة لألحان وأغاني محمدعبدالوهاب، منذ أن كان في العاشرة يؤدي أغنيات سـلامة حجازي.. فهل نفلح في تكوين هـذه الجمعية؟ نرجو ذلك ويـدي في أيديكم جميعاً يا محبي عبدالوهاب.

بين أسمهان
وابن بطوطة

مثلما كانت أسمهان ـ المطربة ـ تشجينـا بصوتها الحالم الراقي الارستقراطي النزعة فتدغـدغ حواسنـا بليالي الأنس، وليت للبراق، وأهـوى، وامتي حتعرف امتي إني بـاحبك انت.. مثلما فعلت أسمهان ذلك فعلتها معنـا المحاضرة د. أسمهان بدير عندمـا عرضت لنا صورا من الصـور التي التقطتها ذاكرة ابن بطـوطة ـ رحمه الله ـــ في رحلته، وأعترف أن الدكتورة اسمهان بدير حركت في استعراضها هذا أشجاننا، ثم عطفت علينا فدارت وداوت آلامنا، وعشنـا من خلالها مع ابن بطـوطة رعاه اللـه رؤيته للمرأة في القـرن الرابع عشر عندما طوف في المياه والجزر والحياة.. واتجه إلى بلدان الله وأرض الله مشرعا أو مبحرا أو عائما مترنما بـالمعرفة أو متأملا حـالما، وإذا كان إبن بطوطـة قد أقر من البدايـة وفي نهاية رحلته الطويلـة المثيرة إعجابه بالجمال الجسـدي للمرأة. وعبر عن إعجابه عمليـا بالزواج منها فانه لم ينس بفطرته كباحث اجتماعي أو مـؤرخ أن يروي أحداث وأيام وحكايات ما رأى وما شاهد عندما طاف بالسند والهند، ثم توقف عند المرأة من خلال رؤيته وحبه لها.

وقد أبرزت المحاضرة رؤية ابن بطوطة الاجتماعية والسياسية للمرأة موضحة مكانتها الاجتماعيـة، ومبينا دورهـا الظاهـر القاهـر، والواضح والمستتر بضمير اسمـه «هي» في الحرملك والسـلاملك.. وفي البـلاط السلطاني حيث تحاك المؤامـرات، وتجلب المصـائب.. وتحاك المصـائد ثم تتوه الحقـائق.. والكل يفتش عن المرأة.. لسبب أو لآخـر.. ثم لا ينثني يفتش عن المرأة.. يبحث عنهـا.. ويبحث وراءهـا وخلفهـا.. أمـامهـا وحـولها.. فيجـد الأعاجيـب.. ويشهد الحيل والأحابيل.. مصداقـا لقوله تعالى : ﴿وإن كان مكـرهم لتزول منه الجبال﴾.كما قال الشاعر:

لي في عزاء الكـون ما غنت بـه حكم الأدب   لولا خلقنـا والنساء وزادنـا أكل وشرب

ما قام في يوم مـن الأيام بين النـاس حرب

ويصدق ابن بطوطة كل الصدق عندما يتوقف بالشرح والفضح لسلوك المرأة.. آنذاك.. فنجدها هي هي بخيرها وشرها وشرهها، بصلاحها وإنحلال أخلاقها، وقد وضع ذلك كله تحت عـدة أقسـام.. منها غـرائب النسـاء وصـلاح النساء، ووفـاء النسـاء وغير ذلك من الصفات الموجـودة والمفقودة، أو الموجـودة المفقودة، فلا نكـاد نجد فضيلـة إلا ونقيضها

معها.. يتمنعن وهن الراغبات، ويصدقن ويكذبن في آن واحد..

لذلك فإن ابن بطوطة لم يكن ابن عصره وحـده وإنما كان ابن كل العصور.. ثم هو قبل هذا وذاك ذلك الإنسـان الجسور الذي اقترب من المرأة فأحبها ولم يخَفْهـا.. لكنه في نفس الوقت هتك سترهـا.. وأوضح حيلها ،وتـوقف عند أجمل ما فيهـا فتزوجهـا، فكان في ذلك واقعيا، وكان في واقعيته منصفا، وفي إنصافه حكماً عدلا بين طرفي نقيض.. الرجل والمرأة.

ونعترف أن ابن بطوطة قال في المرأة نثرا لم يقله الشعراء قريضا من القول ونظما، وان كان الشعراء أكثر اجتراء على المرأة، وأقل إنصافا لها، لكنهم على ما يبدو كانوا أكثر معرفة بها؛ لذلك فإنهم لم ينصفوها وإن وصفوها، فأثـارونا.. وكما قال الشاعر السعودي فؤاد شاكر تحت عنوان ضابطة:

وضـــابطـــة همت بفتك وقســـوة	ومـا شهـرت غير الجفون ســلاحــا
عــرفـــوا فيهـا مـــواطن بأسمهــا	فما حملـــوهــا غير ذاك ســـلاحـــا

أمـا الشاعـر السكنـدري الرقيق محمـود سعيـد فقد كـان أكثر واقعيـة عنـدما قـال:

أسبلت هـــــدبها وقـــالـت تملى	لا وحسنـي ومن سجـى بـك ليـــــلا
مـــــــا دلالا أردت لكـن جمالا	أنــــا ليلى فهل تُــرى أنـــا ليلى؟
أنـــا من أبـدعتنـي أنـامل وفنــون	جـل مـن أبـــــــدع الجمال وجلى
لست تمثــــال المؤلـــــه لكـن	أنـــا أنثى فـــلا تكـن لي مــــولى
فـــلا تـــؤهلـــه بي التراب والا	أتعـــالى فـــلا تـــؤلــــه والا

والحديث عن المرأة طويل وسيطـول أيا كان قـائله بحارا مكتشفـا أو عالما محتشما، أو شاعرا أو مفكرا أضناه الخيال أو صحفيـا أعيته الحيل أو بائعا.. أو حتى متسولا.. ورحم الله ابن بطوطة فهو نسيج عصره.. وكل عصر.

الإنسان الطيب

في الستينات على أيام ازدهار المسرح في مصر وقف على قمة المسارح هناك المسرح القومي، ومسرح الجيب، وكلا المسرحين كانا يقدمان الفن الراقي.. والمسرح الراقي كان له رواده ومحبوه.. كما كانت له أيضا نجومه الساطعات.. مواهب مسرحية غالية تسعدك.. وتدعوك، الى التأمل، وتقود ذهنك إلى التدفق.. والتوهج بأفكار تترى من هنا وهناك.. ومن امتع ما شاهدت في تلك الحقبة الغاربة مسرحية «الانسان الطيب» لبيرخت والتي قدمتها على المسرح الموهبة المسرحية الغالية سميحة أيوب.. خرجت بعد حضور عرض هذه المسرحية، وقد تدافعت وتدفقت الأسئلة على خاطري.. وألحت على ذهني.. ورحت أفتش عن ذلك الإنسان الطيب.. من يكون؟ وأين؟ هل هو موجود بين ظهرانينا.. أم نادر الوجود أم هو غير موجود أصلاً؟

حركت هذه المسرحية المتقنة الحبكة، الدافئة الحوار، الرائعة الأداء عدة معان في ذهني.. فرحت أبحث عن ذلك الإنسان الطيب في نفسي.. وفي الآخرين.. أفتش عنه في تاريخ عظماء العالم.. وعباقرته.. وبسطائه أيضا، لكن فصول التاريخ لم ترشدني إليه.. حتى بت أصدق حكمة أيدوجين الكبي الذي سأله الناس عمن يبحث وهو يتجول في الطرقات حاملا مصباحه المنير في عز النهار.. فقال مجيبا: «أبحث عن إنسان».. فهل ما كان يبحث عنه هو ذلك الإنسان الطيب؟.. وهل من الضروري أن تكون صفة الإنسانية مرادفة للطيبة؟.. ثم ما هي الطيبة؟ أو من هو الإنسان الطيب؟ هل هو ذلك النادر الوجود الذي وصفه شوقي في أشعاره:

عفيف الجهر والهمس قضى الواجب بالأمس
ولم يعرض لذي حق بنقصان ولا بخس
وعند الناس مجهول وفي السنهم منسي

ورغم ندرة وجود إنسان شوقي فانني لا أعتقد أن ما عناه شوقي كان هو ذلك الإنسان الطيب بل كان يعني الإنسان المنضبط في سلوكه وحياته وعمله غاية الانضباط.. لكن هذا ليس هو الإنسان الطيب.. على وجه الدقة واليقين.. ولا يجب أن يظن أحد أو يتصور إن الإنسان الطيب هو ذلك الإنسان الساذج.. أو ذو الغفلة. لا.. وألف لا.. إنه نوع آخر من الناس.. تقرؤه من أول وهلة.. تقرأ عينيه وتقرأ وجهه.. حتى مشاعره تتبدى في

ملامحه.. في حركاته وسكناته.. هـو صـادق.. رحب الصدر. لا يكذب ولا يتجمل بالكذب.. لا ينافق ولا يـداجي، لا يرتشي.. لا يتسلق.. ولأنـه كذلك فإنه دائما ـ إذا وجد ـ في زوايا النسيـان.. رغم انه هـو الإنسـان.. وجهه يفصح عن مكنـون ذاتـه قبل أن ينطق لسانـه، ولسانه ينطق بما يجول في قلبه، وقلبه على يده يقدمه لكل الناس.. حتى لو تعرض لطعنات الأصدقاء، ولطمات الأعداء.

إنه ذلك الـذي يسارع إلى مسـاعدتك ومـد يد العون لك دون أن يعـرفك.. بل ودون أن ينتظر منك مقابلا، ذلك لأن علاقات الإخاء الإنسـاني هي التي تربطه بك، وتقربك منه، إنه ذلك الإنسـان الذي إذا رآك في مـوقف ضعف تعاطف معك.. مـد لك يد العـون.. إنه طـوع ضميره.. وضميره متوهج في داخله.. لأن الله هو الضمير داخل نفوسنا.

يحسبه الناس من فـرط صراحته ساذجاً، ومن فرط أدبه خجولا، ومـن آيات تواضعه ضعيفاً، ومن معاني كرمه سفيها، أما عن حرصه على صداقة كل الناس وإرضاء كل البشر أصدقـاء وغير أصدقـاء فهو نوع من تبـديد الوقت والطـاقة والجهـد.. فكل شيء في عرف هؤلاء لابـد أن يكون لـه مقابل.. ولـه ثمن.. الصداقـة.. والعلاقـة مع الآخرين، مسـاعدة الناس.. حبهم.. حتى صلة الرحم والتواد والتعاطف.. كل شيء بثمنه.

أمـا أنت أيها الإنسـان الطيب فلست مـوجـودا.. فقط أنت مـوجـود في خيـال المؤلفين والأدباء والشعراء وقـد عالج «بيرخت» هذه القضية في مسرحية «الإنسـان الطيب» بذكاء شديد، وعبر حوار حي وذكاء نادر فوضعنا بعمله المسرحي الناضج عراة امام أنفسنا.

كانـت الصورة بشعـة.. بقدر ما كـان هو صـادقا.. كـان يسألنا مـن خلال حـواراته المتميزة.. أين أنت أيها الإنسـان الطيب؟ أين أجدك يا من تسعى إلينا مـودة وقربا لا لشيء سوى إنك إنسان، يا مـن تساعد وتعطي دون سابق معرفة ودونما غـاية أو هدف «الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّا ولا أذى»، «الذين ينفقون في السراء والضراء»، «الذين ينفقـون أموالهم بالليل والنهـار سرا وعلانية»، «وعباد الـرحمن الذين يمشون على الأرض هـونا وإذا خـاطبهم الجاهلون قالـوا سلامـا، والذين يبيتـون لربهم سجدا وقيـاما، والذين يقـولون ربنا اصرف عنا عـذاب جهنم إن عذابها كان غـراما، إنها ساءت مستقرا ومقاما.. والذين لا يشهدون الزور وإذا مرّوا باللغو مروا كراما».

حوار الطبيعة
وحـــوار معها

قال له صاحبــه وهو يحاوره.. مشفقا عليه.. مطمئنا إليه مقدمــا من مشاعره، باذلا من صداقته ووفائه له:

ـ مالي أراك حزينا آسيا.. مكفهر الـوجه كسيف البال.. كأن عواصفك توشك أن تندلع.. بعد أن غشيتك الغاشيــة.. وظللت نفسك الصافية سحب رماديـة أميل إلى السواد.. تتراكم بعضها فوق بعض وكأنها تنذر بإنهمار عيونك أنهارا ـ نسميهـا نحن دموعا ـ رعدها بكاء ونحيب.. أما برقهـا فبريق كأنه الشرر.. ومجاريها في المآقي.. ومع إنحدارات الخدود تصل الى الشفــاه فتبللها.. ثـم تنحدر إلى الأعنــاق والـرقاب فترطبهـا بعـد أن تكـون قد فقـدت حرارتها.. وتوقف جريانها..

قال الفتى لصاحبـه.. مشيحا بوجهه.. ضانا بـابتسامته: ومالي أراك تحاول أن تجري عليّ ما يجري على الطبيعــة من تقلبات؟.. لم تحاول؟.. فذلك أمــر بديهي.. وأنا جـزء منها.. يجري عليّ ما يجري عليها.. وإن كنا نحاول أن نجد تفسيرا لظواهر ومظاهر الطبيعة عندما تثور ثائرتها.. عواصف.. وبراكين وزلازل.. أمطارا وسيولا.

وعندما تتراكم السحب بعضهـا فوق بعض منذرة بالمطر.. معلنة بلمعــان البرق وهدير الرعد إن شيئا ما سيحدث أو أنه قـد حدث.. فهل يا صديقي تسأل الطبيعة عما يبكيها.. أو يشقيهـا؟.. مــا الذي يجعلهـا تتفجـر من فـوقنــا حمما أو مطرا ومن تحتنــا نــارا وشررا وارتجاجات أرض؟

لم تسألني.. وأنا ابن الطبيعــة.. أحيانــا تغيم سماء نفسي فلا تصفو إلا بـانهمار الدمع شآبيب.. تسبقهـا أو تلحق بها أصوات رعـد أو التماعات بـرق وفجأة يدوي كل شيء.. أو يحدث أي شيء ثم أصفو.. وتشرق شمسي من جديـد.. وتضيء النجوم في سماواتي.. يصفو هـوائي.. تتخللـه نسمات عليلـة رقيقة.. فينقلـب البكاء إلى غنــاء.. وتعكـر المزاج إلى فــرح وحبور.. فلا أعود أبكي.

أنا يا صديقي صنو الطبيعة.. لا أدري سببا لتقلبات نفسي سعادة أو حزنا.. مهما حاول الحكماء وعلماء النفس والمختصـون تفسير القلق الإنســاني.. والأرق البشري.. وتـوزع النفس بين السرور والحبور.. وبين البكاء والكآبة حينا بعـد حين. لقد عجزوا ـ وإن حاولوا

ـ تفسير ما ينتاب النفس الإنسانية من عوامل وعوارض.. من عواصف وأعاصير.. زلازل وبراكين.

وأعترف ان علماء الرصد والأرصاد قد جروا مع الطبيعة مجرى علماء النفس مع الانسان في محاولتهم تفسير تقلبات الطبيعة والطقس.. وإن تنبأوا بحدوث تلك التقلبات فعزوها إلى منخفض جوي هنا، ومطب هوائي هناك، وسحب كثيفة في المرتفعات.. وهطول أمطار في المنخفضات، لكنهم ــ رغم كل ذلك ـ لم يوفقوا.. كما لم يوفق علماء النفس في تفسير تلك الظواهر الطبيعية أو الإنسانية.

فعلماء النفس لم يقولوا لنا لم تهب على النفس عواصفها وتنتابها الأعاصير.. أو يعلوها ركام السحب الرمادية والسوداء.. ويناوشها الهواء الساخن.. أو يتدفق من المآقي الدمع الحار؟.. أو لم يصفو الجو ويعتدل.. وتسطع الشموس في أنفسنا؟.. لم يفسروا.. لم يقولوا لنا.. فلا هم عرفوا ولا نحن.

والمؤكد أننا نحن والطبيعة في داخلنا ومن حولنا تسيرنا قوى مجهولة غامضة.. إلا أنها حكيمة عاقلة.. فوراء كل ظاهرة حكمة.. ووراء كل قوة كامنة أو متفجرة قوة أعظم.. لكننا ـ على ما يبدو ـ لا نعلم أو لا نريد أن نعلم.

ولكن سعدت عندما بكت السماء الدنيا منذ أيام بعد طول صحو.. واعتدال جو.. فقد سعدنا بالبكاء.. وهل يكون في البكاء سعادة؟ بل لكم بكينا عندما ظل الطقس يدفئنا بصحوه، وسطوع شمسه.. وهل مع الدفء بكاء؟!

لذلك رحنا نصلي من أجل أن تبكي السماء فيما نسميها بصلاة الاستسقاء.. ونعلن فرحنا عندما تتساقط حبات المطر فإذا بالأرض قد اهتزت وربت.. أما إذا زاد البكاء رفعنا أيدينا إلى السماء كي يغيض الماء.. فاننا لا نصبر على حال واحد.. تماما مثلما لا نصبر على طعام واحد.. هذا حال النفس الإنسانية وحال الطبيعة ايضا.. بل وحالنا مع الطبيعة.. فنحن بعض منها.. لا نستطيع أن نعيش صحوا دائما أو عواطف دائمة.. مهما اختلفت درجات العواصف.. ومهما كان تأثيرها، فلا صيف دائم يرضينا ولا شتاء.. لا الليل ولا النهار.. لا الظل ولا الحرور.. لا البؤس الدائم ولا السعادة الدائمة.. هذا حالنا مع أنفسنا وهذا حال الطبيعة معنا.. وحالها مع أبنائها أيضا.

لله المجد في الأعالي
وعلى العرب السلام

ونحن نقترب من الترتيبات الشرق أوسطية أرادوا ـ لو استطاعـوا ـ أن يفقدونا هويتنا العربية وسورنا القـرآنية وصفاتنا العدنانية.. وطموحاتنـا القومية؛ لندور في فلك المنطقة مجرد دول أقل من فيها كثـافة سكانية.. ومـوارد طبيعية. لا يجمعنا جامع.. ولا تـربطنا هوية.. ولا يعصمنا عاصم من تداعي القوم علينا كما تتداعى الآكلة إلى قصعتها.. ولا بأس إذا اختلطت اللغات لتكتب معا من اليمين إلى الشمال.. عربية وعبرية.. تركية وغيرها.

وإذا كان ذلك كذلك.. فالأولى بنا أن نعيـد المد القومي إلى سابق عهده.. والحس التراثي إلى سالف أوانه ومكانه؛ لنواجه التحدي بتحـد مثله.. فلا ننسلخ عن جلودنا.. أو تراثنا أو هويتنا العربية.. وما من أحد يستطيـع ذلك إلا إذا أردنا.. وكما قال وذكر وزير خارجيتنا اللامع الشيخ محمد بن مبـارك آل خليفة أن أحداً لن يمكنه أن يسلخنا عن جلـدنا العربي، وحسنا القومين وتـراثنا الغالي في ظل هـذه الترتيبات الشرق أوسطية المأمولـة أو المطلوبة تحت شعـار التعايش والمصـالح الاقتصاديـة المتبـادلة، واقتسـام المياه والحيـاة وقصم الطموح والتطلع القومي.

ومادام مطلـوب منا مواجهـة التحديات الآنيـة والقادمة بـالعض على هويتنا القـومية بالنواجـذ.. فإن كلمة العروبة ومعناهـا وفحواها ومداهـا يجب أن يكون له من الآن طعم خـاص وسلوك أخص يطبع مسيرتنـا القـادمة حتى لا نتـوه وسط متـاهات القـادم من الترتيبات والتعصبات.. والمنافع والمصالح الضيقة الأفق المغلقة قطريا.. فنتحول كدول إلى مجموعة مـن الدكاكين التجاريـة.. والشركات المساهمة المقفلة أو ذات التـوصية البسيطة والمسئولية المحدودة.

لنواجه النعرات التي خلفتهـا لنا حرب الخليج القاسية.. وهي نعرات تـدعو إلى العزلة وتشد دولنـا إلى الانغلاق عن النواة العـربية التي هي أقوى وأجمل مـا نملك.. بل إن هذه الـدعـاوي رفعهـا البعض حتى من قبل حـرب الخليـج.. في مصر اطلقـوا عليهـا الشرق أوسطية، وانتماء مصر لحوض البحر المتـوسط، والمطالبة بجنوحها نحـو أوروبا الغرب، وهناك من تطرف في انغلاقه فرفع لواء الفرعونية وقال إن مصر فرعونية وليست عربية.. وكان الجميـع في ذلك جهلهم واضح.. وتجنيهم بين لم يدركـوا أن مصر عربيـة منذ آلاف

السنين.. حتى أثناء الفراعنة أنفسهم.. فالفراعنة أصلهم عرب.. جاءوا من الجزيرة العربية، يفسر ذلك التاريخ البعيد وتؤكده الحفريات الجيولوجية في مصر والجزيرة العربية أيام أن كانت الجزيرة العربية في سالف العصر والأوان قبل عشرات الآلاف من السنين جنة خضراء تجري من تحتها الأنهار.. ينعم إنسانها بالرخاء الأخضر.. ورفاهية المرعى.. وحسن الطلعة ومع مرور دوات الحياة.. عبر آلاف السنين.. زحف التصحر.. وأجدبت الأرض نتيجة لعوامل عديدة أكدها الجيولوجيون وأثبتها العلماء.. والشواهد على ذلك كثيرة منها ما ثبت بصور الأقمار الصناعية والاستشعار عن بعد كما جاء في أثر مذكور للدكتور العالم فاروق الباز، وكما تضمنته أبحاث علماء من السعودية نفسها منهم الدكتور شحته الخطيب مدير برنامج علوم الصحراء والأراضي القاحلة.. وخلاصة القول أنه نتيجة لعوامل كثيرة ـ ذكرها الباحثون ـ زحف التصحر.. ولم يجد الناس مهربا منه سوى الترحال بحثا عن المياه فاستقر بعضهم على شاطىء دجلة والفرات.. وبعضهم الآخر وجد سلوته ومأواه على ضفاف النيل، ثم أخذ يصنع حضارته في الرافدين.. وفي مصر القديمة الفرعونية.. لكن يبقى الأصل والفصل من البداية وحتى النهاية عربيا.

والآن مطلوب منا أن نؤكد من جديد تمسكنا بهويتنا القومية في مواجهة ولمواجهة دعاة الشرق أوسطية، وإنكار القومية والهوية حتى نجد لنا موضع قدم في القرن القادم.. قدم يحركنا وسط هذا الخضم إلى الأمام.. ولا يقف بنا فيدفننا تحت الركام.. وحتى نقول حقا.. المجد لله في الأعالي.. وعلى الدنيا السلام وليس على العرب السلام.

بين الإرهاب والكباب
يا قلبي لا تحزن

لم أكن أفهم تماما طبيعة تلك العلاقة الجدلية التي أقامها الفنان عادل إمام في فيلمه بين الإرهاب والكباب وقد أجهدت ذهني طويلا في محاولة تفسير تلك العلاقة حتى أدركت أخيرا ان مصر ـ ولا جدال في ذلك ـ تتميز بصناعة الكباب وأكله واطعامه للآخرين. ويبدو ـ وهذا تفسير أصبح مقبولا ـ أن عادل إمام أراد أن يجمع في عنوان فيلمه أمرين تتميز بهما مصر أو أصبحت تتميز بهما وهما الكباب والإرهاب.. فقبل الآن تميزت مصر بالكباب فقط أما في هذا العصر فقد دخل الإرهاب إلى حياة المصريين كعنصر منافس للكباب، صحيح أنه لا تخلو بلد ما من الإرهاب.. لكن هذا النوع من الإرهاب الذي شهدناه أخيرا لم تعرفه مصر ولا يقبله الشعب المصري.. المسالم بطبيعته.. الرافض لإسالة الدماء ونشر الخراب.. فتلك طبيعة عرف بها الشعب المصري.. حتى حوادث الإرهاب التي وقعت في الماضي، وعايشناها كانت مقتصرة على الاغتيالات الفردية لبعض الوزراء أو الزعماء.. وعادة لم يكن يذهب ضحيتها سوى المقصود بالاغتيال أما ما شاهدناه في مذبحة شارع الشيخ ريحان في محاولة لاغتيال وزير داخلية مصر فقد تعدى أسلوب الاغتيال السياسي إلى محاولة اغتيال شعب بأكمله.

وقد قادني حظي السيء إلى ذلك المكان وقت وقوع الحادث إذ كنت قاب قوسين أو أدنى من الموقع الحربي.. أجريت وقتها بعض إجراءات لجواز السفر في مجمع التحرير وأنهيت معاملاتي قاصدا الجامعة الامريكية، وما إن طالعت ميدان التحرير أمام المجمع حتى سمعت أصوات انفجارات، وفزع وهرج ومرج في الميدان وأصوات سيارات نجدة وإسعاف.. وصراخ وزعيق.. وهلع.

ولم أدرك وقتها ما الذي حدث.. كل ما أدركته أن هناك حدثا جللا.. وأن هناك ضحايا.. حتى تكشفت الأمور.

وهذه الأمور تشير إلى ما ينهجه الإرهابيون من نهج في الإرهاب هو محاولات لترويع الآمنين، وقطع رقاب الشعب المصري بأكمله، وإخضاعه تحت التهديد لمنطق التطرف.. وتلك لعمري طريقة لا تفلح في مصر.. ولا يقبلها الشعب المصري.

فعلى طول التاريخ القديم والحديث انسجم الشعب المصري تماما مع طبيعته المسالمة

ورفض الارهاب.. والاغتيالات الشخصية.

وقد شاهدت وعاصرت ذلك بنفسي منذ أن كنت صغيرا.. طفلا عندما قرر رئيس وزراء مصر في الأربعينات أحمد ماهر باشا الانضمام إلى جانب الحلفاء في الحرب. وبينما هو يعرض قراره على مجلس النواب تقدم منه شاب اسمه العيسوي، وأفرغ فيه رصاصات مسدسه وهو في البهو الفرعوني. كذلك عندما قام النقراشي باشا رئيس وزراء مصر في نهاية الأربعينات بحل جماعة الإخوان المسلمين قررت بعض العناصر اغتياله.. وكان وزيرا للداخلية إلى جانب كونه رئيسا للوزراء.. وفي وسط وزارة الداخلية ارتدى شاب اسمه عبدالمجيد حسن ثياب ضابط شرطة، وانتظره عند المصعد.. وبعد أن أدى له التحية العسكرية «تماما».. أطلق عليه الرصاص فقضى عليه.

وكذلك الأمر في مقتل أمين عثمان باشا وزير المالية الذي كان مواليا للانجليز وأعلن مرارا أن ما بين مصر وانجلترا هو زواج كاثوليكي لافكاك منه.. وإلى جانب هذه الممارسات الارهابية حدثت بعض التفجيرات في سينما كوزمو.. وغيرها.. لكن الإرهاب لم يتعد ذلك الى قتل الناس جميعا (عمال على بطال) وحصدهم حصدا دون تمييز.

ويبدو أنه مثلما تطورت صنعة الكباب في مصر فان صنعه الإرهاب قد أصابها تطوير أيضا مع فارق واحد هو أن الكباب تظل نكهته في حلوقنا حتى بعد أن نغادر القاهرة، ونركب الطائرة إلى الخارج إلا أن صنعة الارهاب تترك مرارة في حلوقنا، ورجفة في نفوسنا ليس كمصريين فقط وإنما كعرب أيضا.. فكلنا نحب الكباب.. وجميعنا نرفض الإرهاب ولا نتعاطاه أيا كانت مبرراته وفلسفاته ومناهجه.

أبونا.. الذى علمنا
زراعة الأعضاء

فى القرن القادم.. إذا عشنا.. والعمر الطـويل لنا ولكم سوف يعيش بعض منا بقلب قرد وكبد خنزير وبنكرياس كلب.. ذلك سيكون ممكنا.. هكذا قال علماء زراعة الأعضاء.. وتلك ليست تنبـؤاتهم.. إنما هي تجاربهم التي يعكفـون عليهـا الآن بنجـاح قليل وأمل كبير في نجاح أكبر.

فبعـد أن نجحت عمليات زراعة الأعضـاء من الإنسـان إلى الإنسان بنسـب متفاوتـه وصلت فى إحـداهـا إلى ٩٥٪ كما في حـالات زراعـة الكلى.. وبعـد أن لجأ بعض الجراحين الأعـاظم أمام ضغـط الحاجة إلى تـوافـر اعضاء ومتبرعين أعـزاء لـزراعتها في الإنسـان بأعضائهم حال حياتهم أو بعد مماتهم - إلى زرع أعضاء أطفال موتى فى عمر أقل من سنة لرجال ونسـاء بلغوا أشدهم.. وأشدهن. ونمت هذه الأعضـاء من كبد وكلى وغيرهما نموا طبيعيا على مرور الأيام.. ونجحت التجارب.

نقول بعـد كل هذه التجارب النـاجحة.. والنجاحـات الباهـرة كان لابد من الاستعـانة بالحيوان لأخذ الأعضاء منه في محاولة لزراتها بالإنسان.. ومن أجل الإنسان.

هـذه الأماني والآمـال جـاء بها حـديث مستفيض دار بيني وبين أبـونا البروفيسـور العـربي الذي علمنـا زراعة الأعضـاء، واحتل موقـع الصدارة العـالمية في كنـدا وأمريكـا وبريطـانيا في زراعة الأعضـاء فلاحقته الشهرة.. واصطـاده النجاح تلو النجـاح.. قال لي البروفيسور جورج أبونا.. حياه الله وبيّـاه وشفى مرضاه.. ومتع الله بالصحة مئات من المرضى الذين وصل بهم حال الكلى منتهاه.. أو تليف منهم الكبد.. وتوقف البنكرياس عن العمل فلم يفـرز وحول الـدم الإنساني إلى شربـات في شربـات وما يتبع ذلك من «دوخـة وأعباء».

قال لي هذا الطبيب العملاق رئيس قسم زراعة الأعضـاء في جامعة فيلادلفيا ومؤسس

اكبر مركـز لزراعة الأعضاءبـالكويت.. إنه كما تحقق حلم العلماء في زراعة الأعضـاء منذ الخمسينيـات وتقدم هـذه الجراحات بشكل مثير في الثمانينيـات حتى بلغت نسبة نجـاح زراعـة الكلى ٩٥٪ إذا كانت من الأقـارب ونجاح زراعـة القلب بنسبة ٨٠٪ والكبـد ٧٥٪ والبنكرياس ٧٠٪ والأمعاء والرئة بنسبة ٥٠٪ فإننا الآن أمام مشكلة عدم توافر الأعضاء وتزايد عدد المحتاجين إلى زراعة الأعضاء، وقلة المتبرعين بها نجري تجارب على الحيوانات أملاً في الاستعانة بأعضائها وزرعها في الإنسان.

لقـد أخذنـا أعضــاء من الحيوانـات.. تمهيـدا لتجربـة زراعتهـا في الإنسان.. وأقـرب الحيوانات إلينا القردة والخنازير!! هكذا يقـول وهناك تجارب كثيرة أجريت ـ مازال أبونا جورج يقول ـ بالاستعـانة بالهندسة الوراثية، وتبديل أنسجـة الخنزير قبل ولادته حتى يمكن الاستعانـة بأعضائه وزرعهـا للإنســان المحتاج لأن الإنســان لديـه أجسام منـاعة مضادة للحيوان تشكل رفضا قاطعا لأي عضــو منه يدخل في الجسم. وهناك طرق كثيرة نتوسل بها، وفي السبعينيـات زرعنا كبد قرد لطفل فـرفضه، وقمنا بزراعـة كلى قرد لآخر واستمر حيـا لستة أشهر فقط. والتجارب مستمـرة مما جعلني أتوقع أن نشهـد في القرن الـواحد والعشرين عمليـات زراعة أعضــاء ناجحـة في الإنسان بعـد الحصول عليهـا من الحيوان.

الآن نجري التجارب على الحيـوان.. نأخذ عضوا من خنزيـر ونزرعه في كلب، ونعطي من الكلب إلى القرد.

ويبقى الأمل في القـرن الـواحد والعشرين.. فـالـذي يعاني مـن داء السكري ويحتـاج أنسولين سنتمكن من زراعـة خلايـا البنكرياس لـه.. وليس البنكريـاس كله.. ولاشك أن زراعة الخلايا أقل تعقيدا من زراعة البنكرياس كله.

سوف يمكن الاستعانة بأعضاء بعض الحيوانات لزرعها في الإنسان لنلبي حاجة الذين يحتاجـون فعلا إلى زراعـة الأعضاء من الـذين تتزايـد أعدادهم ففي عـام ٨٤ أي قبل ١٠ سنوات كـان عدد المنتظرين لـزراعة الأعضاء ٨ آلاف شخص في جميع أنحـاء العالم الآن

وصل عددهم إلى ٣٥ ألف شخص.. تصوروا.. من أين نحصل لهم على أعضاء.. والمتوافر قليل منها وعدد المتبرعين قليل أيضاً لسبب أو لآخر.. رغم أن الدين الإسلامي والمسيحي لا يعترضان على ذلك بل يبيحانه.

الخلاصة التي وصلت إليها من حديث أبونا - فعلى كل حال هو أبونا في الجراحة وفي زراعة الأعضاء - أن القرن القادم سوف يشهد ثورة في زراعة الأعضاء للانسان.

سيمكنك الدخول برمتك إلى مركز زراعة الأعضاء لتركب قطع غيار حيوانية أو إنسانية.. يعني - بلغة السيارات - قطع غيار أصلية أو مقلدة.. وكله ينفع.. المهم أن تعيش ويطول الله في عمرك.. حتى تستوفي أيامك دقيقة بدقيقة.

يعني هذا ممكن.. وممكن أن يحدث في القرن القادم.. وهل كان ما يحدث الآن ممكنا قبل ٣٠ سنة مثلا.. هل كان أحد يتصور زراعة القلب أو كلى أو كبد أو بنكرياس؟

لا أحد كان يتصور.. وعندما نتذكر الذين رحلوا عنا قبل أن تتطور تلك التقنيات الجراحية ترحمنا عليهم وإن كنا نعلم أن الموت الذي لحق بهم كان محتما.. وعمرهم محددا، ولو كان في العمر بقية لأدركوا نجاح هذه التقنية، ولعاشوا حتى يستوفوا أعمارهم.. ولله في خلقه شئون.. ووجودنا في هذه الحياة مرهون بإرادة الله وحده، برفض العضو المزروع أو قبوله.. وذلك أمر ليس للأطباء يد ولا رجل ولا عقل فيه حتى الآن.. إنهم يحاولون.. نحن نتعلق بالأمل.. في قلب قرد وكلية خنزير.. وبنكرياس كلب.. وبيننا وبين ذلك خمس سنوات لا أكثر.. تسبقنا وتلحق بنا إرادة الله ورحمته أيضا.

عندما ظهر الهلال
في سماء الأسرة البحرينية

كان مـن حق الهلال الأحمر البحريني أن يحتفل بيـوبيله الفضي.. سنوات مثلـت قمة العطاء الاجتماعي والإنسـاني في هذا البلد.. لـذلك كان واجب المجتمع نحو هـذه الجمعية الاحتفاء بها أيضا.. وبين الحق والواجب تبرز حقيقية ناصعة ماثلة للعيان.

هي حقيقية مبهـرة.. مبصرة.. لا يختلف على رؤيتها ورصدها اثنـان.. أو على الاحتفاء بها ذوو البصر والبصيرة.. إن النافـذ ببصره إلى أعماق النشاط الإجتماعـي والإنساني في البحرين لابد وأن يدرك بسهولة أن الهلال الأحمر كان محورا لهذا العطاء.

وعند وصولي إلى البحرين لأول مرة.. كـان أول ما شد انتباهي واهتمامي ذلك النشاط الاجتماعي والإنسـاني الجم الذي كـان يقـوده الهلال الأحمر من خـلال مبناه القـديم.. العتيق.. ورغم قدم المبنى وتواضعه إلا أنـه كان متوهجا بالحياة، مـوارا بالحركة، زاخرا بالعطاء.

كانت جميع الأنشطة الاجتماعية ـ تقـريبا ـ تدور داخل الهلال الأحمر، أو تنبثق عنه.. الكل.. أبناء البحرين وبناته.. يعملـون معا بمنطق الأسرة الواحدة، وكنت كصحفي تشده الأخبار، وتستثيره الأسرار، وتنير طـريقه الأفكـار النيرة أجدني مـدفوعـا إلى التردد على جمعية الهلال الأحمر وهي مـازالت في مهدها لم يتعـد عمرهـا عاما واحـدا، وذبت في هذه الأسرة البحرينية الـواحدة، اصبحت واحدا منها.. واكتسبت عضـوية الهلال.. وكان ذلك مثار فخارت واعتـزاز، تآلفت روحي مع كل من كان يعمل في إطار هـذه الجمعية.. عرفت روادا وأصدقـاء.. وزاملت الكثيرين.. وكانت لنا أيام وأيـام.. ومازلت اتذكر أول الـوجوه التي قابلت في الهلال الأحمر.. من هذه الوجوه مبارك الحادي بخفة روحه وشبابه المتوثب وطموحه الذي تنطق به عيناه الذكيتان. والصديق صادق الشهابي الذي كان يقضي معظم وقتـه في الهلال.. يشـارك ويقترح.. وينـاقش.. الصـديق إسماعيل اكبري.. ذلك الشـاب الطمـوح.. ثم هـا هو ذا الـرجل الـذي وهب نشـاطـه للهلال الأحمر من البـدايـة.. خليل المريخي.. والمخضرم جدا المخلص دائما لهذه الجمعية الدكتـور رمزي فايز.. و.. وغيرهم، آخرون وآخريـات.. ممن راقبت نشاطهم ونشاطهن بإعجاب وتقـدير زائد.. كان الجميع يعملون داخل الهلال أسرة واحدة متحابة جاءت من كل صوب وحدب ومكان.. من المدينة

والقرية.. جمعهم حب العطاء لهذا البلد مـن خلال الهلال، كان العمل لا يستقر ولا يهدأ له قرار.. عمـل مستمر وجهد رائع، وائتـلاف إنساني عميـق.. البحرين كلهـا أسرة واحدة.. داخل الهلال الأحمر.. الهدف نبيل.. والهدف واحد.. هو خير المجتمع كلـه.. والوسيلة هي عطاء بلا حدود لا حساب فيه لجهد أو تعب ونصب أو حتى وقت.. كل شيء يهون من أجل البحرين.

كان ذلك هو إحساسي بالعـاملين في هذه الجمعية.. إنهم خلية نحل لا تهدأ.. ولا تكل من طول عمل.. يبـذلون الجهـد والعرق والوقـت خاصة فيما بعـد فترة الدوام الـرسمي بعد الظهيرة.. ويمتد عملهم إلى ساعات متأخرة من الليل.. من خلال اللجان المختلفة.. وزيارات القرى للتوعية.. لتقديم المعونات إلى المحتاجين.

ومن خلال هذه الجهـود كانت تطل وجوه شابـة.. أو كانت شابة.. أذكـر وجه الزميل محمد حكيم الـذي عرفته ،وتعـرفت عليه لأول مـرة من خلال الجمعية، والـزميل الكريم الصحفي نصر الدين حمد وغيرهما.

كان العطـاء بحب وسعادة غـامرة لحظتهـا عن قرب مـن خلال لجان الهلال الأحمر.. الكل في واحد يعمل بحماس لا يغيـض أبدا.. شباب وشـابات مثقفـات ومتعلمات، وربات بيـوت من فضليات العـائلات البحرينيـة.. وفي الأزمات سـواء في الداخل أم الخارج كـان الجميع يسـارعون إلى الخيرات بـدأب وإصرار عجيبين.. وكان مثيرا لـدهشتي أن الجميع مقبلون على بذل الجهـد تطوعا.. فقد كـان سعادتهم بالعطاء تفوق كـل حد.. ويتبدى ذلك جليا في المواسـم والأعياد والمناسبات. كانت كل الأيادي تجود بالخير.. بالعطاء..

أذكر أننـا كنا نركب «اللنش» أو المركب لنـذهب إلى جزيـرة النبيه صالح مثـلا لإجراء بحث اجتماعي أو توزيع بعض المساعدات وما شابـه ذلك.. لا أتذكر تماما!! لكن ما أذكره أن أعمال الخير كانت تترى على أيدي الجميع.. كانوا تـوليفة واحدة من أبناء البلاد.. حيث كان الكل في واحد.. والواحـد هو هذا الوطن.. أما الهدف فهو الخدمـة العامة والعطاء دون حدود.

أذكر فيما أذكر أن هذا الحماس العجيب للعمل التطوعي قد مسّه بعض الفتور في حقبة الثمانينيات بـالذات مع نمـو قطاعـات الأعمال والمال وتغير وجه الحيـاة، ورغم ذلك فإن المخلصين من خلصـاء الهلال الأحمر ظلـوا على عهـدهم بـل انعكست آثـار هـذا التطـور الاجتماعي الاقتصادي على أنشطـة الهلال فكان مزيدا من العطاء المزدهـر والمتنوع حتى عادت دائرة العمل التطوعي إلى حماس البداية وتوالت قوافل المتطوعين والمتطوعات تعمل

بكل فاعلية وحب في جوانب العطاء المتنـوع، ومن خلال مشروعات جديدة خيرة انصهرت جميع طـاقات أبنـاء وبنات هذا الـوطن ومـازال العطاء مستمرا رمـزا للانتماء وتـأكيدا للوفاء.. من هنا فإننا نحني رؤوسنا تحية وتقديرا للهلال الاحمر في عيده متمنين له مزيدا من العطاء الاجتماعي الإنساني.

عش حياتك
بعد الستين

كثير من أصدقائنا المقربين أحسسنا من الآن بهم وهم يستعدون للتقاعد، وترك الوظيفة أو العمل بعد أن قاربت سنهم الستين، وهم مابين حذر .. أو وجل .. وكأن يوم التقاعد هو يوم الهول الأعظم أو أكثر «يوما إدا» وعادة ما أجلس إلى هؤلاء وأولئك لأواسيهم بل لأفصح لهم عن حقيقة التقاعد، انه لايعني أن المجتمع قد أعطاك ظهره، وتغافل عنك أو تباعد، كما لايجب ألا يعني بالنسبة للمتقاعد ان آخر الأيام قد حل .. وأن نهاية العالم قد اقتربت .. نهاية عالمك على الأقل .. فليس مطلوب منك انتظار الوحدة والدخول مختارا أقفاصها الوحشية والموحشة فتكون بداية النهاية، مع أن الأجدر بهؤلاء ـ لو علموا ـ أن يحتفوا بسنوات التقاعد والتحرر من عناء العمل وربقته. الى الأنطلاـ بسرعة إلى سماوات التأمل .. الجلوس مع الذات، والتمتع بجمال الحياة والأحياء .

ففي حومة العمل اليومي الذي يشدنا جميعا في ساقيته كالـــ .. المغمى العينين لانكاد نجد وقتاً للراحة .. للتأمل .. للتدبر لمارسة هواية ما أيا كان نوعها ولونها.

فإذا تمكنا من الحصول على إجازة سنوية، أو حتى أسبوعي فإن استمتاعنا برحلات قصيرة أو طويلة يظل مقيدا بانتهاء أيام الإجازات...نحسب حسابات البداية والنهاية وتظل الإجازة قلقة، وكذلك الاستمتاع بها مصداقاً لذلك لنتأمل كيف سعى الإنسان ويسعى منذ قديم الزمان إلى التخفف من عناء العمل بالإجازات .. بتطوير أسلوب العمل وتقنياته حتى يقتنص أوقات فراغ كافية وإجازات تتعدى اليوم في كل أسبوع إلى يومين بل إنه فى المجتمعات التى بلغت حظاً أوفر من التقدم والرفاهية يتطلع إلى ان تصبح الإجازة ثلاثة أيام متوسلاً الى ذلك بالتكنولوجيا المتطورة، والأجهزة العجيبة المتقدمة. كي ينجز أعماله في أقل وقت ممكن حتى يتحرر بعدها لساعات أطول من عناء العمل، وليمارس

حياتـه من خلال التأمـل .. المطالعة .. السفـر .. ملاعبة الأبنـاء .. ملاطفة الزوجـات .. بل متابعة كافة الأمور وأخطرها أيضـاً .. إن كل ذلك يحتاج إلى وقت أطول .. والعمل لا يمنحنا ذلك الوقت الا لماما وبـالكاد وتظل دوامة العمل تشدنا حتى نهايـة العمر .. أو حتى التقاعد أيهما أقرب. لذلك يبقى المثل القائل: الحياة تبـدأ بعد الستين مثلا صحيحاً ليس فيه مبالغة أو مجاملة لأحد .. هذا اذا أدركنا ما الذي يعنيه ذلك المثل حقاً.

وقد يقـول قائل: إن العمل يعنـي استمرار الحياة أو أن الحيـاة تستمر بالعمـل .. وتلك مقولة صحيحة .. لكن يبقى صحيحاً أيضاً القول: انه اذا كان العمل يعني استمرار الحياة من التحفض من العمل بالتقاعد بالاجازات المفتوحة يعني الاستمتاع بالحياة .. وفرق بين استمرار الحياة ومعايشـة الحياة نفسها .. فرق بين أن تتعاقب أيامنـا وحياتنا، ولا نعرف كيـف نستمتع بها بعـد أن نتحرر مـن ربقة عمـل مستمـر، ونمتلك حـريتنا الحقيقـة فى الاستمتاع بالحياة، وليس فقط مجرد الاستمـرار في عيشها .. وليس بغريب علينا ولا على أحد أن نجـد كثيراً من السائحين الأوروبيين والامـريكيين والقادمين مـن الشرق والغرب الذيـن يجوبون عوالمنـا ويطوفون ببلداننـا، ويتطلعون إلى الاستمتاع بـآثارنا.. هـم ـ في الغالـب ـ ممن تجاوزوا سـن الستين، لقد تحرروا من اسـار العمل .. وسخرتـه وسخروا طاقـاتهم ووقتهم .. وأمـوالهم بعد هـذا العمر لـلأستمتاع بـالحياة في رحـلات متصلة .. ممارسـات وهوايات .. إعـداد مذكرات .. قراءات .. تـأملات فى الحياة والنـاس والطبيعة العذراء .. تأملات للنفس وجلوس إليها، سياحة فى ارض الله .. والتأمل بعمق فى الطبيعة .. في الأرض .. وفي السماء.

إنها بدايات جديدة يمكن أن نبدأها بعد سن التقاعد عن العمل والتخفف من أعبائه.

ودعونا نصارح بعضنا البعض .. هل كانت أيام العمل وسنواته تتيح لنا فرصة للتأمل الهادىء المطمئن او فسحة للاستمتاع بهواية من الهوايات، أو حتى الجلوس مع الآخرين؟

إن باب التقاعد يفتح امـام المتقاعدين أبواب أمل جديد لـلاستمتاع بالحياة .. وفرق بين استمرار الحياة .. مجرد الاستمرار وبين الاستمتاع بها .. ففـي الحياة الكثير مما يستحق منا أن نستمتـع به .. فقط إذا ما تخففنـا من أعباء دوامـة عمل لاترحم .. تظـل تسحقنا .. وتسحق أرواحنا وأذواقنا بل وصلاتنا الإنسانية العميقة حتى نهاية العمر فلا يكاد يتبقى منا شيء.

وأقول للمتقاعـدين أو الذين يستعدون للتقـاعد بخوف أو بحذر ووجـل إنها فرصتكم الجديدة للتعامل مع الحياة بنهج جديـد للاستمتاع بها بارتشاف رحيقها قطرة .. قطرة .. على مهل دون قلق .. ودون وجل متحـررين من ربقة العمل .. مقبلين على الحياة بـأمل بعد أن أعطيتم العمـل والوظيفـة ظهوركـم وحياتكـم، ثم أقبلتـم على الحياة بـوجوه سـافرة مستبشرة .. لاترهقها قَتَرَة .. ولاتثقل كاهلها دوامة عمـل روتيني يومي لافكاك منه .. أيها المتقـاعدون .. عيشـوا حياتكـم بعمـق وانتم يـاأيها الـذين تتطلعـون إلى التقاعـد أبشروا واستبشروا بيوم مقداره الف يوم من الأيام التـى أنتم فيها تعملون .. وذلك القدر والمقدار محسوب لكم بقـدر ماتستمتعون فيه بحيـاتكم أيام وسنوات مـابعد التقاعد .. وكـل سنة وأنتم طيبون وعقبالنا.

و.. ومازال التهويد مستمرا!!

أزمة القدس العربية الفلسطينية هي في الواقع أزمة فلسطين العربية، فالقدس هي القلب من الجسد الفلسطيني، وهي العمود الفقري لاحساس ومشاعر وارتعاشات الوجود العربي والإسلامي، ومادام الجسد رهن الاعتقال والاحتلال والاغتصاب فإن القدس لابد وأن تكون أيضا معتقلة .. ومهما لوحنا بألفاظ وشعارات عن قدس شرقية وأخرى غربية، ومهما قلنا عن تهويد القدس واغتصاب إسرائيل لمزيد من الأراضي والممتلكات العربية فيها فإن واقع الحال يقول إن القدس سقطت منذ قيام دولة اسرائيل في عام ١٩٤٨ وخطط لسقوطها منذ عام ١٨٧٩ في مدينة بازل بسويسرا إبان مؤتمر لوزان بقيادة «تيودور هرتزل» لقد قالوا إن أرضنا فلسطين مازالت تعيش غربتها وجدبها من الزرع والضرع .. وان اورشليم القدس هي عاصمتنا ولابد أن تعود .. بل لابد أن نعود نحن إليها من المنفى لتخرج هي من منفاها لتعود مرة اخرى الى الاخضرار والازدهار.

لذلك فإن أي كلام نطلقه عن منع مصادرة ممتلكات العرب فى القدس، وأن القدس عربية ماهو إلا هراء لأن تحريرها وشد أزرها وإعادةمقدساتها الإسلامية والمسيحية رهن بفك اسرها ولايمكن لنا ان نتصور مثلا أن مفاوضات السلام مع اسرائيل يمكن أن تعيد القدس، كما إنه بعيد عن العقل القول إن تعليق اسرائيل لقرار مصادرة الاراضي بالقدس الآن هو تخل عن اطماعها في القدس .. إنه تعليق إلى حين، تعليق يليق بتعليق القمة العربية الموعودة.. بل المزعومة، وقد علق قرار القمة بعد أن كادت أن تلتئم الأجزاء العربية المبعثرة.. والتي من الصعب إعادتها للالتئام ثانية، والحديث مازال مستمرا عن أعمال تهويد. أما نحن فقد فضضنا الجلسة قبل أن تنعقد وآثرنا السلامة والحرج .. ولاندري ماذا تأتي به الأيام القادمة .

وأذكر أن نشاط تهويد القدس بدأ منذ اليوم الأول للاحتلال الصهيوني لفلسطين من الخمسينات والستينات وعندما كنت أزور عمدة القدس السابق ــ رحمه الله ــ السيد روحي الخطيب فى بيته المتواضع فوق قمة ربوة فى جبل الويبده ـ أحد جبال الأردن ـ كان الرجل الضعيف النحيل الجسد الذي تحتل نظارته الطبية أرنبة أنفه يتحدث في نبرات صوت خافت مهتز عن القدس ـ حبيبته ـ التى أودعناها بين أيدي اليهود ليفعلوا بها

مايريدون كان يقول .. لابد من إنقاذ القـدس .. فالتهويد مستمر رغم أنف الجميع .. وعلى الخريطة التي أمـامه كان يحدثني عن أحيـاء كاملة تقيمها إسرائيل لليهـود حول القدس .. وفي قلبها .. حي الشيخ جراح .. وغيره كانت تقـول عيناه الدامعتان: اليهود مصممون على هدم المسـجـد الأقصى وقبة الصخرة والحرم الشريـف، وبناء الهيكل اليهـودي، وبعد أن احتلت إسرائيـل الضفة الغـربية عام ٦٧ بـدأت بهدم ١٣٥ بيتاً يملكها الـوقف الإســلامي ومسـجـدين لكـي تخلي مساحـة كبيرة أمام حـائط المبكى وهـو الحائط الغربي للمسـجـد الأقصى، وفي الأسبوع الثاني للاحتلال طردت ٣٠٠ مسلم من بيوتهم واحتلتها وسخرتها لسكنى اليهود.

لقد عمدت إسرائيل الى تهويـد القدس كاملة ووضعت خريطـة القدس الكبرى التى تمتد من رام الله شمالا إلى اراضي بيت ســاحور وبيت لحم وجالا جنوباً وإلى منتصـف الطريق بين القدس واريحا شرقاً .

ومازلـت انعش ذاكـرتي بلقاءاتي المستمرة مـع روحي الخطيـب في بدايـات الستينات ومنتصفهـا وبدايـات السبعينات حين كـانـت نذر الصراع المسلـح تلوح فى أفـق الاردن .. وبينما كنت جالسا معـه اقتحمت منزله دانة مدفع اخترقت الجدار .. ونظـر الرجل إلى مليا لم يفارقه هـدوؤه .. وقال الفلسطينيون يتقاتلـون، و العرب يتناحرون، وتهويـد القدس مازال مستمـراً .. أنقذوا فلسطين تنقـذوا القدس .. ورحم اللـه روحي الخطيـب فمازالت مقولته ماثلة .. ومازال التهويد مستمرا.

هذا الذي كان
في ذلك الزمان

منذ أيام مـرت بنا ذكرى النكسة التي تركـت على جباهنا العربية وصمـة .. وفي قلوبنا غصة مازلنـا نزدردها حتى الآن .. مفاوضـات مهينة .. واتفاقيات محزنـة .. في ظل هيمنة إسرائيلية تحاول ان تمد أذرعتهـا إلى كافـة أرجاء المعمـورة العربيـة تحت شعار السـلام والتعاون الاقتصـادي والتقني .. ومـازالت الهيمنـة الإسرائيلية مستمـرة دون يأس .. أو خوف أو حتى ملل .. ونحن مازلنا مستمرين في محاولات يائسة لإسترجاع أرض ضاعت منا عام ٦٧ .. ومـازلنا ندفع الثمن غـاليا حتى الآن ورغم ذلك لم تحرك فينـا هذه النكسة نخوة أو تستثر فينا حتى مجرد الذكرى مثلما أن انتصـاراتنا الجزئية في ٧٣ لم تستثر فينا عبرة النصر ومقومـاته، فذابـت من حلوقنا حـلاوته واسترجعنا فقـط مرارته بـل حاول بعضنا أن يحول النصر إلى هزيمة .. والهزيمة إلى نصر كما حدث في عام ٦٧ .

أذكر .. ولم تخني الذاكرة بعد أن وصلت مصر عام ٦٧ إلى مرحلة كنا نفكر فيها جميعاً بحناجرنا .. نحل مشاكلنا الاقتصادية والسياسيـة والعسكرية ايضا بالحناجر فقط حتى أننا تركنا طائراتنا جاثمة في الهناجر.. فتحطمت مع فجر الخامس من يونيو ٦٧.

وعلى كل فأن الذين عايشوا مقدمات هذه النكسة القومية، والهزيمة العربية وتداعياتها لابد وأن يتذكـروا كيف كنا نخرج، الى الشـوارع فى مسيرات شعبية كلامية هتـافية نبدي فيها استعدادنا لأن نحارب العالم .. وعلى رأسه أمريكا .. خرجنا في طوابير يتقدمنا ممثلون وممثلات ننشد الأناشيد .. «سنحارب وسنحطم اسرائيل » كانت جموع حاشدة غائبة عن الوعي مدفوعة الى غير ما هدف .. وقتها كنـت اعمل فى مجلة «آخر ساعة» ورحنا وزملائي نتدافع ـ في سـذاجة ـ إلى مكتب رئيس التحريـر المرحوم الشهيد يوسف السباعـي كل منا يريد ان ينضم الى طليعة الصحفيين الذين سيدخلون إسرائيل ويجوبون حواري وأزقة وشوارع تل أبيـب، واعداد أول تحقيقات صـحفية مـن هناك نسجل فيها عـلامات النصر، ونصلي فى الأقصى ثم نتهجد في الحرم الإبراهيمي ونقطف ثمار برتقال يافا وتفاح القدس ونستمتع بريح وريحان فلسطين.

وحاول يـوسف السبـاعي أن يوفـق بين كافـة الرغبات المتحمسـة، ووضع أولـويات لاختيار الصحفيين الذين سينضمون إلى رحلة النصر المبين .. وفاز من فاز .. ومن فاز أعيد

إلي مصر أسيراً .. أو عاد سيراً على الأقدام عبر سيناء في رحلة معاناة تهرأت فيها كليتاه نتيجة لعدم شرب المياه لأيام في صحراء التيه العربي الجديد .. القادم.

وفي «اخبار اليوم»، كنا نتابع الحقيقة العارية .. عبر وكالات الأنباء وأذكر أنه كان أمام مؤسسة «اخبار اليوم» «كشك» لبيع السجائر والمرطبات يحتل ركنا فيه راديو صغير يلتف الناس حوله وهو ينقل ويذيع أنباء انتصارات وهمية .. والناس تصفق .. يهنىء بعضهم البعض بدخولنا تل ابيب.

أما نحن فكنا نتابع تراجع قواتنا إلى الضفة الغربية للقناة واستعدادها لأداء واجبها في الدفاع عن مصر . وفي ذلك اليوم الذي لم تظهر له شمس .. وخيم عليه الليل انهارت أغنيات وأناشيد الراديو .. وبعد ان كان الراديو ينقل إلينا طوال النهار أغنيات اضرب .. احرق ..لآخر نقطة .. والى المعركة اذا به يبدأ مع منتصف ذلك الليل ينقل الينا اغنيات تحمل أرق العواطف الوطنية التي تستثير فى كل منا معاني حب الوطن «وطني وصباي وأحلامي .. ورضا أمي .. وحنان أبي ..».

لم ننم يومها .. وخرج أبناء مصر إلى الشوارع يحادث بعضهم بعضا دون سابق معرفة .. مدهوشين .. مصدومين محبطين والدموع في المآقى.

وكان صوت المذيع يقول بصوت جهوري عالي التلفيق .. إنها نكسة .. ولم يقل إنها «وكسة» ثم قال لافض فوه .. إن إرادتنا لم تهزم .. وكأن شيئا لم يكن والباقي بعد ذلك معروف ومفهوم .. واصيبت الأمة العربية كلها بإحباطات مازلنا نعيشهاحتى الآن ..

الهجرة وقوانينها

بقدر ماتتوالى علينا أعياد الهجرة النبوية بقدر ما يدعونا ذلك إلى التأمل .. التدبر .. التفكر في المعاني والغايات والمقاصد والدلالات .. فنبتعد قليلا أو كثيرا عن مكرور القول ومعاده لنثبت جديدا في الفكر .. بعيدا في المعنى يتجاوز ظاهر الحكاية والرواية ولايتجاهلها فتتوقف الرؤية عند الإعداد للهجرة .. واللجوء الى الغار .. والحمامة .. وخيط العنكبوت والنجاة .. واستقبال أهل يثرب للنبي بـ طلع البدر علينا .. تتوقف الرؤية عند ذلك كله ثم تتجاوزه الى معنى أكبر .. أبعد .. فالهجرة .. حركة واعية فيها إرادة .. ولها غايات عدة .. هي حركة ترفض جمود الفكر .. وثبات الواقع .. إنها محاولة للتغيير.

وبقدر ما أن الهجرة حركة مادية فإنها أيضا حركة فكرية تتجاوز المكان.. وأفكار الزمان أيضا.

ولأن الهجرة حركة مادية وفكرية أيضا فإن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم سبقت في تاريخها الهجرة من مكة إلى يثرب .. فقد هجر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أفكار ومعتقدات مجتمعه من قبل .. بل ربما قبل البعثة بسنوات .. وإلا كيف نفسر عزلة الرسول - قبل أن يصبح رسولا - في غار حراء يتأمل ويتفكر أشهرا وسنوات قبل أن يهبط عليه الوحي؟ بل كيف نفسر كيف أن محمدا كان رافضاً ماتعارف عليه أهل قريش من مرذول السلوك والفكر .. فلم يكن يختلف إلى مايختلف إليه اترابه وأقرانه من دور لهو، لم يكن يرتضي شركا .. أو يقبل ظلماً، أو ينهج سلوكاً فيه عصبية قبلية، فأسموه بالصادق الأمين.

لقد كانت جميع هذه السلوكيات هجرة قبل الهجرة .. كانت حركة فكرية معاكسة لما درج عليه أهل قريش، وسكان الجزيرة العربية من سلوكيات تجافي الطبع السليم والفطرة الإنسانية.

من هنا كانت بدايات الهجرة حتى جسّدها محمد صلى الله عليه وسلم في الهجرة المادية من مكه إلى المدينة .. وكان شأنه في ذلك شأن أي ثائر قائد يعرف كيف يدعو إلى مبادئه وأفكاره فلما لم يجد مكة أرضاً للجهر بدعوته لا ماديا ولا فكريا حرث أرضا أخرى ورتبها، ثم سع إليها وبذر فيها بذور دعوته التى أنبتت نباتاً حسناً مكنه من ان يعود إلى

حيث أتى فاتحاً منتصرا بالفكر والعقيدة قبل السيوف والنبال.

وهكذا علمنا محمد صلى الله عليه وسلم القائد الإنسان والرسول النبي معنى الحركة وفضلها .. وحكمة القيادة وحنكتها. ولذلك حفل القرآن الكريم بآيات بينات تحض على الحركة وتمج الجمود .. سواء كانت هذه الحركة مادية أم حركة فكر .. إنها دعوة للحركة ضد الجمود، دعوة للتقدم في مواجهة التخلف .. «ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها» «فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه» صدق الله العظيم.

إن الكون كله جُبِل على الحركة «وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب» .. الأرض تتحرك وتدور .. والشمس والقمر .. كل في فلك يسبحون ..وما أعظم ما قاله الشافعي رضي الله عنه في فلسفة الحركة:

ما في المقام لذي عقل وذي أدب	من راحة، فدع الأوطان واغترب
سافر تجد عوضا عمن تفارقه	وانْصَب فإن لذيذ العيش في النصب
فالأسد لولا فراق الغاب ماافترست	والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو بقيت في الفلك دائبة	لملها الناس من عجم ومن عرب
والماء إن سال طاب	وإن لم يجر لم يطلب
والتبر كالتُّرْب ملقى في اماكنه	والعود في أرضه نوع من الحطب
فإن تغرب هذا عز مطلبه	وإن تغرب ذاك عز كالذهب

فما أعظم حكمة الهجرة .. وما أروع قانون الحركة .. والهجرة حركة .. وهي دعوة إليها لو فهمنا ولو وعينا الدلالة والمعنى الذي تمثله احتفالاتنا بالهجرة كل عام.

العبادات
ترشد المعاملات

على خلاف مـايتصوره البعض .. وهـذا البعض مـن مثقفينا ومن ذوي حـظ وقدر غير قليل مـن التعليم العالي من أن الإسـلام هو عبارة عـن مجموعة من العبـادات والصلوات، وزيارة الأماكن المقـدسة وغير ذلك من ظواهر الأمور والعبادات .. وبنـاءعلى ذلك وترتيبا عليه فـلا علاقـة للإسـلام بالمعامـلات .. أو بالعمليـات المصرفية والتجـارية والعـلاقات الإنسانية الأخرى اجتماعية كـانت أو غير ذلك .. انسجاما مع مانطق بـه اصحاب «مارتن لوثر» وحواريوه من أن مالقيصر لقيصر ومالله لله.

على خلاف ذلك كله .. وكل ذلك فـإن الاسلام كمنهج للحياة، وعقيدة يطير بجناحين .. المعاملات والعبادات والمعاملات اولا وقبل كل شيء في الـدين الإسلامي، بل نكاد نقول غير مجترئين على احد ان العبـادات فى الاسلام غايتهـا ترشيـد المعاملات .. ﴿ومـا خلقت الجن والإنس الا ليعبدون﴾ صدق الله العظيم، والعبادة في مفهومنا هي تعمير الارض .. هي بناء وتشييد وحضارة وكما قال الشاعر:

ليـس التـديـن عنـدهـم محض السجـود والاقتراب
وتبتـل الـرهبـان في ربـع مـن الـدنيـا خـراب
الـديـن أس حضـارة شماء عـاليـة القبـاب

وإذا ما تأملنا جميع العبادات من صلاة و صوم وحج لوجدنا أنها قدسًنت فى الأساس لترشيد المعاملات؛ لأن الدين المعاملة .. كما جـاء في مأثور القول. فالصيام علاوة على انه عبادة وفريضة فـإنه تأديب بالجوع .. وخضوع لله وخشوع .. ولأن لكـل فريضة حكمة فإن الصـوم ظاهره العـذاب وباطنـه الرحمة .. يستثير الشفقة، ويحض على الصـدقة .. يأسر الكبرْ ويعلم الصبر .. وهل بعد هذه المعاني معان تقوّم سلوك الإنسان .. وتطبعه على الخير والرحمة والعطـاء والصبر .. وكل اولئك امور هـامة .. لاستقامة الحيـاة .. وحسن السلوك فيهـا فيما بين الناس وبعضهـم البعض .. الصلاة أيضـا: هي صلـة بين الإنسان وربه حقـاً .. وبقدر ماتتحلى الصـلاة بذلك استحضـارا للمعنـى الذي نردده في كـل صلاة خمس مرات في اليـوم الواحد .. بدءا بـالفاتحة .. والآيات والركـوع والاقتراب والسجود

بقدر مايعتدل السلوك الإنساني ويستقيم .. فمن الصعب على الإنسان الذى يخلص صلاته لله .. وليس للناس رياء وتظاهراً .. خمس مرات في اليوم أن يسعى إلى ارتكاب المعاصي، او حتى الهنات «لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .. ومن لم تنهه صلات عن المعاصي فلا صلاة له» هذا القول لم يأت عفوا .. أو دون قصد أو هدف .. فالصلاة أيضاً تقوم السلوك الإنساني في معاملات الناس مع الناس.

وحتى حج بيت الله الحرام .. فهو فريضة قصد بها التقرب إلى الله زلفى وتلبية دعوته إلى حج بيته واتباع أوامره فى سلوكيات الحج بلا رفث ولا فسوق .. والطواف حول الكعبة المشرفة، والسعي بين الصفاء والمروة .. كل أولئك فيه تقويم لسلوك الإنسان أثناء الحج أما بعده فهناك نظرة اخرى تقف وراء ذلك كله وأمامه .. فالذي يصلح حجة يعود إلى وطنه كما ولدته أمه خاليا من الذنوب والدنايا ليبدأ حياة جديدة .. وسلوكيات جديدة أيضا..

وفي تفسير عاقبة الحج والحجاج أن الذنوب التي تسقط بالحج ليست كل الذنوب لوكنتم تعلمون وانما هي الذنوب التي تتعلق بحق الله سبحانه وتعالى من تقصير في أداء الصلاة والزكاة وغير ذلك أما مايتعلق بحقوق الناس فإن هذه الذنوب لايسقطها الحج وإنما يعتبر الحج إعلاناً للتوبة .. فإذا ما التزم الحاج بالتوبة الخالصة النصوح بعد الحج قبل الله توبته و غفرله ذنوبه .. والألتزام بالتوبة سينعكس يقيناً على السلوكيات والعلاقات والمعاملات بين الأفراد .. وقس على ذلك الزكاة فأمرها معروف.

من هنا لابد وأن ندرك أن العبادات فى الإسلام ليست في واد بينما المعاملات في واد آخر .. إنما العبادات ترشد المعاملات .. والمعاملات بين الناس هي الأبقى وهي الأجدى في بناء المجتمعات .. وتشييد الحضارات التي هى هدف العبادات .. بل هي من العبادات الأساس.

ذلك الصوت الذي
جاء من رشيد مصر

في مصر .. عرفنـا كما عرف أجدادنـا من قبلنا الذيـن أجادوا تلاوة القـرآن وتجويده، ومن التجويد إجادة وصلت ببعض المقرئين إلى لحظـات استولوا فيها على قلوبنا وعقولنا وحواسنا فعشنا معهم الشجن .. والنغم .. وبين النغم والشجن خشعت القلوب، ودمعت العيون .. واستيقظـت نفوس بعد أن غابـت في سبات ماديـات الحياة ورتابتها طـويلا .. وتوالـت أجيال المقرئين الأفـذاذ جيلا بعد جيـل .. كل جيـل يسلم راية التـلاوة والترتيل وتجويد القـرآن إلى من بعـده من أجيال .. وفي كـل يبدع المبدعـون .. وفي ذلك فليتنـافس المتنافسون .. قـراءة للقرآن وترتيلاً .. حفظـاً وتجويداً .. كنا نسمع أسماء ونحـن صغار تقـول عن الشيـخ الفران .. والشيـخ ندا.. ومعهما كـان الشيـخ محمد رفعـت صاحـب الصوت الذهبي تلاه كل من الشيخ مصطفـى اسماعيل وطه الفشني .. وعبدالعظيم زاهر .. ومحمود خليـل الحصري .. ومحمود علي البنـا وعبدالفتـاح الشعشاعـي، وابوالعينين شعيشع .. ثـم عبدالباسـط عبدالصمد والشيخ الطبـلاوي، والدمنهوري، ونصر الـدين طوبار .. والاسماء كثيرة ومتوالية كل منهم يقرأ القـرآن الكريم بطريقته وأسلوبه .. وله بصماته الخاصـة .. ويذوى جيل ..ويـولي من هذه الـدنيا وتبقى نبرات صـوته الآسر فى الآذان جيلا بعد جيل وتظهر أسماء لم نك نسمع عنها أو نسمعها كثيرا.

ومن الأجيال الحديثة فضيلة الشيخ عبدالجليـل البنا.. ذلك الشاب الشيخ .. أو الشيخ الشاب الذي تعودنـا لقاءه فى البحرين على مدى خمس سنوات في كل رمضـان بدعوة من بيت القرآن .. يقرأ في سـاحاته .. وفي مساجد البحرين لتمتـد الآذان إلى صوته الشجي القوي .. وتستـرجع الأذهان في ذلك الصوت بعضاً مـن طول نفس القارىء الراحل الشيخ

مصطفى اسماعيل ونغمات متمكنة من صوت المرحوم الشيخ طه الفشني .. ووقفات ذكية تداعب الميكرفون مداعبة غنية بالخبرة، عامرة بالحب زاخرة بالأصالة.

هذا الشيخ الشاب (٤٠ سنة) خريج كلية الشريعة والقانون من جامعة الأزهر الشريف الذي تعلم فى معاهدها حتى منتهاها جاء من رشيد محافظة البحيرة، وبالتحديد من قرية الجدية .

في هذه القرية نشأ طفلاً تعلم القرآن على يد والده المقرىء المرحوم الشيخ فرحات البنا .. وفي سن السادسة بدأ خطواته نحو قراءة القرآن وتجويده، وفي العاشرة كان قد أتم حفظ القرآن، والتحق بالتعليم الأزهري فى الأسكندرية التى احبها وعاش فيها حتى الآن، وهو فى المعهد الديني بالاسكندرية بدأ في تلاوة القرآن في الاحتفالات الدينية والمناسبات، وذاع صيته وعندما تخرج من كلية الشريعة عين إماماً لمسجد القصبجي بالاسكندرية.

ومن الاسكندرية إنطلق صوت الشيخ عبدالجليل البنا مدويا بصوت القرآن .. بمعانيه .. بكلماته .. الموحية وطبعت له شرائط الكاسيت في الأسواق تجاوز عددها الثلاثين .. انتشرت بصوته في أنحاء العالم العربي والإسلامي.

في بيت القرآن .. استمعت إليه طويلاً .. فأطرقت .. وعادت بي الذاكرة القهقري إلى أصوات ذهبية قرأت القرآن فأجادت قراءته .. ووصلت بمعانيه والفاظه إلى مجامع قلوبنا.

وتساءلت .. فعلمت أنه مدين لوالده بكل شيء .. يقول لقد علمني كيف أحفظ القرآن وأجوده .. وعرفني قواعد ومخارج الألفاظ السليمة التى يجب أن ينطق بها القرآن وبعد والدى .. سأظل مدينا إلى هذا الرعيل من القراء الذين كانوا يقرأون القرآن بروحانيات لامثيل لها حباً لله وفي الله .

مازلت أسمع صوت المرحوم الشيخ محمد رفعت .. ذلك الصوت الملائكي الذي حين

أسمعه أحس وكأنني أسمع القرآن وهــو يتنزل من السماء فأستشعر روحانيات وجمال قراءة وإتقاناً لها حتى أصبح معلماً لأجيال المقرئين من بعده حتى الآن.

أما الشيخ مصطفى اسماعيل فقد كان فناناً يعرف كيف يبدأ وأين يقف بالآية القرآنية التى يحملهـا كما هائلاً وكبيرا مـن جمال الصوت الربـاني فكان يشجـي القلوب والآذان رحمه اللــه .. وغيره وغيره مـن ذلك الـرعيـل الشيـخ عبـدالفتـاح الشعشاعـي ، الشيـخ عبدالبـاسط عبدالصمـد صاحب الصـوت المميز الذي لايسمعـه أحد إلا ويعلم أنـه هو .. الشيخ عبدالباسط.

الشيخ عبدالجليل البنا لم يتأثر فقط بصوت الشيخ رفعت وإنما تأثر أيضا بأسلوبه فى الحياة وسلوكياته مع محبيه والذين يدعون لإحياء المناسبات السارة منها وغير السارة.

يقول .. المفروض أن القارىء يقرأ القرآن ابتغاء وجـه الله لأن تلاوة القرآن عبادة أما الأجر الـدنيوي فيرجـع إلى إمكانيـات كل شـخص يطلـب قراءة القـرآن لذلـك لايصح أن يشترط القـارىء اجرا مــاديـاً للقراءة ولـو ان للبعض رأيـا مخالفـا.. وتحت هذا الـرأي اصبحت هناك مغالاة في الأجور لاتليق بجلال القرآن وذلك ما لا أرضـاه .. كلمة همس بها في أذني الشيخ عبـدالجليل البنا .. أنا لا أتحدث في الأجـر .. أو أشترط مقابلا معينـا.. ومع ذلك أتقـاضـى أحســن الأجور وأعــلاها .. وذلـك فضل اللــه .. بارك لـك الله .. أقــول.

عود على بدء
أو بدايات البدايات

ذكريات المرء منا تتجمل بذكريات الآخرين، وخاصة إذا كان الأمر يتصل بحقبة من الحقب، وتاريخ من التواريخ الذي يشكل انعطافة في حياة كل منا.

ونحن العاملين في الصحافة لنا ذكريات وذكريات تفيض بها النفس فلاتغيض أبداً رغم مرور الأعوام الطوال .. وتبدل الأحوال .. والمواقف .. واختفاء أناس من الصورة، وبروز آخرين فيها .. بل وخروج البعض منها بالحياة، أو بالموت .. ولقد نشط ذاكرتي وأهاج ذكرياتي حديث زميلي لطفي نصر عن بدايات أخبار الخليج والعمل الصحفي بها، وعلاقته بالناس، وعلاقة الناس بنا .. ومادام القول بالقول يذكر .. ويجب ألا ينكر، وبما أن البدايات هذه كانت لها بدايات .. والذكريات تهيج الذكريات، بعد أن بلغت أخبار الخليج عمرها التاسع عشر واستوت على قدمين راسختين فاشتد عودها، واستقام أمرها .. نقول بما أن ذلك كذلك تكون وقفة عند بدايات البدايات، لابد منها هنا، خاصة وأنني عشت وعايشت الفكرة منذ أن اختمرت في ذهن الراحل العميد محمود المردي رحمه الله ومع فكرته تقاربت رؤوس أخرى طموحة مشحونة بالأمل. أذكر منها الأستاذ إبراهيم المؤيد والأستاذ أنور عبدالرحمن .. وآخرين.

فمنذ وصولي إلى البحرين مع بداية السبعينات .. وفي جريدة الأضواء التي كانت تحتل موقعها القديم بشارع التجار .. كانت غرفتي تجاور غرفة رئيس التحرير صاحب الأضواء المرحوم المردي .. وفي غرفته كانت تدور الأجتماعات بين الثلاثة المردي إبراهيم المؤيد وأنور عبدالرحمن .. ثم تنتقل هذه الأجتماعات في المساء إلى برادات الصديق« علي أمين » في نفس الشارع .. وتمتد الأجتماعات .. وتحلو الأحلام .. وتكبر مع الأيام وتزدهر الفكرة حيناً .. ثم تخبو أحياناً .. لكن الفكرة ظلت راسخة في أحلام وأذهان الجميع .. وهي إصدار جريدة يومية لتسد فراغاً كان «البلد في حاجة إلى جريدة يومية بالعربية والانجليزية لنبدأ بالعربية أولاً » هكذا كنت أسمع هذه الأمنيات من الراحل محمود المردي كنت أسمعها في صوت مدو حينا وأسمعها همسا مرة اخرى، وألمسها خلال الأجتماعات التى كانت تدور بين الثلاثة .. كنت أتلمس ذلك الطموح الكبير فى العيون التى تلتمع بالثقة .. بالرغبة في تحقيق الحلم.

وكثر تـردد أنور عبدالـرحمن على مبنى الأضواء خاصـة بعد أن انتقلت إلى مبنـاها ف شارع المعـارض وفي مبنى الأضواء والهلال تبلورت الفكـرة .. وذات يوم استدعـاني أبو رائد ليسر إلى بقـرار إصدار جـريدة يـومية وكلفنـي بالـذهاب إلى القـاهرة .. واستمـرت رحلاتي المكوكية ما بين البحرين وأخبار اليوم هناك.

كانت المسئوليـة كبيرة.. مسئولية إصدار أول صحيفة يومية تليق بـالبحرين ولابد أن يتحمـل مسئوليـة العمـل في البـداية كـادر قـادر مـن الصحفيين المحترفين، وخلال هـذه الرحلات تبلورت الصورة وبرز وسطها الراحل الصديق الزميل محمد العزب موسى وإلى جانبه الصديـق أحمد عبدالغني .. فكلاهما كفاءة كان لابد مـن الاستعانة بها للمساهمة في إصدار أول صحيفـة يوميـة في البلاد .. كـلاهما غني بثقـافة متنـوعة، ومقـدرة صحفية وخبرات وإجادة اللغات الأجنبية، وباع طويل في التعـامل مع وكالات الأنباء الأجنبية منها والعربية .. بكـافة اتجاهاتها.. وإمتد إطار الصورة لتكتمـل فيه لوحة فنية غنيـة بالمواهب الصحفية المحترفة محليـا وعربيا، ومن قلـب العمل الخبري الناجح في أخبـار اليوم برز في الصورة الزميـل لطفي نصر الذي طالما صنع العنـاوين الرئيسية المحلية بجـريدة الأخبار ومن مجلة آخر ساعة إستعرنا خبرة صحفية غـالية ومتنوعة جادت بها مساهمات الراحل سعيد نعمـة الله رحمه الله ومن الإخـراج جاءنا الفنـان سعيد عارف ليرسم شكـل أخبار الخليج التى مـازالت عليه، ومن الـرعيل الذي بنى أخبـار الخليج وساهم في صنـع شكلها الزميـل الفنان حسن النعيمـي .. والفنان المقتدر عبـدالله المحـرقي الذي أثـرى الصحيفة برسومـه المبدعة ذات الدلالات الاجتماعية والسيـاسية، وعلى الدرب سار معنـا في البداية الزميل الكريم محمد بخيت الذي عمـل ومازال يعطي حبه وجهده الخـالص لأخبار الخليج وآخرون .. وآخـرون شكلوا بـدايات البـدايات، وسـاهموا في وضـع حجـر الأسـاس لهذه الصحيفة اليومية الأولى .

مازالت ذاكـرتي تعي تفاصيل آخر رحـلاتي المكوكية الى القاهرة والتـى صحبت فيها المرحوم المردي .. وفي فندق هيلتون النيل التقى المردي بكـل الزملاء فرادى ثم مجتمعين .. استمع اليهم وأعجب بهم ونفذ ببصيرته الذكيـة إلى داخل شخصية كل منهم .. وحدد لهم المواقع والأعمال ثـم انطلقت معـه إلى شارع التحـرير سيرا على الأقـدام ولم تكن المسـافة طويلة بين الفندق وبين دار الطباعة التى تم فيها تحرير عقود العمل وإعداد نسخ منها كي يوقع الاختيـار عليهم للمساهمة فى إصدار أول صحيفـة يومية بالبحـرين .. والغـريب فى الأمر أن صيغـة هذه العقود مازالـت هي نفس الصيغة التـى تعتمدها أخبار الخليـج حتى

الآن.

وتحقق الحلم .. وصدرت أخبار الخليج، ومازالت وستظل بإذن الله وارفة الظلال يانعة الثمار بفضل الله أولا، وبجهد وعناء وفكر ومال مجموعة من المخلصين الذين كان رائدهم أبو رائد رحمه الله والذين معه .. ممن حملوا الفكرة وعاشوها، وحلموا بها ثم عملوا على تجسيدها، ومازالوا يحمون وجودها ويرعون استمرارها وتطورها بجهدهم وعرقهم وحبهم حتى الآن بفضل استمرار مسيرة أخبار الخليج التى تولى قيادتها وريادتها من بعد ان ودعنا المرحوم المردي الأستاذ الفاضل أحمد سلمان كمال الذي لم يكن يوما بعيدا بالمتابعة أو الاهتمام من هذه الفكرة، بل كان بحكم شرافه على مطبوعات وزارة الإعلام وإعداد مجلة البحرين اليوم متواجدا في المطبعة متابعا ولادة أخبار الخليج التى أهله القدر كي يتولى مسئوليتها بمنتهى حكمة الأمانة وأمانة الحكمة.

القسوة .. الناعمة !

الذيـن ينعون على المرأة قسـاوتها في بعض الأحيـان أو تخليها عـن نعومتهـا في أحيان أخرى فإذا هـي تنقلب إلى نمر هائج يفترس أو ينشـب أظافره في الآخرين أو حتى يستعمل السكين دون رحمة او هوادة.

هؤلاء الذين نعوا على المرأة ذلك هم أنفسهم الذين تصوروها دائبة الرقة، وآية لاتتبدل فى النعومة والأنـوثة لايكادون يدركـون ماتخفيه المرأة أحيانـا تحت إهابها الناعم الـلامع ومظهرها الدامع في كثير من الأوقات والأزمان والأزمات من خشونة وقسوة ـ بالله منهما نستجير ـ وغيرة حانقة واعتداء خشن يتدرج مـن الأظافر إلى الأدوات المختلفة .. وقانا الله إياها .. والأحداث على امتداد التـاريخ البشري قديمه وحديثه شاهدة على ذلـك مؤكدة له، ولكل من ألقـى السمع والبصر وهو شـهيد .. ومـع ذلك فنحن شـهداء للمـرأة .. محبون لها ولاغنى أو استغناء لنا عنها.

صـحيح أن المرأة تـذوب ـ عادة ـ رقـة ونعومة .. ومع رقتهـا هذه نذوب نحن الـرجال تحت لهيب عاطفتها ذوبـان الجليد .. لكن ذلك يخفي وراءه قساوة أشـد ماتكون القساوة خاصـة إذا ما استثيرت عواطف المرأة أو أثير شجـونها فإذا هي تتحول إلى نمـرة تنقض . وقد صدق شكسبير فيها عنـدما كتب روايته «ترويض النمـرة» وأجاد «تنسي ويليامز» في مسرحيته «فترة التوافق» ولم يتنـاقض مع ذلك كله القول الشـائع «وراء كل عظيم امرأة» هــي كل عظمتــه ومصدر قـوته تلعـب دورها مـن وراء عواطفـه .. وتمده بعناصر القـوة والبسطة في السلطة.

وقد ظلت المرأة كذلك مـن البداية وحتى الآن من أيام عزيز مصر عنـدما قطعت النسوة أيديهن وإن كنـا لاندري كيف؟ المهم أنها استعملـت السكاكين .. ويبدو أن المرأة منـذ ذلك العهد وهي تستخدم السكاكين .. «والقباقيب» بل ومـاهو أنكي من ذلك وأشد بغضا ليس فقـط في تقطيـــع الأيـدي وتكسير الاثـــاث والبيـوت على روؤس الازواج .. وعلى روؤس الأشهـاد .. وإنما أيضا وصـل بها الحال إلى تقطيع الأزواج .. وسلخهـم بعـد ذبحهم ثـم تعبئتهم في أكياس من النايلون الأنيق.

وإذا كانـت الدعابـة قد قادتنـا إلى ممارسة قسـوة القول والتكلم على المرأة فـإن واقع التاريـخ يساندنا في تـأكيد حقيقة واحـدة لا إختلاف عليها ولا مراء فيهـا، و هي أن المرأة تخفى وراء رقتها قوة، وتحت نعومتها قسوة أحياناً .. بل وفي كثير من الأحيان .. منذ أيام

الملكة «حتشبسوت» فرعونة مصر وملكتها وصولا إلى شجرة الدر التى استخدمت «القباقيب» والدهاء في تدبير المؤامرات ضد الأعداء والأحباب .. وما بالنا نذهب بعيدا ألم تلقب رئيسة وزراء انجلترا السابقة مرجريت تاتشر بالمرأة الحديدية ؟ .. أما رئيسة وزراء تركيا ذات الملامح الرقيقة فهي التى تقف وراء المذابح التى تدبر للأكراد الآن وتطاردهم إلى داخل شمال العراق..

وبناظير بوتو تمسك باكستان بيد حديدية مغلفة بقفاز الديمقراطية، وعلى رأس حكومة بنجلادش البيجوم خالدة ضياء التى تواجه معارضيها بقسوة وقوة ودهاء، وفي مواجهتها امرأة أخرى هي زعيمة المعارضة حسينة واجد، ومن منا لايتذكر انديرا غاندي أو نسي الدور الذي لعبته السيدة جيهان السادات من وراء ستار الحكم في مصر أيام الراحل أنور السادات .. وكيف استطاعت أن تقلم أظافر الرجال ـ إذا كانت لهم أظافر ـ عندما نجحت في إدخال تعديلات أنثوية على قانون الأحوال الشخصية العتيد.

وهكذا تذوبنا المرأة برقتها .. بنعومتها .. فنذوب ونذوب حتى نكاد أن نتلاشى، وتتساقط مظاهر عنتريتنا الفارغة وأن توهمنا أننا الأقوى، وأننا أصحاب القرار .. حتى إذا ماجد الجد وطرحنا جانبا خانة الوجد والود كشرت المرأة عن أنيابها وأظهرت من تحت إهابها الناعم أظافر .. وساعتها يجب ألا نندهش أو ننعى علينا ذلك مفتقدين النعومة والرقة ممصمصين الشفاة قالبين كف اليد على اليد متحسرين على الرقة التى راحت والعذوبة التى ذابت.

بعد نصيحة الاخوان
باجتناب الدخان

إذا كان مطلوبـاً من العلماء أن يجتهدوا فيما لم يأت بـه نص صريح من كتـاب أو سنة وفقا لمتطلبات كل عصر وظروفه ، وإذا كانـت بين أيديهم أدوات للاجتهاد اعتمدها الشارع عليهم أن يعملوها عقـلا ونقلا فإن هذا الدين سوف يتسـع لكثير من التصرفات والأحكام بما يعالج كل تفاصيل الحياة في تطورها المعاصر والمتوقع في قادم الأيام والسنين.

وإذا كان قد عازنا النص في بعض الأمور الخاصـة بدنيانا المعاصرة، فإن لنا في مصادر التشريع الكثير مـن إجماع وقياس وإستحسـان وإستصحاب ومصالـح مرسلـة .. وهذه أمور وأدوات توافقـت عليها آراء علماء المسلمين بما شكل قاعـدة لإعمال العقل البشري في كثير من الأمور التى مازالـت عالقة، ومازالت جامدة. لانريـد أن نخطو فيها أو إليها خطوة مثل فوائد البنوك.. وتحريم السجائر أو المخدرات من حشيش وأفيون وهيروين وغيرها.

وإذا كان البعض قد اجتهد اجتهادا شـخصيا فقضى بتحريم السجائر اعتمادا على اتحاد العلة في تحريمها مع تحريـم الخمور مثلا.. فإذا كانت الخمور تذهـب العقل والصحة فإن السجائر تتفـق مع الخمور في نفـس علة التحريـم وهو تـأثيرها الواضـح على الصحة بما لايحتاج إلى مزيد من الشرح الذى وافانا به الأطباء و علماء الاجتماع.

ورغم ترحيبنا باجتهـاد البعض بشأن تحريم السجائر، فإن حاجب الـدهشة قد ارتفع منا عندمـا نرى علماء الدين والمتفقهين فيه لايقـولون نفس الرأي صراحـة، وبنفس القوة بالنسبة للمخدرات بل إننـا فى الوقت الذى نتنادى فيه بمكافحة التـدخين، ثم نصدر الرأي الشرعي رسمياً أو اجتهادا شرعيا بتحريم التدخين .. في نفـس هذا الوقت لانكاد نسمع رأياً أو نرى جهـدا يقول: إن تعاطـي المخدرات حرام .. وبـالفم المليان سـواء اقتصر الأمر على مجرد التعاطي أم تعداه إلى الاتجار فيه وجلبه فالعلـة واحدة من تحريم التدخين أو تناول

الخمور، أو تعاطي المخدرات وهذا مايسميه العلماء بالقياس بمعنى سحب نفس الحكم على الأمر «تحريماً أو تحليلاً» لاستحاد العلة من التحريم أو الإباحة..

ولايكاد ينكر منكر أن الضرر والخطر وارد، ويكاد يكون واحدا صحيا واجتماعيا ـ وإن تفاوت ـ من تناول الخمور أو المخدرات أو تعاطي التدخين.

ولاشك أنه يشكر لوزارة العدل والشئون الإسلامية رعايتها إصدار كتاب من تحقيق الدكتور أحمد محمود المحمود أستاذ مساعد قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة البحرين تحت عنوان «نصيحة الأخوان بإجتناب الدخان» وهو من تأليف الإمام الشيخ إبراهيم اللقاني رحمه الله المتوفي عام ١٦٣١ ميلادي أى من نحو ٤٠٠ عام أو أقل قليلاً .. ممايعكس اهتمام علماء المسلمين بموضوع التدخين منذ نحو أربعة قرون كما يقول المحقق الدكتور .. وتنبيههم إلى خطره انطلاقاً من القاعدة الفقهية الرئيسية «لاضرر ولاضرار» والقاعدة الأخرى وهي أن كل مايصيب بدن الإنسان وروحه بالضرر فهو حرام.

والغريب في أمر هذا الكتاب الذى قام بتحقيقه الدكتور أحمد المحمود أنه شامل متكامل فى بيان الفرق بين المفسد والمسكر، وفي بيان الحكم في تناول بعض المفسدات والعقاقير الهندية واللبن الحامض، واستخدام المخدر أو «البنج» لاستئصال عضو مريض وبيع الأفيون ووسائل المفسدات. بل وعرج المؤلف إلى بيان حكم شرب القهوة والدخان وتعاطي النبات المغطي للعقل واستعمال الأدوية للتسمين، ثم الوجوه المقتضبة للتحريم وحكم التدخين وآثاره .. بما يتطلب منا استعراضاً لبعض فصول وأحكام هذا الكتاب الذى أكد اهتمام علماء المسلمين بموضوع التدخين منذ أربعة قرون ــ كما أشار إلى ذلك الدكتور المحقق ــ فأجتهدوا في التحذير منه وذكروا رأى الشريعة الإسلامية فيه بينما لم يتنبه علماؤنا المعاصرون إلى خطره وأضراره إلا من قريب.

ولأن هذا المقام لايتسع لأستعراض ماجاء فى هذا الكتاب تفصيلاً فإنني أعد بالعودة اليه فى هوامش قادمة وإن كان من المفيد أن نعرج سريعاً على ما تناوله المؤلف وأبانه المحقق فقد تناول الفصل الأول - بعد تمهيد ضروري - الحديث عن بعض المفسدات كالأفيون والبنج وفي فصل ثان تحدث عن العقاقير الهندية كالجوارش وجوزة الطبيب والزعفران، وتناول فصل ثالث موضوع شرب اللبن الحامض، وفصل رابع تحدث عن جواز استخدام المرقد لاستئصال عضو مريض أو علاج ونحوه وفي فصل خامس تحدث عن بيع شيء من الأفيون والبنج والجوزه وسائر المعاجين المغيبة للعقل، ثم عن القهوة وحكم شاربها .. ويبقى من المفيد استعراض آراء المؤلف في هذه الأمور أو بعضها تفصيلاً استكمالاً للفائدة والقاء للضوء على نهج علماء المسلمين القدامى فى الاجتهاد واصدار الاحكام والآراء في كل أمور وتفصيلات الحياة فما احوجنا فى هذه الأيام ان نجتهد ونعمل أدوات العقل والنقل في تحقيق التوافق بين أحكام ديننا وأصولياته وبين تفاصيل حياتنا المعاصرة .. ومن هذا القبيل الأجتهاد بالرأى وإقرار الأمر فيما يتعلق بعدة قضايا - وهي كثيرة - منها الفوائد البنكية وتحريم المخدرات دينا وشرعا قياسا على تحريم غيرها لاتحاد العلة .. والعلة قائمة .. وهي واحدة تستوجب القياس و .. والحديث متصل فى نصيحة الإخوان باجتناب الدخان .. وغيره!!

القومية العربية
والفكرة الشرق أوسطية

من مصلحة اسرائيل - وليس من مصلحة العرب طبعاً - إذا ماتصالحت أو تهادنت أن تتصالح مع دول شرق أوسطية متفرقة وليست دولا عربية، لأن الدول العربية إذا ما التقت فإنها تلتقى فوق أرضية مشتركة تجمعها ولا تفرقها .. هذه الأرضية هى فكرة القومية العربية، فإذا ما تخلت عن هذه الفكرة فإنما هى مجرد دول ومجرد حلقات ضعيفة في مسبحة منطقة الشرق الأوسط.

لذلك فإنه قد تواكب مع فكرة التصالح أو المصالحات العربية الإسرائيلية فى صورها المختلفة .. معاهدات ثنائية و غيرها .. بروز فكرة الشرق أوسطية؛ لتحل محل القومية العربية أو لتمحوها فإذا دول الطوق حول إسرائيل مجرد دول شرق أوسطية هينة الأثر والتأثير .. وهي - بالتأكيد - ليست أقوى ولا أغنى دول الشرق الأوسط.

ولقد كان لي حديث مع أحد المسئولين الكبار فجاءت كلماته تقطر ألما وهو يقول : لقد تلقيت دعوة للمشاركة فى أعمال لجنة (الشرق أوسطية).. وصحيح أن هذه اللجنة لن تحضرها إسرائيل لكن الإصرار على فكرة الشرق أوسطية .. والتركيبة إياها فى هذه الأيام يعني استبعاد فكرة القومية العربية من خريطة المنطقة العربية، ونزع فتيلها المتفجر بطاقات الأمل والعمل والبناء والمجد الأثيل من عقول أبنائنا وأحفادنا فى المستقبل الذى نراه بعيدا، ويرونه قريبا.

وأتساء أين نحن من قوميتنا العربية، وهمومنا المشتركة؟ صحيح أن الجامعة العربية تحولت إلى كيان هزيل يعكس واقعاً عربياً أكثر هزالاً .. لكن لايمكن أن تكون فكرة أو تقسيمة الشرق أوسطية هي البديل.

فبعد أن كنا نعيش أحلى وامجد أيامنا .. تألق فى سمائنا - رغم كل الخلافات - معانى

ومفاهيم القومية العربية قد نختلف حولها شيعا وأحزابا .. لكن يظل جوهر الوجود العربى الأصيل الباقي واحدا ! .. يردعنا إن إنحرفنا، ويصوننا إن أصابنا الإحباط .. ويمنعنا عن الشرك بالوطن والتاريخ والوجود والكيان.

بني العروبة إن الله يجمعنا فلا يفرقنا ذي الأرض إنسان
لنا بها وطن حر نلوذ به إذا تناءت مسافات وأركان
غدا الهلال صليبا في توحدنا وجمع القوم إنجيل وقرآن

وإذا كنا نقول - دائما — على صعيد الدعابة العربية .. «إيه اللى جمع» الشامي علي المغربي فإننا نعني بذلك صراحة وببساطة أنها القومية العربية.. كانت فى القومية في الماضي وستظل فى الحاضر، إنها حبل النجاة لنا فى المستقبل عندما نتنادى بالمصالحة العربية، وتنقية الأجواء من الشوائب والترسبات ..

ويجب ألا نشك ولو للحظة أن إسرائيل ماكانت لتمد الخطى على استحياء لمصالحات مع العرب لولا أنها أمنت أن الساحة العربية قد ذوبتها الخلافات، ودمرتها عوامل الفرقة ودخلت فى أتون اللعبة الشرق أوسطية الجديدة؛ لأن الفكرة القومية العربية هي المواجه القومي للفكرة الصهيونية .. هي العقيدة الأقوى سياسيا وتاريخيا .. وإسرائيل لم تقم على أساس من العقيدة الصهيونية او الأممية اليهودية، وليس على غيرهما إلا لكى تواجه ذلك البحر العربى اللجي الذى تعلو قامته وتتعالى وتتوالى أمواجه القومية حيناً بعد حين إذا ما إنحسرت هذه الموجات في بحر الموجة الشرق أوسطية فلا خوف من العرب بل الخوف عليهم.

هذا مايؤكده لنا استقراء التاريخ، وما تنبت به شفاة الحقائق عبر كل القرون. وفي حوار أجريته في بداية الستينات مع رئيس المجلس اليهودي العالمي بالولايات المتحدة الامريكية السيد المر بيرجر ومع أعضاء حركة فتح - رحمها الله — ومع المفكر المصري

الفذ الدكتور فـؤاد زكريا رحمه الله اتضحت لنا عدة حقائق. منهـا أن الصهيونية في خطر وأنها تشكل الخطر الأكبر على الديانة اليهودية نفسها؛ لأنها تواجه بحرا من العداء العربي المسلح بالعقيدة القومية التي يدعمها التاريخ والواقع والثقافة والفكر.

قال المربيرجـر فى معرض الحوار : «اعتقـد عن إيمان أن الصهيـونية تمثـل خطرا على اليهود اينما وجـدوا .. بل إنها منـاقضة تمامـا لليهودية كديـن .. إنها حركـة مارسـت وتمارس التفرقة العنصرية، واضطهدت كل من هو ليس صهيونيا».

أبوصـلاح من فتح قال: «في منظمـة فتح يوجد أعضـاء من اليهود العرب منهـم وليم نجيـب نصـار، وكمال النمـري، إنهما كيهـود عـرب شعـروا أن الصهيـونيـة نقيـض الـديمقراطيـة، بل ونقيـض لليهوديـة في ذات الـوقت .. لـذلك فعنـدما أتحدث عـن الحل الديمقـراطى فـإننى أعنى بـه الحل الذى ينتهـي معه الوجـود الصهيوني، فـالشخصية الصهيونية تقـوم على نظرة عنصرية .. وهي تفـوق اليهود وامتيازهم، وأن حـركة تحمل هذه المفاهيـم العنصرية لايمكن أن تعيش ونقول أن الصهيـونية كحركة لـن تعيش إذا ما واجهتها فكـرة القوميـة العربيـة ذات البعد (العقيـدي) الحضاري والإنسـانى، إنها لـن تستطيع أن تتعـايش في نفس الوقـت كفكرة عنصرية مع فكـرة وعقيدة القومية العـربية ولابد أن تسقط في بحر العرب.

وهي لن تسقط بسهولة .. ولن تدع نفسها تسقط إلا إذا أدخلتنا في نظام شرق أوسطى جديد تذوى فيه الفكـرة القومية العربية .. لذلك علينا أن نحييهـا من جديد .. وعلى أساس جديد .. وبمفاهيم جديدة تجلوهـا من شوائب المزيدات والتحزبات والتجنيحات المذهبية.. فهل نستطيع؟ وهل ذلك ممكن؟!!

العظماء ليسوا
هم الأقوياء

هناك فـرق بين عظمة القوة وقوة العظمـة .. فالعظمة فى حد ذاتها قـوة لا يستهان بها .. قادرة على أن تغير العالم كله دون دماء أو دمار أو اشلاء .. إن مـن يملكها يكون قد استأثر بها فتمنحه التميز والتفرد بين الناس.

اما القوة فليست مبتغاة .. ولا هى فى قياس موازيـن الناس وحساب أقدارهم مطلوبة أو محبوبة .. لذلك فإن الاقوياء ليسوا هم عظماء العالم .. ولن يكونوا.

وفرق كبير بين الأقوياء والعظماء .. ويمكن القول دائما أن نـابليون وهتلر وموسيلينى وجنكيز خـان وأضرابهم من الـديكتاتـوريين والحكام المستبـدين ذوى البـأس والسطوة والبطش هم فى عداد الأقوياء .. ولكنهم لن يكونوا أبدا في عداد العظماء.

ان عظماء العالم هم غير من يملكون الناب والظلف، وأدوات القسر والإرهاب والبطش .. انما هم اولئك الذين يتمتعون بسيلان عاطفة .. ونبل توجهات .. وإنسانية مواقف .. هؤلاء تسيل عاطفتهم فتفيض عليهم وعلى الآخريـن من الناس والأشياء ـ الجماد والأحياء ـ حبا وحدبا .. وقمة مشاعر .. نبل أفكار وعقائد .. وتصورات وسلوكيات.

إن هؤلاء بهذه المقاييس قـد إحتلوا صدارة هذا العالم بين عظمائه، وعندمـا صنف أحد الكتاب عظماء العـالم جعل فى الصدارة «محمد رسـول الله صلى الله عليه وسلـم والمسيح عيسى بـن مريـم ودستويفسكـى، وأرسطو وأفـلاطون وغـاندى وتـوسترى .. وبنفس الموازين يقف فى طـابور العظماء آخرون وآخرون ممن مـلأوا الدنيا حبا وعواطـف كريمة وأحاسيس نبيلة ساهموا جميعا على مر العصـور فى إعادة صياغة حياة البشر والبشرية فى شتى الميادين والمجالات .. أبدعوا للإنسانية أحلى ممارساتها وأفرزوا لها أنبل تطلعاتها.

لنرقب معا رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فى هذا الموقف عندما كان يقف خطيبا فى الناس فى أول مسجد أقيم بالمدينة بعد هجرتـه إليها.. لقد كان المسجد بسيطا حتى أنه اتخذ من جذع شجرة منبرا له يخطب من فوقه خطبـة و يلقي مواعظه .. وظل الرسول على هذا الحال لسنوات عدة .. وعندما طوروا بناء المسجد أعـدوا للرسول منبرا ليخطب من فوقه .. وفي أول مرة يرتقـى فيها الرسول المنبر رنـت عيناه إلى جذع الشـجرة الـذى كان منبرا من قبل .. وترقـرق الدمع في عينيه تأثراً .. لقـد أقام رسول البشر علاقة حب ومـودة حتى مع

قطعة من جماد هي جذع الشجرة.

وإنظروا إلى هذا الأديب العظيم دستويفسكى الذي كان يدعو الناس للعودة إلى الطبيعة .. يناشدهم أن يترفقوا مع عناصرها .. مع كافة مخلوقات الله .. أوصاهم ألا تقسوا اقدامهم على حشائش الأرض عندما يمشون أو يسعون .. قال لهم امشوا هونا على الحشائش .. ترفقوا بها لتلمسها أقدامكم في حنو وحب وحنان ولتعانقها أيديكم .. وتحتضنها أصابعكم.

أما عيسى عليه السلام فلم يدعنا أن ندفع بالتي هي أحسن بل أن ندير خدنا الأيمن لمن ضربنا على خدنا الأيسر.

وهذا موقف تولستوي العظيم أحد نبلاء روسيا القيصرية وليد الثراء والضياع ينفض يديه من كل ذلك الثراء .. ويعطي ظهره لكتابة القصص الرائعة ويعكف على صناعة الأحذية لفقراء الفلاحين .. فهذا أجدى لهم وأنفع!!

إن هؤلاء العظماء هم صناع الحياة والحضارة التى لابد وأن تطير بجناحين .. جناحي المادة والروح معا .. تطير فى توازن فلا تسقط.. إنها حضارة تقوم على التعادل .. إنها ليست كحضارتنا الحالية التى تحلق إلى مستوى عال بجناح واحد هو جناح المادة فقط الذي لايسانده جناح الروح .. حتى بات يخشى على هذه الحضارة من أن تدمر نفسها وتسقط من ذلك الشأو البعيد إلى هاوية سحيقة لاقرار لها ولا استقرار بعدها .. بعد أن اخذت الأرض كامل زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فأتاها أمر الله ليلا أو نهارا فإذا هي يباب .. كأنها لم تغن بالأمس.

أعظم سيمفونية يعزفها موسيقار الأجيال على اوتار العقول

لقد عـزف الموسيقار .. مطرب الأجيـال محمد عبدالـوهاب على أوتـار عقولنا بـالأمس القريب أغلى وأمتع سيمفونية لحنها فى حياته العـامة والفنية فخلال اللقاء «مع فنان» الذى اذاعه التلفزيون، وعبر حـوار ذكى مع الصـحفي المعد مفيد فوزي أظهر محمـد عبدالوهاب مكنونات نفسه وجواهره العقلية الثمينة التي تضاهـي بل تكاد تتفوق على مايقدمه لنا من جواهر موسيقية حسنة السبك، طيعة الأداء، رائعة اللحن.

محمد عبـدالوهاب آخر جيـل القمم الفكرية الفنيـة والثقافية التي أثـرت مصر والعالم العربى بـإبداعاتها، وروائع أعمالها ورغم انه ذو حـظ متواضـع من التعليـم إلا أنه لم يكن أبدا ذا حـظ بسيط مـن العلم، صقلته تجارب الحيـاة وأغنته فكرا وفلسفـة وفنا، فـأحاط ووعى، وأعطانـا أمس من خلال حـديثه ما أغنانا فكـرا وفنا .. وقدم لنا على مـأدبة اللقاء والحوار خلاصة تجربة، وثاقب فكر، وعميق تأمل وحسن تعبير.

ثم أمتعنا بجميل الذكريات مع رائع اللوحات الموسيقية والتمثيلية التي قدمها من خلال أافلامه القديمة فى الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن.

لقد كان محمد عبدالوهاب فى حديثـه وحواره لماحا، فجاءت تعبيراته حكمة غير مفتعلة، وجادت قريحته بحوار منضبط المعانى والأفكار، سلس العبارات عميق المعنى.

خاصـة عندما تحدث عن أستـاذية الجمهور، ذلـك الجمهور الذى علمه وتعلـم هو على يديه كيف يـؤدي وكيف يغني ثم كيف يجيد .. وكما قال فإن الجمهـور الآن قد مات ولابد للأجيال الحالية والصـاعدة من المطربين من أن يجدو الأستاذ الـذي يعلمهم ويدربهم على حسن الأداء وتميز الغناء. وهذا الأستاذ هـو الجمهور الذي يجب أن نعمل على إحيائه مرة اخرى بـأن نرتـب اللقاءات بين الفنانين والمطـربين وبين الجمهور مثلما كـان يحدث أيام

زمان.

وكعادة الفنانين دائما فان محمد عبدالوهاب كما قال.. يحب الفوضى ويتعشقها؛ لأنها تظهر له كيف يكون النظام.. فالنقيض يفصح عن نقيضه .. ولن نعرف ضوء النهار إلا مع عتمة الليل.

فهو يسعد بالفوضى، لأنها طريق إلى النظام أو إلى حسن النظام وهو كفنان يرى بأذنه وليس بعينـه .. فاذنه أغلى مـاعنده .. وأغلى وادق مافيـه .. وقد عبر عن ذلـك بذكاء شـديد عندما ضرب مثـلا بالدكتور طه حسين الـذى تعلم وأصبح دكتورا وعميدا لـلأدب العربى بأذنه وليس بعينـه وقال لو أننا افترضنا أن الدكتور طـه حسـين عاوده البصر هل سنقول إنه أمى لا يقرأ ولا يكتب؟

لقد كان اللقاء مع عبدالوهاب الفنـان .. الإنسان .. المثقف لقاء ممتعا .. وحوارا مفيدا .. شكل سيمفونية أداء عقلي داعبت الأذن وتسللت إلى العقل والوجدان.

فإذا بعبدالـوهاب الذى امتعنا بسيمفـونيات اللحن والأداء يمتعنا أيضـا بسيمفونيات الفكر والعقل ..رحمه الله فقد أسعد أجيالا اخرى بعدنا مثلما أسعد أجيالنا وأجيالا قبلنا.

.. و.. نطالب بيوم للرجل العربي

تعودت المحافل العالمية والمنظمات العربية لأحتفـال بيوم للطفل ويوم للمرأة ، وهانحن نستعد الآن لـلاحتفال بيوم الطفل العـربى، وإذا كان المقصود بهذه الاحتفـالات دائما هو كسـب أرض أوسع مـن الحقـوق للمرأة وللطفـل سواء على الصعيـد الـدولي أم العربـى وترسيخ معان جديدة لتقدير المرأة ورعاية الطفل .. نقول إذا كان ذلك كذلك فإننا لم نسمع يوما، ما وفي مناسبـة ما عن رفع شعار دولي أو عربى ليوم الرجل العـربى .. وكأن الرجل العربـى من سقـط المتاع .. متاع الـدنيا والآخرة .. وكـأنه ليـس أولى بالرعـاية والعنـاية كإنسان يقف في فوهـة مدفع الحياة التي تطلق قذائفها أول ماتطلـق عليه هو؛ لأنه هو رب الأسرة وعائلهـا .. هو حامـى حماها والقائم بـأعباء الإنتـاج الأساسى فى أي مجتمـع من المجتمعات.

لم نسمع من يرفع شعارا للأحتفال بيوم الرجل عالمياً أو عربياً وكأن الرجل قد أستوت له حقوقه .. فى العمل والحياة والكلمة والحرية .. أو كـأنه ليس أول من يتعرض للقهر حينا والملاحقة أحيانا بحكم ريادته وقيادته لـلأسرة، ورعايته لمبادئها، وقيامه على معانى الحق والعدل والحرية فى أي زمان ومكان.

فالرجال المصلحـون الأجتماعيون .. هم السياسيون .. هم الفلاسفة .. هـم القادة ـ أيا كانـت مستوياتهم ـــ هم الجنود فى ميـادين الانتـاج والحرب والدفاع هـم العلماء .. أوهم يمثلون الريـادة فى العلم دائما .. بل إن منهم الأنبيـاء والرسل .. فلم نسمـع أن أمرأة بعثت نبيا أو كلفت برسالة .. وليس هـذا انتقاص من قدر المرأة أو إغماطا لحقها ووضعها .. إنما هو تقرير لواقع فرضته الأيام والسنون، وأكدته حقائق التاريخ على مدى الحقب.

وإذا كان هذا شـأن الرجل .. .. وذلك قـدره .. فإنه أولى بالـرعاية والعنايـة كى نجسد ونؤكد حقـوقه التي تطاول رسالته عظما وشـأوا وتمكنه من أدائها .. فإذا كانـت المحافل

الدوليـة والعربيـة تحتفى بـالطفل والمرأة والمسن بـإعتبارهـم يمثلون حلقـات ضعف في المجتمعات الإنسانية فإن الرجل ليس أفضل مـن هؤلاء جميعا فى موازين الحقوق المطلوبة والمفروضة وهذه أمور ومـواقع للرجل تتباين من مجتمع إلى مجتمـع ومن دولة إلى دولة، خاصة فى مجتمعاتنا العربية، فالرجل قد يكون طفلا فى مجتمع ما أو دولة ما وهو قد يكون طفلا عاجزا حتى داخـل أسرته .. بل إنه قد يكون دون المسن ضعفاً وأحق منـه بالرعاية فى مجتمع من المجتمعات التي لا يستطيع فيها ممارسة حقوقه .. وأداء دوره فيقع تحت دائرة القهر مسلوب الإرادة، أو يعيش في حومة الفقر أو تحت خطـه محروما من فرصة العمل .. من فرصـة الحياة الكريمة .. وهو المسئـول عن أسرة .. عن بيت .. عن مقـدراته ومقدرات غيره.

والآن .. تعالوا ننادى بأن يكون هناك يوم للرجل عموما .. وليس ذلك على سبيل القول: «لك يوم ياظالم» كما تحب المرأة أن نقول دائما .. وإنما من قبيـل القول: لك يوم يامظلوم !! والرجال مظلومون والله .. فما رأيكم .. دام فضلكم؟!!

الحوار مطلوب

الحوار دائما مطلوب لتوضيح الرأي والرؤيـة .. لتبيان الحقائق والوصول إلى المعارف .. ولأن الحوار لايتم إلا بين إثنين أو أكثر فإنه سمة مـن سمات الديمقراطية وعماد ووعاء لها.. بل إنـه انجح وسيلة وأنجعهـا لإبراز الحقائق والوصـول إلى تأصيل الفكـرة والفكر والخروج مـن قوقعـة الرأي الـواحد الـذى لاشريـك له .. لـذلك فـإن الحوار وعاء للفكـر السياسى .. وللفكر بصفة عامة.. بل للفكر الدرامي على وجه الخصوص ومثلما أن الحوار في الفكر السياسـى وعاء للديمقراطية فـإن فى الفكر الدرامى وعاء للمسرح .. مـن هنا فأن المسرح يتربع اليوم على قمة العمل الدرامى بشكل عام.

وانطلاقا من الحوار وايمانا به وتأكيدا لـه حرص القرآن الكريم على إيراد قيمة الحوار ودوره فى إيصال الفكـرة سواء مـن خلال ايـراد الحوار ذاته كحـوار ضمن آيـات القرآن الكريم أو الإشارة إلى الحوار كموقف لابد منه للتخاطب بين الناس، أو بين الأنبياء والناس الأمثله على ذلـك كثيرة ومتعددة منها ذلـك الحوار الغني بين مـوسى عليه السـلام وفتاه، وبينه وبين سيـدنا الخضر الذى أوردتـه سورة الكهـف .. وهو حوار مثير جسـد الفكرة، ونفذ إلى الحكمـة البالغة مـن وراء هذا الحوار. ثم ذلك الحوار بين مـوسى وفرعـون الذى استكبر وعـلا وقال أنـا ربكم الأعلى فـأنهى بـذلك الحوار مـع الآخـرين شـأنه شـأن أى ديكتاتور.

ثم دعوة القرآن إلى مجادلة أهل الكتاب بالتـى هى أحسن، والدعوة إلى كلمة سواء بيننا وبينكم هى في ظاهرها وباطنها دعوة إلى الحوار والتحاور.

والحوار أوردته سورة الكهف أيضا بين صاحـب الجنة «الحديقة الغناء» وبين صاحبه « إذ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك»؟

وهكذا فـإن دعوة الإسلام قائمـة على الحوار داعية اليه حـاثة عليه؛ لأنه يطـرح الرأى والرأى الآخر .. ولا يجعل أحدا يستأثر برأية أو يتوحد به شأنه شأن فرعون مصر قديما .. وأي ديكتاتور من الدكتاتوريين المحدثين صناعة القرن العشرين.

ولأن الحوار حكم وحكمة فإننى قد اخترته عنوانا لسلسلة من التأملات الحوارية التي اطرح من خلالها أفكارا معينـة وجدت في أرض الحوار متنفسا لها وماكان لغير الحوار أن يبرزها أو يسمح ببلورتها.

ولقد عودت ولدى على الحوار خـروجا على المألوف فى معاملة الآباء لـلأبناء، وقد يشق

عليّ ذلك الحوار أحيانـا لكننى أرتضيه في نهاية الأمـر لأنه يقوم على الإقناع والإقتنـاع فلا فرض لـرأى .. ولا إجبار عليه .. وذلـك منطق الشـورى .. وشاورهم فى الأمـر .. إن ملاك الشورى هو أساس الديمقراطية على الصعيد الخاص والعام أيضا وكما قال الشاعر حافظ إبراهيم:

يـا رافعـا رايـة الشـورى وحـارسهـا جـزاك ربـك خيرا عـن محبيهـا
رأي الجماعـة لا تشقـى البـلاد بـه رغـم الخلاف ورأى الفـرد يشقيهـا

ليست الصدفة وحدها .. لكن!!

المواهب الفـذة والعبقريـات المتميزة التى تـؤثر فى مجريات تـاريخ الأمـم والشعوب وحياتها الفكرية والثقافية والفنية لاتلـدها الدول ولا الشعوب هكذا بشكل عشوائى .. إن الأرض التى تنبتها لابد وأن تكون صالـحة .. خصبـة .. قادرة على الإنبات .. وحتى تكون كذلك فلابد وأن يتوافر لها القـدر الملائم والمناسب من الضوء .. والحد الأدنى من الهواء النقي .. والقدر المعقول من التعهد والرعاية والعناية.

إن زرع العبقريـات فى وسط أرض الشعـوب منّة مـن الله .. ونعمـة منه .. لكـن هذه العبقريات لاتنمو، ولاتؤتى أكلها كل حين بـإذن ربها إلا إذا واتاها المناخ المناسب والتربة الخصبة وأشرقت عليهـا أضواء شمس الحرية، وحـرارة وتوهج ممارسـات الفكر دون قيـود أو حدود ! إن مثـل هـذه العبقريـات مثـل النبتة الصغيرة الخضراء لاتنمـو إلا إذا توافرت لها مقـومات النماء من تربة خصبة .. ومـاء وهواء وضوء مع قدر من الـرعاية والعناية .. فـإذا عزت الأرض الخصبة .. أو حجب عنهـا الضوء .. ومنعت نسمات الهواء ماتت النبتة .. ولم تؤت ثمارها حتى أو أرادت هذه النبتة تحدي كل هذه الظروف المعوقة فإنها تأتي ضعيفة هزيلة .. ثمارها فجة .. وأعضاؤها ذابلة .. ونموها عاجز.

ولقد كنت أتحاور مع صديق منـذ أيام حول فترة الخصب الفني والفكري والأدبي في مصر خلال حقبة الثلاثينـات والأربعينات .. ماقبلها قليلا ومابعدهـا قليلا أيضا، وطرح سؤاله هل كـانت مجرد صدفة أن تحفل هذه الحقبة بعباقـرة المفكرين والأدباء والعلماء والكتاب أمثال مصطفى مشرفة فى العلوم وعلى باشا إبراهيم في الطب والعقاد وطه حسين والمازني ومصطفى صـادق الرافعي وأم كلثـوم وعبدالـوهاب والسنباطـي والقصبجي ونجيب الـريحاني ويوسف وهبـى، ثم التابعي ومحمـود دياب فى الصحافـة .. وغيرهم وغيرهـم أمثال الشيـخ مصطفـى عبدالـرازق وعلي عبـدالـرازق و المراغي .. وصفـوف العباقرة تترى فى خاطرنـا .. وكان السؤال مازال ماثلا .. هل كانت صـدفة؟ .. ثم أجدبت الأرض المصرية عن إنبات أمثال هؤلاء من العباقرة الأفذاذ؟

كان الجواب إنها لم تكـن الصدفة .. وأن هـؤلاء العباقرة كانـوا فيضا من عطـاء الله صادفهم مناخ ملائم للنمو والأزدهار .. للتفرد والتميز .. للقدرة على العطاء.

كانـت الأرض المصرية خصبة معطاء .. وكـانت شمس الحرية سـاطعة .. ونسمات التفتح تـهز الوجدان، فتخرج المواهب من أكمامهـا، كما يخرج الزهر عاطر الشذى تبلله قطرات النـدى عندمـا يأذن الفجر بـالبزوغ .. فـإذا الكائنات كلهـا تنتفض بـالحياة .. وتضج بـالحيويـة وتثري الحيـاة عطاءات وحبـا .. وتتقدم مـواكب الحيـاة والأحياء صفوف العباقرة الأفذاذ ليعطوا الحياة زينتها ويمنحـوها معناها .. وشذاها .. وفيض عبقريتها.

صدقني صـاحبي فيما أقول .. وأردف قائلاً .. ومؤكدا أن المنـاخ الذى ساد فى مصر ابان هـذه الحقبة البعيـدة كان مواتيـاً رغم الأحتـلال والقصر .. وألاعيب السيـاسة... والدليـل أننا مازلنا نعيـش امتدادات هذا الجيـل العبقري .. ونتضوع شذى عطـر تلك الأيـام فيما جادت بـه أرض مصر من عطـاءات .. فـإن ذلك المنـاخ .. مناخ الأربعينـات والخمسينات أفـرز لنا جيـل المبدعين في الخمسينـات أمثال نجيـب محفوظ .. يـوسف إدريـس، زكى نجيـب محمود، وغيرهـم بـل إننا لانجـانـب الصواب عنـدما نقـول إن عبدالناصر بكل شموخه وزعامته، وحسه القيـادي الفذ هو نتاج هذا المناخ بنفسه مناخ لأربعينات و .. والآن تعـالوا نسأل أنفسنـا .. ماالـذى أنجبته مصر بعد ذلـك على نفس المستوى حتى الآن فى الفـن والفكر والثقافة والعلوم والطب .. أقـول وأكرر .. على نفس المستوى؟

إن الإجابة على هذا السؤال يحتاج إلى رؤية خبير فى الأرصاد الاجتماعية والسياسية والثقافية والفكرية .. خبير فى المناخ قادر على تحليل الطقس .. خبير في التربة يستطيع أن يعرف مواطن الخلل والضعف فيها .. وخبير في ملـوثات الهواء والماء ليقولوا لنا جميعا .. ما الخبر؟

و .. الأذن تعشق قبل العين أحيانا !!

لأن التلفزيون .. ذلك الجهاز السحري قد بهرنا بقنـواته المتعددة، ومسلسلاته المتنوعة وأفلامـه الدائمة وبـرامجه التي تشخص إليهـا أبصارنـا فنتسمر أمامهـا مشدوهين غير مكترثين بما سواها حتـى لو كان الأب والولد، فإذا حيـاتنا كلها قد أصبحت تليفـزيونا في تلفزيون .. نقـول لأن التلفزيون هو كذلك أو أصبـح كذلك فإننا إنصرفنا عـن الإذاعة وما فيهـا .. وودعت آذاننـا مـاكنـا نسمعه مـن رائع البرامـج وحلـو الأصوات مـن الإذاعيين والإذاعيات ..

وأصبح الراديـو «موضة» قديمة رغم أنـه حاول تطوير نفسه واستعادة شبـابه الذي ولّى وراح ولم يستثن من ذلك حتى فى فترات الصباح التـي كان يمرح فيها الراديو في غفلة من التلفزيون لكن التلفزيون أدرك منه هذه الحيلـة فآثر إلا أن يبث إرساله من الصباح إلى الصباح عبر قنـوات تأتينا مـن الشرق تارة ومن الغـرب تارة أخـرى من خلال شـاشـات وأقمار فى الأسحار والإبكار..

ولأن التلفزيـون خطف الكـاميرا ومعها المستمعين من الإذاعـة فإن أحـد لايكاد يـذكر الإذاعة سواء من الصـحفيين أم غيرهـم إلا لماما فى مساحة صغيرة صوتا وصورة وسطورا رغم أن أجهزة الإذاعة ومنهـا إذاعة البحرين تبذل خالص جهدهـا لتطوير ذاتها والأرتقاء بفنها على مدى إرسال متواصل ٢٤ ساعـة كل ٢٤ ساعة... وأعترف .. ومازلت مصرا على الاعتراف أننى أعشـق الراديـو وأحب الإذاعـة رغم كل إغـراءات التليفزيـون وشاشـاته وأقماره و «قماراته» وشموسه التي تضج بها حياتنـا رقصا وغناء .. مسلسلات وبرامج .. إننى مازلت اقنع أن أحتضن في سعادة الـراديو أطوي نفسي معه فى هدأة الليل أو حتى في عز الظهيرة أسمع .. وأستمـع ..أتأمل واتخيل .. فـالراديو يتيح لـك فسحة أكبر من إعمال الخيـال والتصور عبر التـأمـل الطويـل فيما تسمع مـن أصـوات ومايـداعـب أذنك مـن مسلسلات وبرامـج .. أنك وأنت تسمع وتستمع إلى الإذاعـة تحل محل المخرج .. وتضيف خيالك إلى خيـال المؤلف .. حتى شخوص المسلسـلات والبرامج والأفلام تعطيها صـورها من البهـاء والسناء .. مـن الحلاوة أو من الدمـامة .. إنك تقيسهـا دائما بدمـامة المخبر أو حلاوته فتكتسي الجمال أو القبح وفقـا لما تحمله من مضامين وما ترسلـه من إشارات عبر

البرامج والمسلسلات الإذاعية..

تطلق لخيالك العنان لترسم الصورة التي تراها في جمالها أو قبحها .. لايحد خيالك حدود خيال المخرج مهما كان عبقريا، ولايعدو على خيالك هذا خياله..

اذكر انني كنت أستمتع ببعض البرامج الإذاعية مثل عذراء الربيع، عوف الأصيل وغيرهما .. وكنت أرسم من خيالي صورا شتى مبهجة رائعة الملامح لروح الجمال .. ولعذراء الربيع وللعذارى المرحات فوق الربوات .. وكانت تشدني شخصية عوف الأصيل بوداعته وكرمه وأصالة نفسه وشفافية روحه، فأصوره في خيالي صورة ملائكية .. وهكذا .. لكننى عندما رحت أشاهد عبر شاشة التلفزيون بعض ماكنت أسمعه فى الإذاعة صدم المخرج خيالى .. حدده .. شوه الصور الجميلة التي رسمتها لهذه الشخوص .. لذلك فإننى مازلت معتزا بأن أسمع .. وأن أستمع إلى الراديو .. فلذة الاستماع عندي تعلو على لذة المشاهدة..!!

وفى البدء كانت الكلمة .. والكلمة دائما هى المسموعة .. ولذلك فضل الله في أولويات النعم السمع على البصر والفؤاد «إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » والكلمة هي التي صنعت المعجزات وغيرت كيان العالم كله .. ومن خلال الأذن سمع طه حسين روائع الثقافة والأدب والفكر العربى والعالمى... تسللت المعاني والكلمات إلى فؤاده ووجدانه عبر أذنه ولو أذن الله لطه حسين أن يبصر لكان أميا لايقرأ ولايكتب!! وليس صحيحا القول «إن العين تعشق قبل الأذن أحياناً» والصحيح أن الأذن تسبق الأثنين القلب والعين في العشق .. لذلك أنا عاشق للإذاعة.

ذكريات اليمن
تنتعش في البحرين

أهاجت ذكرياتي ونشطت ذاكرتى تلك الرؤى والملاحظات التي جاء بها يراع صديقنا صاحب قوس قـزح، ذلك القوس الذي مهما اختلطت ألوانه وتعددت درجـات أطيافه، فإن الغالب فيه هذا اللون الأبيض لصاحبه صاحب القلب الطيب زميلنا وسمّي حافظ الشيخ.

لقد ذكرتنى مقـالاته وصفحاته الناصعات بـالبيان الساطع باليمن و أيـامه .. والقات وجلساته .. ومجالس الشعراء و «المداعة» تدور دورتها لتعبق الجو بمناخ الأحداث وسط القبائل وبينهـا خاصة غـداة الثورة اليمنية الكبرى التـي أطاحت بـالإمام أحمد فى سبتمبر البعيد.

ولأن صاحب قوس قـزح قد أزاح عن ذاكرتى غبار النسيـان بعد توالي السنين والأيام التي تعود إلى مـايقرب من ٣٠ عاما أو أقل قليـلاً .. فإننى قد إستدعيـت إلى ذاكرتي الأيام الأخيرة فى حرب اليمن وقبل الأنسحاب المصرى من هناك . كان ذلك ـ إذا لم تخنى الذاكرة في منتصف الستينات عندما كلفت من مجلة «آخـر ساعة» بتغطية مؤتمر حرض للسـلام .. أو مـا أسموه وقتهـا مؤتمر الخيـام والذي كـان محاولـة لفض النـزاع القائم هنـاك بين مجموعات من القبائل.

وفي مدينة حرض ـــ أسمها مدينة جوازا ـ والتي لاتصلهـا سوى الطائرات عبر الجبال الشاهقـات عقد المؤتمر، ونصبت الخيـام بالمئات في صحـراء جرداء ترتـع فيها الحشرات اللادغة السامة كالأفاعي وأقاربها، وأبناء فصائلها من اللوادغ التي تقود لدغاتها إلى القبر فورا مثل أم أربعة وأربعين والعقارب .. وخلافه.. مكثنـا هناك نحو شهر ونصف .. وكان يأتينا الطعام المكون من الأرز واللحم بالطـائرات عبر جيزان ونجران بالسعودية .. ولكم أن تتصوروا كيف تكون الحياة أو كيف كانت الحيـاة وسط خيام تحتل صحراء موحشة لم يقلل مـن وحشتها سوى بعـض الحيوية التي كـان يبعثها النقاش المتصـل بين القبائل سعياً إلى السـلام في أرض اليمن.. كانـت وراء وفود القبـائل المتناحرة على السلطـة هناك وفود دبلومـاسية وسياسية مـن المملكة العربية السعـودية ووفود أخرى مـن جمهورية مصر العربيـة. كان الـوفد المصرى بـرئاسة اللواء المرحـوم عبدالعـزيز سليمان والـوفد السعودي بـرئاسة الشيخ عبـدالله السـديري ـ سفير المملكـة العربية السعـودية حـاليا

بالبحرين ـ يعاونه سفير السعودية الأسبق بالبحرين الدكتور غازي القصيبي.

واجتمع الفرقاء في ذلك المكان القفر الـذى امتدت فيه الخيام على امتداد بصر لا نهاية له .. وكنا نحـن الصحفيين من مصر والسعوديـة نلتقى معـا .. نهاراً وليلاً .. نتسامـر حتى الصباح .. نتبـادل الأخبار .. وحكـايات الحرب .. ونتابـع محاولات السلام.. كنـا نعيش مـؤتمر الخيام بكـل تفاصيلـه بين العمائم واللحي والخنـاجر .. ونتجـرأ أحيانـا فنشرب المداعة أو «نخزن القات».

عشنا هنـاك مايقارب شهرا ونصـف الشهر .. حياة رتيبـة لايقلل من رتابتهـا سوى انتعاش الآمـال في السلام حينا حيـث تحلق في حياتنا هـذه وتزين أيـامنا ولياليـنا نجوم التفاؤل وشموس دفء المودة بين المتحاورين .. وأحيانا تتلبد سماوات المحادثات بسحب خلافات كثيفة ثم تنقشـع الغاشية لنمسك بالأمل من جديد .. لكـن كل مالاحظناه أن هذه الخلافـات بين الجانبين لم تكـن تفســد للـود أو الحب السـائد بين الـوفــديـن المصري والسعودي قضية .. فقد تآلف الـوفدان وتحابا، وكان يسودهما احترام وود كبير لمسناه في تلك العلاقات الحميمة بين الشيخ عبدالله السديري والمرحوم اللواء عبدالعزيز سليمان.

وهكذا كانت أول معـرفة لي بالشيخ السديري .. فلما عـدت إلى مصر بعد طول غياب .. تداخلت الأحداث .. وتقهقرت هذه الذكريات بعيدا في تلافيف المخ..

ونسيت الذاكـرة أو أخفت ما كان أيـام زمان .. وحضرت إلى البحرين .. عشـت طويلا ولما عين السفير الأستـاذ عبداللـه السـديري سفيرا للملكـة هنـا عاودتنـى الـذكريـات .. وتذكرت عبدالله السـديري أيامها بوجهه السمح .. وضحكته الصـافية .. وشبابه الغض منذ نحو ثلاثين عاما أو أقل قليلاً.

مأآمله أن تنعـش هذه السطور ذاكرة الشيخ السـديري من جديـد فتطفو على السطح ذكريات هذه الحقبة التي قضاها هذا الرجل في اليمن رسولا للسلام.

..ويبقى السيرك منصوباً .. والملهاه مستمرة

عنـدما تختلـط الـرؤى .. تضيع المعـاني والمعـالم .. معالم الأشيـاء ومعاني الكلمات .. تصبح الألفاظ بلا معنى .. بلامحتوى .. وتفقد القدم طريقها والعقل اتجاهه الصحيـح.. حتى الصحيح لم يعد صحيحا دائما .. بـل ولا أحيانـاالأن الكلمـة هي الأخـرى فقدت معنـاهـا .. محتواهـا .. أصبحت تحمل ألف معنى .. مليون وجه .. وكل وجه يناقض الآخر.

وفي هـذا العصر حمل إلينا قـامـوس السياسـة والفكر كلمات ممطـوطـة ومطاطـة .. فضفاضة أشبه ماتكون بتهويمات الشعراء ونبض أخيلتهم البعيدة الغريبة.

أصبحت أفواهنـا وألسنتنا تلوك بمناسبـة و بغير مناسبة كلمات الرجعيـة والتقدمية فضلا عـن الثوريـة أو التفجير الثورى، والانتفاضـات الشعبية ومـا إلى ذلك ممـا يرضي غرورنـا ويغطي جهلنـا ويداعب آذاننـا صباح مسـاء ويطالع أعيننـا مع كـل الصفحات مداعبات مملة، ومطـالعات سمجة .. وألفاظ ممجوجة لأنها ـ على كل حـال ـ لاتعني شيئاً محدداً أو حتى شيئـاً واضحـاً .. أصبحنا نسمـع ونقرأ عن الرجعيـة والتقدمية والثـورية كمواقـف وآراء وأفكار .. بل كقضـايا ومبادىء .. والخيـط بين هذه المعاني رفيـع جداً .. دقيق للغاية يكاد لا يبين لكنه يسمح في نفس الوقت ـ وبنفس القدر من الضلال والتضليل ـ بـأن يمتطيه الجميـع ويتسلقه النقيض ونقيضـه.. ويناور حولـه ـ كـلاعبى السيرك ـ المناورون وعندهـا لانعرف المقصود حقا وفعلا وموقفـا بالرجعى أو الرجعيـة .. بالتقدم والتقدمية.

هل تعنـى يساراً ويمينـاً .. أم شمالاً وجنوبـاً وشرقاً وغـرباً .. أو يقصَـد بها الجهات الأصلية الأربـع .. باسم هذا كلـه .. باسم التقـدمية تذبـح حريات وتوأد أفكـار وتنصب مشانـق للرأي ولرقاب العبـاد.. كذلك الرجعيـون في منطقهم وخيالهم هم التقـدميون في عرفهم وتصورهم أنهم وحدهم هم دعاة الفكر المستنير المعاصر وغيرهم رجعيون.

لكن من هم التقدميون حقا ومن هم الـرجعيون؟ من يحكم على من .. ومن يحكم من ؟ ثم من يقيم من ويصنفه فيغلق أمامه أبواب الرحمات والحريات أو يغدق عليه الامتيازات والمنح والعطـايا والمناصب؟ لا أحـد يدري .. اختلطت الـرؤى .. وتاهت المعاني بـل فقدت الألفاظ معناها .. ومـازال السيرك منصوباً والحبل مشدوداً .. وكلنا في هـذا العالم نمشى عليه نتسلقـه، فإذا فقـد أحدنـا توازنـه سقط ذات اليمين أو ذات الشمال في هـوة سحيقة

اسمها الرجعية أو التقدمية «وهو وحظه» لكـن الستار لم يسدل بعد على هذه المشاهد؟ بل ومن يسدله وقد سقط الحائط الـرابع وأصبحنا جميعاً ممثلين .. لاعبين في سيرك المعاني التائهه والمواقف الغامضة والألفاظ الفضفـاضة غير المحددة نؤدي الدور بلا وعي .. لأن الدور نفســه بلا معنى أو أصبح كـذلك.. أو ربما لم يعد هنـاك دور ما لنؤديه فـالدور في المسرح .. وفى الحياة وعاؤه الألفاظ ووسيلته الحوار والتحاور .. أما وقد فقد اللفظ معناه، والحرف صدقــه وانعدمـت وسيلة التحاور أو كـادت .. فلم يعـد هناك دور.. لكـن يبقى السيرك منصوباً .. والمسرح يؤدي كل يوم بل كل ساعـة ولحظة مشاهد من رواية هزلية اسمها الحياة !!

عذرا سادتي أنا لم أضف إلى «كلمة» الحياة .. كلمـة السياسة .. عذرا .. فكلها من نوع الفارس وللأسف نحن نجدد تمثيلها وأداءها .. وإن كانت أحط أنواع الكوميديا.

و .. تتجدّد الحياة مع كلّ عيد

في حب غـريزي .. وحنـان أبوى احتضنـت يدي يـده الصغيرة سرنا سـويا.. كعصفور معلق باغصان شجرة عجوز عتيقـة عبثت باغصانها وأوراقها الجافة رياح الشتاء ..

انطلقنـا .. هو غصـن مـازال أخضر ارتدى كـل قشيـب جـديد، تهدهـده رؤى السعادة واحلامها المنتظرة في يوم العيد ..

تردد عينـاه معاني أعجـز عن وصفهـا .. وتنطلق مـن فمه عبـارات حبيبة .. محببة إلى نفسى .. بل وإلى كـل نفس وإن كانت هي في الواقـع موجهة إليّ وحدى .. تدور كلها حول محور واحد .. أريد .. و أريد..

يحسبنى قـادرا على كل شـيء .. املك بيمينـى كلا المشرقين والمغـربين وأمتلك أموال الدنيا ومتاعها .. باصبع واحد منى استطيع أن أحرك الكون..!!

وأهـم ياصغيرى .. ووهمك كبير .. وليتـه كان صغيرا كجسمـك .. متـواضعاً مثـل حجمك !!

قال في فرح وحبور .. اليوم عيد يا بابا .. انطلقت من فمه كزغرودة فرح كبير .. لنذهـب الى الصلاة .. هيـا .. هيا.. راحـت يده الصبيـة تجذب يدى العجـوز في مرح وفرح .. ثم .. ثم خرجت من فمه تنغيمات وترنيمات العيد .. الله أكبر .. ولله الحمد..

لايكاد يستطيع نطقهـا.. فضلا عن فهم معناهـا .. لايدركها كاملة في انتظـام ورتابة وكمال كما تعودنا أن نفعل نحن الكبار .

هيـا .. هيا صـديقـي الصغير .. فلابـد وأن تعتـاد قـدماك مـن الآن التردد على المسجد..

غصنـا وسط النـاس .. المسجد كبير عـامـر بالمصلين .. رجـال .. وأطفال .. شبـاب وشيوخ .. و..أيضـا شباب شيـوخ وشيوخ شبـاب .. الكلمات واحدة .. النغـم واحد .. الثياب نظيفة والفرحة تغمر كل الوجوه .. كل القلوب.

نستعيد معا قصة التضحية و الأضحية .. يقرأ الخطيب على مسامعنا قصة إبراهيم عليه السلام وإبنه إسماعيل عليه السـلام .. وتترى كلمات الفداء والتضحية على لسانه .. يحث الناس عليه .. ثم .. يدخل بنا إلى أحكام التضحية ومعناها .

كيف نوزع منها على المحتاجين والفقراء ..؟ لمن نعطى..؟ ولماذا؟

.. أنا ذاهل عما حولى وعمن حولى .. فى زمان آخر انا .. وكان العمر لم ينقض منه أربعون عاما إلا قليلا.

وأنا ذلك الصبى الصغير الغرير الأخضر كعود نابت .. الطلق كعصفور مغرداتعلق باغصان شجرة عجوز عتيقة جافة الأغصان والأوراق..

في ذلك المكان أو مثلـه .. وسط ذلك الجمع أو غيره .. يداى تحتضنان يدى والدى .. عيناى وآمالى معلقتان به .. إنه يملك الدنيا بيمينه .. الحب والحنان، الحزن والفرح.. إنه بالتحديد قادر على أن يحرك الكون كله بأصبع يده الواحدة.

أذناي مشدودتان إلى تلك الترنيمات والتنغيمات والتكبيرات التي يرددها المصلون في المسجد الكبير .. نفس التكبيرات أقلدها .. أنطق بها.. وأحاول أن أسترجعها وأنغمها كما يفعلون .. وما أنا بفاعل ولا أنا بقادر .

يقومون للصلاة .. وأستعجل نهايتها كي أنطلق معه .. مع حبى وحنانى وحياتى وسط أفراح العيد .. والعيدية .. واللعب وزيارة الأهل والأقارب..

فالحذاء جديد لامع .. والزى قشيب والحال عال .. يؤدون الصلاة .. حركات لا اعرفها أو افهمها .. أقف إلى جانب صورة الحنان المتجسدة..

واتلفت حولى أقلد الحركات فى صبيانية حبيبة فلا أراعى فى ذلك تقاليد الصلاة أو طقوسها سجودا وركوعا وقياما .. أنظر إلى جانب أبى بعين وأرنو إلى من حولي بعين أخرى وأستدير خلفي .. وأميل إلى جانبي.

أحاول أن أتطاول بعنقى الصغير إلى مافوق الأعناق .. ثم .. أعرف أن الصلاة قد انتهت .. كل يسلم على من بجواره يشد على يده .. وتنطلق كلمات .. كل سنة وأنت طيب .. عيد مبارك من كل فم .. إلى كل أذن .. ولكل قلب.

واهب واقفا أريد أن أجرى إلى خارج المسجد .. في يدى حذائى الصغير .. وفى ذهنى الف فكرة .. ومليون رغبة لكن يد أبى تشدنى اليها فى حنان أن أبقى على مضض .. تتداعى إلى أذنى كلمات الخطيب فى رتابة مملة وبانتهائها ينتهى وجودى فى ذلك المكان ولكم أحببت ذلك المكان أشد الحب، ولكم بغضته أعظم البغض فقد تعودت أن يكون وجودى فيه بداية لانطلاقة العيد .. فبت أتعجل الحضور إليه وبنفس القدر أتعجل الخروج منه .. و.. أنا سارح فى ذكرياتى البعيدة .. ذكريات السنوات الخمس أو الست

لأولى .. من حياتى .. والخطيب مـن فوق منبره مافتـىء يردد قصة الفـداء والتضحية وبطليها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لكنني مازلـت مع ذكرياتى أعيش .. فلا أكاد اتابع مايطلقه من كلمات ومعان وعظات .. فـذكريات الماضي موصولة بالحاضر .. نفس الكلمات أسمعها تتردد مع كل عام منذ حوالي أربعين عاما .. أو اقل أو أزيد قليلاً.

المشهد هـو .. نفسه .. مـع إختلاف بسيـط فى الخطوط والملامـح التي غيرهـا الزمن .. وجارت عليها الأيام اصبحـت أنا الشجرة العجوز وهو النبته الخضراء .. إنا الأفق البعيد الغارب وهو العصفور المغرد فى سماوات الحاضر المشرقات.

و .. أفيق من تـأملاتى على زقزقة عصفـوري .. تجذبنى من تيه الذكـريات البعيدة فتضعنى أمـام واقعي الماثـل .. تجذبني يـد ولدى الصغيرة في قلـق .. بل في نفـس الملل تستحثنى أن أقوم .. وتستحلفنى نظـراته أن ننطلق إلى رحاب العيد ومرحـه وفرحه .. فالحذاء جديـد لامع والزى قشيب .. ولابد مـن زيارة الأهل والأقارب وأخـذ «العيدية» واللعب مع الرفاق..

وتنتبه إذناى على كلمات الواعظ الخطيب وهـي مازالت تردد، وتفسر وتشرح معانى العيد .. فتسارع يدى إلى جذب ثياب صغيرى تستبقيـه .. ويبقى لكن على مضض حتى ينتهي الخطيب.

العمارة التقليدية
و.. الموسيقى العربية

كما تمتد الخطوط مستقيمة أو متشابكة متوازية أو متلاقية، وكما تصنع الدوائر والمكعبات والمعينات فالمثلثات بدقة القياس وتوازن الخطوط تمتد الألحان وتستقيم الجمل الموسيقية .. تتابع .. تلتقى .. تتشابك أو تتوازى بنفس المقاييس .. فلاشيء يتم عشوائيا .. لا في خطوط المعماريين ومهندسى العمارة والمصممين ولا في الجملة الموسيقية وتركيباتها التي تكونها ألحان الموسيقين وتبدعها وجداناتهم .. فالموسيقى والهندسة والجبر والمنطق هى كلها أنواع من جنس العلم الموزون كما قال ذلك بحق المهندس الفنان ضياء عبدالعزيز توفيقى نائب رئيس جمعية المهندسين البحرينية فى تقديمه للأمسية الموسيقية الحالمة.. «الرائعة التي نظمتها الجمعية في مساء يوم افتتاح ندوة العمارة التقليدية، فجاءت هذه الأمسية مقابلا موضوعيا وفنيا لفنون العمارة بشكل عام، والعمارة العربية الإسلامية التقليدية بشكل خاص.

لقد أرادت لنا جمعية المهندسين ـ بمبادرة فنية ذكية منها ـ أن نعيش أحلى الأوقات مع الموسيقى العربية التي قدمتها لنا الفرقة البحرينية الموسيقية بقيادة الأستاذ محمود حسين. أبدعت الفرقة عزفا فأشاعت في نفوسنا بهجة أزاحت عن أرواحنا عناء المعاناة اليومية للحياة وأزالت صدأ الأيام التي رانت وتكلست في النفوس .. فإذا هي ساعات رحبة بمودة اللحن .. بعذوبة النغم من خلال امتداد أو انحسار الجمل الموسيقية التي انسابت بميزان وحساب اللحن، وبمقاييس الفن والطرب.

عشنا مع مقطوعات موسيقية، وموشحات أندلسية .. مع أغاني الكورال وعدنا إلى عصر الأربعينات في مصر .. مع أنغام القصبجى في ذكرياته .. وحيرة السنباطى ترفرف علينا من خلاله روح «ثومة» سيدة الطرب العربى بلا منازع .. تذكرناها .. فتذكر كل حبيب حبيبه .. فدمعت العيون وتدفقت من المآقى .. وخفقت القلوب، ونحن نستمع إلى موسيقى «لسه فاكر» وأنساك ياسلام لبليغ حمدى .. فتمايلت الرؤوس طربا .. وتتابعت دقات القلب وجدا .. وحبا وبين الحديث والقديم جدا من النغم تأرجحت ارواحنا .. وصفت نفوسنا مع الموشحات الاندلسية .. مع أمان ياللى أمان مع النهاوند .. والحجاز .. وعدنا الى خالد الفن والآثار الموسيقار سيد درويش، ثم عرجنا إلى ياماالكا قلبي للموجى واختتمنا

الفرحة الموسيقية بالنهر الخالد لموسيقارنا الخالد الدكتور محمد عبدالوهاب.

كانت الأمسية مفاجأة جمعية المهندسين لنا جميعا وقد حملت لنا هذه المفاجأة في طياتها مفاجأتين.. أولاهما اكتشاف البعد الفنى الإنسانى الرحب للمهندس الفنان ضياء توفيقي، لقد جاء تقديمه للأمسية آية في الروعة وبراعة في الاستهلال وغزارة المعرفة بعالم الموسيقى الشرقية.

كان فنانا موسيقيا عشق مع الهندسة الفن فتلاقت عنده الأوتار والألحان مع الخطوط الهندسية في توازن وتشابك متناسق غير متضاد مماصنع منه فنانا من أخمص القدم حتى قمة الرأس.

وأتاه في تقديمه للأمسية براعة استهلال كما يقول الأدباء النقاد.. وأنا هنا أستعيد كلماته في تقديم الحفل، قال:

دخل «الفارابى» يوما على قوم فعزف لهم عزفا أنامهم .. ثم تركهم وانصرف عنهم وهم نيام .. إننا لم نسمع حتى بين عمالقة الموسيقى فى العالم كله أن أحدا استطاع أن يلعب بنفوس الناس على هذا النحو الذى صنعه «الفارابى» وإن دل ذلك على شىء إنه يدل على عمق الموسيقى العربية المبنية على كثرة مقاماتها، واختلاف نغماتها التي تميزها عن الموسيقى الغربية.

قد يتساءل الفرد عن العلاقة بين الموسيقى والعمارة أو الهندسة، فيمكننا أن نقول أن الموسيقى والهندسة والجبر والمنطق هي كلها أنواع من جنس «العلم الموزون» وهي علوم متشابكة، رباطها النظام ووحدة الحركة والسكون .. فعلم الموسيقى من العلوم التطبيقية المبنية على القواعد الرياضية، وهو ترتيب وتعاقب الأصوات المختلفة في الدرجة المؤتلفة المتناسبة بحيث يتركب منها ألحان تستسيغها الأذن مبنية على موازين موسيقية مختلفة تكسبها طلاوة.

لقد زادنا توفيقي من الاستمتاع بالأمسية الموسيقية من خلال حسن تقديمه لفقراتها، وتعريفنا بفنون الموشحات والأنغام والمقامات الموسيقية من النهاوند والدماجور والحجاز مماشكل لنا مفاجأة لم تكن فى الحسبان .. لكنها مفاجأة سارة أما المفاجأة الأخرى فتمثلت فى التخت الشرقى للفرقة البحرينية الموسيقية بقيادة الأستاذ محمود حسين وقد تأسست هذه الفرقة عام ٧٠ اي منذ ٢٥ عاما وهي فرقة خاصة تضم نخبة متميزة من الموسيقيين البحرينيين الدارسين لفنون الموسيقى بالمعاهد الموسيقية لقد جاء أداؤهم الموسيقى، وتمكنهم من العزف على كافة الأوتار الشرقية والغربية آية في حسن

الأداء والإبداع سانـدهم كورال مدرب .. وإننى أتســاءل لم لا نقدم الرعايـة والعناية إلى هذه الفرقة .. ولماذا لا نتولاها بالتدريب المستمـر، وبالإمكانيات لتصبح الفرقة الموسيقية للإذاعة والتلفزيون مثلاً؟

ولــم تكن ..
مجــرد رحــلة!!

منذ أيام قليلة رتب لي بعض الأصدقـاء رحلة للخروج معهم إلى جزر حوار .. واعتذرت لضيق الوقـت .. ومن قبلها فعلها أصدقـاء آخرون من إحدى الجمعيات المهنيـة فقد تعود هؤلاء شأنهم شأن أسر وعائلات كثيرة قضاء أيام آخر الأسبوع عند شواطىء جزر حوار الساحرة الآسرة حيث تتلون عند أقدامها ميـاه الخليج بألوان الفيروز.. أما صيادو السمك فإنهم أيضا قـد اعتادوا هم وآباء لهم وأجـداد منذ مئات السنين أن ييمموا وجـوهم شطر هذه الجزر حيث الرزق وفير لهم ولأسرهم، والثروة السمكيـة الموجودة هناك تداعب أغلى احلامهم.

ورغم تمنعي حينا بعد حين عن الذهاب إلى حوار لانشغالي بعملي فإنني انتهزت فرصة جديـدة لي ولزملاء المهنة لـزيارة حوار .. وقد جـاءت هذه الزيارة لتفسر لي معـاني كثيرة وتطرح أسبـابا أكثر جعلت مـن أهل البحريـن رجالا يعتمدون على حوار كمنتجـع ومقر ومستقر بل موطن أساسي لصيد الأسماك وعبر السفن منذ مئات السنين.

سواحل حـوار ممتدة .. شاسعة تحتضـن الجزر والفشوت على امتداد مساحـة تفوق مساحة جزيرة المحرق بأسرها فهل لنا أن نتخيل ذلك؟

الشـاليهـات التي أقامتهـا الهيئة البلدية المركـزية تمتد فى الشمال وفي الجنـوب مجهزة مكيفة يتـم تأجيرهـا باليـوم للراغبين في الـراحة والاستجمام فى شمال الجزيـرة توجـد «فرضــة» خاصــة يصل اليهـا القادمــون من منـاطق الجزيـرة ممدودة بخـدمات الميـاه والكهرباء .. كما أن خطة الهيئة البلدية المركزية تعتمد في المستقبل على أن تتكامل الخدمات السياحية لهذه الجزر التي تعج بالمقيمين والزائرين على امتداد الأسبوع.

همس لي مرافقى قـائلا: اذا زرت حوار أيام الأربعاء والخميس والجمعة فـأنك لن تجد موطئا لقدم .. جميـع الشاليهات مشغولة .. الشواطىء تجذب الـزائرين .. وهناك .. أشار إلى .. يمكنك أن ترى مسجدا هناك شامخا.. علاوة على مسجد قديم تجاوز عمره مائة عام.

وكلما أوغلنا السير في جنبات هذه الجزيرة اتضح لنا مزيد من المعالم والشواهد .. فعلى

الجوانب المختلفة لها توجد «٤» مقابر يرجع تاريخها الى عهد بعيد حيث تعود أهل البحرين من أهل الجزيرة دفن موتاهم.

وفي مناطق متفرقة تناثرت عدة بيوت قديمة تشكل هياكل قرى قائمة مازالت تؤوى بعض السكان الذين تعودوا التنقل ما بين حوار وجزيرة المنامة الرئيسية، كما ألفوا استقبال وفود الزائرين القادمة من الجزيرة الأم وأجلت النظر وأمعنته أكثر فيما حولي مسترجعا الماضي، مستلهما الحاضر مستشرفا المستقبل، فوجدت تراب أرض هذه الجزيرة يعج بالحياة بالأمل .. ويستعد لمزيد من حيوية النشاط السياحي والأقتصادي المرتقب فالمقومات السياحية موجودة وإمكانيات الأستثمار موفورة، إن هذه الجزر موصولة دوما بمواقع جزيرة المنامة الرئيسية .. أقرب المناطق رأس البر ومن شاطىء البندر تتحرك «البوانيش» وتتجه الزيارات إلى حوار في أقل من ساعة، وأفق مستقبل هذه الجزيرة تلتمع به عيون أبناء البحرين من مسئولين وغير مسئولين.

وفي حوار كانت لى أكثر من وقفة بل ووقفات كلما أوغلت السير فيها عبر دروبها وشواطئها الساحلية .. شدتنى طبيعتها البكر وشواطئها الغنية بالجمال وعيون المها العربية الأصيلة التي ترتع فى جوانبها.

في الجزيرة أكثر من محمية للغزلان والمها .. تركت فيها وعلى أرضها تمرح على سجيتها .. ترتع وتأكل من خشاش الأرض تحتمي بأشجار متفرقات حينا أو بحظائر اعدت لها خصيصا حينا آخر.

المنظر كله في حوار .. عند شواطئها مثير .. مثير .. مثير .. الأرض والسماء البحرينية الصافية، المياه الفيروزية .. بقايا هضاب .. شاليهات .. غزلان .. ومساكن للناس .. ناس البحرين الذين احتضنوا حوار على امتداد مئات السنين، فخلعت عليهم حياتهم وحياءها ثم جادت بحبات رملها وثراء مناظرها، وتنوع ثرواتها السمكية والطبيعية.

و .. وحقا كانت رحلة .. ولكنها لن تكون مجرد رحلة.

لبيك اللهم لبيك

اليوم .. في رحاب عرفات تقف جموع الحجيج قادمة من كل صوب وحدب .. من كل فج عميق لتشهد منافع لها ولتكبر الله تكبيرا .. ملبية .. داعية .. مؤملة الاستجابة الربانية لهذه الدعوة التي سعوا إلى تلبيتها مهرولين .. مغبرين القدم.. طائعين، ان لبيك اللهم لبيك .. لبيك لاشريك لك لبيك..

إن كلا منهم ــ على حدة ـ تلقى الدعـوة الخاصة جدا لزيـارة بيت الله الحرام والحج .. وكان عليهم أن يلبوا الدعوة ويشدوا الرحال.

ومنهم من جاءت دعوته كي يقتطع مـن رزقه ورزق عياله كي يحج ويلبي، ومنهم من تغبرت قدماه عبر آلاف الأميال سيرا ليصل إلى هذه البقعة المبـاركة، ومنهم من يسر له الله السبيـل إلى الحج .. فالسبـل كثيرة والأسباب متبـاينة .. ورغـم تعدد السبـل والوسـائل والاسباب فان الدعـوة الربانية بالحج واحدة .. مـرفوعة فوق الرؤوس .. وقد تلقـاها كل حاج أو حاجة على طريقتـه .. وباسلوبه .. ولباها حسب قدراتـه المادية والإيمانية .. وتظل الدعوة مرفوعـة فوق رؤوس عباد الله جميعا حتى يحين تلبيتها ويأتـى أوانها .. عاما بعد عام .. سنـة بعد سنة .. في الصغر كـان الحج ام فى الكبر، عند الشيخوخة أو في الطفـولة، في حالة الفقـر أو في حالة الغنى والثراء.. ففـى رحاب الكعبة تجد أنماطا من النـاس كل تلقى الدعوة وجاء.

هذا جاء معسرا، وذاك جاء موسرا..

ذاك أتى صحيحا، والآخر قاد علته معه.

فلم يكن الفقر حائلاً عن الحج ولا المرض ولا الشيخوخة .

كما أن الثراء والغنى والصحة ليست ولن تكون سببا أو طريقا لأداء فريضة الحج.

فهى ـ كما قلت ـ دعوة تتم بشتى الوسائل والسبل والطرائق .. لذلك فإننا عندما نذهب

إلى الأماكن المقدسة تنطلق أفواهنا وتخفق قلوبنا أن لبيك اللهم لبيك .. إننا إذن نلبي الدعوة لاننا تلقيناها.. أما كيف تلقيناها فتلك أمور تختلف من شخص إلى آخر .. ووسائل إيصالها تتباين .. وتظل الدعوة قائمة.

أذكر أنني في صيف عام ١٩٧٩ قطعت الطريق بسيارتى عبر المملكة العربية السعودية إلى جدة ـ لم يكن الجسر قد افتتح بعد ـ وفي جدة نزلت إلى مكة المكرمة وقمت بأداء العمرة، واستراح قلبي وغمرتني الفرحة وأنا ابحر بسيارتي بالباخرة إلى السويس وفي مصر قضيت العطلة ثم عدت إلى البحرين في نهاية شهر سبتمبر، لم يكن يدور بخاطري أن أزور المملكة العربية السعودية ثانية .. وفي أوائل أكتوبر التقيت بالصديق الفاضل وكيل وزارة العدل والشئون الإسلامية الشيخ عبدالرحمن بن محمد بن راشد الخليفة .. وكنت أسأله عن بعثة الحج التي تستعد للرحيل .. واخذ الرجل يقص عليّ أمر البعثة التي ضمت ذلك العام إلى جانب الأطباء والممرضين والممرضات والطبيبات وراح يعدد على مسامعى أعضاءها من وعاظ وسائقين وطباخين وغير ذلك .. وفجأة وجدتنى أسأله سؤالا عفويا جدا .. وليس مقصودا..

قلت : لماذا لاتضموا إلى البعثة إعلاميين؟

وارتسمت على وجه الرجل الفاضل ابتسامة عريضة محببة عرف بها .. ورحت اتأمل تعبيرات وجهه .. ولم أكن أدرى أن هذه الابتسامة موجهة اليّ .. لقد ظن السيد الوكيل أننى أتحدث عن نفسى .. وأننى بهذا السؤال الموجّه أطلب الإنضمام إلى بعثة الحج .. ويشهد الله أن ذلك لم يجل بخاطرى.

وانتهت الجلسة .. وانصرفت .. وفي اليوم التالى جاءنى صوت الشيخ عبدالرحمن بن محمد الخليفة عبر الهاتف ينادينى بأسمي مسبوقا بلقب «حاج» علتنى الدهشة عندما علمت أنه تقرر ضمي إلى بعثة الحج فى ذلك العام .. وخلال «٤٨» ساعة وجدتنى أنضم إلى

البعثة .. أقطع الطريق فى رحلة روحانية مع صحبةطبية ضمت أطباء ووعاظا من وزارة العدل والشئون الإسلامية، وعلى رأسهم الرجل الصالح محمد عاشير، كانت لحظات أشبه ما تكون بالحلم!! حلم نقلنى نقلة روحية ادركت فيها أنها دعوة من الله للحج، وها أنا ذا ألبى .. حتى أننى في كل منسك اؤديه .. كنت أستشعر تماما هذا المعنى .. كنت متفاخرا .. ثابت القدم .. سعيد الوجدان .. فأنا ضيف الرحمن .. هو الذى دعانى وسهل لي الأسباب وعددها ويسرها فإذا أنا فى البقاع المقدسة .. ١٤ يوما إلى جوار مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وأياما فى الكعبة وحولها .. ومثلها فى منى وفى المزدلفة .. وعند شعاب عرفة .

كنت أطوف حول الكعبة ذاهلا عن الناس .. عن الدنيا .. حتى الكعبة ذلك البناء العتيق لم أكن لأراه .. كانت عيناي وقلبى .. ووجدانى مع الله، وعندما كنت ألبى ان لبيك اللهم لبيك كنت أدرك تماما أننى تلقيت الدعوة .. وها أنا ذا ألبيها فرحا مستبشرا .. سعيدا .. طائفا.

و .. عدت من رحلة الحج .. وأصبحت سنة حميدة أن تضم بعثة الحج الرسمية كل عام عددا من الإعلاميين .. سنة حميدة استنتها وزارة العدل والشئون الإسلامية ووزيرها ووكيلها .. فجاءت سنة حميدة يثيب الله عليها أصحابها .. وكل عام وأنتم بخير .. وحج مبرور ومازالت الدعوة مرفوعة فوق رؤوسنا جميعا.

انتهى العيد
فهل انتهى
الدرس .. يا ؟!!

مر بنـا العيد، وتبادلنا التهـانى والتبريكات، وذبحنـا ووزعنا الأضاحي وتفـاءلنا .. وهذا حالنا .. حال عجب .. ومريب .. وكأننا لم نستوعب الدرس بعد.

الدرس يقدم لنـا في هذا العيد بالذات معـاني الوفاء والولاء والفداء لـلأهل .. للأب .. للأم .. للأسرة .. للوطن كله.

وتأملوا معى هذه الآية الكريمة .. قال تعالى (فلما بلغ معه السعي قال يابنى إنى أرى في المنام أنى أذبحك فانظـر ماذا ترى، قال ياأبت أفعل ما تؤمر ستجـدنى إن شاء الله من الصابرين) «الصافـات» يا الله . لكم قدمت هذه الآية الكـريمة درسا في كيفية ولاء الابن للأب .. وفاء الأبناء للآباء عموما .. الاحترام .. الحب .. الطاعة، التوقير والتقدير.

بالطبع نحن لانستطيع هنا القياس على مـوقف« أبو الأنبياء من أبيه» كما لا نستطيع أيضا القيـاس على ولاء إسماعيل عليه السلام لأبيـه .. فتلك سمة الأنبيـاء وأولي العزم .. وهذه بـالطبع سمات لايقاس عليها ولا ينبغـى ذلك، بل ولانستطيع أن نتطلبهـا حتى في الممتازين من الناس أو حتى أوسطهم .. إنما نسترجعها ولانشـترطها فى عامة الناس .. كل مانرجوه ونتطلع إليه في العامة والإنســان الطبيعى التقدير والاحترام .. التوقير والطاعة للأب . بـل ولمن هو أكبر منه سنا بما لايصـل إلى حد الاستسلام للذبـح أو حتى للضرب جريا مع منطلق مدارس وزارة التربية والتعليم .

المطلـوب إذن هـو الاحترام .. الحد الأدنى مـن الطـاعـة والحد الأقل مـن العصيـان، والوصول بالعلاقة إلى ماهو أقل من العقوق، وماهو أقرب إلى الرحمة .. وماهو أدنى من التكبر وماهـو أقل من الإهمال .. بما يصل إلى المصـاحبة بالمعروف ..(فـلا تقل لهما أف ولاتنهرهما.. وقل لهما قـولا كريما) . (وان جاهداك على أن تشرك بي ماليس لـك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا)

«إخفض لهما جناح الذل من الرحمة..»

معان نبيلة طالبنا القرآن الكريم باتباعها .. وطالب بها عامة الناس وليس خاصتهم .. أنه لم يطلب أكثر من ذلك ولا أقل ـ طبعا ـ فبـالله قولوا لي ماذا لو طلب الأب الآن ـ وكلنا

آباء ـ مـن ابنه أن يذهب «مشـوارا» من مدينة عيسى مثـلا إلى المنامة لقضاء حـاجة؟ ماذا سيكون جـواب الابن؟ .. دعكم من ذلـك .. بل ماذا لو طلـب أب من أبنه شربة مـاء؟ وماذا سيكون الوضع إذا أوصاه بالاجتهاد والانصراف عن اللعب إلى المذاكرة .. بل ماذا سيحدث اذا نهره ـ لم نقل أنه ضربه أو شد أذنه او هدده بـالذبح .. مجرد تهديد ـ إن عليه أن يواجه من الابن الـويل والثبور وعظائم الامـور .. الصراخ في الوجه .. والتهديـد بالاستهتار .. أو الانحراف رغم أنه من المذموم المرذول أن يتخطى الولد أباه اثناء السير ولو شبرا .. لابد ان يقدم أبـاه .. وأن يتقدمه والـده .. فإذا حدث الابن الاب غـض من بصره، وخفض صـوته حتى يجيء كلامه همسا وحديثه أدبا وورعا أين نحن الآن من هذا المثل الذي قدمه القرآن العظيم فى حكايتـه عن النبى إبراهيـم وولده إسماعيل «ياأبـت افعل ما تؤمـر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) يا الله !!

إننا اليوم نشيد قصورا مـن عقوق الأبناء للآباء .. قصورا باطنها وظـاهرها العذاب .. بمنطق اهجرنى مليا، اتركنـى فى المستشفيات، اودعنى الطوارىء أو بيوت المسنين او حتى الشوارع.

فالأبناء جاوزوا حدود العقوق بالقول إلى الفعـل الم أقل إننا لم نستوعب الدرس بعد .. أو اننا لـن نستوعبه أبدا .. هـذا جزء من درس العيد .. أمـا الجزء الآخر من الدرس فـإنه يحمل في طياته معاني الفداء والوفاء للمبدأ .. للقيمة.. للمعنى .. فالوطن معنى، والأمة قيمة .. والعقيدة مبدأ «وفديناه بذبح عظيم».

إن اسماعيـل كان أمـة بأكملهـا .. كان معنـى .. عقيدة وفكـرة، ولأن ذلك كـذلك فـإن المطلوب أن نتعلـم من الدرس معنـى الفداء للأمـة للشعب للوطـن.. والفداء يعني تقـديم القرابين .. والقرابين التـي تقدم للأمم والشعوب التي تـريد أن ترقى مصاعـد التقدم هـي العرق .. الدموع .. دماء الشهداء.

وللحـــريـــة الحمـــراء بـــاب بكـــل يـــد مضرجـــة يــــدق
ولايبنـــي الممالـــك كـــالضحـــايـــا ولايعلي الحقـــــــــوق ولايحق

هذا هو الجزء الثانى من الدرس الذى نسينـاه فإذا بنا أكثر أمم الأرض ذلا .. وتفرقا .. نضيع شتاتـا .. يقاتل بعضنا بعضـا من أجل لاشيء .. وأى شيء .. إلا ما تعلـق بنهضتنا .. وكرامتنـا ورفعة شأننا بين الأمـم .. فمتى نعي الـدرس بعد أن كررناه على مسـامعنا عبر قرون طويلة .. واجتررناه عاما بعد عام .. ولا فائدة .. وانتهى العيد .. فهل انتهى الدرس ؟

مترعات هي
كؤوس الذكريات

زمان قرأت فيما قرأت كتاب أديبنا إبراهيم عبدالقادر المازني «عود على بدء».. كان الكتاب ساخراً كعادة المازني «سلس الأسلوب».. جزل اللفظ.. وهكذا كان شأن المؤلف دائماً.. لكن الذي أهاج ذكرياتي أن المازني نقلني نقلة هزتني بعنف شديد عندما أورد ذكرياته البعيدة كمن يرد من بئر عميقة يريد أن يرتوي منها ويروي الآخرين وأشهد الله أنني كنت ظمآناً فروت ظمئي كلمات المازني.

ولم تقدم إلى سرابا يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.. لقد كانت كأساً مترعة بأعذب وأرق الذكريات معطرة بشيء من الاعترافات.

وعلى غير ما يظن البعض أن اللجوء إلى عوالم الذكرى هو دلالة على افلاس أحاضر ونضوب معينة، وانقضاء زاده وزواده.. وأنه كما يتصور الكثيرون نوع من الهروب.. الهروب من الحاضر إلى الماضي.. ولو كان هذا صحيحاً لما كتب العظماء سيرهم، ولما سطر الأدباء اعترافاتهم، ولما قرأنا اعتراف جان جاك روسو، أو زهرة عمر الحكيم.. وسجن العمر وعوالم الفرح، ولما عشنا مع قصاصات من أوراق لويس عوض، أو منكراته عن أيامه أيام كان طالب بعثة، بل ولما قرأنا أيام طه حسين أو سندباديات د. حسين فوزي أو قصة نفس لزكي نجيب محمود.

وكل ذلك يعني أن العودة إلى الماضي وكتابة مذكراته وذكرياته ليس تعبيرا عن إفلاس الحاضر وإنما هو تجسيد لعظمته؛ لأنه هو امتداد الماضي الذي كان بكل ما حمله في طياته من أحداث الزمان ودفء أو برودة المكان.

إنه عبق الذكريات ودفؤها وحيويتها وتصوراتها كما يصوغها يراع مجرب.. ويسطرها قلم مدرب، ويحرسها وجدان فنان.. إنه حصاد التجربة، وفيض الفكر يحكي

روعة حياة إنسان متميز متفرد يقدم إلى الناس تجربته بقلم الحكمة .. على ورق المحبة في آفاق المجد الشخصي الذي امتزج بالمجد العام دائماً.

بل إننا نستوعب هذه المذكرات والذكريات حتى النخاع.. نحتفي بها.. نجلس إليها.. نغوص فيها قراءة وتأملا؛ لأنها عبارة عن تأمل للذات.. وقوف عندما برهة.. لحظة.. في وقت دار فيه الزمان ودرنا معه حول أنفسنا.. حولها فقط حتى أننا لا نكاد نجد لحظة ولو للحظة.. فترة تأمل للذات.. اقتحامها من الداخل أو إلى الداخل لنعي ما يمور فيها من معان.. وما يتناوشها من أحاسيس ورؤي.. وما مر بها من تجارب إنه نوع من الجلاء النفسي.. لا الجلاء البصري.. إنه جلاء للبصيرة.. كي نعيد حساباتنا.. ونعدل من وقفاتنا في الحياة وننطلق عبر مسيرة جديدة أفضل.. وأرحب.. أقل خطأً.. وأكثر صوابا.. وأبعد كلمة إننا مدعوون في هذا الزمان إلى التوقف برهة.. والخروج من دائرة الحياة وروتينها اليومي الرهيب الكاسح.. للجلوس مع النفس.. نتأملها.. نتأمل ذواتنا أو ذوات الآخرين من خلال ما يكتبونه من مذكرات وما يدونونه من ذكريات واعترافات.. لنجدد حياتنا.. بتجارب الآخرين فهل هذه الكمات تعني رحلة معاكسة للعود إلى البدء أو هو عود على بدء.. سنرى؟

ماذا قال الحاخام المربيرجر لأحد الفدائيين؟

حوار مفتوح بين حاخام يهودي ومنظمة فتح..

«مجله آخر ساعة، حافظ إمام»

الحوار ما بين ما هو يهودي وما هو صهيوني أمر مثير فضلا عن أنه صعب قد يثير لدى البعض كثيرا من الخلط، فإذا كان اليهودي لابد وأن يكون صهيونياً فإنه ليس من الضروري أن يكون الصهيوني يهودياً.

وهناك من يهود العالم من يرون في وجود اسرائيل نفسها خطراً على اليهودية وهذا ما اتجه اليه رأى المجلس اليهودي العالمي وسجلته في حوار أجرته مجلة آخر ساعة منذ ٣٢ عاما بين رئيس المجلس اليهودي العالمي المربيرجر وبين مفكرى حركة فتح الفلسطينية وقد أردت نشره كما هو.

المؤلف

هذا الحوار السياسي والفكري الذي اعدته آخر ساعة.. اطرافه:

*** دكتور المربيرجر الحاخام اليهودي الامريكي الذي كان يزور القاهرة في تلك الايام والذي عرف بعدائه الشديد للحركة الصهيونية، انه يرى ان الحركة الصهيونية ودولة اسرائيل تهددان تعليم دينه وتاريخه وثقافته بالتخريب والتحريف.**

*** دكتور فؤاد حسنين استاذ اللغات السامية وفلسفة العقائد بجامعة القاهرة ومعهد الدراسات العربية العالية وصاحب عدة مؤلفات في الديانة اليهودية آخرها كتاب التوراه الهيروغلوفية.**

*** «أبو صلاح» فلسطيني فدائي من منظمة «فتح».**

وقد رتبت «آخر ساعة» هذا اللقاء لمحاولة الخروج بحوار موضوعي، يلقي مزيدا من الضوء على حقيقة الخطر الصهيوني، ويوضح بميزان العلم الفرق بين اليهودية كدين، والصهيونية كحركة سياسية عنصرية، ويفند الحجج التاريخية والدينية التي تستند اليها الصهيونية في دعواها.. كما ان هذا الحوار كفيل بطرح عديد من القضايا، واثارة النقاش حولها، وبلورة الآمال العربية، وتوضيح مواقف النضال الفلسطيني المسلح.

بدأ الدكتور فؤاد حسنين الحوار باستفسار دكتور المر بيرجر عن أصل لقبه «بيرجر» هذا .. وقال: أنني أعلم أن هناك قبيلة كانت تعرف باسم «بيرج» رحلت بعد سقوط دولة يهوذا اليهودية قبل الميلاد الى اقليم جورجيا التاسع والحادي عشر بعد الميلاد هاجرت قبيلة يهود بيرج الى القوقاز. فهل تنحدر انت من هذه القبيلة؟

د. المر: ان اسم بيرجر هذا كان لجدي الذي هاجر من المانيا منذ سنوات طويلة الى الولايات المتحدة. لكن صدقني أنه لا علم لي بتاريخ أسرتي أكثر من ذلك.

د. فؤاد: هل أسرتك تنحدر من أصل يهودي خالص، أي مدي ليهوديتك؟

د. المر: لست أدري وان كنت لا أؤمن بما يسمى بنقاء الجنس اليهودي، إذ لا توجد أساساً جنسية يهودية.

(آخر ساعة): ان هذا المنطق يهدم حجة أساسية تستند اليها الفكرة الصهيونية وهي ان اليهود شعب واحد وممتاز عن شعوب العالم ويحتفظ بنقائه العنصري، ولم تختلط دماؤه بدماء الشعوب الاخرى، رغم تعاقب العصور.

التوراة وموسى وفلسطين:

د. فؤاد: ان الفكرة الصهيونية تستند فيما تستند اليه الى ان فلسطين هي ارض العقيدة اليهودية وان اللغة العبرية هي اللغة المقدسة.. لذلك فلابد من العودة الى الارض، وقد انتهيت من بحث اخرجته في كتابي «التوراة الهيروغليفية» اثبت فيه عكس هذه الادعادات.

ان مصر هي وطن موسى بن عمران الذي جاءته الوصايا العشر وانزلت عليه التوراة، وقد ولد في مصر من أبوين عاشا في مصر، كما أن موسى تربى ونشأ في مصر (وقد تعلم حكمة المصريين وكان متمكنا من الكلام والعمل، كما جاء في اعمال الرسل بالاصحاح السابع آية ٢٢ لذلك فاللغة التي استخدمها موسى واستخدمها الله معه في سيناء كانت اللغة الهيروغليفية.

أما فيما يتعلق باللغة العبرية فهي لم تكن لغة الآباء الاولين، فابراهيم تكلم الأرامية، وانني لعلى ثقة من أن اللغة العبرية احدث من العبريين أنفسهم، هذا علاوة على انها تعتبر لهجة كنعانية ظهرت فقط بعد الغزو الفلسطيني تحت قيادة يشوع بن نون بعد موت موسى. وفي فلسطين امتزج العبريين بالكنعانيين ونشأت اللغة العبرية، وكان ذلك بعد موت موسى.وفي فلسطين امتزج العبريون بالكنعانيين هو مؤلفهما لعدة اسباب ذكرتها في كتابي تفصيلاً.

وبناء على كل ما ذكرت، فان التوراة هيروغليفية «اللغة المصرية القديمة»، وأنها نزلت

في مصر وليس في اورشليم، يترتب على ذلك أن اللغة العبرية ليست هي اللغة المقدسة لغة العقيدة، وان فلسطين ليست ارض العقيدة ايضاً.

د. المر: اني اعتقد ان ما ذكرته صحيح، فالمدرسة الحديثة في الولايات المتحدة امتداد للمدرسة الالمانية التي تنادى بمثل ما تقول، ويؤسفني أنه خلال الخمسة والعشرين عاما الاخيرة لم اجد سعة في الوقت لكي اهتم بهذه الدراسات، لكن الثابت أن التوراة او العهد القديم تاثرت بوجهات نظر مختلفة في تكوينها وحجمها.

ومن المؤكد ان هجرات متعددة دخلت كنعان كما تبين هذا من سفر القضاة وحيث حاول القضاة توحيد هذه القبائل المختلفة. كما نتبين هذا الاتجاه من محاولة ديورا القاضية، والواقع ان الدولة لم توجد ولم يصبح لها كيان الا ايام داود وسليمان فقط. ان استاذي كان يرى ايضاً ان موسى تلقى تعاليمه من «ثيرو» كاهن جديد في سيناء. ان هناك بالفعل عدة مشاكل حول صلة موسى وثرو العقائدية. الا انه يمكن القول ان الديانة ظلت غير منتظمة حتى عصر الانبياء..

أبو صلاح: أنا كشاب لا أمانع في بحث التاريخ واستعادته مهما كان بعيدا، مادام يلقي اضواء على مشكلة الحاضر ويساعدني في البحث عن حل. وأود هنا قبل كل شيء ان اوضح حقيقة وهي ان هناك فرقا بين اليهودية كدين وبين الصهيونية كحركة سياسية. فالصهيونية حركة عنصرية سياسية، تتخذ من الدين شعارا لها.

واعتقد ان الصهيونية لا تمثل خطرا على العرب فقط بل تحمل خطرا على اليهود كذلك.

وهنا أسألكم: هل تعتقد ان الصهيونية تمثل تطلعات اليهود وأمانيهم؟

اليهود والصهيونية:

د. المر: اعتقد عن ايمان ان الصهيونية تمثل خطرا على اليهود اينما وجدوا، بل انها مناقضة تماماً لليهودية كدين، أنها حركة مارست وتمارس التفرقة العنصرية، واضطهدت كل من هو ليس بصهيوني.

أبو صلاح: انني كانسان يقاتل في ارض المعركة أود أن يعلم اليهود اننا لا نكن لهم اي عداء. وللاسف يعتقد الكثيرون في العالم وخاصة في امريكا واوروبا اننا ضد اليهود وهذا غير صحيح بالمرة. لقد عشنا مع اليهود في فلسطين كمواطنين لنا نفس الحقوق وعلينا نفس الواجبات، وكان ذلك قبل اغتصاب ارضنا.

أنني أتساءل: كيف يمكن لنا أن نلتقي مع يهود العالم لاقناعهم بأن الصهيونية تمثل خطرا يتهددهم ويتهدد وجودهم؟

كيف يمكن ان نفعل ذلك قبل فوات الآوان؟

ان في امكاننا التعايش مع اليهود، إنه من المستحيل ان نتعايش مع الصهيونية بالضبط كما لم يستطع العالم ان يتعايش مع النازيين، لكنه يتعايش مع الالمان.

د. المر: الطريقة الوحيدة التي اعرفها هي ان تنفتحوا على اليهود وان تتكلموا معهم باسهاب موضحين الوضع على حقيقته، مستخدمين في ذلك كافة الاساليب من صحافة واذاعة ولقاءات مباشرة، على أن يكون ذلك في ا طار خطة مدروسة.

لقد قيل لي مثلا: ان اليهود يعانون سوء المعاملة في بعض البلاد العربية، لكنني في الواقع لم أجد اساسا لصحة هذا الادعاء. واذا حدث واتخذت اجراءات في اي بلد عربي في حق اليهودي فليست التهمة انه يهودي، بل لانه ارتكب خطأ مخالفاً للقانون ولا بد ان يحاسب عليه سواء كان يهوديا او غير يهودي.

د. فؤاد: أنا شخصياً اقرر هذه الحقيقة، فأنا اعرف عددا من اليهود في مصر، وبعضهم قد توفى. مثلا كانت تربطني بالحاخام الاكبر حاييم ناحوم افندي صداقة وثيقة، كنا اخوة فعلا، وقبيل وفاته اهداني بعض كتبه.

د. المر: أنا كنت اعرفه .. انه رجل عظيم بالفعل.

د. فؤاد: اضف الى هذا انه اثناء الحرب العالمية الثانية، عندما تقدمت قوات الحلفاء نحو مصر، هاجر نفر من المصريين الى السودان وطلب البعض من حاييم افندي ناحوم ان يهاجر فرفض وقال: «سأكون آخر من يترك هذا البلد»، وهناك رجل آخر شريف هو عمانوئيل مزراحي. ففي اثناء النزاع حول قناة السويس عام ٥٦ تطوع هذا المحامي الدولي وأشار على بمذكرة قانونية يجب أن يعتمد عليها الدفاع المصري لاثبات حقه في عملية تأميم القناة.

أريد أن أصل الى نقطة هامة، وهي انه ليس بيننا وبين اليهود أي عداء بل أننا قبل عام ٤٨ كنا نتبادل الرسائل العلمية مع أساتذة يهود كبار في جميع انحاء العالم وفي فلسطين كذلك.

واجب الدولة العربية:

د. المر: الواقع ان البلاد العربية تواجه أجهزة اعلامية ضخمة تعمل جاهدة لتشويه صورة الوضع في المنطقة، وعليكم اولا وانتم تتطلعون الى تحقيق أمانيكم في المستقبل أن توضحوا كل الحقائق وأنتم تتطلعون إلى تحقيق أمانيكم في المستقبل وان توضحوا كل الحقائق التي تتعلق بوضع اليهود في البلاد العربية والعالم، وانه بعد ٢٠ عاما على قيام اسرائيل لا يزال بعض اليهود يعيشون في البلاد العربية يتمتعون بنفس المقدار من

الحرية الذي يتمتع بها أي انسان آخر. ان هذه الصورة يجب ان تركزوا عليها الضوء حتى تبدو واضحة أمام الشعوب وخاصة شعوب أوروبا وامريكا.

وقد اقترحت على بعض الدول العربية مثل الجمهورية العربية المتحدة والاردن ان تهتما بدعوة المثقفين والمفكرين والمهتمين بالقضية ليأتوا الى هنا. حتى توضحوا لهم الامور وتناقشوهم فيها.

أبو صلاح: ان هذه هي مهمة الدول والحكومات العربية.. تلك عدة طرق لتوضيح الحق العربي. لكن الشعب الفلسطيني يقاسي ويعاني اكثر من غيره، يعيش المشكلة بكل اعصابه، ان ٢٠ عاما من التشرد لم تنسنا وطننا، بل العكس اننا اشد ما نكون تصميما على النضال.

أنا أعلم أنه كان من الافضل لو امسكت بكتاب أو مشعل معرفة بدلا من الرشاش، ولكن عندما لا يعني الكتاب اي شيء مادام الانسان مشردا من بلده لا مفر اذن من حمل السلاح كوسيلة لاسترداد الحق.

في منظمة فتح يوجد أعضاء من اليهود العرب منهم اثنان في الاسر الآن هما وليم نجيب نصار وكمال النمري، انهم كيهود عرب شعروا ان الصهيونية تمثل خطرا على ديانتهم، واعتبروا الاحتلال الصهيوني احتلال لبلدهم فلسطين.

أريد ان تقول على لساني لليهود في كل مكان اننا لسنا ارهابيين، واود ان اسألك انت:لو كنت شابا فلسطينيا مشرد الاهل لا تستطيع ان ترى اهلك المشتتين، لا تستطيع ان ترى اباك او اخاك، فماذا تفعل اذا طرقت كل الابواب للوصول الى حل عادل؟ واذا فعلت ما نفعله نحن الآن، هل تسمى ارهابيا؟

شرعية المقاومة الفلسطينية:

د.المر: أنني أرفض رفضا قاطعا وصف حركة التحرير بأنها حركة ارهابية، وقد قلت هذا علانية، وانني لآسف لان المجتمع الدولي قد فشل في اعطاء الفلسطينيين حقهم، وانني لو تعرضت بلدى «أمريكا» لمثل ما تعرضت له بلدكم لصنعت مثلما تصنعون، وانه لمن الظلم ان يحكم غير فلسطيني على ما تعملون ويصفه بنعوت مثل «ارهابيين». ان هذه النعوت لم تطلق على المقاومة في أوروبا، فبأي حق تطلق عليكم انتم وانتم تفعلون نفس الشيء.

ان عليكم ان تدركوا، بل انتم مدركون انكم في صراع سياسي وعسكري تساند الصهيونية فيه اجهزة اعلامية ضخمة، وانني اقترح على حركة التحرير ان تجتمع بكل مثقف وكل مفكر وكل شريف أينما وجد.

ان كلمة «ارهابيين» التي تروج لها الدعاية الصهونية ليست منتشرة حتى الآن في الولايات المتحدة، ولديكم الفرصة لاظهار حقيقتكم امام العالم الغربي.

لقد فشلت الجهود الدعائية العربية في مخاطبة الرأي العام الدولي وتوضيح المظالم التي لحقت بالعرب، وذلك يرجع إلى عدم معرفتكم الكافية بأساليب الدعاية والعلاقات العامة.

أبو صلاح: ما الذي تود أن تقوله لليهود اللذين يعيشون في فلسطين المحتلة ما داموا يعتبرون جزءا من المشكلة، وبالذت بعد تصاعد العمل الفدائي منذ انفجار القدس، والذي اتصور انه ستتلوه عمليات مشابهة كثيرة ما دام الاسرائيليون يبطشون بالمدنيين العرب العزل من السلاح.

الحل الديموقراطي للمشكلة:

د. المر: انني أعرف من غيري بحقيقة الوضع في اسرائيل، لكنني الذي استطيع قوله ان هناك مجموعات من الشباب اليهودي في اسرائيل ـ لا أدري مدى قوة هذه المجموعات ـ أود منكم أن تتصلوا بها وتوضحوا لها الحقائق واطلب منهم بدورهم أن يتركوا الخوف جانبا .. بل إنني أطلب من الجميع ان يتركوا الخوف ويحاولوا الوصول الى حل ديمقراطي عادل...

أبو صلاح: ماذا تقصد بحل ديمقراطي عادل للمشكلة؟

د. المر: أعني اعطاء الحقوق الكاملة لشعب فلسطين.

أبو صلاح: هل تعتقد أن هناك حلا ديمقراطيا عادلا يتفق مع وجود الكيان الصهيوني؟

د. المر: بيرجر: لقد قلت هذا في العلن ولن أخفيه الآن.

ان الصهيونية نقيض للديمقراطية، ونقيض لليهودية في ذات الوقت.

وهناك اتجاهات كثيرة بين اليهود انفسهم لتصفية الصهيونية في اسرائيل.

لذلك فعندما اتحدث عن الحل الديمقراطي فانني اعنى به الحل الذي ينتهي معه الوجود الصهيوني، فالشخصية الصهيونية تقوم على نظرة عنصرية، وهي تفوق اليهود وامتيازهم، وان حركة تحمل هذه المفاهيم العنصرية لا يمكن ان تعيش..

يجب عقد مؤتمر قمة عربي الآن

أجرى الحديث في عمان: حافظ إمام

لقاء عمره أكثر من ٣٠ سنة مع جلالة الملك حسين «ملك الأردن الراحل»

هذا اللقاء عمره أكثر من ٣٠ عاماً مع الراحل الأردني الكبير جلالة الملك حسين أجريته مع جلالته رحمه الله في ١٣ أغسطس من عام ١٩٦٩ بالأردن أيام أن كانت هناك نذر صدام مسلح بين الملك وعناصر المقاومة الفلسطينية. وقد نشر هذا اللقاء في مجلة آخر ساعة في القاهرة. ولقد وجدت أنه من المناسب أن أعيد نشره بتفاصيله كاملة في هذا الكتاب باعتباره هامش هام من هوامش صفحاتي الصحفية.

المؤلف

في حديث صريح إلى «آخر ساعة» تكلم الملك حسين عن أهم القضايا التي تشغل الاذهان في المنطقة العربية قال الملك أن الموقف الآن يحتم ضرورة عقد مؤتمر قمة عربي فورا. وتحدث الملك عن اعادة بناء السلاح الجوي الاردني، وعن علاقة الحكومة الأردنية بالمقاومة الفلسطينية..

*** نحن نعيد بناء سلاحنا الجوي.**

*** الهدف من جولتي القادمة في العواصم العربية.**

في غرفة مكتب انيقة بقصر بسمان.. مد الي الملك الشاب يده مصافحاً .. جذب يدي الى يده في حرارة تعكس حيوية فائرة تمتليء بها ملامح وجهه العريض.. كان الملك يرتدي ثيابا بسيطة مجرد قميص وبنطلون. وأمامه كوب شاي لم يفرغ منه بعد وفي المكان نفسه صافحت عيناي بهجت التلهوني رئيس الديوان الملكي او ابو عدنان كما تعارف الجميع على تسميته.

كنت قد أعددت نفسي لطرح عديد من الاسئلة حول صمود الجبهة الاردنية عسكريا وسياسيا واقتصاديا، ووضعت علامات استفهام كثيرة حول الموقف الدولي بشكل عام والموقف العربي من الازمة الراهنة بشكل خاص، ومن القضية الفلسطينية بشكل أخص.

والواقع أن هذه الاسئلة ضاعت مني ساعة اللقاء.. لم تضيعها رهبة من لقاء لكن اختلطت كلها معا عندما جاء حديث جلالة الملك حسين ملك الاردن مسترسلا واضحاً وصريحاً..

فالصراحة مطلوبة .. وفي هذا الوقت بالذات .. لكن ليس كل ما يقال ينشر خاصة اذا اتصل الموضوع بالامور العسكرية او حتى الامور السياسية ذات الطابع الخاص والتي قد يثر طرحها بصراحة ونشرها كاملة بعض حساسيات هنا أو هناك خاصة في هذه الفترة الحاسمة التي تقتضي تكتيل كافة الجهود في مواجهة العدو.

كان هذا هو اتفاقي مع ملك الادرن..ومن هذا المنطلق بدأ حديثنا.

قلت: لاشك ان المنطقة العربية في الشرق الأوسط تشهد هذه الايام تصعيداً للقتال وهذا في تقديري يعني أمرين أريد أن اقف فيهما على رأي جلالتكم.

الأمر الأول: ان الجيوش العربية المحيطة باسرائيل قد استعادت قدراتها القتالية وأنني المح في الافق معركة التحرير قريبة. فهل تتفقون جلالتكم معي في هذاالتصور أو ما هي الخطوات التي قطعها الاردن رسمياً وشعبياً على طريق الصمود؟

هناك صمود .. ولكن!!

يقول الملك حسين: نحن قطعنا شوطا لابأس به في اعادة بناء قواتنا المسلحة، وقد تخطينا معظم النواقص لكن هناك مجالات لابد من العمل فيها..

أما الصمود .. فانه موجود سواء على ارضنا المحتلة او في مواجهة العدو. واستطيع القول أن الوضع العسكري والسياسي قد تبدل كثيرا عما كان عليه في اعقاب كارثة عام ٦٧ لكن هنا تعنيني بعض السلبيات التي اذا ما عالجناها بشكل صحيح فسوف نصل الى اهدافنا بسرعة.

وفي تصوري ان هناك فرقا كبيرا بين الصمود والقدرة عليه وبين ما يجب ان تكون عليه احوالنا الآن، ونحن هنا مستمرون في اعادة بناء قواتنا بحيث نصل بها الى الدرجة التي تمكننا من العمل على استعادة أرضنا..

الواقع ان الجمهورية العربية المتحدة والاردن تتحملان أعباء كبيرة جداً في مواجهة الخطر وفي مواجهة دولة لا تقوم بذاتها بل تقوم بالمساعدات المستمرة من جميع انحاء البلاد ومن كافة يهود العالم.

وهذه القوى التي تمد المساعدة لاسرائيل تحرص على تثبيتها في مواقعها وتثبيت مخططاتها في نفس الوقت.

وبالرغم مما نقدمه من تضحيات ونبذله من عرق ودم ودموع فان الصورة ليست كما نتمناها. هناك حاجة الى التحسن في كافة المجالات.

ويتساءل الملك حسين قائلاً: ماذا فعلت الامة العربية لمواجهة هذه المحنة؟ وماذا قدمت لمجابهة الاخطاء المحدقة بها؟

اعتقد بكل صراحة ان كارثة يونيو ٦٧ لم تهز الامة العربية من الاعماق كما توقعنا. وكما تمنينا. ان الامة العربية بطاقاتها وامكانياتها قادرة على ان تعمل المزيد ويجب ان تقدم المزيد للوصول الى اهدافها بل ومن اجل حماية كيانها وتراثها يجب ان تقدم الامة العربية مزيدا من امكانياتها الى الميدان.. كل ميدان ومجال.. السياسي منه والعسكري.. الاقتصادي والمعنوي. واننا نأمل ان نتمكن بمزيد من الدعم من الوقوف في وجه الخطر مباشرة وبفاعلية لذلك اعتقد انه اصبح من الضروري ان يجتمع القادة العرب على مستوى القمة ليتدارسوا الوضع من كافة جوانبه..

لقد مرت فترة طويلة منذ اجتماع الخرطوم ولابد من اجتماع جديد يقوم على أساس التعاون والمواجهة والصراحة حتى نضع كل الطاقات العربية او معظمها .. أو حتى الحجم المناسب منها في المجالات التي تعطينا النتائج المطلوبة.

قلت: يتصل بهذا الامر موضوع الجبهة الشرقية. هل تعتقدون جلالتكم ان بناء هذه الجبهة قد اكتمل. ام مازالت هناك ثغرات وعقبات تعترض اكتمال هذا البناء.

وتلتقي نظرات الملك الشاب بنظرات رئيس ديوانه السياسي المدرب وأفهم من لغة العيون ان هناك امورا لا يحسن الافصاح عنها او الخوض فيها كثيراً.

فقط يقول الملك :

التعاون العسكري في الجبهة الشرقية يسير بشكل مرض لكن هناك حاجة ملحة الى دعم هذا التعاون وتوسيع نطاقه بما يكفل للقيادة الموحدة الفعالية الواجبة.

يجب ان يكون هناك مخطط واحد متكامل بين الجميع حتى لا تنفرد اسرائيل بكل دولة على حدة..

وهنا ابديت ملاحظة امام الملك حسين تتعلق بافتقار الاردن الى الغطاء الجوي فضلا عدم اكتمال وسائل الدفاع لجوي له.

ويقول ملك الاردن: ان لدينا مخططا محكما من جميع النواحي في هذاالشأن ونحن نسير في تنفيذه بشكل مرض الى حد كبير ونأمل خلال فترة معينة من الزمن ان تتبدل الصورة لصالحنا بشكل لا بأس به. وفيما يتعلق بسلاح الطيران فان العمل مستمر والبناء يحتاج الى وقت اطول لكن في النهاية ستأتي النتائج مرضية ولو توافرت لنا وسائل مادية لاستطعنا تحقيق انجازات اكبر في هذا الشأن.

الأمل في الحل السياسي

قلت لملك الاردن الشاب: هناك امر ثان يشير اليه تصاعد القتال في المنطقة والتوتر الذي يسود خطوط المواجهة الساخنة مع العدو. هذا الامر هو ان الحلول السلمية للأزمة

غير مجدية أمام عناد اسرائيل. فهل ترون جلالتكم ان الحل السياسي للازمة قد وصل الى طريق مسدود أم ان رؤيتكم السياسية تبيح لكم تصور امكان الوصول الى حل سياسي في المستقبل؟

* الواقع ان القطع براي في هذا الموضوع امر صعب فاذا قلت ان الحل السياسي قد اخفق اكون مطالبا في نفس الوقت ان اوجد الحل البديل الذي اقدر عليه. لذلك فان كل ما يمكنني قوله في هذا الصدد أنه حتى الآن لا توجد بوادر حلول للازمة. ولا يزال الاتصال مستمرا بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية وهناك نواح كثيرة تعالج من خلال هذا الاتصال بل اكثر من ذلك فان الطرفين يشعران بفائدة الحوار بينهما فضلا عن جدواه.

ومن جانبا نحن ـ والجمهورية العربية المتحدة ـ قد قبلنا قرار مجلس الامن.

وفي نفس الوقت نبني القوة الذاتية ونوفر الوسائل التي تمكننا من انتزاع حقنا.

زيارة العواصم العربية:

سألت الملك حسين:سمعت أن جلالتكم تنوون قريبا القيام بجولة في بعض العواصم العربية. فما هو الغرض من وراء هذه الزيارة.

* بالفعل قررت ان اقوم خلال الايام القادمة بجولة في عدة عواصم عربية وزيارة الجمهورية العربية المتحدة والسعودية ودول الخليج وغيرها والهدف من هذه الزيارات هو بحث الاوضاع العربية بشكل عام ومحاولة شرح المراحل التي وصلت اليها الازمة الآن. والحديث حول امكانية تقديم مزيد من الدعم للاردن.

قلت للملك:

ـ لقد التقت دعوة جلالتكم مع دعوة الملك الحسن الثاني ملك المغرب حول ضرورة اعطاء أزمة اشرق الاوسط بعدا اسلاميا الى جانب البعد العربي. فما هي الاسس التي تبنون عليها هذه الدعوة وم اهي الجهود التي تبذلونها في هذا السبيل؟

* الواقع ان اتصالاتنا مستمرة مع الدول الاسلامية بهدف وضع هذه الدول في الصورة واشعارها بأننا نقوم نيابة عنها بالجهاد ومن اجل استعادة القدس والحقوق الاساسية للمسلمين في هذه المدينة المقدسة.

أن هذه الدول قد ايدتنا وساندتنا في المجال السياسي. وان اتصالاتنا المستمرة باخواننا المسلمين تهدف الى تجميعهم حولنا وحول القضية ١٠٠٪.

وفي اعتقادي ان الثقل الاسلامي اذا نزل الى الحلبة السياسية فسوف يكون مؤثرا الى حد كبير سواء من الناحية المعنوية او الفعلية وبالنسبة لدول العالم والدول الكبرى على وجه الخصوص.

وبالمناسبة فاننا ننتظر زيارة رئيس جمهورية تركيا للاردن في ديسمبر القادم كبداية لسلسلة الزيارات التي سوف يقوم بها رؤساء الدول الاسلامية للاردن.

وفي هذا الصدد يبرز سؤال عن القدس الحبيبة وكيف يمكن مواجهة تآمر اسرائيل على قداستها من خلال محاولات التهويد وعدم الخضوع لقرارات مجلس الامن الصادرة في هذا الشأن.

وتركزت عينا الملك الشاب على خريطة كبيرة للقدس..وخرجت كلماته تعكس إصراراً عجيبا قال... ان الحركة مستمرة على الصعيد السياسي العالمي وعلى الصعيدين العربي والاسلامي من اجل انقاذ القدس.

أما على المستوى المحلي، فاننا نعد انفسنا لاداء الدور المحتم علينا اداؤه من اجل استعادة القدس التي لا يمكن ان نفرط فيها.

ان اسرئيل في تجاهلها لقرارات مجلس الامن تكشف نفسها امام العالم وتضع نفسها في موقف يجعل من الصعوبة على الدول التي كانت تساندها ان تستمر في تقديم المساعدات او المساندات لها.

لكني أكرر القول هنا ان انقاذ القدس والاراضي العربية التي احتلتها اسرائيل رهن بمزيد من الالتقاء بين قادة العرب على مستوى القمة للبحث في موضوع المصير.

الدور الذي يجب أن تلعبه المقاومة الفلسطينية المسلحة:

قلت للملك حسين: تتردد اشاعات كثير حول حقيقة العلاقة بين الحكم في الاردن وبين المنظمات الفدائية التي تعمل في الساحة الفلسطينية.. فما هو تقدير جلالتكم لهذه الاشاعات؟ وماهي حقيقةا لعلاقة السائدة الآن بين السلطات الاردنية والمنظمات القتالية المختلفة؟

ومرة أخرى تلتقي نظرات الملك الشاب بنظرات رئيس ديوانه الملكي. واشعر من خلال النظرات المتبادلة أن الخوض في هذا الموضوع تحيط به محاذير كثيرة لنكتف اذن باستعراض سريع لحقيقة العلاقة بين المنظمات الفدائية والحكم المسئول في الاردن.

قال الملك: ليس هناك اي مبرر لهذه الاشاعات، وربما كان اطلاق هذه الشائعات جزءا من مخطط اسرائيلي يستهدف ضرب الوحدة الوطنية في الاردن.

ان نتائج هذه الاشعات اذا ما سرنا معها الى النهاية.. نتائج مدمرة الى حد كبير.

وأؤكد لك انه ليس هناك احد يريد ان يسيطر على احد او يحتويه.

ولو تركنا الدولة والكيان الاردني لكان التنسيق بين العمل الفدائي والقوات الاردنية المسلحة شيئاً ضروريا من الزاوية العسكرية البحتة.

ان ما نريده هو احترام النظام والاحتفاظ بالارض الصلبة تحت اقدامنا ولو سمحنا للفوضى ان تعم فسوف تميد بنا الارض الصلبة وتكون الكارثة ليس علينا فقط بل على الامة كلها اننا نريد تنسيقا في التخطيط بما يحقق النتائج المطلوبة وحتى تعطي الدماء الذكية التي تراق كل يوم نتائجها الايجابية.

ويسرد الملك الشاب أمامي بعض الملاحظات حول العمل الفدائي من حيث بعض الافكار التي تسوده ومن حيث مشاكل وحدود عمله. ثم يتعرض لظاهرة تعدد المنظمات الفدائية ويدعو الى ضرورة توحد هذه المنظمات.

ثم يقول الملك محددا دور المقاومة الفلسطينية ان على المقاومة الفلسطينية المسلحة ان تمارس دورها في العمل داخل الارض المحتلة بفاعلية وتأثير ان مهمتها كذلك جلب المعلومات الدقيقة عن العدو. وتوجيه ضربات الى قلبه وجسده تمهيدا لمرحلة التحرير.

وهنا احب ان اؤكد حقيقة يتجاهلها البعض وهي دور الجيش النظامي العربي في تحرير فلسطين. ان المقاومة وحدها غير قادرة على التحرير. انها تقوم فقط بعملية انهاك للعدو لكن لابد ان يقف وراءها جيش نظامي قومي مستعد يدعمها ويشد من ازرها وعندما تحين الساعة يتقدم خلفها لتحرير الارض.

كان سؤالي الاخير الى ملك الاردن هو: لاشك ان الاردن قد تأثر اقتصاديا بغياب الضفة الغربية عنه. فكيف واجهتم هذه الازمات الاقتصادي؟

- لقد واجهنا ازمة عنيفة اثرت علينا بشكل خاص في اهتمامنا الرئيسي باعادة بناء قواتنا المسلحة. ان الضفة الشرقية تقوم في الوقت الحاضر بواجبات الصمود، واذا وضعنا في الاعتبار اننا منذ الكارثة نلبي احتياجات اخواننا النازحين من الضفة الغربية في نفس الوقت الذي نفى فيه بالتزاماتنا نحو اخواننا العرب في الارض المحتلة.

ان كل المساعدات التي جاءت نتيجة مساهمات شقيقاتنا العربيات على اثر مؤتمر الخرطوم تذهب من اجل بناء القوات المسلحة وان كل ما يمكنني قوله ان الاوضاع تسير.. لكن بصعوبة جداً.

فقبيل العدوان كنا نسير في تنفيذ خطة السنوات السبع للوصول الى نوع من الاكتفاء الذاتي في عام ١٩٧٠. لكن كل طموحاتنا الاقتصادية نسفت وتعطلت الى حد كبير نتيجة لاحداث يونيو ١٩٦٧، ورغم كل ذلك فلا يزال الاردن صامدا امام عدو خطر.. وبالارادة والتصميم تصنع الشعوب حريتها وتشق طريقها كانت هذه آخر كلمات صافحت اذني وانا اودع الملك حسين... حقا.. ان الامة العربية قد أمسكت بزمام ارادتها .. وبهذ الارادة رفضت الهزيمة وتخطتها سيرا على طريق التحرير والنصر.

حافظ إمام

الفهـــرس

رقم الإيداع بمكتب حماية حقوق المؤلف :   ٦٧٢ / ٢٠٠١م
رقم الإيـداع في إدارة المكتـبات العامـة :   ٤٠٣٩ د ع / ٢٠٠١م
رقـــــم النـاشـــر الدولـــــي ISBN :   99901-04-21-2

الطباعة بمطابع المؤسسة العربية للطباعة والنشر ذ.م.م. ـ البحرين



المؤلف في سطور

- تخرج في كلية الحقوق - جامعة عين شمس عام ١٩٦١م.
- حصل على دبلوم عالٍ في الدراسات الفلسطينية من معهد الدراسات العربية العالي عام ١٩٦٨م.
- عمل بالصحافة في مجلة آخر ساعة بمؤسسة أخبار اليوم القاهرية منذ عام ١٩٥٨م.
- تقلب في عدة تخصصات صحفية حتى عمل محرراً في الشئون السياسية العربية.
- عمل في مجلة الأضواء منذ أول عام ١٩٧٢م.
- التحق بالعمل بأخبار الخليج منذ إنشائها.
- له دراسة في مكونات العقلية اليهودية، ودراسة عن الصحافة والبيئة، وأخرى عن محو الأمية وتعليم الكبار من منظور إسلامي، وكتاب «وجوه في زحام البحرين».

